الرياض الندية على شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

الجزء الرابع



دار الصميعي
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١

المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام

ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢

المملكة العربية السعودية

فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (ابن عثيمين) يرحمه الله

هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

الجزء الرابع

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الطحاوي:

وَلَا نُنْزِلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا.

قال الشارح:

يُرِيدُ: أَنَّا لَا نَقُولُ عَنْ أَحَدٍ مُعَيَّنٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ: إنه مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، إِلَّا مَنْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ ﷺ أنه مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، كَالْعَشَرَةِ رضي الله عَنْهُمْ. وَإِنْ كُنَّا نَقُولُ: إنه لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مَنْ يَشَاءُ اللهُ إِدْخَالَهُ النَّارَ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ، وَلَكِنَّا نَقِفُ فِي الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ، فَلَا نَشْهَدُ له بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ؛ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ بَاطِنَةٌ، وَمَا مَاتَ عليه لَا نُحِيطُ بِهِ، لَكِنْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ، وَنَخَافُ على الْمُسِيءِ.

وَلِلسَّلَفِ فِي الشَّهَادَةِ بِالْجَنَّةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ لَا يُشْهَدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا يُنْقَلُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَالْأَوْزَاعِيِّ.

والثاني: أنه يُشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ جَاءَ فيه النَّصُّ، وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَالثَّالِثُ: أنه يُشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِهَؤُلَاءِ وَلِمَنْ شَهِدَ له الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: أنه مُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا بِخَيْرٍ، فَقَالَ النبي ﷺ: «وَجَبَتْ»، وَمُرَّ بِأُخْرَى، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا بِشَرٍّ، فَقَالَ: «وَجَبَتْ». وفي رِوَايَةٍ: كَرَّرَ: «وَجَبَتْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا وَجَبَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا أَثْنَيْتُمْ عليه

خَيْرًا وَجَبَتْ له الجَنَّة، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عليه شَرًّا وَجَبَتْ له النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله في الْأَرْضِ»[١]. وَقَالَ ﷺ: «تُوشِكُونَ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الجَنَّة مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «بِالثَّنَاءِ الحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّءِ»[٢]. فَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ به أَهْلُ الجَنَّة وَأَهْلُ النَّارِ.

قال الشيخ:

أوّل الكلام يتعلّق بمن يُشهد له بالجنّة ومن يشهد له بالنار، هل يجوز ذلك أم لا؟ قد ثبت أنّه ﷺ شهد لبعض أصحابه بالجنّة، كالعشرة في حديث سَعِيدُ بن زَيْدٍ ﷺ قال: أَشْهَدُ على رسول اللّهِ ﷺ أنى سَمِعْتُهُ وهو يقول: «عَشْرَةٌ في الجَنَّةِ: النبي في الجَنَّةِ، وأبو بَكْرٍ في الجَنَّةِ، وَعُمَرُ في الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ في الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ في الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ في الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بن الْعَوَّامِ في الجَنَّةِ، وَسَعْدُ بن مَالِكٍ في الجَنَّةِ، وَعَبْدُالرحمن بن عَوْفٍ في الجَنَّةِ»، قال سعيد بن زيد ﷺ: وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الْعَاشِرَ، فَقَالُوا من هو؟ فَسَكَتَ، فَقَالُوا: من هو؟ فقال: هو سَعِيدُ بن زَيْدٍ[٣].

أي: هم الخلفاء الأربعة والستة الذين جمعهم ابن أبي داود بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٦)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٦)، و(٦/ ٤٦٦)، وابن ماجه (٤٢٢١)، وابن حبان (١٦/ ٣٩٢)، والطبراني في الكبير (٣٨٢)، والحاكم (٤/ ٤٣٦) من حديث أبي زهير الثقفي ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٣)، وأحمد (١/ ١٨٧)، وابن حبان (١٥/ ٤٥٤).

وَقُلْ: إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ — وَزِيرَاهُ قِدَمًا ثُمَّ عُثْمَانُ الأَرْجَحُ
وَرَابِعُهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ بَعْدَهُمْ — عَلِيٌّ حَلِيفُ الخَيْرِ بِالخَيْرِ مُنْجِحُ
وإِنَّهُمُ لَلْرَّهْطُ لاَ رَيْبَ فِيهِمُ — عَلَى نُجُبِ الْفِرْدَوْسِ بِالنُّورِ تَسْرَحُ
سَعِيْدٌ وَسَعْدٌ وَابْنِ عَوْفٍ وَطَلْحَةٌ — وَعَامِرُ فِهْرٍ وَالْزُّبَيْرُ الْمُمَدَّحُ[1]

هؤلاء شهد لهم النبيّ ﷺ بالجنّة، وخُتم لهم بالأعمال الصالحة، ولم ينقم عليهم ما يكون سببًا لمخالفة ما شهد به النبي ﷺ، وكذلك قصة ثابت بن قيس بن شماس ﷺ، بشره النبي ﷺ أنّه من أهل الجنّة[2]. يقول الراوي: فكان يمشي بيننا وهو من أهل الجنّة.

وكذلك قوله ﷺ لبلال ﷺ: «فَإِنِّي سمعت اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ بين يَدَيَّ في الجَنَّةِ»[3]، وغيرهم ممّن شهد لهم بذلك، كما شهد لعمار وسلمان رضي الله عنهما[4].

وكما ثبت عنه ﷺ أنّه قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إن شَاءَ الله من أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ

---

(١) انظر النظم في طبقات الحنابلة (٣/ ١٠٠)، ولسماحة شيخنا عبدالله بن جبرين - حفظه الله ورعاه - شرح كامل مطبوع لهذا النظم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) كما في حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الجَنَّةَ لَتَشْتَاقُ إلى ثَلَاثَةٍ: عَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وَسَلْمَانَ». أخرجه الترمذي (٣٧٩٧)، وأبو يعلى (٥/ ١٦٤)، والحاكم (٣/ ١٣٧) من طريق أبي ربيعة الأيادي عن الحسن عن أنس بن مالك ﷺ. قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ١٠٠): «هذا حديث لا يصح، وأبو ربيعة اسمه: زيد بن عوف، ولقبه: فهد، قال ابن المديني: ذاهب الحديث، وقال الفلاس ومسلم بن الحجاج: متروك الحديث».

أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا»[1]، وكانوا أكثر من ألف وأربعمئة الذين بايعوا بيعة الرضوان، وفي هذا شهادة من النبي ﷺ أنهم لا يدخلون النار، أو أنَّهم من أهل الجنّة؛ لأنّ من لم يدخل النار دخل الجنّة، ولا بدّ.

وكذلك أهل بدر الذين عددهم ثلاث مئة وبضعة عشر؛ قد ثبت أنّ النبيّ ﷺ قال: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قد اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[2]، فمثل هؤلاء إذا كان الله قد غفر لهم، فذلك دليل على أنّهم من أهل الجنّة. وبقيّة الصحابة رضي الله عنهم، يُرجى لهم الخير؛ وذلك لسبقهم وأعمالهم الصالحة، وقد أنزل الله فيهم آيات تدلّ على سبقهم وتدلّ على فوزهم، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ المهاجرون: الذين هاجروا من مكّة إلى المدينة، والأنصار: الذين أسلموا في المدينة، والذين اتبعوهم بإحسان: الذين أسلموا فيما بعد.

وبقي أنّ نقول: وردت أحاديثُ أيضًا في تغليب الرجاء، وأنّ أهل التوحيد لا يدخلون النار، وفي حديث عِتبان بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ ذُكر عنده رجل يقال له مالك بن الدُّخْشُم، فقال بعض الحاضرين: ذاك منافق، فقال:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

«أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَأَنِّي رسول الله؟»، قالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قَلْبِهِ، قال: «لَا يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله وَأَنِّي رسول الله فَيَدْخُلَ النَّارَ أو تَطْعَمَهُ»[1].

وكذلك من حقّق التوحيد، كما قال النبي ﷺ: «من شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبد الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ على ما كان من الْعَمَلِ»[2].

فهذه أيضًا تزكية من الله، وشهادة من رسوله ﷺ بأنّ من أتى بهاتين الشهادتين على الحقيقة، وشهد بالجنّة والنّار، وشهد بالبعث بعد الموت، وشهد بما أخبر به الله تعالى، وكانت تلك الشهادة عن يقين وعن عقيدة راسخة فإنّها تثمر العمل؛ فشهادة أن لا إله إلا الله تثمر طاعةَ الله وعبادته، وشهادة أن محمدًا رسول الله تثمر اتّباعه وتعظيم سنّته، وتقليده والسير على منهجه، وأثمرت شهادة أنّ الجنّة حقّ طلبها والعمل لها، وكذلك شهادة أنّ النّار حقّ أثبتت الهرب منها، والهرب من الأسباب التي توقع فيها، وكذلك العمل الصالح الذي يسبب أن صاحبه يدخل الجنّة على ما كان من العمل، وهناك أحاديث كثيرة تدل على أن الأعمال الصالحة قد رُتّب عليها دخول الجنّة، وهناك أيضًا أحاديث كثيرة معروفة

---

(١) أخرجه مسلم (٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت ؓ.

رتّب عليها دخول النار، ولكن يظهر أن ذلك الدخول لأجل ذلك الذنب ثم بعد التمحيص من ذلك الذنب الذي لم يصل بصاحبه إلى الشرك، وإلى الحكم بخلوده في النار، فيعذّب بقدر ذنبه، ثم يخرج من النار، وعليه تُحمل أحاديث الشفاعة التي بيّن رسول الله ﷺ فيها أنّه يشفع في أهل (لا إله إلا الله)، وأنّه يخرج من النار أهل الإيمان بالله، ولا يبقى في النار إلا مَنْ وجب عليه الخلود وحبسه القرآن، وهم الكفرة والملاحدة والمشركون ونحوهم.

إذًا فنحن نحكم حكمًا عامًا ونقول: أهل التوحيد وأهل الإسلام وأهل الإخلاص وأهل العمل؛ هؤلاء نرجو لهم الجنّة، والله تعالى لا يخيّب رجاء المؤمنين، وأهل الكفر وأهل الشرك وأهل الزندقة والنفاق؛ هؤلاء نعلم أنّ الله توعّدهم بالنار، ونخاف عليهم.

أمّا أهل الكبائر فنخاف عليهم ونرجو لهم رحمة الله، نرجو أن الله تعالى يرحمهم وهو واسع الرحمة، ولكن نخاف أن يعذّبهم؛ ذلك لأن عذاب الله شديد، وأنه سبحانه قد توعّد بالعذاب على ما دون ذلك، ووعد بالثواب على أعمال قليلة. فنرجو لهؤلاء دون أن نجزم أنّهم من أهل الجنّة ولو لم يكن عندهم كبائر، ونخاف على هؤلاء دون أن نجزم لهم بالنار ولو كان عندهم كبائر، فنخاف على المذنب، ونرجو للمحسن، وهذه من عقائد أهل السنّة.

قال الطحاوي:

وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ وَلَا بِشِرْكٍ وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إلى الله تعالى.

قال الشارح:

لِأَنَّا قَدْ أُمِرْنَا بِالْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ، وَنُهِينَا عَنِ الظَّنِّ وَاتِّبَاعِ مَا لَيْسَ لَنَا به عِلْمٌ. قَالَ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ الآية [الحجرات:١١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ الآية [الحجرات:١٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الآية [الإسراء:٣٦].

قال الشيخ:

وهذا أيضًا يقتضي أنّنا لا نتخبّط بجهل، ونقول في المسلم بخير يقين؛ لأن المسلمين لهم ظواهر وبواطنُ، والحكم للمسلم على الظاهر أيضًا، والمعاملة له على الظاهر، فمن أظهر لنا خيرًا فإنّنا نحسن الظنّ به، ومن أظهر لنا شرًا فإنّنا نسيء الظنّ به. وروي أنّ عمر بن الخطاب ﷺ خطب بعد موت النبي ﷺ فقال: «إنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ في عَهْدِ رسول الله ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قد انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لنا من أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لنا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ

إِلَيْنَا من سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، الله يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لنا سُوءًا لم نَأْمَنْهُ ولم نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قال: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ»[1]. فجعل الحكم على ما يظهره الإنسان.

ومما يدلّ على ذلك أيضًا حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار ﷺ: أن رجلاً استأذن النبي ﷺ في قتل رجل من المنافقين، فَجَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلامِهِ وَقَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ؟»، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يُصَلِّي؟»، قَالَ: بَلَى وَلا صَلاةَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيتُ عَنْهُمْ»[2].
أي: أنه أمر بمعاملتهم بالظاهر ما داموا يعلنون الشهادتين، ويقيمون الصلاة إقامة ظاهرة، فليس لنا أن ننقّب عن قلب أحدهم؛ لأننا لا ندري ما يكنّه.

وفي حديث ذي الخويصرة لما جاء إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، فقال ﷺ: «وَيْلَكَ، أو لست أَحَقَّ أَهْلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟»، فقال خَالِدُ بن الْوَلِيدِ ﷺ: يا رَسُولَ اللَّهِ، ألا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فقال ﷺ: «لا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي»، قال خَالِدٌ: وَكَمْ من مُصَلٍّ يقول بِلِسَانِهِ ما ليس في قَلْبِهِ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «إني لم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عن قُلُوبِ الناس، ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ»[3]، يعني: أننا إنما نأخذهم بما يظهر لنا، فهذا أمر الله عزّ وجلّ.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٢٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٨٨).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٣٨٨).

ولَـمَّا قتل أسامة بن زيد ﷺ رجلًا من المشركين بعدما قال: لا إله إلا الله؛ أنكر عليه النبيّ ﷺ وقال: «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلا الله وَقَتَلْتَهُ؟»، قال: قلت يا رَسُولَ الله إنـما قَالَهَا خَوْفًا من السِّلَاحِ، قال: «أَفَلَا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ حتى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا»[1].

في هذه الأدلّة ونحوها أنّ المعاملة تكون بالظاهر، سواءً كان الظاهر خيرًا أو شرًا، فالذين يعملون الأعمال الخيريّة نحبّهم ونكل باطنهم إلى الله، والذين يظهرون الأعمال السيّئة نبغضهم، ونكلُ أمر قلوبهم إلى الله تعالى.

وكثيرًا ما ننكر على الذين يظهرون المعصية؛ فمثلًا الذي تراه يحلق لحيته، أو تراه يشرب الدخان، أو يسبل ثوبه، أو يتكاسل عن الصلاة، أو يقذفُ ويسبّ ونحو ذلك فتنكر عليه؛ فيقول لك: العمل على ما في القلوب، قلبي طاهر، إذا كان قلبي نقيًا فلا عبرة بما أفعله، العبرة ليست بالظاهر. وهذا ليس صحيحًا؛ فنحن لا ندري ما باطنك؛ لأن باطنك خفيّ. نحن نعاملك بما أظهرت لنا، وهو عملك بهذه المعاصي، وإعلانها دليل على استخفافك بأمر الله، ودليل على تهاونك بعقوبة الله، وتهاونك بنظر الله، ودليل على أن في قلبك محبّة لهذه المعاصي، وأمّا كون قلبك نقيًا وكونك مؤمنًا ونحو ذلك، فهذا ليس إلينا، بل إلى الله عزّ وجلّ.

وأمّا إذا أظهر لنا الإنسان التّقى والورع، ورأيناه يحافظ على العبادات، ولم نسمع منه شيئًا يقدح في عدالته أو ديانته، فإنّنا نحبّه، وليس لنا أن نتتبّع أسراره الخاصّة، ولا أن نبحث عن خفاياه، ولا أن نظنّ به الظنون السيّئة التي حذّرنا الله

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد ﷺ.

منهـا، فقـال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ الآيـة [الحجرات:١٢]. أي: لا تقولوا: يمكن أنّ فلانًا منافق، لا ندري ما إيمانه، هلمّ بنا نتجسّس عليه، ولنستمع كلامه في خفيته وفي سرّه، ليس ذلك إلينا، ما دام لم يظهر سوءًا، فإنّنا نعامله بما أظهر، ولا نقول: إن باطنه خبيث، وإنّه يسرّ كذا وكذا، وكذلك لا نتكلّم فيه قدحًا بغير علم، فندخل في المخالفة التي حذرنا الله منها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فقوله: ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾: أي لا تتبّع ما ليس لك به علم، فتتكلم بسوء أو تستمع إلى سيئ، أو تنظر إلى عورة ليس لك النظر إليها، أو تظنّ ظنًّا سيئًا، إذا تسمّعت إلى حديث قوم وهم لا يحبّون أن تسمع، وتقول لعلّي أن أسمع منهم ما يدلّ على بغضهم، وعلى صدّهم عن الإسلام، نقول: ليس لك ذلك، وقد جاء الوعيد على لسان النبي ﷺ لمن يفعل ذلك، فقال ﷺ: «مَنْ اسْتَمَعَ إلى حديث قَوْمٍ وَهُمْ له كَارِهُونَ أو يَفِرُّونَ منه صُبَّ في أُذُنِهِ الْآنُكُ يوم الْقِيَامَةِ»(١). أما إذا أظهروا ذلك علنًا، فإنّ لك أن تشهد به، وهذا هو ما وُجد من الصحابة رضي الله عنهم، فإنّ الذين عُرِفَ نفاقُهم ما عرف إلا لما أعلنوه.

قد يُقال: إنّ هذا قد يكون سببًا في كثرة المنكرات؟ ونقول: مادامت المنكرات خفيّةً، فلسنا مسؤولين عنها، لكن إذا رأينا علامات ظاهرةً، مثل أن نرى بيوتًا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يظنّ أنها بيوت دعارة، يتوافد إليها أناس مشكوك فيهم، فإنّ لنا أن نتحفّظ.

دين الإسلام يحثّ على التمسّك بالسنّة، ويحثّ على الاجتماع على العقيدة السلفيّة، وينهى عن التفرّق والتعادي والتقاطع، ويأمر بالتمسّك بالصراط المستقيم، والأدلّة على ذلك واضحة ظاهرة، استدلّ الشارح بقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أمر بالاتّباع، وأمر بالتمسّك بالصراط المستقيم الذي أمرنا الله بأن ندعو به في صلاتنا بقولنا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، وهو الطريق الذي سارت عليه الأمّة الإسلاميّة، ونهجه أهل السنّة، وأمر الله تعالى بالسير عليه، وبالتمسّك به، وأمر النبيّ ﷺ بالتمسّك به أشدّ ما يكون، وبالعضّ عليه بالنواجذ، التي هي أقاصي الأسنان، وهذا دليل على أهمّية السير على هذا الصراط السويّ.

وينهى الإسلام عن التفرّق والاختلاف؛ لأنّ في الاختلاف تعادٍ، فمتى اختلفت وجهات المسلمين، فكانت طائفة تذهب إلى هذا، وطائفة تذهب إلى هذا، وهذه تبدّع هذه، وهذه تضلّل الأخرى؛ لم يكونوا مجتمعين على الحقّ، ولم يحصل بينهم التعاون على البرّ والتقوى، بل خيف عليهم أن يتسلّط عليهم عدوّهم ويتغلّب عليهم فلا يقاومونه لاختلاف وجهاتهم، ولاختلاف أنظارهم، فالله تعالى ينهى عن التفرّق كثيرًا، فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ويقول تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، وينهى أيضًا عن الاختلاف كما في

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الروم:٣١، ٣٢]، أي: أحزابًا، فيذهب كل حزب إلى رأي يتشيّع له، يعني: يتعصّب له، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وبكلّ حال، فإذا عرفنا أنّ الإسلام يأمر بالاجتماع، فهذا الاجتماع لا بدّ أن يكون على السنّة، وعلى الصراط السويّ والطريق المستقيم. أما إذا كان المجتمعون اجتمعوا على ضلالة أو بدعة، فإن اجتماعهم هذا كلا شيء؛ وذلك لأنهم تركوا الحقّ جانبًا، وأعرضوا عن صراط الله الذي أمر بالتمسك به، وبسؤاله، وهو الذي سارت عليه الأمّة الإسلامية، وهو صراط المنعم عليهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

كثيرًا ما تأتي الأدلّة بالحثّ على الجماعة، وكثيرًا ما نسمع الخطباء يحثّون على الجماعة ويقولون: عليكم بالجماعة، فإنّ يد الله مع الجماعة، أو: فإنّ يد الله على الجماعة. المراد بالجماعة هنا: جماعة الإسلام، الذين يجتمعون على قول صحيح سليم، ليس فيه خطأ ولا خلل. هؤلاء هم الجماعة.

إذا جاءت النصوص من الكتاب والسنة تحث على التمسك بالجماعة، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وتحث على أن يصبح المسلمون كلّهم جميعًا، وأنّ الذي يشذّ منهم فإنه في سبيله إلى الهلاك، تتخطّفه الشياطين، ويصير من نصيبها

وتغويه. كما أنّ الغنم إذا كانت مجتمعة فإن الراعي يراقبها ويرعاها، فإذا ابتعدت واحدة وغفل عنها الراعي، جاء السبع فأكلها. وكذلك جماعة المسلمين.

ونعرف أنّ أهل البدع قد يكونون جماعات كثيرة، وقد يكون لهم قوّة وكثرة واجتماعات، حتّى قد يتفوّقوا في بعض الأحيان على أهل السنّة، وقد يزيدون عليهم عددًا أو عدّة أو قوّة، ولكن هل يقال إنّهم على الجماعة؟ أو هل يقال: إنهم أهل الجماعة؟ أو هل يقال: إنهم أهل السنّة؟ ليس كذلك. بل هم أهل فُرقة، وهم أهل بدعة، وهم أهل ضلالة، ولو كثر عددهم، ولو كثر جماعاتهم، ولو حصلت لهم قوة معنوية أو حسّيّة، فإنّهم ليسوا من أهل الجماعة، وليسوا من أهل السنّة.

أهل السنّة والجماعة الذين هذه أحوالهم، هم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وهم يقلّون ويكثرون، وأحيانًا يتمكّنون ويُمكّن الله لهم، ويرجع ضالّهم ويرشد غاويهم، فيكثرون على الحقّ ويتمسّكون به، ويسيرون عليه، وأحيانًا يكثر أعداؤهم فيضلّون الخلق، ويشتّتون الجماعات، ويقلّ المتمسّكون بالسنّة، ويصيرون أفرادًا لا يعرفون، وربّما يستخفون بمذهبهم وربّما يكتّمونه ولا يجهرون به، ومن جهر به أوذي وطرد واضطهد وسجن وشرّد، وهو مع ذلك على السنّة وعلى العقيدة وعلى التوحيد وعلى الدين الإسلامي وعلى الصراط المستقيم، ولكن إذا قويت البدع وانتشرت المنكرات في بعض البلاد، وتسلّط أهلها على الحقّ، استضعفوا أهله وساموهم سوء العذاب، ولكن النصر لهم والتمكين والعاقبة للتّقوى، فإذا صبروا واحتسبوا كان ما أصابهم في ذات الله تعالى وفي دينه رفعًا لدرجاتهم وإعظامًا لأجرهم.

وعلى هذا نقول: إنّ ما يحصل في هذه الأزمنة من اضطهاد لأهل الحقّ، وإذلال لهم، واتهام لهم بالثورات والانقلابات على الدول ومطاردتهم في الأسواق والأماكن وكلّ من رؤي متمسّكًا بالسنّة، وعاملًا بها أُدخل السجن وضرب وجلد، وفرضت عليه الضرائب التي تثقل كاهله، وما أشبه ذلك. كما هو موجود في بعض الدول التي تنتمي إلى الإسلام. هذا لا يدلّ على أنّه ليس على حقّ، بل هو على حقّ، وإذا صبر واحتسب كان ذلك أعظم لأجره، ولا يدلّ كثرة تلك الجماهير التي خالفت الحقّ، وتلك الأمم وتلك الشعوب وتلك الدول التي أظهرت خلاف الحقّ، وانتهجت الباطل؛ لا يدلّ ذلك على أنّهم على حقّ وصواب، ولو كثر عددهم.

فالعبرة ليست بالكثرة؛ إنّما العبرة بالإصابة، والعبرة بالحقّ لمن كان مصيبًا للحقّ ومتمسّكًا به، هذا هو الذي من أهل السنّة والجماعة.

قال الطحاوي:

وَلا نَرَى السَّيْفَ على أَحَدٍ مِنْ أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ إلا مَنْ وَجَبَ عليه السَّيْفُ.

قال الشارح:

في الصَّحِيحِ عَنِ النبي ﷺ أنه قَال: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، إلا بإحدى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِه المُفَارِقُ لِلجَمَاعَة»[1].

قال الشيخ:

لا يجوز قتال المسلمين الذين هم من أمة محمد ﷺ، إلا من وجب عليه القتل؛ لكفره أو لسبب من الأسباب، مثل ما ذُكر في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، فإنه ﷺ أخبر بأنه لا يحل دم امرئ مسلم يشهد الشهادتين، ويوحد الله ولا يعبد غيره، ويتبع النبي ﷺ إلا بإحدى ثلاث خصال:

الأولى: «الثَّيِّبُ الزَّانِي»، الذي قد زنى وكان قد تزوج زواجًا حلالاً، فعدل عن الحلال إلى الحرام، فإنه يُقتل بالرجم، وهو حده في هذه الحال.

الثانية: «وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ»، إذا قتل متعمدًا، جاز لأولياء المقتول أن يقتلوه قصاصًا؛ لقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨]، وقوله

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥]. إلى آخره.

الثالثة: «وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلجَمَاعَةِ»، الذي ظهر عليه الارتداد، وفارق جماعة المسلمين، وترك الدين الحنيف، فمثل هذا داخل في الردة في قوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1].

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٦٤).

قال الطحاوي:

وَلا نَرَى الخُرُوجَ على أَئِمَّتِنَا وَوُلاة أُمُورِنَا، وَإِنْ جَارُوا، وَلا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ الله عَزَّ وَجَل فَرِيضَة، مَا لمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَة، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلاحِ وَالمُعَافَاة.

قال الشارح:

قَال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:٥٩]، وفي الصَّحِيحِ عَنِ النبي ﷺ أنه قَال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عصى الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»(١).

وَعَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ قَال: «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ»(٢). وَعِنْدَ البخاري: «وَلَوْ لِحَبَشِي كَأَنَّ رَأْسَه زَبِيبَة»(٣).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا: «على المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَة فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِه، إلا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَة، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَة فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَة»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٦٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٦٤٨).

(٣) برقم (٦٩٦) من حديث أنس ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الشيخ:

يتضمن هذا الكلام وهذه الآية وهذه الأحاديث وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين وولاة أمرهم، الذين ولَّاهم اللهُ عليهم، والذين جعل الله تعالى لهم يدًا وسلطانًا، يتولون بذلك أمور المسلمين، فصار لهم ملك ولهم سلطة، فيجب على رعيتهم أن يطيعوهم، ولا يجوز الخروج عليهم، ونبذ بيعتهم ونقضها، وتكفيرهم وحث الناس على الخروج عليهم، ولو عملوا ما عملوا من قسوة أو شدة أو ما أشبه ذلك.

فإن الخروج عليهم يسبب مصائب وفتنًا ومشاكل كثيرة، يكون من آثارها كثرة القتل، وإراقة الدماء، والإضرار بالمسلمين وما أشبه ذلك، وهذا حاصل كما هو واقع في كثير ممن سبق، فإن الخوارج لما خرجوا على علي ﷺ كان خروجهم سببًا لقتلهم، وسببًا لوقوع الفتنة منهم، فهذه الفتنة سببها نبذ الطاعة ونقض العهد، كذلك أيضًا لما بويع يزيد بن معاوية خرج عن طاعته بعضهم كأهل المدينة وأهل مكة، فسبب ذلك أنه أرسل جيشًا إلى أهل المدينة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة في وقعة تسمى (وقعة الحرَّة)، بسبب عدم طاعتهم وسمعهم لولي الأمر الذي تولى أمر المسلمين؛ وكذلك لما تمت البيعة لعبدالملك قبل ذلك حصل قتال، وفتن كثيرة، كما في وقعة (مرج راهط) حيث قُتل فيها خلق كثير، حتى تم الأمر لمروان بن الحكم، ولما تم الأمر له مكث أيامًا أو أشهرًا، ولما مات تولى ابنه عبدالملك، ولما تولى خرج عن طاعته عبد الله بن

الزبير - رضي الله عنهما - الذي استولى على الحجاز والعراق، ولما خرج عن طاعته أرسل إليه الحجاج، فحاصره في مكة التي هي أم القرى، وحصل بذلك فتن ومقتلة عظيمة، وكان الأولى أن تتفق الكلمة، إما على بيعة ابن الزبير رضي الله عنهما، وإما على بيعة عبدالملك، وكلاهما من قريش من صلبيتهم، وقد ولاهم الله تعالى ولاية، وكان أيضًا من آثار عدم طاعة عبدالملك أن قاتل أهل العراق، فقتل مصعب بن الزبير، وقتل معه خلقًا بسبب عدم مبايعته له.

كذلك الذين خرجوا على الحجاج وبايعوا ابن الأشعث، وقد اجتمع مع ابن الأشعث قدر مائة وعشرين ألفًا، ولم يبق مع الحجاج إلا نحو ثلاثين ألفًا، ومع ذلك انتصر عليهم الحجاج، وأحصي الذين قُتلوا من هؤلاء الذين بايعوا ابن الأشعث ما يقرب من ثمانين ألفًا، ولاشك أنها مصيبة سببها الخروج على الأئمة وعدم السمع والطاعة لهم.

وكذلك أيضًا لما تمت البيعة ليزيد في الشام أرسل عبيدالله بن زياد فاستولى على العراق، وكان أهل العراق يحبون الحسين، فكتبوا إليه يطلبون منه أن يأتي حتى يبايعوه خليفة عليهم، ولما جاءهم وإذا الأمر قد تم ليزيد واستحكمت ولاية العراق كلها لابن زياد، فطلبوا من الحسين أن يأتي إلى ابن زياد ويبايعه على السمع والطاعة ليزيد، ولكن امتنع من ذلك وقال: «اتركوني أذهب إلى يزيد أو أرجع إلى مكة» ولم يتركوه، وكان ذلك من أسباب أنه قُتل ﷺ بسبب هذه الفتنة.

فكل ذلك من أسباب الخروج على الأئمة، ولما استُخلف أبو جعفر

المنصور الذي كان العراق على المسلمين خرج عليه محمد بن عبدالله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، ويسمى (النفس الزكية)، وادعى أنه المهدي، فأرسل إليه المنصور جيشًا، وكان ذلك سبب قتله، وقُتل كثير ممن معه ممن بايعوه، وجاء أخوه أيضًا الذي هو العباس ومعه جيوش كثيرة من البصرة وهُزموا أيضًا، وقُتل الكثير منهم، كل ذلك بسبب نزع اليد من طاعتهم، فطاعتهم من طاعة الله عز وجل، كما أنه تجب طاعة الله، فكذلك تجب طاعة ولاة الأمور، إلا أن يأمروا بمعصية.

وندعو لهم بالصلاح والمعافاة، نقول: اللهم أصلح أئمة المسلمين، واجعلهم هداة مهتدين، ونسمع لهم ونطيع، ولا نخرج عليهم، ولا نكفرهم ما داموا يحكمون بشرع الله، فإن وجودهم سبب في أمن البلاد، وسبب في البعد عن الاختلاف والاضطراب والنهب والسلب، وكون القوي يأخذ الضعيف ونحو ذلك، وقد أمر الله تعالى بطاعتهم بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء:٥٩]، أي: ولاة الأمر، فيدخل في ذلك الحكام والعلماء ونحوهم.

وكذلك الحديث الصحيح وهو قوله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي». الأمير هو: الذي يوليه النبي ﷺ، أو يوليه أحد من الأمراء، أو الملوك ونحو ذلك، إنه يُسمع له ويُطاع، ولو كان ضعيفًا أو نازل القدر أو نحو ذلك.

كـذلك حـديث أبي ذر ﷺ أنـه قـال: «إِنَّ خَلِيلِي»، يعنـي: الرسـول ﷺ «أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ»، أي: اسمع لولاة الأمور، ولو كان ذلك الولي عبدًا مملوكًا حبشيًا، والعادة أن الحبشة يكون لون وجوههم أسود؛ ولذلك قال في بعض الروايات: «وَلَوْ لِحَبَشِي كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»، أي: شعر رأسه يتجعد كأن كل شعرة زبيبة، أي: واحدة من الزبيب، فأمر بأن يُسمع ويُطاع لولاة الأمور، ولو كان ذلك الوالي ناقص القدر عند العامة.

وهكذا أيضًا حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - وهو قوله ﷺ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ»، أي: أن المسلم عليه أن يسمع ويطيع إذا كان تحت ولاية ولي مسلم أو أمير من أمراء المسلمين، فيسمع له ويطيع، إلا إذا أُمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية كترك صلاة - مثلاً - أو فطر في رمضان بغير عذر، أو ارتكاب معصية بفعل فاحشة أو نحو ذلك، فلا يجوز طاعته في ذلك، إنما الطاعة في المعروف.

قال الشارح:

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُه عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا في جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَل بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَقُلْتُ: هَل بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَم، وفيه دَخَنٌ»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُه؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، فَقُلْتُ: هَل بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاة على أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوه فِيهَا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، يَتَكَلَّمُونَ بِأَلسِنَتِنَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، فَمَا تَرَى إِذَا أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَة وَلا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ على أَصْلِ شَجَرَة، حتى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ على ذَلِكَ»[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ رأى مِنْ أَمِيرِه شَيْئًا يَكْرَهُه فَليَصْبِرْ، فإنه مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، فَمِيتَته جَاهِلِيَّة»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).

وفي رِوَايَة: «فَقَدْ خَلعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِه»[١].

قال الشيخ:

هكذا كان حذيفة ﷺ يسأل عن الفتن، وعن الخلافات التي قد تقع في هذه الأمة مخافة أن يدركها، فيسأل: كيف أتخلص من تلك الفتن وتلك الشرور إذا أدركتني، فأخبر أنهم كانوا قبل الإسلام في جاهلية وشر، وفتن وخلافات وشرك ومعاص.

قوله:(فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الخَيْرِ)، الذي هو الإسلام، وهذا الدين الذي جمعنا الله تعالى عليه، وهدانا بهذا النبي الكريم، حتى صرنا ندين بهذا الإسلام.

سأله: (فَهَل بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرّ؟)، أي: هل بعد هذا الخير الذي نحن فيه يوجد شر في المستقبل؟ فأخبر النبي ﷺ أن هناك شر، ولعل ذلك إشارة إلى ما حصل من الخلافات في آخر ولاية علي ﷺ، وكذلك خلافة بني أمية، فقد حصل فيها شرور وفتن وخلافات، وإن كان فيها الجهاد قائمًا، وكذلك أيضًا فيها الإسلام ظاهر وقائم، ولكن هذه الفتن تعتبر شرًا.

ثم سأل: (هَل بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟)، فأخبر أنه هناك خير، ولكن فيه

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٣٢٥)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٣٦١)، وفي الكبير (١٠٦٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أبو داود (٤٧٥٨)، وأحمد (٥/ ١٨٠)، والحاكم (١/ ١١٧)، والبيهقي (٨/ ١٥٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

دَخَن، وفسر دَخَنَه بأنه قوم يستنون بغير السنة النبوية، يتركون السنة ويجعلون لهم نظمًا غير السنة النبوية، ويهدون بغير الهدي النبوي، ثم قال: (تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ). الدخن هو: الدخان، أي ليس خيرًا خالصًا بل يوجد فيه قذارة كالدخان؛ كالحقد والبغضاء والتفرق، فيكون ذلك مما يغيره، حيث إنهم يتركون الهدي النبوي ويهدون بغيره.

ثم سأل: (هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟)، فأخبر أنه نعم، دعاة شر على أبواب جهنم، (مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوه فِيهَا)، ولعله يشير إلى رؤوس المبتدعة؛ كالجهمية والمعطلة والرافضة ونحوهم، فإنهم يدعون إلى النار، يدعون إليها بأفعالهم وبأقوالهم، فحذر منهم، ووصفهم النبي ﷺ بأنهم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، أي: باللغة العربية، فهم عرب، كما هو الحاصل فيمن خرج منهم؛ كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وكذلك قبلهم وبعدهم الجهمية وأتباع الجهم، فهؤلاء يدعون إلى النار ومن أجابهم قذفوه فيها، وإن كانوا يظهرون أنهم على حق، وأخبر أنك إذا أدركت ذلك ولحقتهم (تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ)، أي: أكثريتهم، فإذا كانوا متفرقين لهم عدة أئمة، أو ليس لهم جماعة، وليس لهم إمام صالح، فإنك (تَعْتَزِل تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا)، إذا لم تقدر على إصلاحها، ولو أن تعتزل تحت شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

كذلك حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ رأى مِنْ أَمِيرِه شَيْئًا يَكْرَهُه فَلْيَصْبِرْ، فإنه مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، فَمِيتَته جَاهِلِيَّةٌ».

ألزمه أن يصبر على ما يكرهه من الأمراء والأئمة، ولا يخرج عن طاعتهم، ولا يفارق جماعة المسلمين، فإذا خرج عن طاعة المسلمين فكأنه خرج من الإسلام، وخلع ربقة الإسلام من عنقه، والربقة هي: الحبل أو الخيط الذي يُجعل في رقبة الماعز ونحوه؛ ليحفظه حتى لا يشرد، فمَثَّل الإسلام أنه رباط في عنق المسلم، ما دام أنه متمسك بالإسلام، فإنه يكون على الإسلام، فإذا خرج وخالف طاعة ولاة الأمور يمثل كأنه خرج من الإسلام، كأن الإسلام كان رباطًا في عنقه فخلعه وخرج عنه، وهذا ـ والعياذ بالله ـ يعتبر دليلاً على أنه ليس بمسلم، وهذا من الأحاديث الشديدة، أخبر بأنه يموت ميتة جاهلية، أي: كأنه من أهل الجاهلية الذين ليس لهم دين، أو دينهم محرف، ليسوا على دين صحيح، فيكونون بذلك كالمرتدين والخارجين عن الإسلام، وفي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الصحيح: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1].

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٦٤).

قال الشارح:

وَعَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِي ﷺ قَال: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخرَ مِنْهُمَا»[١].

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَال: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلعَنُونَهُمْ وَيَلعَنُونَكُمْ». فَقُلْنَا: يَا رَسُول الله، أَفَلا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَال: «لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة، أَلا مَنْ وَلِي عليه وَالٍ، فَرَآه يأتي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَة الله، فَليَكْرَه مَا يأتي مِنْ مَعْصِيَة الله، وَلا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَة»[٢].

قال الشيخ:

يدل حديث أبي سعيد ﷺ أنه لا يجوز لأحد أن يطلب البيعة وعلى المسلمين خليفة قائم بأمر الله، مصلح لأمور المسلمين، لا يُنتقد عليه شيء من المخالفات، بل يقيم شرع الله، ويحكم بالعدل، فالذي يفتات عليه ويعزله، ويقول: أنا أنا أولى بالخلافة منه فبايعوني، فيبايعه أناس.

نقول: لاشك أن هذا الآخر قد يسبب فتنة، ويسبب قتالًا بين المسلمين،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

فيُقاتل من معه من المسلمين الذين قد بايعوا للخليفة الثاني، فلذلك هذا الآخر يعتبر قد خلع طاعة الخليفة الأول، وقد خرج عليه، ولاشك، أن خروجه يعتبر فسادًا في الأرض، فلذلك أباح الشرع قتل الآخر الذي يُفرق كلمة المسلمين.

وحديث عوف بن مالك ﷺ يخبر فيه ﷺ بالأئمة الذين يتولون أمور المسلمين، فإذا كانوا يحبونهم، أي: يحبهم المسلمون، ويحبون رعيتهم، ويدعون لهم وهو معنى (وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ) أي: تدعون لهم، (وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ) أي: يدعون لكم، فهؤلاء خيار الأئمة الذين يحصل بهم نفع للبلاد كبير، ويحصل بالإقامة معهم خير للمسلمين؛ لأنهم ينصرون الإسلام والمسلمين، ويؤمنون البلاد، ويدعون إلى الخير، ويقيمون الصلاة، ويرغبون أهل الخير.

أما إذا كان أولئك الأئمة وولاة الأمور أشرارًا يبغضهم الرعية، وهم يبغضون رعاياهم، ويدعون عليهم باللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله، وهم يلعنون أيضًا رعيتهم، فإن هؤلاء شرار ولو كانوا أئمة، ولكن لا يجوز عزلهم ولا قتالهم بالسيف؛ ولهذا قالوا: (أَفَلا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ)، يعني: نخلع بيعتهم، ونثور عليهم ونقاتلهم؟ فمنع من ذلك، وقال: «لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة»، أي: ما داموا يقيمون الصلاة، وما داموا يؤمنون البلاد، وما كانوا يصلون ويمكنون المسلمين من أداء الصلاة، فإنه لا يجوز قتالهم، ولا الخروج عليهم.

ثم أخبر بمن ولي عليه أحد الولاة من المسلمين، ثم رأى ذلك الولي فيه شيء من معصية الله، فلا يجوز له أن يخرج عليه، ولا ينزع يدًا من طاعة،

ولا يخلع بيعته، وإنما عليه أن يكره ما يأتي من المعصية ويقول: اللهم إن هذا منكر، وإنا له منكرون، فلا تؤاخذنا بما يفعله. وبذلك يسلم من إقرارهم على المعصية، إذا لم يقدر على الإنكار عليهم أو التغيير الظاهر.

قال الشارح:

فَقَدْ دَلَّ الكِتَابُ والسنة على وُجُوبِ طَاعَةِ أُولِي الأَمْرِ، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، فَتَأَمَّل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]،، كَيْفَ قَالَ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وَلَمْ يَقُل: وَأَطِيعُوا أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ؟ لأَنَّ أُولِي الأَمْرِ لا يُفْرَدُونَ بِالطَّاعَةِ، بَل يُطَاعُونَ فِيمَا هُوَ طَاعَةٌ لله ورسوله، وَأَعَادَ الفِعْلَ مَعَ الرَّسُولِ؛ لأن مَنْ يطِعِ الرَّسُول فَقَدْ أَطَاعَ الله، فَإِنَّ الرَّسُول ﷺ لا يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَةِ الله، بَل هُوَ مَعْصُومٌ فِي ذَلِكَ، وَأَمَّا وَلِي الأَمْرِ فَقَدْ يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَةِ الله، فَلا يُطَاعُ إِلا فِيمَا هُوَ طَاعَةٌ لله ورسوله.

قال الشيخ:

دل كتاب الله تعالى كهذه الآية: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ودلت سنة النبي ﷺ كما في الحديثين السابقين قوله: «وَلا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»، على وجوب طاعة ولاة الأمور، وهم الأئمة الذين لهم ولاية، ولهم سلطة، ولهم تمكن.

قوله: (مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ)، أي: ما داموا إنما يأمرون بطاعة الله تعالى، ولا يأمرون بشيء من المعاصي والمحرمات. ولـمَّا أورد هذه الآية وفيها: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، نبَّه على أن طاعة الرسول واجبة على كل فرد، أخذًا من قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، هاهنا ولم يقل: (أَطِيعُواْ الله وَالرَّسُول)، وإن كان ورد ذلك في آيات أخرى، بل كرر الفعل

بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾، وأما في الأمر بطاعة ولاة الأمر فلم يكرر الفعل، لم يقل: (وأطيعوا أولي الأمر منكم). يعني: يأتي بالفعل (أطيعوا)، وعلل الشارح ذلك بأن (**أُولِي الأَمْرِ لا يُفْرَدُونَ بِالطَّاعَةِ**)، أي: لا يُطاعون في كل ما يأمرون به.

قوله: (بَلْ يُطَاعُونَ فِيمَا هُوَ طَاعَةٌ لله ورسوله)، أي:أنهم يُطاعون إذا أمروا بما هو طاعة أو مصلحة للعباد والبلاد، أما الرسول فإنه قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أعاد الفعل مع الرسول؛ لأن الذي يطيع الله تعالى يلزمه أن يطيع الرسول؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، (فَإِنَّ الرَّسُول ﷺ لا يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَة الله)، أي:الذي يأمر به فإنه من طاعة الله ومن أمره ومن شرعه.

قوله: (فإنه معصوم في ذلك)، يعني: قد عصمه الله أن يأمر بغير طاعة الله، أما أولوا الأمر، فقد يأمر ولي الأمر بغير طاعة الله، أو بمعصية أو نحو ذلك، فلا يُطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله، وقد نبه على ذلك العلماء - رحمهم الله - وتكلموا على هذه الآية وعلى ما يشبهها.

قال الشارح:

وَأَمَّا لُزُومُ طَاعَتِهِمْ وَإِنْ جَارُوا؛ فلأنه يَتَرَتَّبُ على الخُرُوجِ عَنْ طَاعَتِهِمْ مِنَ المَفَاسِدِ أَضْعَافُ مَا يَحْصُلُ مِنْ جَوْرِهِمْ، بَلْ في الصَّبْرِ على جَوْرِهِمْ تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ، وَمُضَاعَفَةُ الأُجُورِ، فَإِنَّ الله تعالى مَا سَلطَهُمْ عَلَيْنَا إِلا لِفَسَادِ أَعْمَالِنَا، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، فَعَلَيْنَا الاجْتِهَادُ بالاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ وَإِصْلاحِ العَمَلِ، قَالَ تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وَقَالَ تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّة أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الأَمِيرِ الظَّالِمِ، فَلْيَتْرُكُوا الظُّلْمَ.

قال الشيخ:

تلزم طاعة ولاة الأمور ولو حصل منهم ظلم، ولو جاروا ولو تعدوا، ولو حصلت منهم مخالفات، ولا يجوز الخروج عليهم ونزع طاعتهم، فإنه يترتب على الخروج مفاسد كثيرة من: إراقة الدماء، واختلاف الكلمة، وكثرة الإضرار بالمسلمين، واضطهاد للصالحين وإضعاف لقرابتهم، ومنع لهم من الخير، ومنع لهم من الأعمال الصالحة، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

فيحصل من المفاسد أضعاف أضعاف ما يحصل من جور أولئك الأئمة، بل يجب الصبر على جورهم، فإن ذلك تكفير لسيئات الرعايا، وفيه مضاعفة للأجور، فيكفر الله تعالى بتسليطهم وصبر الرعية كثيرًا من السيئات، فيُضاعف الأجور للصابرين، ويعتقد الرعية أن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، وقد جاء في بعض الآثار: «كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ»[1]، وهذا أمر مشاهد، فإذا صلح المسلمون، وأصلحوا أعمالهم، واستقاموا على طاعة الله، أصلح الله لهم ولاة أمورهم، وعاملوهم معاملة حسنة؛ ولهذا قال: (وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ).

فنقول: عليكم أيها الرعية أن تجتهدوا في الأعمال الصالحة، وأن تكثروا من الاستغفار في كل وقت، وأن تتوبوا إلى الله توبة نصوحًا؛ حتى يرفع الله عنكم جور الأئمة وظلمهم، وحتى يبدلكم بذلك أئمة صالحين، يرشدونكم ويساعدونكم، فقد أخبر الله تعالى أن المصائب تحصل بشؤم السيئات، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠]، أي: أن هذه المصيبة عقوبة على ذنوب اقترفتموها وكسبتها أيديكم، وما يعفو الله عنه من الذنوب ولا يعاجلكم بعقوبته أكثر وأكثر، فهو

(١) أخرجه ابن جميع في معجم الشيوخ (١٤٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٣٦) من حديث أبي بكرة ﷺ. وأخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٢٢) من طريق يحيى بن هاشم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه، وقال: «هذا منقطع، وراويه يحيى بن هاشم وهو ضعيف».

يعفو عن كثير من المخالفات والسيئات.

وكذلك قال تعالى بعد قصة أحد: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]؛ وذلك لما أصابتهم مصيبة في أحد، وقُتل منهم سبعون، ذَكَّرهم الله بأنكم قد أصبتم مثليها - أي: في غزة بدر - فقتلتم منهم سبعين، وكذلك أسرتم منهم سبعين، فأصبتم مثلي ما أصابكم في هذا، مع أن هذا الذي حصل عليكم من هذه المصيبة هو من عند أنفسكم، وبسبب مخالفتكم، وجعل دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]؛ وذلك لأن الرماة عصوا أمر الرسول ﷺ لَمَّا قال لهم: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»[1]، ولكنهم لما رأوا أن المشركين قد انهزموا عند ذلك تركوا ذلك المكان، فجاءهم العدو من الخلف، فهذا معنى قوله: ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: بسبب عصيانكم.

وكذلك قال تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٣، ٢٦٦٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

نَفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]، أي: أنها بسبب سوء عملك السيئات: يعني: أن العقوبات والمصائب بسبب الذنوب، فأصلح عملك، وأحسن العمل، وخف الله تعالى حتى يرفع عنك هذه السيئات، وهذه العقوبات التي قد يسلطها عليك، واعلم أنها كلها بقدر الله، ولكن لابد من سبب، فالحسنات محض فضل، الله تعالى هو الذي تفضل بها، وهو الذي أعانكم على ذلك، وفتح عليكم، ومع ذلك قد يكون ذلك جزاء أعمال صالحة فعلتموها، وأما المصائب فإنها وإن كانت بقضاء الله وقدره ولكنها في الحقيقة بشؤم الذنوب، أو عقوبة على السيئات. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، أي: يسلط الله على الظالمين من ينتقم منهم، أو من هو أظلم منهم، كما قال بعض الشعراء:

وَمَا مِنْ يَدٍ إلا يَدُ الله فَوْقَهَا وَلا ظَالِمٌ إلا سَيُبْلَى بِظَالِمِ[1]

أي: أن هؤلاء الظالمين يسلط الله عليهم من هو أقوى منهم، وجاء أيضًا في الأثر عن الفضيل بن عياض أن الله تعالى يقول: «إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي»[2].

قوله: (فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّة أَنْ يَتَخَلصُوا مِنْ ظُلمِ الأَمِيرِ الظَّالِمِ، فَلْيَتْرُكُوا الظُّلمَ)، أي: وليصلحوا أعمالهم، فكيفما تكونوا يولى عليكم.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٢٧٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٥٦٦).

قال الشارح:

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: أنه جَاءَ فِي بَعْضِ كُتُبِ الله: «أَنَا الله مَالِكُ الْمُلْكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عليه رحمة، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عليه نِقْمَة، فَلا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، لكِنْ تُوبُوا أعطفهُمْ عَلَيْكُمْ»[1].

قال الشيخ:

هكذا جاء هذا الأثر عن مالك بن دينار، وهو عالم من العلماء ومن ثقات التابعين، وهذا الأثر موقوف على مالك بن دينار، وقد رفعه بعضهم، ولكن الصواب أنه ليس بمرفوع، ويمكن أنه اطلع على بعض كتب الله المتقدمة فنقل ذلك منها، أن الله تعالى يقول: «أَنَا الله مَالِكُ الْمُلْكِ»، الملوك كلهم تحت ملك الله تعالى.

قوله: «قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي»، يعني: قلوب الملوك وقلوب الرعايا بيدي، يعني: بيد الله تعالى، وتحت تصرفه وتقديره.

يقول: «فَمَنْ أَطَاعَنِي»، أي: وعملوا الصالحات «جَعَلْتُهُمْ عليه رحمة»،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧٢) عن مالك بن دينار، قال: «قرأت في الحِكَم أن الله تعالى يقول:...» وساق الأثر. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٩/ ٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨٨) عن وهب بن راشد عن مالك بن دينار عن خلاس بن عمرو عن أبي الدرداء ﷺ مرفوعًا. قال الدارقطني في العلل (٦/ ٣٠٥): «وهب بن راشد ضعيف جدًا متروك، ولا يصح هذا الحديث مرفوعًا، والموقوف أشبه بالصواب».

بمعنى أنهم يكونون سببًا في الشفقة على الأمة، وعدم التشديد عليهم.

قال: «وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عليه نِقْمَة»، أي: يعذب العصاة بتسليط الولاة عليهم، فينتقمون منهم، وإن كان لا يقصدون بهذا الانتقام حق الله تعالى، ولكن هكذا العقوبة، يكونون عليه نقمة.

قوله: «فَلا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ المُلُوكِ»، أي: أنتم أيها الرعية لا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، أي: تقولون إنهم ظلموا وأنهم جاروا.

قوله: «لكِنْ تُوبُوا أعطفهُمْ عَلَيْكُمْ»، أي: توبوا إلى الله تعالى وأصلحوا أعمالكم حتى يصلح أئمتكم، فكيفما تكونوا يُولى عليكم، فإذا أطعتم الله أعطفهم عليكم.

قال الطحاوي:

وَنَتَّبِعُ السنة وَالجَمَاعَة، وَنَجْتَنِبُ الشُّذُوذَ وَالخِلافَ وَالفُرْقَة.

قال الشارح:

السنة: طَرِيقَة الرَّسُولِ ﷺ.

وَالجَمَاعَة: جَمَاعَة المُسْلِمِينَ، وَهُمُ الصَّحَابَة وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلى يَوْمِ الدِّينِ. فَاتِّبَاعُهُمْ هُدًى، وَخِلافُهُمْ ضَلالٌ.

قَالَ الله تعالى لِنَبِيِّه ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]، وَقَال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]، وَقَال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٥٤]، وَقَال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وَقَال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وَقَال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٩].

قال الشيخ:

في هذا حث المسلمين أن يتبعوا طريقة الرسول ﷺ، وأن يسيروا مع جماعة المسلمين الذين تمسكوا بسنته، وفسره بأن جماعة المسلمين هم الصحابة ﷺ، والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، الذين تمسكوا بطريقتهم، وساروا على منهجهم، ولم يخالفوهم ولم يبتدعوا في دين الله شيئًا لم يأذن الله تعالى به، فاتباع الصحابة وأتباعهم هدى وبيان، وخلافهم ومخالفتهم ضلال وجهل، وابتداع بما لم يأذن الله به.

ثم استدل بهذه الآيات:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]، قال بعض العلماء: هذه الآية تسمى آية المحنة، أن الله امتحن بها الذين يدعون أنهم يحبون الله، وجعل لمحبة الله تعالى علامة، ألا وهي اتباع النبي ﷺ، والسير على طريقته، سواءً كان في الأعمال، أو في الأقوال، أو في العقائد، أو ما أشبه ذلك، أن ذلك كله يجب اتباعه فيه، ويكون علامة على صدق الدعوة، ولهذا قال بعض العلماء: من ادعى محبة الله ولم يوافقه فدعواه باطلة. أي: هو كذاب، فلابد أن الذي يقول: أنا أحب الله أن يطيع الله، والذي يقول: أنا أحب الرسول أن يطيع الرسول، ومتى أحب الله ورسوله وعمل بطاعته واتبع شريعته، أحبه الله؛ لقوله تعالى: ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾، فذكر فائدتين:

الفائدة الأولى: أن الله تعالى يحبهم ويغفر لهم ذنوبهم.

والفائدة الثانية: أنهم يكونون من أتباع الرسول؛ ولأن الله تعالى يغفر لهم ويرحمهم.

الآية الثانية: قوله - جل وعلا -: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]، هذا ضد ما كان عليه المسلمون، فالذين يشاقون الرسول وينازعونه ويخالفونه فيما جاء به مع أنه قد جاء بالهدى، وقد عرفوا الهدى، ويخالفون سبيل الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ويخالفون المؤمنين فهؤلاء يعاقبهم الله:

فأولاً: أنه يوليهم ما تولوا من هذه الشقاق ومن هذه المنازعات.

وثانيًا: في الآخرة أنهم يصلون جهنم - والعياذ بالله - جزاء على مشاقتهم للرسول ومنازعته ومخالفتهم لما جاء به، وكذلك مخالفتهم سبيل المؤمنين والصالحين، ومن سار على نهجهم.

الآية الثالثة: قوله - عز وجل -: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النور:٥٤]، فأمر الله بطاعته ثم بطاعة الرسول؛ لأن الرسول لا يأمر إلا بما هو طاعة لله تعالى، وأخبر بأنهم إذا تولوا وأعرضوا ولم يتقبلوا ولم يطيعوا الله ورسوله، فإنما عليك ما حُملت أيها الرسول، يعني: حيث إنك دعوتهم

وبلغتهم، وعليهم ما حُملوا، ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، أيها الرعية، أي: عليكم ذنوبكم التي حملتموها، وإذا أطعتم هذا الرسول فإنكم تكونون من المهتدين الذين يسيرون على هدى، مع أن الرسول ﷺ ليس عليه إلا البلاغ المبين، وقد شهد له الصحابة أنه بلغ البلاغ المبين.

الآية الرابعة: قوله ـ عز شأنه ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذه الآية من الوصايا العشر التي في سورة الأنعام، أمر الله تعالى باتباع هذا الصراط، والمراد به دين الإسلام الذي هو صراط مستقيم لا اعوجاج فيها، أي سيروا عليه واتبعوه ولا تختلفوا، وقد ثبت أنه ﷺ خَطَّ خَطًّا، فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّـهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ـ أي: خطوط ملتوية ـ ثُمَّ قَالَ: «وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»[1]، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، أي: الطرق المنحرفة التي تخالف طريق الله وصراط الله، فإذا فعلتموه كان حريًا أن تتفرق بكم تلك السبل، وتصدكم عن سبيل الله، وعن صراطه، فهذه وصية الله لكم لعلكم أن تكونوا من المتقين.

الآية الخامسة: قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٠٩)، وأحمد (١/ ٤٣٥)، وابن حبان (١/ ١٨٠)، والحاكم (٢/ ٢٣٩) من حديث ابن مسعود ﷺ.

﴿بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران:١٠٥]، أي: لا تتفرقوا وتكونوا نِحَلاً وفِرَقًا مضطربة مختلفة بعدما جاءتكم البينات، وبعدما جاءكم الحق، فإنكم إذا فعلت ذلك ضللتم، والذين يفعلون ذلك يتوعدهم الله بأن لهم العذاب العظيم.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وقرأها بعضهم[1]: {إِنَّ الذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ}، أي: الدين الصحيح، أو فرقوه أي: جعلوا منه ما هو واجب الطاعة وما ليس بواجب الطاعة، فقبلوا بعض الأحكام، كالتي تتعلق بالأحوال الشخصية، ولم يقبلوا ما فيه من الحدود، وما فيه من العبادة، فهؤلاء فرقوا دينهم، ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾، أي: كانوا أحزابًا، وكانوا فرقًا متفرقة. نزه الله نبيه منهم، فقال: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾، أي: أنت بريء منهم، وهم بريئون منك، فلا يضرك ما كانوا عليه، إنما أمرهم إلى الله، فالله تعالى هو الذي يتولى حسابهم، ثم ينبئهم بأعمالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، ويجزيهم بأعمالهم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٠٤).

قال الشارح:

وَثَبَتَ في السُّنَنِ الحَدِيثُ الذي صَحَّحَه الترمذي، عَنِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَة، قَال: «وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَة، ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَال قَائِلٌ: يَا رَسُول الله، كَأَنَّ هذه مَوْعِظَة مُوَدِّعٍ؟ فَماذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَال: أُوصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَة، فإنه مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسنة الخُلفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُل بِدْعَة ضَلالة»[1].

قال الشيخ:

هذا الحديث صححه الترمذي وهو أحد أحاديث الأربعين النووية التي اختارها الإمام النووي ـ رحمه الله ـ وذلك لأنه جامع لهذه الوصايا.

وقد ذكر ابن رجب في شرحه عدة أحاديث فيها وعظ؛ لأن العرباض ﷺ يقول: «وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَة بَلِيغَة»، ولم يذكر تلك الموعظة، هل هي موعظة بالآخرة وعذاب الآخرة وما فيها، أو بالقبر وما يكون فيه، أو بالدنيا وحقارتها وعدم المنافسة فيها، وذكر أن تلك الموعظة بليغة بكوا منها حتى ذرفت العيون دموعًا.

قوله: «وَوَجِلتْ مِنْهَا القُلُوبُ»، أي: حصل لها وجل شديد وخوف

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

من الله تعالى. فلما وعظهم هذه الموعظة قال بعضهم: «يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّ هذه مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ؟»، وطلبوا منه أن يعهد إليهم وأن يوصيهم بوصية؛ لأنهم استنبطوا أنه سوف يودعهم، وأن هذا دليل على أنه سوف يفارقهم، والعادة أن الذي يفارق أهله لابد أن يوصيهم بوصية يتمسكون بها، فأوصاهم أولاً: (بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ)، أي: لولاة الأمور إذا تولوا عليكم، فعليكم أن تسمعوا وتطيعوا، وأن لا تخرجوا عن الطاعة؛ وكذلك أيضًا السمع والطاعة لله وللرسول، إذا دعاكم الرسول ﷺ إلى أمر، أو كذلك وجدتم أمرًا من الأمور الشرعية في كتاب الله تعالى، فعليكم أن تتمسكوا بذلك الأمر، وأن تسمعوا وتطيعوا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، أي: سمعنا كلامك، وسوف نلزم أنفسنا بطاعتك.

ثم أخبر بأنه (مَنْ يَعِشْ)، أي: من يحيى منهم فلابد أن يرى اختلافًا كثيرًا، فإن بعد موت الرسول ﷺ حصل اختلاف كثير في العقائد، وأدى ذلك إلى التكفير والقتال.

فأولًا: بعد موته ارتد كثير من الأعراب الذين كانوا قد آمنوا، فكان ذلك من الاختلاف.

ثانيًا: وكذلك في آخر حياته تنبأ كثير من الكاذبين؛ كمسيلمة والعنسي وغيرهما.

ثم أمرهم عند ذلك الاختلاف الذي سيحصل، وتفرق الأمم، وحصول

البدع وظهور المبتدعة؛ كالرافضة والخوارج والقدرية والمعطلة ونحوهم، أمرهم بأن يتمسكوا بالسنة، فقوله: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»، أي: الزموها وتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ.

ثم قال: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»، إذا قال: فعليكم بالشيء فمعناه الزموه وتمسكوا به، والسنة: هي الطريقة التي كان عليها، والخلفاء الراشدون: هم الخلفاء الأربعة ومن سار على نهجهم. ثم وصفهم بأنهم راشدون، يعني: أنهم من أهل الرشد والصلاح، ووصفهم بالمهديين، أي: أن الله تعالى هداهم وسددهم، أمر بأن يتمسكوا بها، أي: تمسكوا بهذه السنة التي أمرتكم بها، أمسكوها بأيديكم، وإذا خشيتم أنها تتفلت فعضوا عليها بالنواجذ التي هي أقاصي الأسنان من باب الحرص عليهم.

ثم حذرهم: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»، يعني: ابتعدوا عن المحدثات التي هي بدع وإضافات في الدين لما لم يأذن به الله تعالى، وأخبر أن «كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»، وفي رواية: «وكل ضلالة في النار»، وهذا الحديث صححه بعض أهل العلم.

قال الشارح:

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّة، وَإِنَّ هذه الْأُمَّة سَتَفْتَرِقُ على ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّة -يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ- كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَة، وهي الجَمَاعَة». وفي رِوَايَة: «قَالُوا: مَنْ هي يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَا أَنَا عليه وَأَصْحَابِي»[1].

فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ عَامَّةَ الْمُخْتَلِفِينَ هَالِكُونَ مِنَ الجَانِبَيْنِ، إِلَّا أَهْلَ السنة وَالجَمَاعَة.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، حَيْثُ قَالَ: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الحَيَ لَا تُؤْمَنُ عليه الْفِتْنَة، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا أَفْضَلَ هذه الْأُمَّة، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ الله لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا على الهُدَى الْمُسْتَقِيمِ)[2]. وَسَيَأْتِي لِهَذَا المعنى بَيَانٌ إِنْ شَاءَ الله تعالى، عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَنَرَى الجَمَاعَة حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَة زَيْغًا وَعَذَابًا).

قال الشيخ:

وهذه أدلّة على أنّ أهل الحق هم المتمسّكون بالسنّة النبويّة، من كان على مثل

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٠٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥)، وذكره البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٤).

ما كان عليه النبيّ ﷺ وصحابته، الصحابة - رضي الله عنهم - ما خاضوا في علم الكلام الذي خاض فيه المتكلّفون المتكلّمون، وكذلك كانوا يكرهون الاختلاف حتى في الفروع، بل إذا اختلفت الأدلّة عليهم قالوا: آمنّا بها وفوّضنا ما لم نعلم، وعملنا بما كان عليه نبيّنا ﷺ وبما كنّا عليه في عهده.

قد تقدّم أنّه ﷺ كان ينهى أصحابه عن الاختلاف، وقد كان نفرٌ من الصحابة جُلُوسًا بِبَابِ النبي ﷺ، فقال بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ الله كَذَا وَكَذَا، وقال بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ الله كَذَا وَكَذَا، فَسَمِعَ ذلك رسول الله ﷺ، فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ - يعني: احْمَرّ وجهه من الغضب - فقال: «بهذا أُمِرْتُمْ، أو بهذا بُعِثْتُمْ، أن **تَضْرِبُوا كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إنما ضَلَّتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هذا، إنكم لَسْتُمْ مِمَّا ههنا في شيء، انْظُرُوا الذي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، والذي نُهِيتُمْ عنه فَانْتَهُوا**»[1].

هكذا أمر النبيّ ﷺ المسلمين، أمرنا إذا عرفنا الأدلّة أن نقول بها، وإذا اختلفت علينا أن نأخذ بما هو الأنسب والأظهر لنا، وندع الاختلاف، وقد أخبر - عليه الصلاة والسلام - بوقوع الاختلاف في هذه الأمّة وأنها تتفرّق بهم الأهواء إلى ثنتين وسبعين فرقة وطائفة، كلّ طائفة تزعم أنّها على الحقّ، كلّ طائفة تضلّل غيرها، وتبرّر موقفها، وهذه الاختلافات اختلافات اعتقاديّة في الأمور التي يضلّل من خالف فيها، وليست الاختلافات في الفروع والمسائل

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٥)، وابن ماجه (٨٥)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٦٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

الاجتهاديّة، التي طريقها الاجتهاد، فإنّ هذه لا يضلّل من اتّبعها؛ ولهذا خالف بعض الأئمّة مشايخهم دون أن يضلّلوهم، فالإمام مالك كان إمامًا متّبعًا، وقد خالف أبا حنيفة في أشياء، والإمام الشافعي قرأ على مالك وأخذ عنه علمه، وقد خالفه أيضًا في أشياء، ولكن لم يعدّ هذا ضلالًا، وليست هذه المذاهب من الفرق الضالّة التي حكم النبيّ ﷺ أنّها في النار إلاّ واحدة. إنّما أراد تلك البدع المضلّة التي تتعلّق بالعقيدة، ولا شكّ أنّ أمور العقيدة أدلّتها يقينيّة، أدلّتها قطعيّة، لا يستدلّ عليها بالأدلّة الظنّيّة التي يتطرّق إليها الاحتمال في الثبوت أو عدمه، وإنّما يستدلّ عليها بأمور قطعيّة الدلالة لا لبس فيها ولا خفاء، ولكن عميت الأعين وصمّت الآذان، فأولئك المبتدعة: يرون الحقّ أبلج، يرون الصراط مستقيمًا، تأتيهم بالأدلّة وتوضّحها لهم، ولكن:

صُمٌّ وَلَو سَمِعُوا بُكْمٌ وَلَو نَطَقُوا ... عُمْيٌ وَلَو نَظَرُوا بُهْتٌ بِمَا شَهِدُوا
عَمُوا عَنِ الحَقِّ صُمُّوا عَنْ تَدَبُّرِهِ ... عَنْ قَوْلِهِ خَرَسُوا فِي غَيِّهِمْ سَمَدُوا
كَأَنَّهُم إِذْ تَرَى خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ... وتَحْسِبُ القَوْمَ أَيْقَاظًا وَقَدْ رَقَدُوا

وهذا حرمان والعياذ بالله، وإلا فالطريق واضح، ولذلك حذّر النبي ﷺ من هذه الأهواء الثنتين والسبعين، هذه هي الأهواء، وأمر بالتمسّك بالجماعة، وأخبر أن الفرق كلّها في النار إلّا واحدة، وهي الجماعة ما عليه النبي ﷺ وأصحابه.

والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يتكلّموا في الجوهر والعَرَض، ولم يتكلّموا في الأعراض والأبعاض والأعضاء وما أشبه ذلك مما ابتُلي به المتكلّمون، ولم يتكلّموا في المحدثات التي امتلأت بها كتب هؤلاء المتكلّمين، وإنّما تقبّلوا ما جاءتهم به

السنّة، وما نصّ عليه الرب في القرآن، تقبّلوا ذلك كلّه واستسلموا له. كما شهد لهم ابن مسعود ﷺ في هذا الأثر: (مَنْ كَانَ مِنكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ).

ابن مسعود ﷺ من الصدر الأول، مات سنة ثنتين وثلاثين من الهجرة، بعد النبي ﷺ بسنوات معدودات، ومع ذلك يحثّ على طريقة الصحابة، يريد بالصحابة السابقين الأولين كالخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم؛ لأنهم قبله أو في زمانه، وكذلك من كان معه ممن مات من السابقين، وممن مات قبله أو معه، كعبد الرحمن بن عوف، وأبي ذر، والعباس بن عبدالمطلب، وأولئك الذين ماتوا قبله؛ لأنّ الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة، لا يؤمن عليه أن يضلّ، ولا يؤمن عليه أن يفتتن بالدعايات المضلّة وبالشبهات. يقول: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا أَفْضَلَ هذه الأُمَّة، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا). ما أبلغه من وصف! البرّ: هو الصدق والإخلاص، يعني: أنّ قلوبهم خالصة مخلصة، وعلمهم عميق؛ لأنّه علم نبويّ، وليسوا يتكلّفون.

وقد جاء رَجُلٌ إلى ابن مسعود ﷺ فقال: يا أَبَا عبد الرحمن، إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَقُصُّ وَيَزْعُمُ أَنَّ آيَةَ الدُّخَانِ تجيء فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّارِ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ منه كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ، فَجَلَسَ ابن مسعود ﷺ وهو غَضْبَانُ فقال: «يا أَيُّهَا الناس اتَّقُوا الله، من عَلِمَ مِنكُمْ شيئًا فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ، وَمَنْ لم يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: الله أَعْلَمُ، فإنه أَعْلَمُ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: الله أَعْلَمُ، فإن الله - عز وجل -

قال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:٨٦])[1]. أنكر على هذا تفسيره الآية بما يراه، أو بما يظنّه من أنّه يكون الدخان قرب الساعة.

وبكلّ حال فهو ينكر على من يتكلّف في تفسير الآيات بمثل هذه الاحتمالات، فإذا نظرنا فيما روي عن السلف وعن الصحابة رضي الله عنهم، لم نجد في علمهم شيئًا من التكلّف، بل وجدناهم يأخذون الأدلّة بظاهرها، ويعتقدون ما دلّت عليه، وقد حدث في آخر عهدهم بعض من المنكرين لبعض الأمور الغيبيّة، ومما روي أنّ رجلًا انتفض عند ابن عباس - رضي الله عنهما - عندما قرأ آية في الصفات، أو سمعها استنكارًا لها، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ما فرق هؤلاء[2]؟ يَجِدُّونَ عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلَكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ»[3].

أما الأثر المرويّ عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «حَدِّثُوا الناس بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟»[4]. فإنّه دليل على أنّه قد وجد في عهده من يتحدّث بأشياء

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤، ٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٢) قوله: «ما فرق هؤلاء» يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون (ما) استفهامية إنكارية، و(فرق) بفتح الفاء والراء، وهو الخوف والفزع، أي: ما فزع هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها. والثاني: أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء، ويجوز تخفيفها، و(ما) نافية، أي: ما فَرَّق هذا وأضرابه بين الحق والباطل. انظر: تيسير العزيز الحميد (ص٤٨٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٣٩) وفي مصنفه (١١/ ٤٢٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٢).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٧).

قد تستغرب، وقد يستنكرها بعض الجهلة، فلأجل ذلك نهى أن يحدّثوا بأشياء فيها شيء من الغرابة، فأمرهم أن يتحدّثوا بالأشياء المعروفة كالأحكام. أي اشغلوا أوقاتكم بالأحكام وبأمور الطاعة والعبادة والنوافل، وإياكم أن تشتغلوا بالأشياء التي فيها غرابة يستغربها العامّة فينكرونها، وإذا أنكروها وهي قطعيّة هلكوا؛ لأنّهم كذّبوا الله ورسوله، هذه طريقة السلف الذين هم الصحابة رضي الله عنهم، ومن سار على نهجهم.

قال الطحاوي:

ونحِبُّ أهلَ العَدْلِ والأَمانَةِ، ونُبغِضُ أَهلَ الجَوْرِ والخِيانَةِ.

قال الشارح:

وَهَـذَا مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَتَمَامِ الْعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ المَحَبَّةِ وَنِهَايَتَهَا، وَكَمَالَ الذُّلِّ وَنِهَايَتَه، فَمَحَبَّةُ رُسُلِ الله وَأَنبيائِه وَعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ مِنْ مَحَبَّةِ الله، وَإِنْ كَانَتِ المَحَبَّةُ لَا يَسْتَحِقُّهَا غيره، فَغَيْرُ الله يُحَبُّ في الله، لَا مَعَ الله، فَإِنَّ المُحِبَّ يُحِبُّ، مَحْبُوبَه، وَيُبْغِضُ مَا يُبْغِضُ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِيه، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِيه، وَيَرْضَى لِرِضَائِه، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِه، وَيَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ به، وَيَنْهَى عَمَّا يَنْهَى عنه، فَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَحْبُوبِه في كُلِّ حَالٍ.

والله تعالى يُحِبُّ المُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ المُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ، وَنَحْنُ نُحِبُّ مَنْ يُحِبُّه الله. والله لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ، وَلَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ، وَلَا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِينَ، وَنَحْنُ لَا نُحِبُّهُمْ أَيْضًا، وَنُبْغِضُهُمْ، مُوَافَقَةً له سبحانه وتعالى.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ الله ورسوله أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ المَرْءَ لَا يُحِبُّه إِلَّا لله، وَمَنْ كَانَ يَكْرَه أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَه الله منه، كَمَا يَكْرَه أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»[1].

فَالمَحَبَّةُ التَّامَّةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِمُوَافَقَةِ المَحْبُوبِ فِي مَحْبُوبِه وَمَكْرُوهِه، وَوِلَايَتِه

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٨١).

وَعَدَاوَتِه. وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ اللهَ المَحَبَّةَ الْوَاجِبَةَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُبْغِضَ أَعْدَاءَه، وَلَا بُدَّ أَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّه مِنْ جِهَادِهِمْ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وَالحُبُّ وَالْبُغْضُ بِحَسَبِ مَا فِيهِمْ مِنْ خِصَالِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَجْتَمِعُ فيه سَبَبُ الْوِلَايَةِ وَسَبَبُ الْعَدَاوَةِ، وَالحُبُّ وَالْبُغْضُ، فَيَكُونُ مَحْبُوبًا مِنْ وَجْه مَبْغُوضًا مِنْ وَجْه، وَالحُكْمُ لِلْغَالِبِ. وَكَذَلِكَ حُكْمُ الْعَبْدِ عِنْدَ الله، فَإِنَّ اللهَ قَدْ يُحِبُّ الشَّيْءَ مِنْ وَجْه وَيَكْرَهُه مِنْ وَجْه آخَرَ، كَمَا قَالَ ﷺ، فِيمَا يروي عَنْ رَبِّه -عَزَّ وَجَلَّ-: «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُه تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي المُؤْمِنِ، يَكْرَه المَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَه مَسَاءَتَه، وَلَا بُدَّ له منه»(١).

فَبَيَّنَ أنه يَتَرَدَّدُ؛ لِأَنَّ التَّرَدُّدَ تَعَارُضُ إِرَادَتَيْنِ، وَهُوَ سبحانه يُحِبُّ مَا يُحِبُّ عَبْدُه المُؤْمِنُ، وَيَكْرَه مَا يَكْرَهُه، وَهُوَ يَكْرَه المَوْتَ فَهُوَ يَكْرَهُه، كَمَا قَالَ: «وَأَنَا أَكْرَه مَسَاءَتَه»، وَهُوَ سبحانه قَضَى بِالمَوْتِ، فَهُوَ يُرِيدُ كَوْنَه، فَسَمَّى ذَلِكَ تَرَدُّدًا، ثُمَّ بَيَّنَ أنه لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ ذَلِكَ، إِذْ هُوَ مُفْضٍ إِلَى مَا هُوَ أَحَبُّ منه.

قال الشيخ:

واجب على المسلم أن يحبّ الله تعالى، وأن يحبّ ما يحبّه الله، وأن يحبّ من يحبّه الله.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٥٢٤).

يحبّ الله تعالى من كلّ قلبه؛ لأنّه ربّه والمنعم عليه، ويحبّ ما يحبّه الله من الأعمال التي تكون سببًا لرضاه، ويحبّ الذين يحبّهم الله من أوليائه وأصفيائه وعباده الصالحين. وإذا كان كذلك فإنّه يحظى بمحبّة الله تعالى له، أمّا كونه يحبّ الله ورسوله فإنّ لذلك أسباب، كيف لا يحبّ ربّه الذي هو خالقه ومالكه، كيف لا يحبّ ربّه الذي أنعم عليه وتفضّل عليه، كيف لا يحبّ ربّه الذي رزقه وخوّله وأعطاه ما يتمنّاه، كيف لا يحبّ ربّه الذي يتصرّف فيه كيف يشاء، كيف لا يحبّه وقد هداه للإسلام ونوّر بصيرته.

كذلك أيضًا لا بدّ أنْ يحبّ النبيّ ﷺ؛ لأنّ الله تعالى أنقذه على يديه، أنقذ الخلق، أنقذ هذه الأمّة على يدي هذا النبيّ ﷺ، فلأجل ذلك يلزم أن يحبّوه من كلّ قلوبهم، ويقدّموا محبّته على كل شيء، قال النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1]. وقال له عُمَرُ ﷺ: يا رَسُولَ الله، لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ من كل شَيْءٍ إلا من نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: «لا وَالَّذِي نَفْسِي بيده حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ من نَفْسِكَ»، فقال له عُمَرُ ﷺ: فإنه الآنَ والله لأَنْتَ أَحَبُّ إلي من نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: «الآنَ يا عُمَرُ»[2].

لا شكّ أنّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهلٌ لأن يُحَبّ، وأهلٌ لأن يحبّه المؤمنون الذين أنقذهم الله بدعوته، وأخرجهم من الظلّمات إلى النور، وأنقذهم به من

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) من حديث عبدالله بن هشام ﷺ.

الغواية، وبصّرهم بواسطته طريق الهداية والحقّ، فلذلك يقدّمون محبّته على كلّ شيء.

وفي هذا الحديث يقول ﷺ: «ثَلَاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»[1]. أخبر ﷺ في هذا الحديث بأنّ هذه ثلاث لابدّ منها حتّى يجد بها حلاوة الإيمان، مبدؤها محبّة الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما من النفس والمال والولد ومن الوالد، ومن القريب والبعيد وكلّ شيء، ومعلوم أنه إذا حصلت له هذه المحبّة تبعها غيرها، إذا أحبّ الله تعالى وأحبّ رسوله ﷺ تبعتها الخصلتان الباقيتان: تبعتها محبّة ما يحبّه الله، وتبعتها كراهة ما يكرهه الله، فالثلاث متلازمة مترابطة.

أما الخصلة الثانية، فهي أن يحبّ المرء لا يحبّه إلاّ لله، معلوم أنّ من أحبّ الله أحبّ ما يحبّه الله، بل العادة أن الإنسان إذا أحبّك أحبّ كل من تحبّه أنت، فإذا أحببت زيدًا أحببت من يحبّه زيد، وأحببت من يحبّ زيدًا؛ وذلك لأنّك وثقت به، وصار له قدر في قلبك، وصار له منزلة؛ فصرت توقّره وتحبّه، فإذا رأيته يؤثر عملًا آثرت ذلك العمل معه، وإذا رأيته يجتنب شيئًا اجتنبته؛ لأنك تثق به، وتعرف أنّه لا يفعل إلا الخير، ولا يتجنّب إلاّ ما فيه ضرر، فكيف بما يكرهه الله تعالى؟ فإنّك تكرهه، وكيف بما يحرّمه ويبغضه؟ فإنّك تبغضه، وكيف بمن يحبّهم الله تعالى من

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٨١).

الناس؟ لا شكّ أنّك تحبّهم.

ولعلّك أن تقول: الله تعالى قد ذكر أن المؤمنين يحبّون المنافقين ظاهرًا في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١١٩]، كيف يحبّهم المؤمنون، الصحابة الذين يحبّون الله ويحبّون رسوله، ويؤثرونه على أنفسهم، ويفدونه بأرواحهم، كيف يحبّون المنافقين؟

الجواب: أنّ المنافقين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، يبطنون ما هم عليه من الضلال والبغضاء، وبغض الله، وبغض رسوله وبغض الصحابة، وبغض المؤمنين، لا يبدون ذلك؛ إنّما يظهرون أنّهم أولياء الله، وأنّهم من أحبّائه، لذلك وثق بهم المؤمنون فأحبّوهم، يعني: تحبّونهم لأنّهم يحبّون الله ظاهرًا، وأنتم تحبّون الله، تحبّونهم؛ لأنّهم يظهرون لكم محبّة الرسول، وأنتم تحبّون الرسول، ومحبّ المحبوب محبوب، ولكن هم لا يحبّونكم؛ لأنكم تحبّون الرسول وهم يبغضونه، ومحب المبغوض مبغوض، ولأنكم صرتم على عقيدة وعلى يقين من محبّة الرسول ﷺ وهم على ضدّ ذلك يبغضونه، أبغضوكم لأنكم تحبّون مبغوضهم.

فإذًا نقول: عليك أن تحبّ الله، وتحبّ من يحبّه الله، وتظهر عليك آثار هذه المحبّة، ومن آثارها: الولاء والبراء، العطاء والمنع، التقريب والإبعاد، من أحببته أعطيته، ومن أبغضته حرمته، من أحببته قرّبته، ومن أبغضته أبعدته وابتعدت عنه، من أحببته واليته ومن أبغضته عاديته، فالذين يحبّون الله تحبّهم وتواليهم وتقرّبهم وتمدحهم وتقتدي بهم وتثني عليهم؛ لأنّ الله تعالى يحبّهم، والذين

يبغضهم الله تبغضهم وتعاديهم وتنقطع عنهم وتبعدهم وتحذرهم وتذمّهم وتحذّر منهم، ومن عاداتهم وطريقهم التي أصبحوا بها مبغضين لله ومبغوضين عند الله، ولو كانوا ما كانوا.

ومن الخصال التي ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ ممّا يجب على كل مسلم ومسلمة: أنّ من أطاع الله ووحّده وأطاع الرسول ﷺ لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب، واستدلّ بالآية التي في آخر المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ لا تجد المؤمنين الموحّدين يوادّون من حادّ الله ورسوله أبدًا، بل لابدّ أن يحادّوهم ويعادوهم وينصبوا لهم قوس العداوة، ولو كانوا أقرب الأقربين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]، يعني أقاربهم الخاصّة، وما ذاك إلا لأنّهم أحبّوا الله، فأبغضوا من يبغضه الله ولو كانوا أقرب الأقارب، عاداهم أولياء الله ومقتوهم، وابتعدوا عنهم، وقطعوا الصلة بهم. هكذا أثر المحبّة.

أمّا أولياء الله، فإنّهم أحبّوهم ولو كانوا بعيدين في النسب، صار بعضهم يؤثر أخاه المسلم على نفسه، ولو كان من الفرس أو الروم أو البربر أو الحبش. فمثلًا الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كان فيهم بلال من الحبشة، وصهيب رومي، وسلمان فارسي، ولكن جمعت بينهم أخوّة الإسلام، ومحبّة الله، فصاروا إخوة في ذات الله تعالى، يحبّ بعضهم بعضًا، ويؤثر بعضهم بعضًا، فهكذا تكون آثار هذه المحبّة، أنّ

الله تعالى لَـمَّا أحبَّ الصالحين وأنت تحبّ الله أحببتهم، وأنّه لَـمَّا أبغض الكافرين وأنت تبغض ما يبغض الله أبغضتهم.

وكذلك الأعمال؛ فالله تعالى يبغض كثيرًا من الأعمال، فيقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر: ٧]، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣٢]، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل:٢٣]. إذا كان هؤلاء لا يحبّهم الله فلا تحبَّهم بل أبغضْهُم، انظر من يحبّه الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف:٤]، ويحب أهل هذه الخصال، ويحبّ أيضًا الأعمال الصالحة، ويحبّ لعباده أن يأتوها، فالّذي يدّعي المحبّة، لا بدّ أن تظهر عليه آثارها وعلاماتها الواضحة. ذكر أنّ اليهود والنصارى لَـمَّا قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة:١٨]، وهم الكاذبون؛ أنزل الله آية تسمّى آية الامتحان، أو آية المحنة في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١]. امتحنهم الله في هذه الآية، وقال لهم: إذا كنتم صادقين في أنّكم تحبّون الله، فلا بدّ من علامة واضحة، والعلامة أن تتّبعوا هذا الرّسول الكريم، فإنّ هذا علامة صدق من يدّعي محبّة الله.

روي عن بعض السّلف أنّه قال: من ادّعى محبّة الله ولم يوافقه، فدعواه كاذبة؛ لأنّ الذي يحبّ الله يوافقه في أوامره ونواهيه، ويفعل ما يحبّ الله من الطاعات، ويجتنب ما يكرهه الله من المحرّمات والمعاصي، ويحبّ أولياء الله، ويبغض أعداء

الله، وكذلك يكون صادقًا في هذه المحبّة، وإذا لم يكن كذلك فليس بصادق، الذي يتظاهر بالمعصية ومع ذلك يدّعي محبّة الله فليس بصادق، قال بعض الشعراء[١]:

تَعْصِي الْإِلَـٰهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَـٰذَا عَجِيبٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَدِيكَ بِنِعْمَةٍ ... مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ

فالطاعة علامة المحبّة.

إذًا محبّة الله واجبة، وعلاماتها ظاهرة، علامات محبّة الله طاعته، وحبّ العبادات التي يحبّها وحبّ العباد الذين يحبّهم، وكذلك موافقته، وكذلك بغض المعاصي التي حرّمها الله ومقتها، ومعاداة العصاة والكفرة الذين أبغضهم وكرههم ومقتهم. من كان كذلك فإنّه من أحباب الله الذين وعدهم الله تعالى بالثواب العظيم.

في الحديث القدسي الذي أشار إليه الشارح، يقول الربّ تعالى: «ما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

---

(١) راجع (١/ ٦٣٣).

قوله في الحديث: «كنت سَمْعَهُ...» إلى آخره، أي: أنّه لا يسمع إلّا ما يحبُّه الله، ولا يبصر إلّا ما هو محبوب لله، ولا يمدُّ يده ويبطش إلّا في طاعة الله، ولا يحرّك قدميه ماشيًا إلّا فيما أمر الله به وأحبّه.

وتقدم فيما سبق حثّ الإسلام على الاجتماع، ونهيه عن الافتراق، وحثّه على الائتلاف، وتحذيره من الاختلاف، وذلك أنّ المسلمين كلّما كانوا مجتمعين، وكلّما كانت كلمتهم واحدة، كانت قوّتهم، وكان ظهور كلمتهم أقوى من غيرهم ممّن خالفهم، وكلّما تفرّقت كلمتهم وتشتّت أهواؤهم واختلفت آراؤهم ضعفت معنوياتهم، وقوي عليهم عدوّهم، ولأجل ذلك جاء الإسلام يحثّ على الاجتماع، وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ أمر بالاجتماع ونهى عن التفرّق، والتفرّق يعمّ تفرّق الأبدان وتفرّق الأهواء والآراء والمذاهب والشيع والفرق والأحزاب، يعمّ ذلك كلّه النهي عن التفرّق، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران:١٠٥]، تفرّقوا أي: تفرّقت كلمتهم، واختلفوا اختلفت آراؤهم وأهواؤهم.

وقد امتنّ الله تعالى على المؤمنين بأنّ جمعهم على كلمة التوحيد، وألّف بين قلوبهم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، أي: جمع بينهم ورزقهم المحبّة والألفة، بحيث إنّ بعضهم يؤثرُ أخاه المسلم على نفسه، وعلى ولده وعلى أحبابه وأقاربه وأحفاده وأنسابه، وذلك لِـمَا في

قلبه من الود والرحمة للمسلمين عمومًا.

وهذه الأوصاف كلّما تأكّدت وقويت وثبتت كان المسلم مؤثرًا لهوى إخوته ومقدّما له ومحبًّا لهم غاية الحبّ، ومقدّما لمصالحهم، وإذا كانوا مجتمعة كلمتهم، ومتآلفين على كلمة التقوى نتج من ذلك تعاونهم على البرّ والتقوى، وتعاونهم على تنفيذ كلمة الله، وإظهار شعائر دينه، وكلّما كانوا كذلك ضعف أعداؤهم تخاذلوا وتفرّقوا، وحصل النصر والتمكين للمؤمنين، والتفرّق والانهيار للكافرين. وهذه سنّة الله.

فإن اختلاف الكلمات، واختلاف الآراء والأهواء سبب لتعصّب كلّ لرأيه ولمذهبه ولهواه، وهذا يحدث في أهل البدع، فإنّ هذه الطائفة إذا كانت تنتحل بدعةً وتهواها وتفضّلها فإنّها لا تقبل ممّن خالفها، بل ترى أنّ من خالفها على باطل وعلى ضلال. نشاهد مثلًا الذين يسمّون أنفسهم شيعة، وهم الروافض، نجدهم يتآلفون فيما بينهم ويحبّ بعضهم بعضًا، ويقدّم بعضهم بعضًا ربّما على نفسه. كما روي لي عن بعضهم بأنّ جماعة من أهل السنّة نحو المئتين بين عشرين ألفًا أو أكثر من الرافضة، الذين تأتيهم الإمدادات، والعون وتأتيهم الشيعة من العراق وإيران ويشجّعونهم، الواجب أيضًا أنّ أهل السنّة يشجع بعضهم بعضًا ويواسونهم ويعظّمونهم ويمكّنونهم؛ لأنّ أخوّة الإسلام تجمع بينهم، فإذا كان أهل الباطل يجتمعون ويتناصرون على الباطل، الذي حمّي عليهم، وظهر لهم أنّه الحق، فالأحرى بالذين على الحق أن يتعاونوا.

وقد كان المسلمون في أول القرن الثاني لما كانوا في خراسان مجتمعين من

أماكن متعدّدة؛ إذا لم يغزوا، ولَم يذهبوا إلى قتال أعدائهم وقع الخلاف بينهم، وصاروا يتفاخرون كلّ يتعصّب لقبيلته، وكلّ يتعصّب لمذهبه ولأميره ولشيخه، وربّما حصل بينهم تقاتل وتناوش، أو ما أشبه ذلك، ولكن إذا جاءهم أمير عام عليهم، ناصح مخلص؛ جمع كلمتهم ووحّد وجهتهم إلى قتال أعدائهم، وتوجّهوا كلّهم نحو الأعداء، عندئذ زالت الإحن التي كانت بينهم، وأصبحوا إخوة متآخين، متوجّهين إلى العدو الذي هو أكبر الأعداء، وهو العدو في الدين، فكانت الفعلة التي يفعلها القادة وهي جمعهم على التوحيد، أكبر وجهة وأكبر نصيحة يجتمعون بها حتّى يقاتلوا أعداءهم.

نحن نحثّ المسلمين على أن تجتمع قوّتهم وتتوجّه نحو أعدائهم، سواء الأعداء الكفار أو الأعداء المبتدعون، أو نحوهم، وكذلك ننهاهم عن التمادي في الاختلاف؛ اختلاف الآراء، واختلاف الأهواء.

قد مرّ بنا حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -: أن نفرًا من الصحابة كانوا جُلُوسًا بِبَابِ النبي ﷺ، فقال بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ الله كَذَا وَكَذَا، وقال بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ الله كَذَا وَكَذَا، فَسَمِعَ ذلك رسول الله ﷺ، فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِئَ في وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ - يعني: احْمَرّ وجهه من الغضب - فقال: «بهذا أُمِرْتُمْ، أو بهذا بُعِثْتُمْ، أن تَضْرِبُوا كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إنما ضَلَّتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ في مِثْلِ هذا، إنكم لَسْتُمْ مِمَّا ههنا في شيء، انْظُرُوا الذي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، والذي نُهِيتُمْ عنه فَانْتَهُوا»[1]،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٨).

فنهى عن اختلاف الكلمة في مسألة من المسائل كمسألة القدر ونحوه.

وعلى كلّ حال، فالإسلام جاء بجمع الكلمة، والحثّ على الجماعة، وحثّهم على الألفة فيما بينهم، وذكر الأسباب التي بها يتآلفون ويتعارفون ويتآخون، وذلك أنّهم أولًا: يتعارفون بأنّهم مسلمون، ويتحابّون لأجل الإسلام، وثانيًا: يتعارفون ويتآلفون بأنّ قصدَهم وهدفهم واحدٌ، وهو أنّ كلًّا منهم يطلب الأجر الأخروي، ويطلب النصر من الله تعالى على الأعداء. وثالثًا: أنّ كلًّا منهم يدينون بدين واحد يجمعهم هذا الدين، فإذا دانوا بدين واحد، فإنّ عليهم أن يتحابّوا في ذات الله تعالى، ويزيلوا الأسباب التي توقع بينهم العداوة والبغضاء، وبذلك يتآلفون ويتحابّون فيما بينهم، وكما أنّهم مأمورون -على اختلاف طبقاتهم وجنسيّاتهم- أن يتحابّوا وأن يجتمعوا ولو تفرّقت بلادهم ولو تناءت أماكنهم، مأمورون بذلك؛ فإنّهم مأمورون أيضًا بمقاطعة أعدائهم، وبمباينتهم وبغضهم والابتعاد عنهم وإذلالهم، سواء كانوا مبتدعة أو كفرة أو مشركين، فإنّهم إذا رأوا منهم الغلظة والشدّة والبغضاء والكراهية ذلّوا وهانوا، وهانت عليهم أنفسهم، وعرفوا عزّة الإسلام ورفعته وتمكّنه وعزة أهله فأذعنوا له، وانقادوا إما طوعًا وإما كرهًا. هذه الأمور مجرّبة في الأزمان الماضية، أنّ المسلمين كلّما اجتمعوا وأظهروا لأعدائهم المقت والاحتقار ذلّ الأعداء، وقوي الأولياء، وارتفعت كلمة الله، وانخفضت كلمة المشركين.

قال الطحاوي:

ونَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ فِيما اشْتَبَهَ عَلَيْنا عِلْمُهُ.

قال الشارح:

تَقَدَّمَ فِي كَلَامِ الشَّيْخِ - رحمه الله - أنه مَا سَلِمَ فِي دِينِه إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لله عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِه ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَه عليه إلى عَالِمِه.

وَمَنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ عِلْم فَإِنَّمَا يَتَّبِعُ هَوَاه، وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤]، وَقَالَ تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وَقَدْ أَمَرَ الله نَبِيَّه ﷺ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ إليه، فَقَالَ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٦]، ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، وَقَدْ قَالَ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ: «الله أَعْلَمُ بِمَا

كَانُوا عَامِلِينَ»[١].

وَقَالَ عُمَرُ ﷺ: اتَّهِمُوا الرَّأْيَ فِي الدِّينِ، فَلَوْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَرُدُّ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِرَأْيِي، فَأَجْتَهِدُ وَلَا آلُو، وَذَلِكَ يَوْمُ أَبِي جَنْدَلٍ، وَالْكِتَابُ يُكْتَبُ، وَقَالَ: «اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فرضي رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَتَبَ وَأَبَيْتُ، فَقَالَ: «يَا عُمَرُ تَرَانِي قَدْ رَضِيتُ وَتَأْبَى؟!»[٢].

وقَالَ أَيْضًا ﷺ: «السُّنَّةَ مَا سَنَّه الله ورسوله ﷺ، لَا تَجْعَلُوا خَطَأَ الرَّأْيِ سُنَّةً لِلأُمَّة»[٣].

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ: «أي أَرْضٍ تُقِلُّنِي، وَأَي سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، إِنْ قُلْتُ فِي آية مِنْ كِتَابِ الله بِرَأْيِي، أَوْ بِمَا لَا أَعْلَمُ»[٤].

وَذَكَرَ الحَسَنُ بْنُ عَلِي الْحُلْوَانِي، حَدَّثَنَا عَارِمٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ سَعِيدِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٣٧٣)، والبزار (١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٢٥، ١٢٦)، والطبراني في الكبير (٨٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص١٩٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٤٦): «أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٣٦)، وابن حزم في الإحكام (٦/ ٢٢٠).

(٤) تقدم تخريجه (٢/ ١٥٦).

ابْنِ أَبِي صَدَقَة، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: «لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ أَهْيَبُ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ ﷺ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ نَزَلَتْ به قَضِيَّة، فَلَمْ يَجِدْ فِي كِتَابِ الله مِنْهَا أَصْلًا، وَلَا فِي السنة أَثَرًا، فَاجْتَهَدَ بِرَأْيِه، ثُمَّ قَالَ: هَذَا رَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ الله، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي، وَأَسْتَغْفِرُ الله»[1].

قال الشيخ:

هذه مسألة جديدة، وهي مسأله الفتيا بغير علم، والجرأة على الفتيا والقول في الشرع بغير علم ذنب كبير، وقد روي: «أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ»[2]؛ وذلك لأنّ الذي يقول في الشرع وفي الدين برأيه وبهواه وبما يستحسنه؛ ينصّب نفسه مشرّعًا، وكأنّه نائب عن الله، مزاحم للربّ تعالى في شرعه، يقول: أحلّ الله كذا وحرّم كذا، وأمر بكذا ونهى عن كذا، وليس عنده مستند، وإنّما يعتمد على ما يستحسنه وعلى ما يراه مناسبًا ملائمًا لواقعه ونحو ذلك، فلا جرم أن كان هذا ذنبًا كبيرًا حتّى قال بعضهم: إن القول على الله بغير علم أكبر من الشرك ففي هذه الآية من سورة الأعراف حرّم الله بها خمسة أشياء؛ فبدأ بالأسهل، ثم بالذي فوقه حتى وصل إلى أعلاها وأشدّها تحريمًا، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ

---

(١) أخرجه ابن حزم في الإحكام (٦/ ٢١٩).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٦٩)، وابن عدي في الكامل كما في كشف الخفاء (١/ ٥١) عن عبيد الله بن جعفر مرسلًا.

ﭐﻟْﻔَﻮَٰﺣِﺶَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

الفواحش أصغر من الإثم، والإثـم أهـون مـن البغـي: وهـو الاستطالة عـلى الناس بغير حقّ، ثمّ جاء بعد البغي ما هو أكبر منه وهو الشرك، والـشرك أكـبر مـن البغي، ثمّ جاء أكبرُ منه وهو: القـول عـلى الله بغـير علـم، وهـو أكـبر الخمسة التـي حُرِّمـت في هـذه الآيـة؛ لأنّ الـذي يقـول عـلى الله كأنّـه رفـع نفسه فـوق العلـماء والأنبياء، وجعل نفسه مشرِّعًا يحلّل ويحرّم ويقول على الله ما ليس له به علم.

ولـذلك كـان العلـماء الجهابـذة الـذين بلغـوا الـذروة في المعرفـة، وكـانوا عـلى جانب من الورع، يُسأل بعضهم فيتوقّفون في المسألة، ويترادّونهـا، إذا لم يكـن فيهـا دليل واضح صريح، فيترادّها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا إلى أن يتولّى أحـدهم الفتيـا فيها، فيكتفي به عن نفسه، وكان الإمام أحمد رحمه الله كثيرًا مـا يتلـو الآيـة التـي في سـورة النحـل: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحـل:١١٦]. الذين يقولون هذا حلال بأهوائهم وهـذا حـرام بـأهوائهم دون دليـل، نقـول: هـذا من الافتراء الكاذب على الله تعالى بغير علم.

والإمـام مالـك بـن أنـس إمـام دار الهجـرة الـذي تـضرب إليـه أعنـاق الإبـل، والذي هو المرجع في زمانه، سأله قوم عن أربعين مسألة فأجاب عن أربـع مسائل، وتوقّف عـن ستّ وثلاثين مـسألة، فقـالوا لـه: أتتوقّـف وتقـول: لا أدري، وأنـت

مالك بن أنس؟ فقال: نعم، لا أدري لا أدري، قولوا: مالك بن أنس لا يدري، قولوا: مالك يقول: لا أدري.

وكان كثير من العلماء يحثّون على التوقّف عن المسائل، ويقولون: «مَن أخطأ لا أدري أُصيبت مقاتلُه». أي: إنّه إذا صار يفتي ولا يتوقّف، ويستحيي أن يقول: لا أدري، فإنّه قد تصاب مقاتله، بأن يزلّ مرة هنا ومرة هنا، ويحاسبه الله تعالى على أقواله بغير علم، ويقع في الهلاك والعياذ بالله.

أما الذي عنده علم من المسألة، وعنده دليل عليها، وعنده يقين بحكمها إذا سئل عنها فلا يجوز له السكوت، ولا يجوز له التوقّف، بل يقول بموجب علمه بالدليل، ولا يكتم العلم لقوله ﷺ: «من سُئِلَ عن عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ من نَارٍ يوم الْقِيَامَةِ»[1].

أما إذا سئل وهو لا يعلم، وليس عنده خُبرٌ بهذه المسألة، فلا يجوز له الإقدام عليها، بل يحيله إلى من هو أعلم منه، وإلى من عنده علم بتفصيل هذه المسائل ونحوها.

ولقد اعتنى علماء الإسلام بهذه المسائل التي يمكن أن تقع غاية الاعتناء، واجتهدوا في بيانها وفي إيضاحها أتمّ الاجتهاد، وألحقوا كلّ مسألة بنظيرتها، فلم يبق لأحد قول، فأنت إذا سئلت عن مسألة، فارجع إليها في كتب أهل العلم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وأحمد (٢/ ٣٤٤)، وابن حبان (١/ ٢٩٧)، والحاكم (١/ ١٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقل هذه المسألة أفتى فيها العالم الفلاني بكذا، والشيخ الفلاني بكذا، ويوجد جوابُها في الكتاب الفلاني، وتوقّف أنت أن تستحسن فيها، أو تقول فيها ويقول بعضهم[1]:

وَقُـلْ إِذَا أَعْيَـاكَ ذَاكَ الأَمْـرُ   مَـا لِي بِـمَا تَسْأَلُ عَنْـهُ خُـبْرُ
فَـذَاكَ شَـطْرُ العِلْـمِ فَاعْلَمَنْـهُ   وَاحْـذَرْ هُـدِيتَ أَنْ تَزِيـغَ عَنْـهُ

ويقولون: إن كلمة (الله أعلم) شطر العلم؛ كأنّ الذي تعلّم مسائل كثيرةً، وقرأ العلوم المتنوّعة، فقرأ في التفاسير، وقرأ في كتب الحديث، وكتب الأحكام والآداب والعقائد، وحصل منها معلومات، يقال له: أنت لم تحصّل إلا على علم قليل، ولذلك يقول بعضهم[2]:

وَلَيْسَ كُلَّ العِلْـمِ قَـدَ حويتَـهُ   أَجَـلْ وَلَا العُشْرَ وَلَـوْ أَحْصَيْتَهُ

ما حصلت إلا على العشر أو أقل، فالعلوم واسعة، وما فزت منها إلا بالنزر اليسير، فعليك أن تقتصر على ما تعلمه وتتحقّقه وتتقنه.

معلوم أيضًا أنّ هناك مسائل فيها مجال للاجتهاد؛ ولأجل ذلك اختلفت فيها آراء العلماء، واختلفت فيها المذاهب، فذهب الصحابيّ الفلاني إلى كذا، والصحابيّ الفلاني إلى قولٍ مخالف، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى كذا والإمام الشافعي إلى كذا، ومالك إلى كذا. هذه المسائل مجال للاجتهاد، والاختلاف الذي

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٤٧).

(٢) المرجع السابق.

حصل فيها سببه اختلاف الأفهام واختلاف الآراء وسعة المعلومات أو قلّتها، ونحن نعذر الذين خالفوا الدليل وأفتوا بخلافه، ونقول: هذا ما وصل إليه اجتهادهم، فهم قالوا عن اجتهاد لما اضطرّوا إلى القول فيها، وإلى الحكم بما يلزم السائل، وكانت واقعة لا بدّ إلى الفتيا فيها فاجتهدوا، ولو خالفوا الدليل فهم معذورون، فإنّ النبي ﷺ قد عذر المجتهد فقال: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»[1]، يعني: على اجتهاده.

فالمجتهد معذور على خطئه، ولكن هذا العذر ليس لكلّ أحد، فالذي لم يتأهّل للاجتهاد، ولم يصل إلى رتبة المعرفة، ولم يكن من أهل الإتقان للأعمال، ولا يعرف مراجع المسائل، ولا تفاصيل الأدلّة، ولا وجوه الاستدلال ولا ثبوت الأدلّة أو عدمه ولا يعرف الجمع بين مختلفها، ولا يعرف متقدّمها ومتأخّرها، ولا يفرّق بين خاصّها وعامّها ومطلقها ومقيّدها، فهذا لا يفتي بالشيء إلا إذا اتضح عنده كالشمس، أمّا الباقي فإنّه يتوقّف فيه حتى لا تنطبق عليه هذه الآيات التي استدلّ بها الشارح رحمه الله، والآيات التي أمر الله بها نبيّه أن يردّ العلم إلى الله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ [الكهف:٢٦]. ونحن نقول: الله أعلم، والملائكة يقولون: ﴿ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ ﴾ [البقرة:٣٢].

والله تعالى يذمّ الذين يجادلون في آيات الله بغير علم، فدلّ على أنهم إذا كان عندهم علم وجادلوا فتلك مجادلة حسنة، أما الذين يجادلون بغير علم فإنهم

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٦٨).

مـــذمومون: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٣، ٤]، يعني: أنّه في هذه المجادلة قد اتّبع الشيطان.

وبكلّ حال فالعلوم - والحمد لله - مدوّنةٌ وموجودة ميسّرة، والعلماء موجودون وهم يعرفون مراجعها ويعرفون الراجح منها والمرجوح، ومن كان له أهليّة فأخذ العلم عن مظانّه فله أن يقول به، ولا يتبع غيره ممّن لم يتمكّن ومن لم يكن عنده أهليّة رجع إلى أهل العلم وقال بما قالوا به، أو بما وصلت إليه أفهامهم واجتهاداتهم.

قال الطحاوي:

ونَرَى المسحَ على الخُفَّيْنِ، في السَّفَرِ والحَضَرِ، كَمَا جاءَ في الأَثَرِ.

قال الشارح:

تَوَاتَرَتِ السنة عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالمَسْحِ على الخُفَّيْنِ وَبِغَسْلِ الرِّجْلَيْنِ، وَالرَّافِضَةُ تُخَالِفُ هذه السنة المُتَوَاتِرَة، فَيُقَالُ لَهُمْ: الَّذِينَ نَقَلُوا عَنِ النبي ﷺ الْوُضُوءَ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَالَّذِينَ تَعَلَّمُوا الْوُضُوءَ منه وَتَوَضَّؤوا وَهُوَ يَرَاهُمْ وَيُقِرُّهُمْ، وَنَقَلُوه إلى مَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الَّذِينَ نَقَلُوا لَفْظَ هذه الآية. فَإِنَّ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَتَوَضَّؤُونَ على عَهْدِه، وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا الْوُضُوءَ إِلَّا منه، فَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ لَمْ يَكُنْ مَعْهُودًا عِنْدَهُمْ في الجَاهِلِيَّة، وَهُمْ قَدْ رَأَوْه يَتَوَضَّأُ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَه إِلَّا الله تعالى، وَنَقَلُوا عنه غَسْلَ الرِّجْلَيْنِ في مَا شَاءَ اللهُ مِنَ الحَدِيثِ، حتى نَقَلُوا عنه مِنْ غَيْرِ وَجْه في كُتُبِ الصَّحِيحِ وَغَيْرِهَا أنه قَالَ: «وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ»[1].

مَعَ أَنَّ الْفَرْضَ إِذَا كَانَ مَسْحَ ظَاهِرِ الْقَدَمِ كَانَ غَسْلُ الجَمِيعِ كُلْفَةً لَا تَدْعُو إِلَيْهَا الطِّبَاعُ، كَمَا تَدْعُو الطِّبَاعُ إلى طَلَبِ الرِّيَاسَةِ وَالمَالِ، فَلَوْ جَازَ الطَّعْنُ في تَوَاتُرِ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد (٤/ ١٩١)، وابن خزيمة (١/ ٨٤)، والحاكم (١/ ١٦٢)، والدارقطني (١/ ٩٥)، والبيهقي (١/ ٧٠) من حديث عبد الله بن الحارث ﷺ. وأخرجه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، دون قوله: «وبطون الأقدام».

صِفَةَ الْوُضُوءِ، لَكَانَ فِي نَقْلِ لَفْظِ آيَةِ الْوُضُوءِ أَقْرَبَ إِلَى الْجَوَازِ.

قال الشيخ:

مسأله المسح على الخفين من المسائل التي يذكرها الفقهاء في أبواب الطهارة، يقولون: (باب المسح على الخفين)، والناس يسمعون ذلك ويفهمونه ويعرفونه، فهي من المسائل الفروعية مثل باب التيمّم، ومثل باب الغسل من الجنابة وموجباته، وخصال الفطرة، وما أشبه ذلك. ولكن لماذا تذكر هذه المسألة الفروعيّة في كتب العقائد؟

الجواب: أنّ الخلاف فيها مع المخالفين في العقيدة، والذين خالفوا فيها خالفوا في أكثر العقائد، وردّوا السنّة الصحيحة الصريحة في كثير من الأحكام الثابتة في هذه السنّة، وطعنوا في الذين يفعلونها، وخالفوا الأدلّة، الذين خالفوا في هذه السنة هم الرافضة الذين يسمّون أنفسهم شيعة، يقولون: إنّهم شيعة عليّ، أي: أعوان عليّ، مع أنّ عليًّا ﷺ بريء منهم ومن مشايعتهم، وإنّهم في الحقيقة لا شايعوه ولا نصروه، بل خذلوه وخذلوا أولاده، ولم يكن منهم نصر له ولا معاونة له ولا لأهله في زمن من الأزمان، ولكن زيّن لهم الشيطان فسمّوا أنفسهم شيعة عليّ، وأهل السنّة يسمّونهم رافضة؛ لأنهم رفضوا الحقّ، ولأنهم تركوا السنّة وتركوا الحقّ، وهم يعرفونه يعني أوائلهم وكذلك يعرفه أواخرهم، ولكنّهم عاندوا في تركه، فصدق عليهم اسم الرافضة.

وقولهم في هذه المسألة قول باطل؛ لأنّهم خالفوا المسلمين في أمرين: في غسل

الرجلين، وفي المسح على الخفين، فهم لا يرون غسل الرجلين إذا كانت الرجل بارزة، لا يرون غسلها، بل يمسحون الرجل كما يمسحون الرأس، وقد خالفوا السنّة الصريحة في غسل القدمين إن كانتا مكشوفتين، وخالفوا السنّة في مسح الخفين إن كانا على القدمين، فخالفوا مرّتين. ولأجل ذلك أنكر عليهم السلف، وأساؤوا بهم الظنّ، وحذروهم وحذَّروا منهم.

ورُوي عن ابن المبارك ـ رحمه الله ـ أنّه كان يقول: «إذا رأيت الرجل يسأل عن حكم المسح على الخفّين أسأتُ به الظنّ». يعني: اتهمته في معتقده، خوفًا من أن يكون من هؤلاء الشيعة؛ وذلك لأنّه لم يكن أحد من أهل السنّة المتمسّكين بها يشكّ في حكم المسح على الخفّين وفي جوازه؛ لأنّه متلقىً عن النبيّ ﷺ نقله عنه جمع عن جمع، وأعداد عن أعداد، وتلقّاه المسلمون وتقبّلوه، وروي في المسح أكثر من أربعين حديثًا، يقول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «ليس في نفسي من المسح على الخفين شيء، فيه أربعون حديثًا عن رسول الله ﷺ». يعني: أربعين حديثًا صحيحًا لا توقّف فيها ولا ارتياب.

وهناك أحاديث كثيرة قد يكون بها مقال، ولكن يستدلّ بها، وقد أوصلها بعضهم إلى ستّة وخمسين حديثًا كما في «نصب الراية»، وكذلك نقل الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وهو أحد كبار التابعين قال: حدّثني سبعون من أصحاب النبي ﷺ أنّه مسح على الخفّين وأمر به، فما دام أنّها سنّة ثابتة متواترة مشهورة، ليس فيها اختلاف، وليس في ثبوتها تردّد، فكيف ينكرها هؤلاء الرافضة؟ لا شكّ أنّ إنكارهم لها لأجل أنّ الذين قالوا بها هم من أهل السنّة، وهم يردّون على أهل

السنّة، ولا يقبلون شيئًا ممّا جاء به السنّيّون حتّى الآن.

وقد حدّثني أحد المدرّسين في الأحساء في مدرسة متوسطة تجمع بين أبناء السنّة وأبناء الشيعة، يقول: ألقيت عليهم اختبارًا شهريًا ولّما أعددته اخترت مسائل في المسح على الخفين، فكانت أجوبتهم على ما في الكتب، ولكن إذا كان في النهاية فإنه يقول أحدهم: اعلم أيها المدرّس بأني أجبتك على ما في الكتاب، وإلا فأنا لا أقول بهذا، ولا أعتقده، ولا أصدّقه، ولو قلتم ما قلتم يا أهل السنّة، لا نذهب مذهبكم، ولا نقبل منكم. هذا مقتضى كلامه، مع أنّه طالب في المرحلة المتوسطة، يتلقّى العلم عن مدرّسين من أهل السنّة، لكن لما كان الذين يلقّنونهم عقيدتهم على تلك العقيدة، لم يتقبّلوا حتى هذه المسألة الفرعيّة التي هي من فروع المسائل، ولكن الذين نقلوها من الصحابة الذين يطعن فيهم الرافضة، الرافضة لا يقبلون كلام أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا طلحة والزبير ولا عبد الرحمن بن عوف ولا أبي عبيدة، ولا غيرهم من أكابر الصحابة ولا رواية أبي هريرة ولا عائشة ولا حفصة ولا غيرهم؛ لأنهم يعتقدون أنّهم كفّار، فلا جرم أن ردّوا هذه المسألة كليًا؛ لأنّهم لا يقبلون أحاديث المسح على الخفّين أصلًا.

أما أهل السنّة فإنهم يقولون: هذه سنّة الرسول ﷺ، وهو الذي علّمنا الشريعة، وتلقّينا عنه علومها، تلقّينا عنه الصلاة وكيفيّتها وعددها، ولم يكن ذلك متوسعًا في القرآن؛ من الذي أخبرنا أن صلاة الظهر أربع، والفجر اثنتان، والمغرب ثلاث، غير الرسول ﷺ؟، وكذلك الذي أخبرنا أنّ في كلّ ركعة سجدتان، وأنّ في كلّ سجدةٍ دعاء كذا وكذا؟ لا شكّ أنّه النبيّ ﷺ، فهو الذي

علّمنا صفة الصلاة، وعلّمنا الطهارة وكيفيّتها، وكيفيّة الغسل وموجباته، وما أشبه ذلك، وحيث أنّه هو الذي علّمنا ذلك فهو الذي أيضًا علّمنا هذه السنّة التي هي سنّة المسح على الخفّين، ونقلها عنه صحابته الذين نثق بهم، والذين نعرف أنّهم صحبوه مدّة طويلة، والذين نقلوا عنه العلوم الشرعيّة والفرعيّة والأصولية نقلًا تامًّا، وتثبّتوا في نقلها، فلا يتّهمون في نقلها بنقص ولا زيادة ولا خيانة فما داموا كذلك فكيف تتوجّه إليهم التّهم، نقول: نقبل هذه السنّة كما قبلنا بقيّة السنن، فما الفرق؟ إذا قبلنا ما نقلوه في العقيدة، فكذلك نقبل ما نقلوه في الأحكام، وما نقلوه في الفروع، فهي سنّة ثابتة متواترة لا شكّ فيها.

أمّا مسألة غسل القدمين، فالرافضة لا يغسلون القدمين ولو كانتا مكشوفتين، بل يكتفون بمسحهما ويستدلون بقراءة الجرّ: {وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ}، وأهل السنّة يحملون الجرّ على أنّه للمجاورة، ويستدلّون بقراءة النّصب: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، يعني: واغسلوا أرجلكم، فهذا متعلّقهم، وأهل السنة يرون غسل القدمين، وأنّها تغسل كما تغسل اليدان إلى المرفقين، ويستدلّون بالسنّة؛ لأنّه تواتر عن النبي ﷺ أنّه كان إذا توضّأ غسل قدميه، ولم ينقل عنه أنّه مسحهما وهما ظاهرتان، لم ينقل عنه المسح إلا على الخفّين، أما إن لم تكن في خفّين فإنّه يغسلهما. هذا الذي تواتر عنه، رواه عنه الأعداد الكثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم، ورواه عن الصحابة رضوان الله عليهم التّابعون، وتلقّته الأمّة بالقبول قولًا وعملًا واشتهر ذلك فيما بين

المسلمين، وجاءت الرافضة فأنكروا ذلك، وقالوا: نقتصر على المسح.

سبب ذلك أنّهم لا يقبلون -كما ذكرنا- أحاديث الصحابة؛ لأنّ هؤلاء الصحابة الأجلاّء في زعمهم كفّار، ولأنّهم ارتدّوا بعد الرّسول ﷺ، هذه عقيدتهم قاتلهم الله، يكفّرون الصحابة وهم الكفّار، فأهل السنّة عملوا بالسنّة المتواترة في المسح على الخفين وغسل الرجلين إذا لم تكونا في خفّين، وخالفهم الرافضة في ذلك.

وبكلّ حال هذه مسألة فرعيّة وليست اعتقاديّة؛ لأنّ العقائد إنما تكون في الأمور التي تحتاج إلى أمر خفي، دليله خفيّ أو هو من الأمور الغيبيّة وما أشبه ذلك من أمور الآخرة ونحوها، وأما مسائل الصلاة والطهارة وما أشبهها، فإنّها من الفروع، ولكنّها قد تدخل في الأصول إذا كانت أدلّتها قطعيّة يقينيّة، وهكذا مسألة المسح على الخفّين مسألة يقينيّة، إذا كان الثابت فيها أربعين حديثًا، ووصلت إلى ستّة وخمسين بما فيها الروايات المنقطعة التي وصلت من طرق أخرى، والضعيفة التي قوّيت بالتواتر، أو نحو ذلك فأصبح الدليل يقينيًا، وليس ظنّيًا كما يقولون هم، وأصبح الذين عملوا به واتّبعوه من الصحابة، هم الذين نقلوا لنا كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ.

قال الشارح:

وَإِذَا قَالُوا: لَفْظُ الآية ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ الذي لَا يُمْكِنُ فيه الْكَذِبُ وَلَا الخَطَأُ، فَثُبُوتُ التَّوَاتُرِ فِي نَقْلِ الْوُضُوءِ عنه أولى وَأَكْمَلُ، وَلَفْظُ الآية لَا يُخَالِفُ مَا تَوَاتَرَ مِنَ السنة، فَإِنَّ المَسْحَ كَمَا يُطْلَقُ وَيُرَادُ به الْإِصَابَة، كَذَلِكَ يُطْلَقُ وَيُرَادُ به الْإِسَالَة، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: تَمَسَّحْتُ لِلصَّلَاة، وفي الآية مَا يَدُلُّ على أنه لَمْ يُرِدْ بِمَسْحِ الرِّجْلَيْنِ المَسْحَ الذي هُوَ قَسِيمُ الْغَسْلِ، بَلِ المَسْحُ الذي الْغَسْلُ قِسْمٌ منه، فإنه قَالَ: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إلى الْكِعَابِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، فَدَلَّ على أنه لَيْسَ فِي كُلِّ رِجْلٍ كَعْبٌ وَاحِدٌ، كَمَا فِي كُلِّ يَدٍ مِرْفَقٌ وَاحِدٌ، بَلْ فِي كُلِّ رِجْلٍ كَعْبَانِ، فَيَكُونُ تعالى قَدْ أَمَرَ بِالمَسْحِ إلى الْعَظْمَيْنِ النَّاتِئَيْنِ، وَهَذَا هُوَ الْغَسْلُ، فَإِنَّ مَنْ يَمْسَحُ المَسْحَ الخَاصَّ يَجْعَلُ المَسْحَ لِظُهُورِ الْقَدَمَيْنِ، وَجَعْلُ الْكَعْبَيْنِ فِي الآية غَايَةً يَرُدُّ قَوْلَهُمْ. فَدَعْوَاهُمْ أَنَّ الْفَرْضَ مَسْحُ الرِّجْلَيْنِ إلى الْكَعْبَيْنِ، اللَّذَيْنِ هُمَا مُجْتَمَعُ السَّاقِ وَالْقَدَمِ عِنْدَ مَعْقِدِ الشِّرَاكِ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ والسنة.

وفي الآية قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ: النَّصْبُ وَالخَفْضُ، وَتَوْجِيه إِعْرَابِهِمَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِه، وَقِرَاءَةُ النَّصْبِ نَصٌّ فِي وُجُوبِ الْغَسْلِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ على المَحَلِّ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ المعنى وَاحِدًا، كَقَوْلِه:

.... فَلَسْنَا بِالجِبَالِ وَلَا الحَدِيدَا[1]

---

(١) عجز بيت لعقيبة بن هبيرة الأسدي، وصدره: (معاوي إننا بشر فأسجح). انظر: تاريخ دمشق (٢٦/ ٤٦)، وكتاب سيبويه (١/ ٦٧).

وَلَيْسَ معنى: مَسَحْتُ بِرَأْسِي وَرِجْلِي، هُوَ معنى: مَسَحْتُ رَأْسِي وَرِجْلِي، بَلْ ذِكْرُ الْبَاءِ يُفِيدُ معنى زَائِدًا على مُجَرَّدِ الْمَسْحِ، وَهُوَ إِلْصَاقُ شَيْءٍ مِنَ الْمَاءِ بِالرَّأْسِ، فَتَعَيَّنَ الْعَطْفُ على قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾. فَالسُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ تَقْضِي على مَا يَفْهَمُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ بَيَّنَ لِلنَّاسِ لَفْظَ الْقُرْآنِ ومعناه، كَمَا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَعَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ، وَغَيْرُهُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النبي ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُتجَاوِزُوهَا حتى يَتَعَلَّمُوا مَعْنَاهَا[1].

وفي ذِكْرِ الْمَسْحِ فِي الرِّجْلَيْنِ تَنْبِيه على قِلَّةِ الصَّبِّ فِي الرِّجْلَيْنِ، فَإِنَّ السَّرَفَ يُعْتَادُ فِيهِمَا كَثِيرًا. وَالْمَسْأَلَةُ مَعْرُوفَةٌ، وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ.

قال الشيخ:

هذا يتعلّق بغسل القدمين والإنكار على من يمسح القدمين كالرافضة، وهم يستدلّون بقراءة الخفض ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾.

والجواب: أنّنا نستدلّ بقراءة النصب، فالقراءتان تفسّر إحداهما الأخرى. هذا من جهة.

ومن جهة ثانية: أنّ المسح يطلق على الغسل، يسمّى الغسل مسحًا؛ تقول العرب: تمسّحت للصلاة، يعني غسلت أعضائي غسلًا خفيفًا، فالأمر بقوله:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٠)، والطبري (١/ ٦٠).

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، أي: اغسلوها غسلًا خفيفًا، قيل: إن سبب ذلك أنّ القدمين مظنّة الإسراف؛ لأنّهما قد يحتاج إلى كثرة صبّ الماء عليهما، ولأجل ذلك نهي عن الإسراف في صبّ الماء، فأمر بالغسل الخفيف الذي هو المسح.

وهناك جواب ثالث وهو أنّ الله حدّد موضع الغسل في اليدين والرجلين أي نهايته، ففي اليدين قال: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، ومعلوم أنّ التحديد يدلّ على أنّه مغسول، تُغسل اليد إلى المرفق، ثمّ قال: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾، فبيّن أنّها تغسل إلى الكعبين حيث ذكر النهاية، ولم يذكر ذلك في الرأس حيث قال: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾، ولم يقل إلى القُذال، أو إلى العنق، أو إلى الأذن، بل أطلق ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾، فالمسحُ لم يذكر له تحديدًا، والغسل ذكر له تحديدًا إلى الكعبين، والكعبان: هما العظمان الناتئان في ظاهر القدم. والرافضة يقولون إنّ الكعب هو العظم الذي في المفصَل، وهو كعب واحد، فيقولون: إنّ في كلّ رجل كعبًا واحدًا، وهو العظم الذي في المفصل بين الكعب وبين الساق، ولو كان كذلك لقال: إلى الكعاب، كما قال إلى المرافق.

وعلى كلّ حال، فتفصيل الكلام في المسألة لا يطال به، والمسألة ظاهرةٌ جليّةٌ والحمد لله.

كان من جملة ما مرّ بنا من أمور العقيدة وآثارها: مسألة المحبّة والبغض والولاء والبراء، وهو أنّ أهل السنّة يحبّون أهل الإيمان وأهل التقوى، ويبغضون

أهل الكفر والعناد، يحبّون أهل الطاعات، ويبغضون أهل المعاصي، وينتج من آثار هذه المحبّة الولاء لمن يحبّونه، والمعاداة والبغضاء لمن يبغضونه، ويكون سبب الولاء والبراء هو آثار الطاعة وآثار المعاصي. وهذه صفة مدح بها الله أولياءه، مدح بها صحابة نبيّه ﷺ؛ وذلك أنّهم لـمّا ألّف الله بينهم جمعهم على الإيمان، ولـمّا اجتمعت كلمتهم على تقوى الله تعالى تآلفوا فيما بينهم، فصار يحبّ بعضهم بعضًا، ويألف بعضهم بعضًا، ويوالي بعضهم بعضًا ويقرّب بعضهم بعضًا، بل وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]، وهل أكثر من هذا الوصف؟ أنّهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، يقدّمون إخوتهم في ذات الله تعالى على مصالحهم الدنيويّة، ويقدّمونهم على شهواتهم الدنيويّة، فيؤثر أحدهم أخاه بالطعام ويبيت جائعًا، ويؤثره بالشراب ويبيت ظامئًا، ويؤثره بالكسرة الجميلة، ويؤثره بالمكان الوطيء والمركب الليّن ونحو ذلك، من باب المحبّة التي رسخت في قلوبهم، فهم لـمّا أحبّوا الله تعالى أحبّوا أولياءه، وأحبّوا من يحبّه، ومحبّ المحبوب محبوب.

هكذا وصفهم الله تعالى، وألّف بين قلوبهم، بالرغم مع تباعدهم في الأرحام، وتباعدهم في الأنساب، وتباعدهم في البلاد، ولكن جمعهم وصف الإيمان، وتآلفت قلوبهم ولو كانوا قبل ذلك متعادين ومتقاتلين ومتناحرين. فهم قبل الإسلام كان بعضهم ينهب بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم

بعضًا؛ لأنه لم يوجد إيمان يؤلّف بينهم، ويجمع بين قلوبهم، فلمّا منّ الله عليهم بهذا الإيمان تآلفوا وتآخوا وتقاربوا، وهذا من الله تعالى لا من خلقه، ولهذا امتنّ على رسوله ﷺ بجمعهم عليه، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الأنفال:٦٢، ٦٣]، فتأليف القلوب هو اجتماعها وتحابّها وتوادّها، ولو كانوا متباينة أنسابهم، فبعضهم من الحبشة كبلال، وبعضهم من الروم كصهيب، وبعضهم من الفرس كسلمان، وبعضهم من العرب، وبعضهم من العجم، ولكن جمعهم الوصف الوحيد الذي هو الإيمان بالله تعالى. فلنا بهم قدوةٌ، وكذلك كلّ المسلمين في كلّ زمان وفي كلّ مكان، يتآلفون فيما بينهم ويتوادُّون ويتحابّون.

وكذلك أيضًا من آثار التوادّ لأجل الإيمان: البغض لأجل الكفر والنفاق؛ لأن الكفر والإيمان ضدّان لا يجتمعان، فلا يجتمع أنك تحبّ الله وتحبّ أعداءه، فإذا أحببت الله أحببت أولياءه، وأحببت طاعته وأحببت أهل طاعته، وإذا أحببت أولياءه فلا بدّ أن تبغض أعداءه، ولا بدّ أن تبغض من يبغضهم الله، وتقاطعهم وتعاديهم وتبتعد عنهم كلّ الابتعاد؛ وذلك لأنّ ربّك الذي أنعم عليك يبغضهم، وأنت تبغضهم لأجل ذلك، ومبغض المحبوب مبغوض، والذين يبغضهم محبوبك لا بدّ وأن تبغضهم، وهذا ما جرى للصحابة -رضي الله عنهم- ومن بعدهم، فإن الله تعالى مدحهم فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢]، لا تجدهم يوادّون أهل المحادّة،

ولا تجدهم إلا يباعدونهم ويبغضونهم، لا تجد المؤمنين حقًّا يوادّون أهل المعصية، وأهل المحادّة أبدًا، بل لا تجدهم إلا وقد قاطعوهم، وباينوهم، وخالفوهم، وأبغضوهم، واحتقروهم وحقّروا شأنهم، وكرهوا مجالستهم ومؤانستهم، وقطعوا الصلة بهم ونفروا منهم ونفَّروا منهم وحقّروا شأنهم، وأذلوهم، وأهانوهم وحرصوا على إهانتهم بكلّ ما يستطيعون، وإذا استطاعوا أن يقاتلوهم قاتلوهم، ولو كانوا أقرب قريب آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. ضرب الله مثلًا بهؤلاء الذين هم أقرب الأقارب، الآباء والأبناء هم أقرب الأقارب، فإذا كان الله يبغضهم لمعصيتهم ولأجل خروجهم عن الاستقامة، فإن المؤمن يبغضهم، يحبّهم من أجل النسب، ولكن يبغضهم لأجل المعصية، يبغضهم لأجل الخروج عن طاعة الله، هكذا يكون أولياء الله، يبغضون من أبغضه الله تعالى، ولو كانوا أقارب، ويحبّون من يحبّه الله تعالى ولو كانوا أباعد.

كذلك مرّ بنا مسألة فرعيّة، وذكرنا أنّها أدخلت في الأصول؛ لأجل أنّ الخلاف فيها مع المخالفين في الأصول، وهي مسألة المسح على الخفين، وذلك لأنّ الرافضة أنكروا المسح على الخفين وصاروا مع ذلك يمسحون على القدمين المكشوفين، فتركوا سنّة وارتكبوا بدعة، ولما كانوا مخالفين في العقيدة مخالفين في محبة الصحابة، بل يبغضونهم، كذلك يغلون في بعض الصحابة ويعبدونهم، ونحن نخالفهم في هذا المعتقد الذي هو بغض الصحابة وردّ السنّة والطعن في الكتاب والسنّة ونحو ذلك، وكانوا أيضًا مخالفين لنا في هذه السنّة التي هي المسح على الخفين، فكانوا لا يرون ذلك ولا يعتقدونه، وأضافوا إلى ذلك بدعة أخرى

وهـي أنّهـم يمـسحون عـلى القـدمين المكـشوفين؛ لأنّهـم لا يقبلـون الـسنّة، ولا يعملـون بالأحاديـث الـصحيحة التـي في صـحيحي البخـاري ومـسلم، بـل ولا يعترفون بها، ولا يعترفون بأكثر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وبأكثر الأسانيد التي وردت في الكتب، فلمّا كان كذلك لم يقبلوا هـذه السنّة، مـع أنّها سنّة مـأثورة متواترة نقلها جمّ غفير من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عـن النبي ﷺ، ورواهـا عـن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الجمّ الغفير أيضًا، واشتهرت في عهـد التـابعين وتـابعي التـابعين، وعمـل بهـا أهـل الـسنّة في مختلـف الـبلاد وعـلى اخـتلاف الطبقـات، وانفردت الرافضة بأن أنكرت هذه السنّة مع شهرتها.

فلأجل ذلك صار الذين ينكرونها محلّ سوء ظنّ، كما ذكرنا عـن ابـن المبارك قوله: «إنّ الرجل ليسألني عن حكم المسح عـلى الخفـين فـأُسيء بـه الظـنّ». يعني: يتّهم بأنه من الرافضة، وهذا هو المعمول به، أنه لا ينكرهـا إلا هـؤلاء الرافـضة فـلا التفات لهم، وأما أحكام المسح على الخفين فمذكورة في كتب الأحكام.

قال الطحاوي:

والحَجُّ والجِهادُ مَاضِيانِ مَعَ أُولِي الأَمْرِ مِنَ المُسْلِمِيْنَ، بَرُّهُمْ وفاجِرُهُمْ إِلى قِيامِ السَّاعةِ، لاَ يُبْطِلُهُما شَيْءٌ ولاَ يَنْقُضُهُما.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رحمه الله ـ إلى الرَّدِّ على الرَّافِضَة، حَيْثُ قَالُوا: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ الله حتى يَخْرُجَ الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: اتَّبِعُوهُ!! وَبُطْلَانُ هَذَا الْقَوْلِ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ عليه بِدَلِيلٍ. وَهُمْ شَرَطُوا فِي الْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا، اشْتِرَاطًا بِغَيْرِ دَلِيلٍ! بَلْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[1] عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِي، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة، أَلَا مَنْ وَلِيَ عليه وَالٍ فَرَآه يأتي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ الله فَلْيَكْرَه مَا يأتي مِنْ مَعْصِيَةِ الله، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِه».

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ نَظَائِرِ هَذَا الحَدِيثِ فِي الْإِمَامَةِ. وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّ الْإِمَامَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا. وَالرَّافِضَة أَخْسَرُ النَّاسِ صَفْقَةً في هذه المسألة؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْإِمَامَ المَعْصُومَ هُوَ الْإِمَامَ المَعْدُومَ، الذي لَمْ يَنْفَعْهُمْ فِي دِينٍ وَلَا دُنْيَا!! فَإِنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ

---

(١) برقم (١٨٥٥).

الْإِمَامَ الْمُنْتَظَرَ، مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِي، الَّذِي دَخَلَ السِّرْدَابَ فِي زَعْمِهِمْ، سنة سِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ بِسَامَرَّا! وَقَدْ يُقِيمُونَ هُنَاكَ دَابَّةً، إِمَّا بَغْلَةً، وَإِمَّا فَرَسًا، لِيَرْكَبَهَا إِذَا خَرَجَ! وَيُقِيمُونَ هُنَاكَ فِي أَوْقَاتٍ عَيَّنُوا فِيهَا مَنْ يُنَادِي عليه بِالْخُرُوجِ: يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ! يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ! وَيُشْهِرُونَ السِّلَاحَ؛ وَلَا أَحَدَ هُنَاكَ يُقَاتِلُهُمْ! إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَضْحَكُ عَلَيْهِمْ مِنهَا الْعُقَلَاءُ!!

وقوله: (مَعَ أُولِي الْأَمْرِ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ)؛ لِأَنَّ الْحَجَّ وَالْجِهَادَ فَرْضَانِ يَتَعَلَّقَانِ بِالسَّفَرِ، فَلَا بُدَّ مِنْ سَائِسٍ يَسُوسُ النَّاسَ فِيهِمَا، وَيُقَاوِمُ فيها الْعَدُوَّ، وَهَذَا المعنى كَمَا يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْبَرِّ يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ.

قال الشيخ:

يتعلّق هذا بالإمامة، وهي الولاية العامّة والولاية الخاصّة، وذلك لأنّ أهل السنّة يرون السمع والطاعة للأئمّة، وقد تقدّم الاستدلال على ذلك بمثل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وبمثل قوله ﷺ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»(١)، وقوله ﷺ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا»(٢)، وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ،

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٤٤).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

وَإِنْ كان عَبْدًا مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ»[١].

وفي هذا الحديث الذي أورده الشارح: أنه ﷺ قال: «خِيارُ أئِمَّتِكُمْ الَّذِيْنَ تُحِبُّوْنَهُم ويُحِبُّوْنكُم، وتُصَلُّونَ عَلَيهِم، ويُصَلُّونَ علَيْكُم، وشِرَارُ أئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُبْغِضونَهُمْ ويُبْغِضونكُمْ، وتَلْعَنُونَهُم ويَلْعَنُوْنكُم»، قالَ: قلنا: يا رسولَ الله، أَفَلا نُنابِذُهُم عِنْدَ ذلِكَ؟ قالَ: «لاَ، ما أَقَامُوا فِيْكُم الصَّلاةَ...».

قوله: «تُصَلُّونَ عَلَيهِم، ويُصَلُّونَ علَيْكُم»، أي: تدعون لهم ويدعون لكم، «وتَلْعَنُونَهُم ويَلْعَنُوْنكُم»، أي: تدعون عليهم ويدعون عليكم، «ما أَقَامُوا فِيْكُم الصَّلاةَ»، أي: ما داموا يقيمون الصلاة فيكم، فيبنون المساجد، ويعيّنون الأئمّة والمؤذنين، ويرفعون صوت الأذان في كلّ وقت، ويجتمع المصلّون ويقيمون الصلاة جماعة؛ لأنّ الصلاة هي شعار الإسلام وشعار المؤمنين.

فهذه الأدلّة تدلّ على وجوب السمع والطاعة للأئمّة، ولو كان فيهم شيء من النقص، ولو حصل فيهم شيء من الخلل والمعصية؛ لأنّ الاجتماع على الأئمّة مصلحة للأمّة؛ لأنّ ترك الاجتماع والتفرّق والاختلاف يكون سببًا للنهب والسلب والضرب والقتل، فيكون الضعيف نهبًا للقوي، وليس هناك من يأخذ حقّه، وتسلب الأموال، ولا يكون هناك حدود، ولا إنصاف لمظلوم إلا بهذه الولاية. فهذا هو السبب في أنّه أمر بالسمع والطاعة لولاة الأمور، بل حرص على أن يكون في كلّ طائفة أمير يرجعون إليه، فقد قال ﷺ: «إذا خَرَجَ ثَلاثَةٌ في سَفَرٍ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٩).

فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»[١]، فإذا كانوا ثلاثة أو أكثر وقد خرجوا في سفر فليؤمروا واحدًا منهم؛ ليرجعوا إليه ويستشيرونه ويشير عليهم، كلّ ذلك حثّ للأمّة أن يسمعوا ويطيعوا لولاة أمورهم.

وقد تقدّم شرح حقوق الأئمّة وما يجب لهم، ولكن ذكر هنا أنّ الجهاد والحج ماضيان مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا كما وردت بذلك السنّة، وكما عمل بذلك السلف الصالح، فكانوا يحجّون ويكون أمير الحجّ أحد الولاة، وقد يكون سفيهًا، وقد يكون فيه شيء من النقص، فقد يؤخّر الصلاة عن وقتها مثلًا، وقد يستمع شيئًا من اللهو، وقد يتعاطى شيئًا من الأشربة المكروهة كالنبيذ ونحوه، ولكن مصلحة جمعه لهؤلاء الحجاج، وحمايتهم عن قطّاع الطريق مصلحة كبيرة لا يستهان بها.

وقد كانوا في الأزمنة المتقدّمة من عهد الخلفاء إلى عهد قريب لابدّ أن يكون للحجّ أمير، كلّ أهل جهة يخرج بهم أمير يتأمّر عليهم، وإذا وصلوا إلى مكة تأمّر عليهم واحد يرجعون إليه، فأهل العراق يحجّون مع أمير خاصّ بهم يحميهم عن قطّاع الطريق إلى أن يصلوا إلى مكة، وكذلك أهل الشام، وأهل خراسان، وأهل البحرين، كلّ أهل جهة وإقليم يجتمعون مئات وربّما ألوفًا ويسيرون جميعًا، ولا يتفرّقون خوف قطّاع الطريق، فإذا وصل هؤلاء وهؤلاء إلى مكّة، كان الأمير واحدًا، وهو الذي يؤذّن فيهم بوقت الوقوف في عرفة، ويؤذّن فيهم بوقت

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٥٢).

الانصراف من عرفة، ويؤذّن فيهم بوقت رمي الجمار، وكذلك بوقت الخروج من مزدلفة، وهكذا، ويسيرون إذا سار، وينزلون إذا نزل، ويقتدون به، ويقيم لهم الأحكام، ويعلمهم المناسك.

في الأثر عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنّه سُئل: متى نرمي الجمار؟ فقال: «إذا رمى إمامك»[1]، يعني: انتظر حتّى يرمي الإمام، فإذا رمى، فإنّ ذلك وقت الرمي. فدلّ على أنّهم لا يبدؤون برمي الجمار إلا إذا رمى أئمّتهم.

في هذه الأزمنة لمّا أمنت البلاد، وتقاربت الطرق وقُطع دابرُ قطاع الطريق، ونكبوا ولم يبقَ هناك من يعترض إلاّ فئة قليلة، صارت الطرق آمنة وأصبحوا يحجّون أفرادًا، وجاءت هذه الناقلات الجديدة، الحافلات والسيّارات والطائرات والبواخر ونحوها، وسهّلت للناس الطرق، وصاروا لا حاجة إلى أن يستصحبوا أميرًا أو يجتمعوا كلّهم، فهذا السبب في التساهل في أمر الولاية حتّى في المناسك، أصبحوا يعرفون المناسك، وقد حدّدت أماكنها وأوقاتها، وما أشبه ذلك، ولم يعد هناك ضرورة إلى إقامة أمير في الحج.

أمّا بالنسبة إلى الجهاد فمعلوم أنّه يحتاج أميرًا ذا حنكة ومعرفة بطرق السير، وكذلك بأوقات القتال وبمناسباته، فلأجل ذلك ما كانوا يغزون إلا ومعهم أمير قد عرف الطرق وعرف القتال، وقد صارت له فطنة وتجربة قويّة، فكانت كلّ سريّة أو كلّ جيش يخرج للغزو - السريّة ما دون الثلاثمئة، والجيش ما فوق ذلك

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٤٦).

إلى عشرين ألفًا أو مئة ألف ـ فلا يخرجون إلا مع أمير يسير بهم، فيرفُق بضعيفهم، ويزجي متخلّفهم، وينتظر منقطعهم، هذا لمّا كان السير في ذلك الوقت على الرواحل التي يكون سيرها بطيئًا، ويحتاجون إلى أن يتأنّوا في سيرهم، فكان لا بدّ من تأمير واحد عليهم، ثمّ هو الذي يحدّد لهم وقت القتال، ويعيّن لهم الأماكن التي يقيمون فيها، ويقسّمهم أقسامًا، ويجعل منهم ميمنةً وميسرة وقلبًا، ويعجّل فيهم بالحملة على القتال عندما يأذن لهم، وينصب لهم الرايات والأعلام، لم يكن بدّ من أن يكون هذا الأمير ذا تجربة، وقد يكون الأمير فيه شيء من الخلل، أو عليه شيء من الخلاف، أو فيه نقص أو عيب، أو يفعل شيئًا من المعاصي، أو يترك شيئًا من الطاعات، ولكن لا يكون ذلك العمل الذي يعمله كفرًا؛ لقوله ﷺ: «إلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ من اللَّهِ فيه بُرْهَانٌ»[1]. يعني: فلا تسمعوا ولا تطيعوا ولا تقاتلوا معه والحال هذه. فأمر بأن يقاتل مع هؤلاء ولو كانوا ذوي معصية أو خلل أو نقص. وبكلّ حال فهؤلاء الذين أُمرنا أن نجاهد معهم ونسير معهم.

في هذه الأزمنة قد يقال: تغيّرت الأحوال، ومع كلّ ذلك لا بدّ لكلّ غزو، أو لكلّ رباطٍ من رئيس يرأسهم يمتثلون إرشاداته وأوامره، يقفون إذا أوقفهم، ويرابطون، ولا يتراجع أحد منهم إلا بعدما يأذن له. فهذه الأمور لا بدّ من اعتبارها.

هذه الأزمنة يقولون إنّه تبدلت الأمور التي كانت سائدة قديمًا؛ لأنّ

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١١٢).

الأسلحة تغيّرت عمّا كانت عليه، كان القتال قديمًا مواجهة بالسيف والرمح والنّبال والسهام، وجهًا لوجه، وأما الأسلحة الآن فقد يكتفى بقذفها من بعيد، كالصواريخ والقنابل وما أشبهها، ولكن لا يزال هناك حاجة إلى منفّذ وإلى أمير يُطاع في مثل هذه الأمور، هذا هو السرّ في الأمر بطاعة الولاة، وفي الأمر بالحجّ معهم وبالغزو معهم، ولو كان فيهم شيء من النّقص أو الخلل.

ثم ذكر أنّ هذا أتى به الطحاوي ردًّا على الرافضة، والرافضة من عقيدتهم أنّه لا يجاهد أحد إلا مع إمام معصوم، ولا يحجّ إلا مع إمام معصوم، ولا يزالون على هذه العقيدة إلى يومنا هذا، لدرجة أنّهم لا يصلّون خلفنا؛ لأنّهم يرون أنّ الصلاة لا تصحّ إلا خلف معصوم، أو خلف من يتمسّك بعقيدة ذلك المعصوم.

ومعلوم أنّ الرافضة اعتمدوا أنّ أئمّتهم الذين يعود نسبهم إلى أهل البيت اثنا عشر، وقد انقطعوا، أوّلهم الإمام علي ﷺ، في نظرهم أنّه هو الإمام، وأنّ له الإمامة، وأنّ خلافة أبي بكرٍ ﷺ باطلةٌ وأبو بكر ﷺ مغتصب للخلافة، وكذلك خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما، يدّعون أنّهم أخذوا ما لا يستحقّونه، ويسبّونهم ويدّعون أنّهم ظلمة، وكذلك يخوّنون الصحابة - رضي الله عنهم - الذين بايعوهم وأقرّوهم هذه المدّة، مع أنّ من بينهم عليًّا وأبناء عليّ ﷺ، فهذا معتقدهم. ثم يجعلون بعد عليّ الحسن، ثم بعد الحسن الحسين، ثم عليّ بن الحسين وهو زين العابدين، ثم بعده محمد الباقر، ثم جعفر الصادق، ثم علي الرضى إلى آخرهم، وهو محمد بن الحسن العسكري.

لَمَّا أنّ الحسن العسكري لم يكن عنده أولاد، وكان عندهم أنّ الإمامة في

ذريّة عليّ، ثم في ذريّة ذريّته، كلّ واحد يخلفه ولده، فلم يكن للحسن العسكري أولاد، وتوفي، أوحى إليهم الشيطان أنه لا يمكن أن ينقطع الأمر، وأن لا يكون لهم أولاد يخلفونهم، فإذًا الثاني عشر من أئمتهم هو محمد بن الحسن العسكري، أين هو؟ دخل سرداب سامرّاء ولم يخرج، يدّعون أنّه دخل وهو طفل أو عندما ترعرع، وأنّه لا يزال في ذلك السرداب، وأنّهم ينتظرونه ليخرج من سنة مئتين وستين أو نحوها، وهم ليس لهم إمام، مع أنّهم يقولون: لا تصلح الدنيا إلا بإمام، والإمام لا بدّ أن يكون معصومًا، وأنّ الإمامة لا تخرج عن ذريّة علي، ثم ذريّة الحسين، ثم ذريّة زين العابدين، ثم ذريّة الصادق والباقر والرضا إلى الحسن، فلابدّ أن يكون له ولد يخلُفُه.

أهل العلم والمؤرخون يقولون: إنّ الحسن العسكري ليس له ولد، مات قبل أن يولد له، ولكن هؤلاء لـمّا كانت العقيدة راسخةً عندهم أنّ نسله لا ينقطع، جاءهم الشيطان، وقال: إنّ له ولدًا، ولكنّه دخل هذا السرداب، ولا بدّ له أن يخرج فانتظروه، فصاروا ينتظرونه من ألف ومئة وسبع وستين سنة، كانوا في تلك المدة في الأزمنة القديمة يُجلِسون واحدًا ينتظره ويصيح: اخرج يا مولانا، اخرج يا مولانا، ولا يجيبه أحد، وقد جعلوا عند طرف السرداب فرسًا، وجعلوا عليها سرجًا، وجعلوا مع الحرّاس الذين يحرسونها سيوفًا حتّى يحموه إذا خرج، ويدّعون أنّه سيخرج الآن ويركب الفرس، ويذهب إلى مكانهم، ويقتل أعداءهم، وينتصر لهم ممّن خالفهم، ولا يزالون إلى اليوم على هذه الطريقة يؤملون خروجَه.

في زمن الشارح كانوا يقيمون عند السرداب فرسًا، والآن لا أدري أستبدلوا

مكان السرداب سيارة أم غيرها؟ وقد ذكروا أنهم جعلوا هناك دبابًا مهيئًا لركوبه، فهم لا زالوا ينتظرونه. وهذا غاية الحمق، وغاية الضلال.

لما ذكر ابن القيم في آخر كتابه «المنار المنيف»[1] حالتهم، وأنّ الحسن العسكري هو منتظَرُهم، وأنّهم لا يزالون ينتظرونه، أنشد قول الشاعر:

مَا آنَ لِلسِّرْدَابِ أَنْ يَلِدِ الَّذِي ... كَلَّمْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ مَا آنَا

فَعَلَى عُقُولِكُمُ العَفَاءِ فَإِنَّكُمْ ... ثَلَّثْتُمُ العَنْقَاءَ وَالْغِيلَانَا

السرداب الذي تحرسونه ما آن له أن يلد الولد الذي حمّلتموه به، فلا بد للحامل أن تلد، فمتى يلد هذا السرداب هذا الولد؟ فلابدّ أنكم ممسوخو العقول. وهذا غاية السفه، وغاية الضلالة، يشترطون أن يكون للدنيا إمام معصوم، وأنّ الدنيا لا تخلو من إمام معصوم، وأنّ ذلك الإمام هو الذي يدبّر الناس، ويدبّر الأمور! إمامكم يا معشر الرافضة لم ينفعكم، فمنذ ألف ومئة وسبع وستين سنة لم تنتفعوا بهذا الإمام الذي تزعمونه.

هذه حالتهم، ولمّا أنْ استولى عليهم قريبًا الخميني، الذي سمّوه آية الله الخميني، قالوا له ننتظر أن يخرج المهدي المنتظر، يعني العسكري. فيقولون: إنّه قال: نحن نخلفه حتّى يخرج، خدعهم بذلك، وادّعوا أنّه خليفة عن المهدي المنتظر، الذي هو محمد بن الحسن العسكري؛ ولذلك صاروا يطيعونه، ويقدّسونه تقديسًا يخرج عن المعتاد، كما ذكر لنا من صحبهم أنّه عندهم كأنّه رسول، بل قد

---

(١) (ص١٥٢).

يشرّع لهم، ويأمرهم بأوامر لا يأمر بها إلا الرسل، أو من يتلقّى عن الرسل، يطيعونه بذلك؛ لأنّه عندهم خليفة المهدي المنتظر.

وبكلّ حال فقد خالفوا في هذا الأمر، وهو أنّهم لا يطيعون الأئمّة في كلّ زمان، لا يثبتون خلف أئمّة الزمان، بل كثيرًا ما يخرجون عن الطاعة وينبذونها ويقاتلون الأئمة والخلفاء، ويفعلون ذلك كثيرًا، إلى أن جاء الوقت الذي تفرّقت فيه الولايات، واستقلّت كلّ دولة في جهتها، فصار كلّ من تولى بلدًا سمّوه رئيسًا وزعيمًا وصار يتولّى فيمن تولّى عليه من رافضة أو غيرهم.

قال الطحاوي:

ونُؤْمِنُ بِالكِرَامِ الكَاتِبينَ، فإِنَّ الله قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَينا حَافِظِيْنَ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧، ١٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:٢١].

وفي «الصَّحِيحِ» عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ في صلاة الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَصْعَدُ إليه الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ ـ والله أَعْلَمُ بِهِمْ ـ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَفَارَقْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»(١). وفي الحَدِيثِ الآخَرِ: «إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الخَلَاءِ وَعِنْدَ الجِمَاعِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ، وَأَكْرِمُوهُمْ»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) بنحوه، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «هذا حديث غريب». وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٤٦) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ: اثْنَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ، يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ، صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الحَسَنَاتِ، وَصَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِه وَيَحْرُسَانِه، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِهِ، وَوَاحِدٌ أَمَامَه، فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَمْلَاكٍ بِالنَّهَارِ، وَأَرْبَعَةٍ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ، بَدَلًا، حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، قَالَ: مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَه مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَمِنْ خَلْفِه، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ الله خَلَّوْا عنه[(١)].

قال الشيخ:

نؤمن بالكرام الكاتبين وبالملائكة الحافظين، نؤمن بهم كما أمرنا الله، وإن كنّا لا نراهم، ولكنّ الإيمان بهم من أمر الغيب، وذلك لأنّ الله تعالى أخبر عن أشياء غيبيّة، فنحن نقبل بها ونصدّقها، ويكون لتصديقنا آثار.

أخبرنا عن هؤلاء المخلوقين، فإن الملائكة مخلوقون وإن كنّا لا نراهم، يكون أحدهم خلفنا أو أمامنا أو عن جانبينا ولا نراه، كما أخبرنا أيضًا بأنّ الشياطين يكونون معنا ولا نراهم، بل أخبر بأنّ الشيطان يلابس الإنسان، ويجري منه مجرى الدم، ويوسوس في صدور الناس، ومع ذلك لا نحسّ بهم ولا نراهم، فالإيمان بهم من الإيمان بالغيب الذي مدح الله أهله بقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٣٩).

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:٢، ٣]؛ لأنّه إيمان بشيء خفيٍّ، ولكن العمدة فيه خبر الله تعالى، وخبر الله صدق وحقّ، وكذلك خبر الرسل المصدّقين، نؤمن بما جاؤوا به ونتقبّله، وإن كان ذلك خلاف ما نألفه ونعرفه، وخلاف ما يقوله من يقوله، وينكره من ينكره، فلا نلتفت إلى إنكار من أنكر؛ لأن الذين أنكروا وجود الشياطين أو وجود الأرواح أو أنكروا الملائكة، أو أنكروا وجود الجنّ أو نحو ذلك لم يتّسع فهمهم للأمور الغيبية، ولا للأمور السماويّة، ولا للقدرة الإلهية، فلأجل ذلك لم يتجاوزوا ما يدركون بالحسّ، فهؤلاء إيمانهم ناقص.

الحاصل: أن الكلام على الملائكة، الكرام الكاتبين ذكره الله تعالى في كتابه الكريم، مثل قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، حافظين: يحفظونكم، وكاتبين: يكتبون أعمالكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٧، ١٨]، هذان الرقيب والعتيد، هما الملكان اللذان يكتبان الحسنات والسيّئات، الذي على اليمين يكتب الحسنات، والذي على الشمال يكتب السيّئات، وذكروا أنّ الذي على اليمين أمير على الذي على الشّمال، إذا عمل سيّئة قال له: لا تكتبها رجاء أن يتوب ويستغفر، فإذا استمرّ عليها كُتبت سيئة، وإذا عمل الحسنة كتبها صاحب اليمين عشر حسنات كما ورد في الحديث وفي القرآن.

هؤلاء هم الحفظة للأعمال، وللأقوال ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾، أيّة لفظة يتلفّظ بها إلاّ وتكتب وتسجّل في سجلّ هؤلاء الملائكة، كتابة الله أعلم بها، قد تكون بالأحرف، أو غير ذلك، لهم قدرة على الكتابة وإن كانت ما كانت، وكذلك يكتبون كلّ الأعمال، ولذلك وصفهم بقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، يعلمون كلّ ما تفعلونه، أو كلّ ما يدور في بال أحدكم، فإنّه مكتوب، ويطلعهم الله على أعمال القلوب، أعمال القلوب التي تكنّها القلوب، يثاب عليه العبد أو يعاقب، فيثاب على النصيحة، ويعاقب على الحسد والغلّ والغشّ، ويثاب على الإيمان الذي هو التصديق الجازم، ويعاقب على النفاق الذي هو الشكّ والرّيب، والذي هو من أعمال القلوب. فلابدّ أنّ الملائكة يعلمونها؛ لقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، هؤلاء هم الكتبة، ويسمّون أيضًا حفظة الأعمال.

وهناك أيضًا الحفظةُ الذين يحفظون الإنسان من الأضرار والأخطار التي يتعرّض لها، حتّى يأتي الأمر الذي قدّره الله تعالى فيخلّون بينه وبينه، وهم المذكورون في سورة الرعد في قوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١]، أي: يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء الأمر الذي قدّره الله، فإنّهم يخلّون بينه وبينه، ويدفعون عنه الأمور التي لم يقدّرها الله عليه، فيدفعون عنه الشّرور، والآفات، والأضرار، ويدفعون عنه الاعتداءات التي ما كتبها الله تعالى. فهم أربعة: ملكان عن اليمين وعن الشمال يحفظون أعماله، وملكان أمامه وخلفه يحفظون جسده عمّا لم يكتب عليه، فيبيت بين أربعة، ويصبح بين أربعة،

موكّل بكلّ إنسان ثمانية أربعة بالليل وأربعة بالنهار، فهولاء هم المعقّبات الذين يتعاقبون. كما في الحديث: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ في صلاة الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَصْعَدُ إليه الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - والله أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَفَارَقْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[1]. هذا من حفظ الله تعالى لأعمال العباد، الله تعالى قادر أن يحفظ عباده وأعمالهم من دون وكيل ومن دون كتابة، ولكنّه أراد بذلك قيام الحجّة على العبد حتّى لا يقول إنّي ظُلِمت وإنّي ما عملت كذا وكذا، بل يجد ما عمله كلّه مدوّنًا، فينشر له سجلّ بأعمال حسناته وسيئاته، ويقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤].

وصف الله المتّقين بالإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة:٢، ٣]، والغيب: كلّ ما أخبر الله به من الأمور الغائبة، التي ما رآها جنس البشر، وإن كان الله قد يطلع عليها بعض عباده.

ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالملائكة، الذي هو ركن من أركان الإيمان الستّة. فالإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه. والمذكور في قول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فالإيمان بالملائكة وأنهم

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٤١).

مخلوقون لله تعالى، وإن كنّا لم نرهم، وأنّهم مسخّرون في أمر الله، وأنّهم مطيعون له، وأنّ لهم وظائف، ولهم أعمال، فمن جملة الملائكة الذين نؤمن بهم الحفظة، الذين يحفظون الإنسان، ويحفظون الأعمال.

والحكمة في الإخبار عنهم: أن يؤمن الإنسان بأنّه غير مهملٍ، وبأنّ أعماله محفوظة، فإذا آمن الإنسان بهذا، فما نتيجة هذا الإيمان، وما علامة هذا الإيمان؟ لاشكّ أنّ علامة التصديق الجازم أن يكثر من الحسنات ويتحفّظ من السيئات، إذا علم أنّ سيئاته مكتوبة ومدوّنة، وأنّه لا بد أن يحاسب عليها، حرص على أن يبتعد عنها وأن يقلّل منها، وإذا علم أنّ حسناته مكتوبة وأنّها مرادة، وأنه سيلقى جزاءها في اليوم الذي هو بحاجة إلى حسنة تزيد في أعماله، حرص في هذه الحياة على أن يتزوّد من الحسنات، وأن يشغل وقته كلّه بعمل الخير الذي يكون في سجلّ حسناته.

هذه نتيجة الإيمان بالملائكة عمومًا، والإيمان بالملائكة الحفظة، ويعرف أيضًا أنّه ليس بمهملٍ، وليس بمطلق السراح، وليس له الحريّة، وليس له التصرّف في نفسه، بل هو مأمور ومنهيٌّ، ومحاسبٌ ومجزيٌّ، وهو أيضًا محفوظة أوقاته، ومحفوظة أعماله، مدوّنة حسناته وسيئاته.

نرى كثيرًا من الناس يقولون: نعم، نحن نؤمن بالغيب، ونؤمن بالملائكة، ونؤمن بالكرام الكاتبين، ونؤمن بكتّاب الحسنات والسيئات، ونعلم أنّنا محفوظة علينا أعمالنا، ولكن مع الأسف تجدهم متهالكين في السيئات، مقلّين من الحسنات، إذا ذكّرتهم قد ينتبهون، إذا قلت له: يا أخي، كلامك هذا الذي أكثرت

منه في هذا المجلس، فكّر هل هو في سجلّ حسناتك أو في سجلّ سيئاتك؟ عند ذلك ينتبه. إذا قلت له: كلامك هذا هل هو لك أو عليك؟ ينظر ويفكّر ويقول: صحيح أنّ أكثره عليّ لا لي، أنّ أكثره لا يزيدني بل ينقصني، وأكثره لا ينفعني بل يضرّني. إذاً لماذا تكثر من هذا الكلام الذي تعلم أنّه يضرّك، ولماذا تُكثر من الأفعال التي تضرّك ولا تنفعك؟!

يقول بعض السلف: من عرف أنّ كلامه من عمله، قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه. ويستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، نجواهم: كلامهم الذي يتكلّمون فيه، ومثل ذلك الحديث المروي: «كُلُّ كَلَامِ ابن آدَمَ عليه لَا له إلا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أو نهي عن مُنْكَرٍ أو ذِكْرُ اللَّهِ»[1]. فكلّ ما ينطق به الإنسان وكل ما يتلفّظ به، فإنّ لديه رقيب وعتيد موكّلان به، فليحاسب نفسه عند الكلام قبل أن ينطق به، وكذلك عند الأفعال قبل أن يفعلها، وينظر فيما ينفعه أو فيما يضرّه. والذي لا ينتبه ناقص العقل أو ناقص المعرفة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص٨، ٩)، وابن ماجه (٣٩٧٤)، وعبد بن حميد (١/ ٤٤٨)، وأبو يعلى (١٣/ ٥٦)، والحاكم (٢/ ٥١٢) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

قال الشارح:

وروى مُسْلِمٌ[(١)] وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ[(٢)] عَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ به قَرِينُه مِنَ الْجِنِّ، وَقَرِينُه مِنَ الْمَلَائِكَةِ»، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، لَكِنَّ الله أَعَانَنِي عليه فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ». الرِّوَايَة بِفَتْحِ الْمِيمِ مِنْ: «فَأَسْلَمَ»، وَمَنْ رواه: «فَأَسْلَمُ» بِرَفْعِ الْمِيمِ، فَقَدْ حَرَّفَ لَفْظَه. ومعنى «فَأَسْلَمَ»، أي: فَاسْتَسْلَمَ وَانْقَادَ لِي، فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ صَارَ مُؤْمِنًا فَقَدْ حَرَّفَ معناه؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا.

ومعنى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، قِيلَ: حِفْظُهُمْ له مِنْ أَمْرِ الله، أي الله أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ قِرَاءَة مَنْ قَرَأَ: {يَحْفَظُونَه بِأَمْرِ اللَّهِ}[(٣)].

ثُمَّ قَدْ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الْمَذْكُورَة أَنَّ الْمَلَائِكَة تَكْتُبُ الْقَوْلَ وَالْفِعْلَ، وَكَذَلِكَ النِّيَّة؛ لِأَنَّهَا فِعْلُ الْقَلْبِ، فَدَخَلَتْ فِي عُمُومِ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٢]. وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قوله ﷺ: «قَالَ الله - عَزَّ وَجَلَّ -: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَة فَلَا تَكْتُبُوهَا عليه، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عليه سَيِّئَة، وَإِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا له حَسَنَة، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا». وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَة: ذَاكَ

---

(١) برقم (٢٨١٤).

(٢) في المسند (١/ ٣٨٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١١٨).

عَبْدُ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَة، وَهُوَ أَبْصَرُ به، فَقَالَ: ارْقُبُوه، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا له حَسَنَة، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائي»، خَرَّجَاهُمَا في الصَّحِيحَيْنِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ[1].

قال الشيخ:

الحديث الذي بدأ به الشارح في بيان أنّ الإنسان موكّلٌ به ملائكةٌ يأمرونه بالخير، وهناك شياطين يأمرونه بالشرّ، ويسمّى هذا قرينًا وهذا قرينًا، الجنّي الذي هو الشيطان قرين سوء، والملك قرين خير، وقد ورد في الحديث: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ»[2].

الشيطان من أهل النار، ومن المعذّبين بها؛ لأنّه خُلق من النار، فأقدم على العذاب وأقدم على اللعنة، وأقسم أن يغوي جنس الإنسان، وأن يحرص على أن يخرجه من الإيمان، أقسم بذلك، وقال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ

---

(١) أخرج الرواية الأولى: البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وانفرد مسلم بالرواية الثانية (١٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٨٥)، وأبو يعلى (٨/ ٤١٧)، وابن حبان (٣/ ٢٧٨)، والطبراني في الكبير (٨٥٣٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]. وتوعد الله تعالى من اتبع الشيطان بقوله: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١١٩، ١٢٠]، هذا الشيطان عدوٌّ للإنسان، ليس من جنس بني آدم أحدٌ إلا وقد سُلِّط عليه شيطان ووكِّل به ملك، فالملك يأمره بالخير، والشيطان يأمره بالشرّ.

وقد سأل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ النبيّ ﷺ: هل سُلّط عليك شيطان ووكِّل بك ملك؟ قال: «نعم». لكن الشيطان الذي وكِّل بالنبيّ ﷺ أعانه الله عليه، فيقول ﷺ: «لَكِنَّ الله أَعَانَنِي عليه فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ». وليس معناه أنّه أصبح مسلمًا، بل المراد أنّه أذعن واستسلم، ولم يعد يأمر إلا بالخير؛ لأنّ الله تعالى عصم نبيّه ﷺ عن أن يتسلّط عليه الشيطان، فأعانه عليه، كما أنّ الله تعالى سخّر الشياطين لسليمان ـ عليه السلام ـ وذلّلهم له، وصاروا يعملون عنده، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]. وأمّا نبيُّنا ﷺ فذلّل الله له شيطانه، فلم يعد يأمره إلا بخير.

أمّا جنس بني آدم، فإنّ كلّ إنسان لا بدّ أن يتسلّط عليه هذا الشيطان ويوسوس له، فإذا رزقه الله قوّة الإيمان ورزقه قوّة اليقين، فإنّ تلك الوساوس التي يوسوس بها الشيطان لا تبقى في قلبه، ولا يصدّق بها، بل ينكرها، ويدفعها، هذا حقيقة المؤمن الصحيح الإيمان، ثمّ يعوّضه الله أنّ الملك الذي هو قرينه يثبّته وينشّطه ويذكّره ويدعوه إلى الخير، ويحثّه عليه، فيقوى الجانب الإيماني فإذا قوي

عزم على ترك الأعمال السيّئة، وعمل الأعمال الصالحة. فهذا هو المؤمن.

أما ضعيف الإيمان، فإنّ الشيطان هو الذي يتقوّى عليه، وتتمكّن وسوسته من قلبه، وتصدّه عن الهدى وتُوقِعُه في الردى، ولا ينفعه نصح الناصحين، ولا ينيب إلى لَـمَّة الملك ولا يلتفت إليها، فيبقى بعد ذلك بعيدًا عن الخير، مقبلًا على الشر.

وهكذا أصناف الخلق؛ فإمّا إيمانه ضعيف فيقوى عليه قرين السوء وهو الشيطان، وإمّا إيمانه قوي فيقوى عليه قرين الخير وهو الملك، والقوة والضعف ليست القوة البدنيّة، ولكنّها القوّة الإيمانيّة، كون الإيمان راسخًا في القلب، إذا جاءته وساوس الشيطان اضمحلّت، وإذا جاءته تثبيتات الملك تمكّنت وقويت، وهذا هو السبب في انقسام الناس إلى من يكون عدوًّا لله، ومن يكون وليًّا لله، من يكون وليًّا للشيطان ومن يكون وليًّا للرحمن، فأولياء الرحمن هم الذين أطاعوا الله تعالى وأطاعوا رسله، وصارت الملائكة الذين معهم يرسلونهم إلى الخير فيتّبعونهم، وأولياء الشيطان هم الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله. فهذا معنى كون الإنسان معه مَلَكٌ ومعه شيطان.

فيكون الإنسان معه ملائكة يدعونه إلى الخير ويحثّونه عليه، وملائكة يحفظونه، وملائكة يكتبون أعماله. الملائكة الذين يحفظونه هم الذين يقول الله فيهم: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]؛ وفسّرها بعض المفسّرين بقوله: يحفظونه امتثالًا لأمر الله تعالى، فإذا جاء القدر

خلَّوا بينه وبينه.

ثمّ هؤلاء الملائكة الذين هم الحَفَظَة يكتبون الحسنات والسيّئات، ومرّ معنا الحديث المشهور في «الصحيحين»[1]، حيث أخبر النبيّ ﷺ أنّ فضل الله أوسع على عباده، فالذي يهمّ بحسنة ولا يعملها يكتبها الله حسنة، والذي يهمّ بها ويعملها يكتبها عشرًا، والذي يهمّ بسيئة ولا يعملها يكتبها الله حسنة، والذي يهمّ بسيئة ويعملها يكتبها الله سيئة من دون مضاعفة، وإذا رزقه الله توبة منها مُحيت عنه بتوبته، وإذا أصرّ عليها وعمل سيئة إلى جانب سيّئات أخرى تكاثرت عليه وتراكمت عليه وأصبح مثقلًا بالسيّئات، ولكن قد أخبر الله تعالى بأنّه يمحوها بالتوبة ويمحوها بالحسنات، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤]. وقال النبيّ ﷺ: «وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها»[2]، يعني: متى وقعت في سيّئة، فأتبعها حسنة، إما حسنة العمل الصالح، وإمّا التوبة، وإما غير ذلك.

وقد تكلّم العلماء على هذا الحديث، وبيّنوا المراد منه، وأطالوا الكلام في ذلك، وملخّص ما ذكروا: أنّ الذي يهمّ بحسنة، ثم يتركها عجزًا أو تعبًا أو نحو ذلك، يكتبها الله حسنة وإن لم يعملها، همّ مثلًا أنْ يتصدّق على مسكين، ولكن لم يجد في ذلك الوقت شيئًا وفاتت حاجته، يكتبها الله له حسنة. وإذا همّ مثلًا أن يقوم في آخر الليل للصلاة، ولكن غلبه النومُ، أو الكسل أو التعب، ولم يتيسّر له،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٠٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٢).

يكتب الله له كأنّه قام، يكتب له ذلك حسنة، فإذا يسّر الله له أن يتصدّق، أو يصلّي، أو يصوم، أو ذكر الله أو قرأ القرآن، فإنّ الحسنة بعشر أمثالها، ويكتب الدرهم بعشرة دراهم، يكتب الركعة بعشر ركعات، وقد تضاعف أضعافًا أخرى في أوقات أخرى.

أما بالنسبة إلى السيّئات، فإذا همّ بسيّئة، ولكن تذكّر أنّها سيّئة، وتذكّر عقوبتها وإثمها، وتذكّر آثارها على قلبه، وآثارها على سيرته، وآثارها في دنياه وآخرته، من جراء الله، يقول في الحديث: «إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي»[1]، فهذا تكتب له حسنة، رغم أنه ما عمل حسنة، ولا عمل سيّئة، ولكنّه همّ بها، ثم تذكّر مخافة الله فتركها، يكتب على التّرك حسنة، يقول تعالى: «إنّما تركها من جرّائي»، أمّا إذا غلبته نفسه، وعمل تلك السيّئة، كتبت له سيّئة، والسيّئات تتكاثر، سيّئات النّظر، وسيّئات السّمع، وسيّئات الكلام، وسيئات الأكل والشرب، وسيّئات المكاسب، لا شكّ أنّها أيضًا تتكاثر عليه، وإذا عملها كتبها الله بمثلها حتّى يتوب عنها.

أمّا إذا تركها عجزًا، فإنّه يأثم ويكون على نيّته، فمثلًا همّ بزنى وبذل كل الأسباب، وقصد المكان، وحاول فتح الأبواب، وحاول صعود السلالم أو الحيطان، فلم يجد منفذًا، أو عثر عليه الحرس فقبضوا عليه وحبسوه، فمثل هذا يجازى على فعله؛ لأنّه ما تركها خوفًا من الله، ولكن تركها عجزًا. وكذلك إذا همّ بسرقة، ولكنه ما قدر، حاول أن يكسر الأبواب ويفتح الأقفال، ولكنّه لم يستطع،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٠٤).

فهذا يكتب عليه سيّئة، وكذلك لو همّ بحسنة ولكن دعته نفسه إلى تركها تهاونًا ليس عجزًا، فمثل هذا لا يثاب، وفي بعض الروايات لا تكتب عليه شيئًا. فالحديث هذا مخصوص بما إذا ترك السيّئة خوفًا من الله، أو ترك الحسنة عجزًا عنها، أو لعدم توفّر أسبابها، وإلا فقد يجازى بما نوى.

وقد ورد في الحديث أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنما الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فيه رَبَّهُ، وَيَصِلُ فيه رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لله فيه حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا ولم يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يقول: لو أَنَّ لي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بنيته، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا ولم يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ في مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فيه رَبَّهُ، ولا يَصِلُ فيه رَحِمَهُ، ولا يَعْلَمُ لله فيه حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لم يَرْزُقْهُ الله مَالًا ولا عِلْمًا، فَهُوَ يقول: لو أَنَّ لي مَالًا لَعَمِلْتُ فيه بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بنيته، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[1].

الأول: رجل آتاه الله مالًا وعلمًا دينيًا، وعمل في ماله بعلمه، فيصل الأرحام، ويتصدّق بماله، وينفق في الجهاد، وينفق في وجوه الخير، ويبني المساجد والمدارس وينشر العلم، يعمل بعلمه في ماله، فهذا بأفضل المنازل: يعني أرقاها، نفعه علمه بتصريف ماله.

الثاني: رجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا، فهو يقول: لو أنّ لي مثل مال فلان

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٣٠)، والطبراني في الكبير (٨٦٨) من حديث أبي كبشة الأنماري ﷺ.

لعملت فيه مثل عمله، أعطاه الله العلم، فهو يتمنّى أن يكون له مال حتّى يتصدّق ويصل الأرحام، وينشر العلم، وينفق على أبناء السبيل ويجهّز الغزاة وينفق في وجوه البر. يقول: فهو بنيّته وقصده، وهما في الأجر سواء.

الثالث: رجل آتاه الله مالًا، ولم يؤته علمًا، حرمه من العلم، ورزقه الأموال، فهو ينفقها في المعاصي، فينفقها في قطيعة الرحم، والملاهي، والقتل والزنى، والغناء؛ لأنه لا علم عنده بمآل هذا المال، ولا كيف يكسب فيه الأجر. هذا بأخبث المنازل.

الرابع: رجل حرمه الله، لم يؤته مالًا، ولم يؤته علمًا، ولكن يتمنّى أن يكون له مال مثل ذلك الجاهل، ويقول: لو كان لي مال لعملت فيه مثل ذلك الجاهل، يعني لقطعت الطريق، ولسافرت إلى المعاصي، ولصرفت في الأغاني وفي آلات اللهو؛ لأنه ما عنده علم. فيقوله ﷺ: فهو بنيّته وقصده، وهما في الوزر سواء.

فأخذنا من هذا أنّ من نوى الشرّ ولو لم يعمله، فإنّه يجازى على نيّته، وليس كلّ من نوى الشرّ وتركه يثاب، وإنّما يثاب إذا تركه لله وخوفًا من الله.

قال الطحاوي:

ونُؤْمِنُ بِمَلَكِ المَوْتِ، المُوَكَّلِ بقَبْضِ أَرْواحِ العالَمِين.

قال الشارح:

قَـالَ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة:١١]. وَلَا تُعَارِضُ هَـذِهِ الآيَةُ قَوْلَـهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام:٦١]، وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢]؛ لِأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَتَوَلَّى قَبْضَهَا وَاسْتِخْرَاجَها، ثُمَّ يَأْخُذُهَا منه مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَوْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، وَيَتَوَلَّوْنَهَا بعده، كُلُّ ذَلِكَ بِإِذْنِ الله وَقَضَائِهِ وَقَدَرِه، وَحُكْمِه وَأَمْرِه، فَصَحَّتْ إِضَافَةُ التَّوَفِّي إلى كُلٍّ بِحَسَبِه.

قال الشيخ:

الإيمان بملك الموت من عقيدة أهل السنّة، وهو داخل في الإيمان بالملائكة، الإيمان بملك الموت، الذي وكّله الله تعالى بقبض الأرواح، ذكره الله تعالى في سورة السجدة: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾، وورد في الأحاديث أنّه هو الموكّل بقبض الأرواح، وهو ملك واحد.

وقد تقول: كيف يقبض مَلَك واحد أرواح العالم في شرق الأرض وفي

غربها؟ نقول: لا ينافي ذلك قدرة الله تعالى الذي أقدره عليها، ويمكن أن يكون ملك الموت معه أعوانٌ يقبضون تلك الأرواح.

ونقول: الإنسان مُركّبٌ من جسد، وهو اللحم والجلد والعظم وغيره، ومن روح وهي التي تسري في هذا الجسد حتّى يعيش ويتحرّك، فما دامت الروح في الجسد، فإنه قابل للحركة، فإذا خرجت من الجسد، أصبح ميتًا جثة لا حياة به، فهذه الروح هي التي تُقبض عند الموت.

وقد أخبر النبي ﷺ كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه[1] أنّ الروح هي التي تخرج، وأنّه يخاطبها، وأنّها تنزع من جسده أو تنشط منه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [النازعات:٢]. يقال النازعات التي تنزع أرواح الكافرين نزعًا شديدًا، والناشطات التي تنشط أرواح المؤمنين برفق.

وبكلّ حال؛ فالملائكة يقبضون أرواح المؤمنين ويصعدون بها إلى الله تعالى، أمّا أرواح الكفّار، فإنّه لا تفتّح لهم أبواب السّماء، بل تذهب أرواحُهم إلى حيث شاء الله. وقد تكلّم العلماء على حقيقة الروح وأطالوا فيها، وقد يأتي بعض الكلام على حقيقة الروح، والحاصل أنّنا نؤمن بالآيات الواردة في ذلك، مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١]، تأكّدنا أنّ هناك رسلًا يتوفّونه، وأخبر في آية أخرى أنّ ملك الموت واحد: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السجدة:١١].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧).

وإذا قيل: إنّه ملك واحد، فيمكن أن يكون اسم الموت الذي هو خروج الروح من الجسد هو الذي ورد في الأحاديث أنّه يفنى يوم القيامة أو يذبح[(١)].

فالذي يفنى ويذبح هو حقيقة الموت، وهو خروج الروح من الجسد. فنحن نشاهد الأموات عندما تخرج أرواحهم، ولا نشاهد الملائكة الذين يقبضون الروح غالبًا، ولكنّنا نؤمن بذلك، نؤمن بأنّ الملائكة يحضرون وإن كنّا لا نراهم، يقول تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥]، يعني: الملائكة أقرب إليه منكم، ولكنكم لا تبصرونهم، ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة:٨٦، ٨٧]؛ إذا كنتم تزعمون أنّكم غير مبعوثين، فردّوا هذه الرّوح إلى هذا الجسد الذي مات.

كما أخبر الله تعالى أيضًا بأنّ الملائكة يحضرون عند الميّت، في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام:٩٣]، يُخاطبونَ أَرواحَ الكفّار عند إخراجها.

فإذًا من عقيدة أهل السنّة أنّهم يؤمنون بملك الموت، وبأعوان ملك الموت الذين يقبضون الأرواح، وبأنّ الروح التي تخرج هي التي يقبضها الملك أو الملائكة، وهي التي تبقى بعد الموت، وأمّا الجسد فإنّه يفنى وأمّا الروح التي تخرج

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، المتقدم تخريجه (١/ ٤٣٢).

فهي التي تعذّب في البرزخ أو تنعّم، فإذا آمن الإنسان بذلك لم يستغرب عذاب القبر الذي ورد في الأحاديث، وما ورد أنّ النبي ﷺ أخبر أنّ في القبر عذابًا ونعيمًا، مع أنّنا نشاهد الأموات يفنون، وتأكلهم الأرض ولكن مع ذلك أرواحهم باقية، وهي التي تتألّم وتتعذّب، كما أنّها هي التي تقبض، وهي التي تجعل في أكفان من الجنّة، أو أكفان من النار على حسب ما ورد في السنّة، فبهذا يؤمن كلّ مسلم اعتمادًا على النّصوص، ولا منافاة بين الآيات؛ فالملك واحد ومعه أعوان هو يقبض وهم يقبضون، ويجعلون الأرواح في أكفان، ويصعدون بها.

قال الشارح:

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي حَقِيقَةِ النَّفْسِ مَا هي؟ وَهَلْ هي جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ؟ أَوْ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِه؟ أَوْ جِسْمٌ مُسَاكِنٌ له مُودَعٌ فيه؟ أَوْ جَوْهَرٌ مُجَرَّدٌ؟ وَهَلْ هي الرُّوحُ أَوْ غَيْرُهَا؟ وَهَلِ الْأَمَّارَة، وَاللَّوَّامَة، وَالْمُطْمَئِنَّة نَفْسٌ وَاحِدَة، أَمْ هي ثَلَاثَة أَنْفُسٍ؟ وَهَلْ تَمُوتُ الرُّوحُ، أَوِ الْمَوْتُ لِلْبَدَنِ وَحْدَه؟ وهذه المسألة تَحْتَمِلُ مُجَلَّدًا، وَلَكِنْ أُشِيرُ إِلَى الْكَلَامِ عَلَيْهَا مُخْتَصَرًا، إِنْ شَاءَ الله تعالى:

فَقِيلَ: الرُّوحُ قَدِيمَة، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الرُّسُلُ على أَنَّهَا مُحْدَثَة مَخْلُوقَة مَصْنُوعَة مَرْبُوبَة مُدَبَّرَة، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَة مِنْ دِينِهِمْ، أَنَّ الْعَالَمَ مُحْدَثٌ، وَمَضَى على هَذَا الصَّحَابَة وَالتَّابِعُونَ، حتى نَبَغَتْ نَابِغَة مِمَّنْ قَصُرَ فَهْمُه في الْكِتَابِ والسنة، فَزَعَمَ أَنَّهَا قَدِيمَة، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهَا مِنْ أَمْرِ الله، وَأَمْرُه غَيْرُ مَخْلُوقٍ! وَبِأَنَّ الله أَضَافَهَا إليه بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥]، وَبِقَوْلِه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]، كما أَضَافَ إليه عِلْمَه وَقُدْرَتَه وَسَمْعَه وَبَصَرَه وَيَدَه. وَتَوَقَّفَ آخَرُونَ.

وَاتَّفَقَ أَهْلُ السنة وَالْجَمَاعَة أَنَّهَا مَخْلُوقَة، وَمِمَّنْ نَقَلَ الْإِجْمَاعَ على ذَلِكَ: مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ الْمَرْوَزِي، وَابْنُ قُتَيْبَة وَغَيْرُهُمَا.

وَمِنَ الْأَدِلَّة على أَنَّ الرُّوحَ مَخْلُوقَة، قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، فَهَذَا عَامٌّ لَا تَخْصِيصَ فيه بِوَجْه مَا، وَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ صِفَاتُ الله تعالى، فَإِنَّهَا دَاخِلَة في مسمى اسْمِه، فالله تعالى هُوَ الْإِلَه الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَعِلْمُه وَقُدْرَتُه وَحَيَاتُه وَسَمْعُه وَبَصَرُه وَجَمِيعُ صِفَاتِه دَاخِلٌ في مسمى اسْمِه، فَهُوَ

سبحانه بِذَاتِه وَصِفَاتِه الخَالِقُ، وَمَا سِوَاه مَخْلُوقٌ، وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ الرُّوحَ لَيْسَت هي الله، وَلَا صِفَة مِنْ صِفَاتِه، وَإِنَّمَا هي مِنْ مَصْنُوعَاتِه. وَمِنْهَا قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وقوله تعالى لِزَكَرِيَّا ـ عليه السلام ـ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]. وَالْإِنْسَانُ اسْمٌ لِرُوحِه وَجَسَدِه، وَالْخِطَابُ لِزَكَرِيَّا ـ عليه السلام ـ لِرُوحِه وَبَدَنِه، وَالرُّوحُ تُوصَفُ بِالْوَفَاة وَالْقَبْضِ وَالْإِمْسَاكِ وَالْإِرْسَالِ، وَهَذَا شَأْنُ الْمَخْلُوقِ الْمُحْدَثِ.

وَأَمَّا احْتِجَاجُهُمْ بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥]، فَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا بِالْأَمْرِ الطَّلَبَ، بَلِ الْمُرَادُ به الْمَأْمُورُ، وَالْمَصْدَرُ يُذْكَرُ وَيُرَادُ به اسْمُ الْمَفْعُولِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِإِضَافَتِهَا إليه بقوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْمُضَافَ إلى الله تعالى نَوْعَانِ:

صِفَاتٌ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا، كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَة وَالْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، فهذه إِضَافَة صِفَة إلى الْمَوْصُوفِ بِهَا، فَعِلْمُه وَكَلَامُه وَقُدْرَتُه وَحَيَاتُه صِفَاتٌ له، وَكَذَا وَجْهُه وَيَدُه سبحانه.

والثاني: إِضَافَة أَعْيَانٍ مُنْفَصِلَة عنه، كَالْبَيْتِ وَالنَّاقَة وَالْعَبْدِ وَالرَّسُولِ وَالرُّوحِ، فهذه إِضَافَة مَخْلُوقٍ إلى خَالِقِه، لَكِنَّهَا إِضَافَة تَقْتَضِي تَخْصِيصًا وَتَشْرِيفًا، يَتَمَيَّزُ بِهَا الْمُضَافُ عَنْ غيره.

وَاخْتُلِفَ فِي الرُّوحِ: هَلْ هي مَخْلُوقَة قَبْلَ الجَسَدِ أَمْ بعده؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ

الْمِيثَاقِ الْإِشَارَة إلى ذَلِكَ.

وَاخْتُلِفَ فِي الرُّوحِ: مَا هي؟ قِيلَ: هي جِسْمٌ، وَقِيلَ: عَرَضٌ، وَقِيلَ: لَا نَدْرِي مَا الرُّوحُ، أَجَوْهَرٌ أَمْ عَرَضٌ؟ وَقِيلَ: لَيْسَ الرُّوحُ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنَ اعْتِدَالِ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ، وَقِيلَ: هي الدَّمُ الصَّافِي الْخَالِصُ مِنَ الْكَدَرِةِ وَالْعُفُونَاتِ، وَقِيلَ: هي الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّة، وهي الْحَيَاة، وَقِيلَ: هُوَ جَوْهَرٌ بَسِيطٌ مُنْبَعِثٌ فِي الْعَالَمِ كله مِنَ الْحَيَوَانِ، على جِهَةِ الْإِعْمَالِ له وَالتَّدْبِيرِ، وهي على مَا وُصِفَتْ مِنْ الِانْبِسَاطِ فِي الْعَالَمِ غَيْرُ مُنْقَسِمَةِ الذَّاتِ وَالْبِنْيَة، وَأَنَّهَا فِي كُلِّ حَيَوَانِ الْعَالَمِ بمعنى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ، وَقِيلَ: النَّفْسُ هي النَّسِيمُ الدَّاخِلُ وَالْخَارِجُ بِالتَّنَفُّسِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَلِلنَّاسِ فِي مسمى (الْإِنْسَانِ): هَلْ هُوَ الرُّوحُ فَقَطْ، أَوِ الْبَدَنُ فَقَطْ، أَوْ مَجْمُوعُهُمَا، أَوْ كُلٌّ مِنْهُمَا؟ وهذه الْأَقْوَالُ الْأَرْبَعَة لَهُمْ فِي كَلَامِه: هَلْ هُوَ اللَّفْظُ، أَوِ المعنى فَقَطْ، أَوْ هُمَا، أَوْ كُلٌّ مِنْهُمَا؟ فَالْخِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي النَّاطِقِ وَنُطْقِه. وَالْحَقُّ: أَنَّ الْإِنْسَانَ اسْمٌ لَهُمَا، وَقَدْ يُطْلَقُ على أَحَدِهِمَا بِقَرِينَةٍ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ.

والذي يَدُلُّ عليه الْكِتَابُ والسنة وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَة وَأَدِلَّة الْعَقْلِ: أَنَّ النَّفْسَ جِسْمٌ مُخَالِفٌ بِالْمَاهِيَّة لِهَذَا الْجِسْمِ الْمَحْسُوسِ، وَهُوَ جِسْمٌ نُورَانِي عُلْوِي، خَفِيفٌ حَي مُتَحَرِّكٌ، يَنْفُذُ فِي جَوْهَرِ الْأَعْضَاءِ، وَيَسْرِي فِيهَا سَرَيَانَ الْمَاءِ فِي الْوَرْدِ، وَسَرَيَانَ الدُّهْنِ فِي الزَّيْتُونِ، وَالنَّارِ فِي الْفَحْمِ. فَمَا دَامَتْ هذه الْأَعْضَاءُ صَالِحَة لِقَبُولِ الْآثَارِ الْفَائِضَة عَلَيْهَا مِنْ هَذَا الْجِسْمِ اللَّطِيفِ، بَقِي ذَلِكَ الْجِسْمُ اللَّطِيفُ سَارِيًا فِي هذه الْأَعْضَاءِ، وَأَفَادَهَا هذه الْآثَارُ، مِنَ الْحِسِّ وَالْحَرَكَة الْإِرَادِيَّة، وَإِذَا فَسَدَتْ هذه، بِسَبَبِ اسْتِيلَاءِ الْأَخْلَاطِ الْغَلِيظَة عَلَيْهَا، وَخَرَجَتْ عَنْ قَبُولِ تِلْكَ الْآثَارِ، فَارَقَ

الرُّوحُ الْبَدَنَ، وَانْفَصَلَ إلى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ.

وَالدَّلِيلُ على ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفِّيهَا وَإِمْسَاكِهَا وَإِرْسَالِهَا. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام:٩٣]، فَفِيهَا بَسْطُ الْمَلَائِكَة أَيْدِيَهُمْ لِتَنَاوُلِهَا، وَوَصْفُهَا بِالْإِخْرَاجِ وَالْخُرُوجِ، وَالْإِخْبَارُ بِعَذَابِهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ مَجِيئِهَا إلى رَبِّهَا. وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾، الآية [الأنعام:٦٠]. فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفِّي النَّفْسِ بِاللَّيْلِ، وَبَعْثِهَا إلى أَجْسَادِهَا بِالنَّهَارِ، وَتَوَفِّي الْمَلَائِكَة لَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر:٢٧ - ٣٠]، فَفِيهَا وَصْفُهَا بِالرُّجُوعِ وَالدُّخُولِ وَالرِّضَا. وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَه الْبَصَرُ»[1]. ففيه وَصْفُه بِالْقَبْضِ، وَأَنَّ الْبَصَرَ يَرَاه. وَقَالَ ﷺ في حَدِيثِ بِلَالٍ: «قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ»[2]. وَقَالَ ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ»[3].

وَسَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ على عَذَابِ الْقَبْرِ أَدِلَّة كثيرة مِنْ خِطَابِ مَلَكِ الْمَوْتِ لَهَا،

---

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥) من حديث أبي قتادة ﷺ.

(٣) أخرجه النسائي (٢٠٧٣)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وأحمد (٣/ ٤٥٥)، ومالك (١/ ٢٤٠)، وابن حبان (١٠/ ٥١٣)، والطبراني (١١٩) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

وَأَنَّهَا تَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، وَأَنَّهَا تَصْعَدُ وَيُوجَدُ مِنْهَا مِنَ الْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ رِيحٍ، وَمِنَ الْكَافِرِ كَأَنْتَنِ رِيحٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. وعلى ذَلِكَ أَجْمَعَ السَّلَفُ وَدَلَّ الْعَقْلُ، وَلَيْسَ مَعَ مَنْ خَالَفَ سِوَى الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ، وَالشُّبَهِ الْفَاسِدَةِ، التي لَا يُعَارَضُ بِهَا مَا دَلَّ عليه نُصُوصُ الْوَحْيِ وَالْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ.

قال الشيخ:

كلمة الروح والنفس الصحيح أنّهما مترادفتان، فالروح هي النفس، وقد اختلف في حقيقة الروح ما هي. إذا مات الميت وخرجت روحه لا نبصرها، مع أنّنا نتيقّن أنّها خرجت، والملائكة أرواح ينزلون ويقبضونها ونحن لا نراهم لأنّهم أرواح، كذلك الشياطين، أرواح شريرة، يقول تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف:٢٧]، نحن لا نرى الشياطين، مع أنّ الشيطان يدخل في الإنسان، ويجري منه مجرى الدّم، ويوسوس له، ولا نراه، لكنّه ينخنس إذا ذكر الله، ولهذا سمّاه الوسواس الخنّاس. وأقرب مثال: الجنّ وهي أرواح، يسلّط الله الجنّي على الإنسي، فيلابسه حتى يغلب على جسده، ويصير كأنّه هو روحه، ونحن لا نرى الجني إذا أتى أو إذا خرج، لا نراه، ولكننا نسمعه مثلًا إذا تكلّم وهو ملابس ذلك الإنسي، وأنّه ينطق ويتكلّم، ثم يخرج عندما يعذّب، ولا نراه يدخل، ولا نراه خرج. فإذن هو روح بلا جسد، ولعلّه يأتينا كلام في حقيقة الروح وماهيّتها.

الكلام هنا عن الروح هل هي مخلوقة أو غير مخلوقة؟

دعوى الفلاسفة أنّها غير مخلوقة، وأنّها قديمة، والفلاسفة هم الذين يقولون: إنّ هذا الإنسان ليس له مبدأ، ينكرون أنّ الله خلق آدم من تراب، ويقولون: إنّ الإنسان قديم، وهذه الأرض قديمة لم يسبقها عدم، وينكرون الحشر والمعاد، ويقولون: ليس هناك حشر ولا نشر، ولا قيامة، ولا جنّة ولا نار، إنّما هذا البشر يتوالد ويبقى على الأرض دائمًا وأبدًا، كما أنّه عليها منذ الأزل، هؤلاء الفلاسفة ينكرون خلق الروح، ويقولون: الروح ليست مخلوقة وليست محدثة، بل هي باقية، وقديمة، وليس لها مبدأ ويستدلّون بهذه الآية في سورة الإسراء: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥].

والسؤال هو: ماهيّة الروح، ما هي؟ ولَـمَّا كانت حقيقتها بأنّها لا ترى ولا توصف، أجابهم بأنها من أمره، ولا يمكن أن نتصوّروها؛ لهذا قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]. وليس المراد بأنّها صفة من صفاته، بل المراد أنّها من أمره، أي: مخلوقة بأمره، وكذلك إضافتها إلى الله في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر:٢٩]، ليس المراد أنّ الرّوح صفة من صفات الله، أو أنّها من ذات الله، بل المراد من الروح التي خلقتها، وكذلك قوله في عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء:١٧١]، أي: روح من الأرواح التي خلقها، أي ليس من ذات الله، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وبكلّ حال، نعرف أنّ هذه الروح التي بين جنبي الإنسان مخلوقة كسائر المخلوقات، ولكن لا ندرك كيفيّتها ولا ماهيّتها.

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بَيْنَا أنا أَمْشِي مع النبي ﷺ في خَرِبِ المَدِينَةِ، وهو يَتَوَكَّأُ على عَسِيبٍ معه، فَمَرَّ بِنَفَرٍ من الْيَهُودِ، فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عن الرُّوحِ، وقال بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ لَا يَجِيءُ فيه بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فقال بَعْضُهُمْ: لَنَسْأَلَنَّهُ، فَقَامَ رَجُلٌ منهم فقال: يا أَبَا الْقَاسِمِ، ما الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ، فقلت: إنه يُوحَى إليه، فَقُمْتُ، فلما انْجَلَى عنه فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]، أجابهم الله تعالى بأنّ الروح غير معروفة لكم، ولا تدرون ماهيّتها، ولا يمكنكم إدراكها، وذلك دليل على عظمة الله، وعلى عجيب قدرته، حيث نوّع المخلوقات، وجعل منها ما يُرى وما لا يُرى، وجعل منها أجرامًا، وجعل منها أرواحًا، وجعل منها جمادًا، وجعل منها متحرّكًا حيًا متقلّبًا في أمره، فهذا دليل على كمال قدرة الله عزّ وجلّ، ودليل على أنّه على كلّ شيء قدير، ودليل على قصر علم الإنسان، وقصر باعه في العلوم، وأنّه لا يطّلع على المغيّبات، وأنّه لا يصل بفكره، ولا بأمره،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٦٢)، ومسلم (٢٧٩٤).

ولا ببحثه إلى الأمور التي أخفاها الله عنه، فعلى هذا ليس عليه أن يتدخّل في أمور الغيب، وليس له أن يتخرّص فيها.

وقد استدلّ العلماء بأمر الرّوح أنّ الإنسان لا يستطيع أن يتدخّل في أمر صفات الرّبّ سبحانه وتعالى؛ لأنّ الكثير من الذين تدخّلوا في صفات الله، وقالوا: كيف يتّصف بأنّه حيّ، وبأنّه سميع بصير، متكلّم بكلام مسموع ونحو ذلك، هذا مما يخالف الخيال ويخالف العقول ويخالف الفكر، ويخوضون في مثل هذا خوضًا زائدًا؛ فيقول لهم العلماء: أنتم قد عجزتم عن إدراك الروح التي بين جنوبكم، كلّ منكم خلقه مكوّن من جسد وروح، هذه الروح التي يحيا بها البدن ويموت بخروجها، هل أدركتم ماهيّتها؟ هل قدرتم على معرفة كنهها؟ هل عرفتم من أيّ شيء هي؟ هل هي جسم أو عرض أو جوهر؟ هل هي صافية أو كدرة؟ وإذا خرجت أين تذهب وأين تكون؟ وكذلك الأرواح الأخرى التي تتحقّقونها وتؤمنون بها كيف لا ترونها؟

فإذا عجزتم عن إدراك ماهيّتها، فأنتم عن إدراك صفات الربّ بطريق الأولى أن تعجزوا، أنتم تتحقّقون أنّ هناك نوعًا من المكلّفين، وهم الجنّ الذين خلقهم الله من نار السّموم، نتحقّق أنّهم موجودون معنا، وأنّهم ينطقون ويتكلّمون، وأنّهم يقدرون على أن يتشكّلوا بأشكال متعدّدة، يتشكّلون بأشكال الحيوانات، أو الجمادات، أو يتصوّرون بصورة إنسان، وبصورة حشرة، وبصورة هامّة، ونحو ذلك، وكذلك يلابسون الإنس، يدخلون في جسد الإنسي ويلابسونه، ولا يشعر

بهم أحد، ولا يعرف أحد من أي شيء أجسامهم، بل نقول: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، إذا حجزنا وعجزنا عن إدراك ماهيّة هذه الأرواح التي هي أقرب شيء إلينا، والتي نشاهد أن الميت تخرج روحه ومع ذلك لا نراها، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧]، فإذا كان هذا عجز الإنسان عن إدراك هذه الروح التي هي أقرب شيء إليه، فكيف يخوض في خالقه؟ وكيف يخوض في صفات الباري عزّ وجلّ؟ الأولى له أن يسلّم بذلك، وأن يردَّ علمها إلى عالمِها.

وكذلك أيضًا لا يخوض في أمر المخلوقات التي لم يرها، لا يقول مثلًا: ما كيفيّة خلق الملائكة؟ ومن أي شيء أجسامهم؟ وكيف تركيب أعضائهم؟ وكيف يسجدون؟ على أي أعضاء، وهل لهم يدان ورجلان كما لنا؟ وهل لهم وجوه مثل وجوهنا؟ وكيف ينطقون ويتكلّمون؟

نقول: الله أعلم، لا علم لنا إلا أنّهم مخلوقون، وأنّ لهم أرواحًا مستغنية عن أجساد ظاهرة، فينزلون ولا نراهم كما أخبر الله تعالى بأنّهم ينزلون إلى الأرض في ليلة القدر في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر:٤]. إذا تنزّلوا نحن لا نراهم.

وكذلك أخبر النبيّ ﷺ بتنزّلهم أو باجتماعهم عند صلاة العصر وعند صلاة الفجر، بقوله: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ في

صلاة الصُّبْحِ وَصَلَاة الْعَصْرِ، فَيَصْعَدُ إليه الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ...»[١]. هل نراهم؟ نحن لا نراهم، فهم عالم ونحن عالم.

حتّى الشياطين الذين سلّطهم الله على الإنسان، يقول تعالى في وصفه: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥]، وقال النبيّ ﷺ: «إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي من الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»[٢]، يعني: يجري في عروقه، ويصل إلى جميع جسده، ولا يمنعه شيء إلّا إذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم فإن الشيطان ينخنس؛ ولذلك سمّي بالوسواس الخنّاس، ونحن مع ذلك لا نراهم.

فإذًا هم عالم ونحن عالم، فليس لنا أن ننكرهم ولا أن نجحدهم؛ لأنّ الله أخبر بهم، وخبر الله حقّ، وأخبر أنّهم يروننا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]، يعني: أنّ الشياطين يرونكم هم وأمثالهم كالجنّ ونحوهم، يرونكم دون أن تروهم. فما دمنا متحقّقين أنّ لنا أرواحًا لا نراها، وبأنّ هناك أرواحًا مخلوقةً كالجنّ والشياطين، نعرف بذلك قصر علمنا عن إدراكها وعن معرفة تركيبها.

وقد مرّ معنا أنّ العلماء قد تكلّموا فيها وأطالوا، وعرّفوها بتعريفات مختلفة، وكان من جملة من عرّفها تعريفًا مناسبًا ابن القيّم ـ رحمه الله ـ في كتابه الذي سماه «الروح»، وهو كتاب مطبوع مشهور، تكلّم فيه عن الأرواح وعذاب القبر

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٤١).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٤).

ونعيمه، وتكلّم فيه عن حقيقة الروح، وما ورد فيها من صفاتها، وبيّن فيه الردّ على الذين أنكروها، أو وصفوها بصفات غريبة، وعرّفها بأنّها جسم خفيف شفاف علويٌّ نوراني متحرّك، يسري في جسد الإنسان كما يسري الدّهن في الورد وكما تسري النار في الفحم، فما دام ذلك الجسد قابلًا لتلك الإفاضات منه، فإنه يبقى فيها، وإذا تغيّرت ماهيّة هذا الجسم، وبقي لا يصلح لفيضاناتها، أمر الله بفراق هذه الروح لهذا الجسم، فبقي جسم الإنسان جمادًا لا حركة فيه، وذلك هو الموت الذي نشاهده، نشاهد خروج الروح ويبقى الجسد جثّة هامدة.

فإذًا لا حاجة إلى كثرة الخوض فيها وإطالة الكلام فيها، مع أنّ الله تعالى قد حجز أنظار العباد عنها، وفوّض أمرها إليه جل وعلا.

وقد كتب بعض العلماء كالمحلّي أحد صاحبي كتاب «تفسير الجلالين»، الذي ألّف آخره جلال الدين المحلّي، وأوله جلال الدين السيوطي، فجلال الدين المحلّي لـمّا أتى على قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٧٢]، عرّف الروح: بأنها جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه، ولكن السيوطي لما أتى على قوله تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٨، ٢٩]، لم يذكر هذه الجملة التي هي تفسير الروح؛ لأنّه أتى على هذه الآية في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥]، فتوقّف عن تفسيرها، وبكلّ حال فالأولى التوقّف، فالذين خاضوا فيها من العلماء وأطالوا القول فيها عذرهم أنّهم يريدون

بذلك إقناع أولئك الكاذبين الذين صاروا يعرّفونها بتعريفات بعيدة عن الواقع، فما حمل ابن القيّم على الإطالة في تعريفاتها وفي صفاتها إلا أنه يناقش فيها أقوامًا ينكرون وجودها، أو ينكرون خصالها أو ينكرون تميّزها، ولهم أقوال عجيبة كما حكاها في ذلك الكتاب، كالفلاسفة ونحوهم الذين يسمّونها مثلًا النفس الناطقة، أو يزعمون أنّها الكون كلّه أو هذا الهواء أو النَّفَس، أو ما أشبه ذلك ممّا لا أصل له، والأولى أنّنا نكِل علمها وعلمَ الغيب إلى الله تعالى.

قال الشارح:

وَأَمَّا اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي مسمى النَّفْسِ وَالرُّوحِ: هَلْ هُمَا مُتَغَايِرَانِ، أَوْ مُسَمَّاهُمَا وَاحِدٌ؟ فَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ النَّفْسَ تُطْلَقُ على أُمُورٍ، وَكَذَلِكَ الرُّوحُ، فَيَتَّحِدُ مَدْلُولُهُمَا تَارَةً، وَيَخْتَلِفُ تَارَةً.

فَالنَّفْسُ تُطْلَقُ على الرُّوحِ، وَلَكِنْ غَالِبُ مَا تُسَمَّى نَفْسًا إِذَا كَانَتْ مُتَّصِلَةً بِالْبَدَنِ، وَأَمَّا إِذَا أُخِذَتْ مُجَرَّدَةً فَتَسْمِيَةُ الرُّوحِ أَغْلَبُ عَلَيْهَا. وَتُطْلَقُ على الدَّمِ، فَفِي الْحَدِيثِ: «مَا لَا نَفْسَ له سَائِلَةً لَا يُنَجِّسُ الْمَاءَ إِذَا مَاتَ فيه»(1).

وَالنَّفْسُ: الْعَيْنُ، يُقَالُ: أَصَابَتْ فُلَانًا نَفْسٌ، أي عَيْنٌ.

وَالنَّفْسُ: الذَّاتُ، ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الرُّوحُ فَلَا تُطْلَقُ على الْبَدَنِ، لَا بِانْفِرَادِهِ، وَلَا مَعَ النَّفْسِ، وَتُطْلَقُ الرُّوحُ على الْقُرْآنِ، وعلى جِبْرائيلَ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣].

---

(1) أخرج نحوه الدارقطني (١/ ٣٣)، والبيهقي (١/ ٢٥٣) من قول إبراهيم النخعي. وقال ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ١١٢): «وأول من حُفِظ عنه في الإسلام أنّه تكلم بهذه اللفظة فقال: "ما لا نفس له سائلة": إبراهيم النخعي، وعنه تلقاها الفقهاء». انظر: المغني (١/ ٤١). ويروى في هذا الباب حديث سلمان ﷺ عن النبي ﷺ: «يا سلمان، كل طعام وشراب وقعت فيه دابة ليس لها دم فماتت فيه فهو حلال، أكله وشربه ووضوؤه». أخرجه الدارقطني (١/ ٣٧)، وقال: «لم يروه غير بقية عن سعيد بن أبي سعيد الزبيدي، وهو ضعيف».

وَتُطْلَقُ الرُّوحُ على الهَوَاءِ المُتَرَدِّدِ في بَدَنِ الإِنْسَانِ أَيْضًا.

وَأَمَّا مَا يُؤَيِّدُ الله به أَوْلِيَاءَه، فهي رُوحٌ أخرى، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

وَكَذَلِكَ الْقُوَى التي في الْبَدَنِ، فَإِنَّهَا أَيْضًا تُسَمَّى أَرْوَاحًا، فَيُقَالُ: الرُّوحُ الْبَاصِرُ، وَالرُّوحُ السَّامِعُ، وَالرُّوحُ الشَّامُّ.

وَتُطْلَقُ الرُّوحُ على أَخَصِّ مِنْ هَذَا كله، وَهُوَ: قُوَّة المَعْرِفَة بالله، وَالْإِنَابَة إليه، وَمَحَبَّتُه، وَانْبِعَاثُ الْهِمَّة إلى طَلَبِه وَإِرَادَتِه، وَنِسْبَة هذه الرُّوحِ إلى الرُّوحِ، كَنِسْبَة الرُّوحِ إلى الْبَدَنِ، فَلِلْعِلْمِ رُوحٌ، وَلِلْإِحْسَانِ رُوحٌ، وَلِلْمَحَبَّة رُوحٌ، وَلِلتَّوَكُّلِ رُوحٌ، وَلِلصِّدْقِ رُوحٌ.

وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ في هذه الأَرْوَاحِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه الأَرْوَاحُ فَيَصِيرُ رُوحَانِيًّا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْقِدُهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَيَصِيرُ أَرْضِيًّا بَهِيمِيًّا.

وَقَدْ وَقَعَ في كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ ثَلَاثَة أَنْفُسٍ: مُطْمَئِنَّة، وَلَوَّامَة، وَأَمَّارَة، قَالُوا: وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه، وَمِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧]، ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢]، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّهَا نَفْسٌ وَاحِدَة، لَهَا صِفَاتٌ، فهي أَمَّارَة بِالسُّوءِ، فَإِذَا عَارَضَهَا الْإِيمَانُ صَارَتْ لَوَّامَة، تَفْعَلُ الذَّنْبَ ثُمَّ تَلُومُ صَاحِبَهَا، وَتَلُومُ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، فَإِذَا قَوِيَ الْإِيمَانُ صَارَتْ مُطْمَئِنَّة؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «مَنْ سَرَّتْه حَسَنَتُه، وَسَاءَتْه سَيِّئَتُه،

فَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١). وقوله: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(٢)، الحَدِيثَ.

قال الشيخ:

تكلّم الشارح ـ رحمه الله ـ على تعريف النفس وتعريف الروح بهذا الكلام السابق؛ وذلك لاختلاف العلماء: هل الروح النفس، أو الروح غير النفس؟ لأنّ كلمة النّفس قد تطلق على بعض الأشياء، كما في هذه التعريفات التي مرت معنا، فتطلق على الدّم، وفي الأثر: «مَا لَا نَفْسَ له سَائِلَة لَا يُنَجِّسُ المَاءَ إِذَا مَاتَ فيه»(٣)، يعني: كالذباب والبعوض والفراش إذا مات في الماء فإنّه لا ينجّسه؛ لأنّه ليس له نفس، أي ليس له دم إذا ذبح.

كذلك تطلق النفس على ذات الإنسان كما في هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، يعني: على ذواتكم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، يعني: لا تقتلوا ذواتكم، فذات الإنسان هي نفسه. وقد يكثر استعمال النّفس في مثل هذه المعاني وغيرها.

فإذًا النفس في الأصل هي ماهيّة الشيء وذاته، وأمّا الإنسان الذي كلّفه الله تعالى، فقد ناداه بنداء الإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٢).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ١٢٧).

[الانشقاق: ٦]، والإنسان هو هذا الجنس من بني آدم، ومعلوم أنّه مؤلّف من جسد وروح، وهذا النَّفَس الذي يدخل ويخرج ويجتذب الهواء، هذا نَفَس وهو ملازم للإنسان، ونَفْسُه يعني ذاتُه توصف بصفات، كما مرّ معنا أنها توصف أنّها نفس لوّامة، وأنّها نفس مطمئنّة، وأنّها نفس أمّارة بالسوء.

وبناءً على ذلك، فمن العلماء من يقول: إنّ للإنسان ثلاثة أنفس: نفس لوّامة، ونفس أمارة بالسوء، ونفس مطمئنّة.

والصحيح أنّها نفس واحدة: تارة يغلب عليها الاطمئنان، فتوصف بأنّها مطمئنّة، فنقول: هذا الإنسان نفسه مطمئنّة، وتارة يغلب عليها وصف اللوم، يفعل الشيء فتلومه نفسه على فعله، فيُقال: هذا الإنسان نفسه لوّامة، وتارة يغلبُ عليه بالسوء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، فهي نفس واحدة تتّصف بهذه الصفة تارة، وبهذه الصفة تارة، ولا تكون ثلاثة أنفس، وهذا هو الصحيح من أقوال العلماء.

فما دامت الروح في الجسد، فإنّها تسمّى نفسًا وتسمّى روحًا، وإذا خرجت الروح من الجسد فإنّها لا تسمّى نفسًا غالبًا، وإن كانت قد تسمّى، في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣]، يعني: أخرجوا أرواحكم، فإذا خرجت فإنّها روح تقبضها الملائكة وتكفّنها. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، فسمّاها هُنا أنفسًا؛ لأنها ما دامت في الجسد فإنّها تسمّى نفسًا، والله يتوفّاها يعني

يقبضها، أما بعد قبضها، فإنّها يغلب عليها اسم الروح.

وكذلك في النوم، نفس النائم تخرج، ولكنّها لا تخرج خروجًا كليًّا، بل يبقى تأثيرها على البدن؛ ولهذا إذا نام الإنسان ذكروا أنّ روحه تخرج وتصعد إلى السّماء وترى كذا وكذا من الرّؤيا، ونحو ذلك.

وفي الحديث في الدعاء عند النّوم: «بِاسْمِكَ ربي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إن أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»[1]. أفاد بأن النفس قد تمسك ولا ترجع إلى صاحبها إذا أراد الله، وقد ترجع، فهو يقول: «إن أَمْسَكْتَ نَفْسِي» ولم تردّها عليّ «فَارْحَمْهَا»، «وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا» يعني: رددتها عليّ «فَاحْفَظْهَا».

كلمة الروح هي مادّة الحياة، وكلّ شيء تحصل به الحياة فإنّه يسمّى روحًا، فالله تعالى سمّى القرآن روحًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، لماذا سمّي القرآن روحًا؟ لأنّ به الحياة المعنويّة، حياة القلوب، التي هي حياة صحيحة، وإن كان أهلها لا يشعرون بها، أو لا يهتمون بها؛ لأنّ القرآن إذا تأثّرت به القلوب، فإنّه روح لها، وحياة القلوب أعظم حياة وأعظم منفعة لها، ولذلك سمّاه الله روحًا، فكما أنّ الأبدان تحيا بالأرواح، فكذلك القلوب تحتاج إلى أرواح معنويّة وهي هذا القرآن، وما فُسّر به وما يتبعه من السنّة.

كذلك سمّى الله جبريل - عليه السلام - روحًا في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ﭐلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤]، الروح الأمين هو جبريل عليه السلام، هو الذي نزل به؛ لأنّ الملائكة كلّهم أرواح، وجبريل - عليه السلام - من جملتهم، ولا ينافي ذلك أنّهم يصعدون وينزلون، وأنّ لهم أجنحة، وأنّ لهم أجسادًا معنويّةً لا نراها، فهم أرواح وجبريل - عليه السلام - منهم، ولكن لجبريل - عليه السلام - خصوصيّة بهذه التسمية، حتى قال بعضهم: إنّ الروح في قول الله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا ﴾ [النبأ: ٣٨]، هو جبريل عليه السلام.

وقيل: إنّ المراد بالروح هنا هو الأرواح، سواء كانت أرواح الملائكة، أو أرواح البشر، أو أرواح الجنّ، أو الشياطين؛ تقوم الأرواح وتقوم الملائكة صفوفًا، وبها أيضًا فُسّرت الروح التي في سورة القدر: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤]، أنّ الروح هي أرواح بني آدم، أو أرواح الملائكة تتنزّل في تلك الليلة.

أيضًا لكلّ شيء روحٌ تحيا به، تلك هي الماهيّة، فكما مرّ في كلام الشارح، أنّ القرآن يسمّى روحًا، فالإسلام له روح، والإيمان له روح، كذلك التوكّل له روح، والعبادة لها روح، والاستعانة لها روح، وكذلك المحبّة والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادات لها روح، أي: لها حقيقة معنويّة تتأكّد فيها وتؤكّدها، وتصير بها حيّة مؤثّرة نافعة، فقد عُرف بذلك أنّ الروح هي الذي تحصل به الحياة، وسُمّيت بذلك؛ لأنّ فيها حياة البدن ولأنّها حيّةٌ.

وقد رجّح العلماءَ المحقّقون أنّ الأرواح بعد خروجها من الأجساد باقية، كما

يقول السفاريني في منظومته[١]:

وَأَنَّ أَرْوَاحَ الوَرَى لَمْ تُعْدَمُ   مَعَ كَوْنِهَا مَخْلُوقَةٌ فَاسْتَفْهِمِ

فهذه حقيقتها: أنّ أرواح بني آدم ما عُدمت بعد خروجها من أجسادهم، مع اعتقادنا أنّها مخلوقة مكوّنة بعد أن كانت معدومة، أوجدها الله وكوّنها.

وقد تقدّم الخلاف في وقت خلقها، متى خلقت؟ وأنّ الراجح أنّها تخلق مع خلق الإنسان، وتبقى بعد موته، وعلى كل حال فأمر هذه الأرواح وحقائقها يختلف باختلاف الإنسان وقوّة معنويّته وضعفها.

والراجح أنّها نفسٌ واحدة، تغلب عليها صفات الإيمان، فتسمّى نفسًا مطمئنّة، وتغلب عليها المعاصي، فتسمّى النفس اللوّامة، وتغلب عليها صفة الكفر والبدع ونحوها، فتسمّى نفسًا أمّارة بالسوء، وهي نفس واحدة. هذا هو الصواب.

(١) انظر: العقيدة السفارينية (ص٧٥).

قال الشارح:

وَاخْتَلفَ النَّاسُ: هَل تَمُوتُ الرُّوحُ أَمْ لا؟

فَقَالَتْ طَائِفَة: تَمُوتُ؛ لأَنَّهَا نَفْسٌ، وَكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَة المَوْتِ، وَقَدْ قَال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. قالُوا: وَإِذَا كَانَتِ المَلائِكَة تَمُوتُ، فَالنُّفُوسُ البَشَرِيَّة أولى بِالمَوْتِ.

وَقَال آخَرُونَ: لا تَمُوتُ الأَرْوَاحُ، فَإِنَّهَا خُلقَتْ للبَقَاءِ، وَإِنَّمَا تَمُوتُ الأَبْدَانُ.

قَالُوا: وَقَدْ دَل على ذَلكَ الأَحَادِيثُ الدَّالة على نَعِيمِ الأَرْوَاحِ وَعَذَابِهَا بَعْدَ المُفَارَقَة إلى أَنْ يُرْجِعَهَا الله في أَجْسَادِهَا.

وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَال: مَوْتُ النُّفُوسِ هُوَ مُفَارَقَتُهَا لأَجْسَادِهَا، وَخُرُوجُهَا مِنْهَا، فَإِنْ أُرِيدَ بِمَوْتِهَا هَذَا القَدْرُ، فهي ذَائِقَة المَوْتِ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّهَا تُعْدَمُ وَتَفْنَى بِالكُلِّيَّة، فهي لا تَمُوتُ بِهَذَا الاعْتِبَارِ، بَل هي بَاقِيَة بَعْدَ خَلقِهَا في نَعِيمٍ أَوْ في عَذَابٍ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ الله تعالى.

وَقَدْ أَخبَرَ سبحانه أَنَّ أَهْل الجَنَّة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦]، وَتِلكَ المَوْتَة هي مُفَارَقَة الأَرْوَاحِ للأَجْسَادِ، وَأَمَّا قَوْلُ أَهْل النَّارِ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

فَالمُرَادُ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَمْوَاتًا وَهُمْ نُطَفٌ في أَصْلابِ آبَائِهِمْ وفي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ بَعْدَ ذَلكَ، ثُمَّ أَمَاتَهُمْ، ثُمَّ يُحْيِيهِمْ يَوْمَ النُّشُورِ، وَلَيْسَ في ذَلكَ إِمَاتَة أَرْوَاحِهِمْ قَبْل يَوْمِ القِيَامَة، وَإِلا كَانَتْ ثَلاثَ مَوْتَاتٍ.

وَصَعْقُ الأَرْوَاحِ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ لا يَلْزَمُ منه مَوْتُهَا، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَة إِذَا جَاءَ الله لفَصْلِ القَضَاءِ، وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِه، وَلَيْسَ ذَلكَ بِمَوْتٍ. وَسَيَأْتِي ذِكْرُ ذَلكَ، إِنْ شَاءَ الله تعالى.

وَكَذَلكَ صَعْقُ موسى - عليه السَّلامُ - لَمْ يَكُنْ مَوْتًا[1]، والذي يَدُلُّ عليه أَنَّ نَفْخَة الصَّعْقِ - والله أَعْلَمُ - مَوْتُ كُل مَنْ لَمْ يَذُقِ المَوْتَ قَبْلَهَا مِنَ الخَلائِقِ، وَأَمَّا مَنْ ذَاقَ المَوْتَ، أَوْ لَمْ يُكْتَبْ عليه المَوْتُ مِنَ الحُورِ وَالوِلدَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَلا تَدُلُّ الآية على أنه يَمُوتُ مَوْتَة ثَانِيَة. والله أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

تكلم الشارح - رحمه الله - هنا على مسألة موت الأرواح، وهل تموت أو لا؟ فقال بعض العلماء: إنها تموت، فإذا خرجت من الأجساد، فإنّها تحسّ إذا صعدت

---

(١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه البخاري (٣٤٠٨).

ولأهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قولان: أحدهما: مغشيًا عليه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وابن زيد. والثاني: ميتًا، قاله قتادة، ومقاتل.

والأول أصح؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾، وذلك لا يُقال للميت.

انظر: تفسير الطبري (٩/ ٥٢، ٥٣)، وزاد المسير (٣/ ٢٥٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٥).

إلى السماء، ويخرج منها ريح طيّبةٌ أو خبيثةٌ، وتتألّم أو تتنعّم، فهي لا تزال حيّة في هذا العالم في البرزخ بعد فراق الجسد، وأمّا الجسد فإنّه يفنى ويصير ترابًا؛ كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

وهناك من يقول: إنّ الأرواح بعد خروجها تبقى مدّة ثمّ تموت، فإنّها لا بدّ أن يأتي عليها الموت الذي كتبه الله على كلّ شيء؛ لأنّها أنفس وكلّ نفسٍ ذائقة الموت، ولأنّها لا بدّ من فنائها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]. هذا دليل من قال إنّها تفنى وتموت، وقاسوها على الملائكة؛ لأنّ الملائكة لا بدّ لهم أن يموتوا، وكذلك الجنّ، فهم يموتون مع كونهم أرواحًا، فلا بدّ أن يكون موتهم شيء يحسّون به، ويحصل بذلك عدم الحياة لهم. فإذا كان الجنّ يموتون والملائكة يموتون، فكذا الأرواح التي هي أرواح الإنسان فكيف لا تموت؟

والقول الآخر: أنّها بعد خروجها لا تموت، بل تبقى إما منعّمة، وإمّا معذّبة، كما ذكر في أحاديث عذاب القبر، وأنّ موتها هو مفارقتها لهذا الجسد، فإنّها كانت عامرة لهذا الجسد، وكانت منعّمة فيه فنزعت منه وخرجت منه، كما في الحديث البراء بن عازب ﷺ الوارد في نعيم القبر وعذابه[1].

فهذا دليل على أنّ خروجها ومفارقتها لهذا الجسد هو الذي يسمّى الموت، وهو الموت الذي كتب الله عليها، فإذا خرجت فإنّها ماتت، ولو كانت بعد ذلك

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧). وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في إثبات عذاب القبر ونعيمه؛ كما جاء في حديث أنس ﷺ الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).

تبقى حيّة، أو متحرّكة، أو متلذّذة، أو متألّمة، والآيات التي فيها: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن:٢٦]، ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، المراد بها أنّها يأتي عليها الموت الذي هذه صفته، فقد أتى على هذه الروح الموت الذي هو مفارقة الجسد.

وعند بعض الفلاسفة أنّ الروح قديمة ليست مخلوقة وعبّر عن ذلك شاعرهم ابن سينا في قصيدته التي في أوّلها[1]:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ ... وَرْقَاءُ ذَاتُ تَقَلُّبٍ وَتَفَجُّعِ

وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ فَلَمَّا وَاصَلَتْ ... أَلِفَتْ مُرَافَقَةَ الخَرَابِ البَلْقَعِ

فمثّلها بأنّها هبطت من المحلّ الأرفع، وهو السماء، وشبّهها بالورقاء وهي: طير من الطيور الورق، وأنّها وصلت إلى هذا الجسد وهي كارهة، ولكنّها بعدما وصلت تمكّنت، وألفت مرافقته مع كونه خرابًا من دونها.

لكن لا يسلّم لهم أنها قديمة، وإنما هي مخلوقة مكوّنة بعد أن كانت عدمًا؛ فإنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيء، فأمّا فناؤها، فإنّه يحصل بمفارقة هذا الجسد، والله تعالى أخبر بأنّ كلّ شيء هالك إلا وجهه، فهلاكُها معناه خروجها من أجسادها، فهذا موت.

وبعضهم يقول: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾، المراد به كلّ من خُلق للفناء، أما الذي خلق للبقاء فإنّه لا يفنى، ويقول ـ فيما خلق الله في الجنّة من الحور ونحوها ـ: إنّها

(١) انظر: تاريخ الإسلام (٢٩/ ٢٣٠).

خلقت للبقاء فلا تفنى، ولا يأتي عليها الموت. ومنهم من يقول: إنّها تبقى، ثم بعد ذلك تموت.

وأمّا الصعق الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، وكذلك عن الفزع: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]. فهذا الفزع فزعٌ أولًا، ثم صعقٌ ثانيًا، فهذا الصَّعْقُ إن كان على الأحياء فإنّه موت، يعني: أنّ الناس متى سمعوا النفخ في الصور ماتوا كلّهم، عبّر بالصعق عن الموت، فالناس الذين تدركهم الساعة، إذا نفخ في الصور ماتوا كلّهم موتة واحدة، ثم ينفخ فيه أخرى، وقال النبيّ ﷺ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»[(١)]. قيل: إنّه أراد أربعين سنة، فهذا الصعق موت في حقّ الأحياء، ولكن الأرواح ليس موتًا في حقّها، ولكن إذا صعقت، فلا يلزم أن تموت، وقيل إن الأرواح هي المستثنى في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فالذين شاء الله: مثل الأرواح، ومثل حور الجنّة، وما خلق للبقاء.

وبكلّ حال، نؤمن بأنّ هذا الكون يفنى، وأنّ هناك مخلوقات خلقت للبقاء كالأرواح، والله هو الذي خلقها، وقدّر لها مقاديرها، فإذا حصل النفخ في الصور، فإنّها لا يأتي عليها هذا الفناء والفزع والصعق الذي يأتي على غيرها.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أخبر النبيّ ﷺ عن الصعق بعد البعث: وكأنّه صعق وفزع يأتيه، فيقول: «النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟»[1]. وهي صعقة الطور المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فدلّ على أنّ هناك صعقًا في يوم القيامة، وهذا الصعق ليس بموتٍ، وإنّما هو غشيةٌ تحصل من هذا الفزع، ثم يحصل بعدها إفاقةٌ، ويكون النبي ﷺ أوّل من يفيق، فيجد موسى - عليه السلام - قد أفاق قبله، أو لم يُصعق جزاء له على صعقته يوم الطور.

تكلّم الشارح أيضًا على قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١]، والصحيح في هاتين الموتتين والحياتين أنّهما في الدنيا والآخرة:

الموتة الأولى: هي الموت في الأرحام وفي الأصلاب، فإنّه في حال كونه في الرّحم شبه ميت، لا حركة فيه مثل حركة الحيّ، حتّى ينفخ فيه الروح بعد الشهر الرابع.

والموتة الثانية: خروجه من هذه الدنيا.

والحياة الأولى: خروجه إلى هذه الدنيا من الرحم، فإنّها حياة مشاهدة.

والحياة الثانية: هي حياته بعد البعث يوم القيامة، وبعد النفخ في الصور، وهي حياته الأُخرويّة الباقية.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦١٨).

هاتان الموتتان: موتة في الرحم وموتة في الدنيا، والحياتان: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وهي مفسّرة في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾، يعني: في الأرحام، ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾، يعني: في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، يعني: الموتة الأولى، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]، للآخرة.

كذلك أخبار الأنبياء ورسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم الصادقون المصدَّوقون، الذين ائتمنهم الله تعالى على وحيه، وأمرهم بتبليغه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥].

وكذلك نصب الأدلة على الأمور الغيبيّة والأمور الأخرويّة، وأمر العباد أن يتفكّروا فيما بين أيديهم وفيما خلفهم، ومن نظر في ذلك اعتبر وتذكّر واتّعظ، إذا نظر إلى خلق الإنسان ومبدأ أمره، عرف أنّ الذي خلقه قادر على أن يعيده، وليس بدء الخلق أهون من إعادته، نظر إلى الأفلاك العلوية والسفلية أخذ منها آية دلّ الله عليها بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧]، خلق السموات والأرض، مع اتساعها وثباتها، وتنوّع موجوداتها، أكبر من خلق النّاس.

وكذلك فالآيات التي أمر الله عباده بأن يتّعظوا فيها وينظروا فيها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم:٢٠]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم:٢١]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ

أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ ﴾[الروم:٢٢]، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[الروم:٢٣]، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ ﴾ [الروم:٢٤]، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ ﴾ [الروم:٤٦]، وفي هذه الآيات عبرةً لمن اعتبر وعظةً لمن اتّعظ.

فلأجل ذلك أصبح اليوم الآخر يقينًا عند أهل الإيمان؛ لأنّها قامت عليه البراهين، بعدما كان المشركون ينكرونه، ويقولون: ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة:٤٧، ٤٨] يستنكرون ذلك، فأقام اللهُ عليهم الحجّة، وبيّن لهم الأدلّة.

ومعلوم أنّ الإنسان يتكوّن من جسد وروح، فبعد الموت تخرج هذه الروح من جسده، ويبقى الجسد ليس به حركة، فيفنى ويكون ترابًا، ولكن قدرة الله أعلى من كلِّ شيء، فهو قادر سبحانه أن يوصل إليه الألم أو النّعيم أو العذاب ولو كان ترابًا أو رمادًا، قادر على كلّ شيء فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

أمّا روحُه التي كانت تعمر جسده، فقد ذكرنا أنّ الروح لا تعدم، وأنّها باقية، وأنّها في هذا البرزخ بين الدنيا والآخرة إمّا في نعيم وإما في عذاب، وإن كنّا بعقولنا لا ندرك ماهيّتها، ولا ندري أين مستقرّها، بل نتحقّق بأنّ الروح إذا خرجت من البدن لا تنعدم كما ينعدم البدن، بل تبقى والدليل على بقائها الأحاديث التي فيها أنّها تحضر، وأنّها يُعرج بها، وأنها ترى من يقبضها، ونحو ذلك. فهي إذًا باقية في هذه المدّة بين الدنيا والآخرة، وفي يوم القيامة يأمر الله الأرض فتجمع ما فيها من رفات الأموات، وتتجمّع عظامُهم حتّى تتكامل، ويكسوها الله لحمًا ثمّ بعد ذلك

يعيدها ويرسل إليها أرواحها.

وقد وقع مثل ذلك في الدنيا، فحكى الله قصّة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية، فقال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾، فاستبعد إعادتها وقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، فاستبعد أن تحيا بعد أن فنيت، فأراه الله الآية في نفسه، ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾، وكان معه حمارٌ وكان معه سلّة طعام وفاكهة، فلمّا أنْ بعثه بعد مئة عام ونفخ فيه الروح، أراه الله كيف يحيي الموتى، ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾، فقال الله: ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾، أي: لم يتغيّر، ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾، يقولون: إنّه بقي ينظر إلى عظام الحمار كيف تجتمع ويلتئم بعضها على بعض ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة:٢٥٩]، أولًا: التأمت العظام، ثم كساها الله لحمًا، ثم نبت عليها جلدها، ثم نفخ فيها الروح، وقام الحمار ونهق، فأراه الآية في نفسه وفي ما كان معه، وذلك بلا شكّ آية وعبرة على أنّ الله تعالى قادر على أن يحيي الموتى ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة:٤٠]، فإذا أيقن الإنسان بذلك فإنّ يقينه يحمله على أن يستعدّ للموت.

قال الطحاوي:

وبِعَذابِ القَبْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا، وسُؤالُ مُنْكَرٍ ونكيرٍ في قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ ودِينِهِ ونَبِيِّهِ عَلَى ما جَاءَتْ بِهِ الأَخْبارُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وعَنِ الصَّحابةِ رِضْوانُ الله عَلَيْهِم. والقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النِّيرانِ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧]. وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ به عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وغيره في الدُّنْيا، وَأَنْ يُرادَ به عَذَابُهُمْ فِي الْبَرْزَخِ، وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذَّبْ في الدُّنْيا، أَوِ الْمُرادُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ.

وَعَنِ الْبَراءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ، قَالَ: «كُنَّا في جِنَازَةٍ في بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا النبي ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَه، كَأَنَّ على رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَهُوَ يُلْحَدُ له، فَقَالَ: أَعُوذُ بالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيا، نَزَلَتْ إليه الْمَلَائِكَة، كَأَنَّ على وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّة، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّة، فَجَلَسُوا منه مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ

مَلَكُ المَوْتِ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِه، فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إلى مَغْفِرَةٍ مِنَ الله وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حتى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا في ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الحَنُوطِ، وَتَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ، قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا -يعني على مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ- إِلَّا قَالُوا: مَا هذه الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ التي كَانُوا يُسَمُّونَه بِهَا فِي الدُّنْيَا، حتى يَنْتَهُوا بِهَا إلى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتِحُونَ له، فَيُفْتَحُ له، فَيُشَيِّعُه مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، إلى السَّمَاءِ التي تَلِيهَا، حتى يُنْتَهَى بِهَا إلى السَّمَاءِ التي فيها الله، فَيَقُولُ الله -عَزَّ وَجَلَّ-: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوه إلى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أخرى.

قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُه في جَسَدِه، فَيَأْتِيه مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِه، فَيَقُولَانِ له: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ الله، فَيَقُولَانِ له: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ له: مَا هَذَا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله، فَيَقُولَانِ له: مَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ به وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوه مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا له بَابًا إلى الجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيه مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ له فِي قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه، قَالَ: وَيَأْتِيه رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ له: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الذي يَجِيءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: يَا رَبُّ، أَقِمِ السَّاعَةَ حتى أَرْجِعَ إلى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ منه مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِه، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِه طَرْفَةَ عَيْنٍ، حتى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ خَبِيثَةٍ وُجِدَتْ عَلى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حتى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ له، فَلَا يُفْتَحُ له، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَه فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُه طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فَتُعَادُ رُوحُه فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِه، فَيَقُولَانِ له: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ له: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوه مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا له بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيه مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عليه قَبْرُه، حتى تَخْتَلِفَ فيه أَضْلَاعُه، وَيَأْتِيه رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي

يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْه يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، فَيَقُولُ رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ».

رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1] وَأَبُو دَاوُدَ[2]، وروى النسائي[3] وَابْنُ مَاجَه[4] أَوَّلَه، ورواه الحَاكِمُ[5] وَأَبُو عَوَانَة الْإِسْفِرَائِينِي[6] في صَحِيحَيْهِمَا، وَابْنُ حِبَّانَ[7].

وَذَهَبَ إِلى مُوجَبِ هَذَا الحَدِيثِ جَمِيعُ أَهْلِ السنة وَالحَدِيثِ، وله شَوَاهِدُ مِنَ الصَّحِيحِ، فَذَكَرَ البخاري - رحمه الله - عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ في قَبْرِه وَتَوَلَّى عنه أَصْحَابُه، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيه مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِه، فَيَقُولانِ له: مَا كُنْتَ تَقُولُ في هَذَا الرَّجُلِ، مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أنه عَبْدُ الله ورسوله، فَيَقُولُ له: انْظُرْ إِلى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ الله به مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّة، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا»[8].

---

(١) في المسند (٤/ ٢٨٧).

(٢) برقم (٤٧٥٣).

(٣) في المجتبى (٢٠٠١).

(٤) برقم (١٥٤٩).

(٥) في المستدرك (١/ ٣٧).

(٦) كما في إتحاف المهرة (٢/ ٤٥٩).

(٧) أشار إليه عقب حديث أبي هريرة ﷺ (٧/ ٣٨٧)، وقال: «زاذان لم يسمعه من البراء، فلذلك لم أخرجه».

(٨) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

قَالَ قَتَادَة: وَرُوِي لَنَا: أنه يُفْسَحُ له في قَبْرِه، وَذَكَرَ الحَدِيثَ.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عَنْهُمَا ـ: أَنَّ النبي ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، فَدَعَا بِجَرِيدَةٍ رَطْبَةٍ، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، وَقَالَ: «لَعَلَّه يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»[1].

وفي «صَحِيحِ أبي حَاتِمٍ»[2] عَنْ أبي هريرة، قَالَ: قَالَ النبي ﷺ: «إِذَا قُبِرَ أحدكم، أَوِ الْإِنْسَانُ، أَتَاه مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ»، وَذَكَرَ الحَدِيثَ ... إِلَخ.

قال الشيخ:

الإيمان بالبرزخ وبما يكون فيه ثبت تفصيلًا بالسنّة، وثبتت أدلّته مجملة من القرآن، وقد روي أنّ امرأة من اليهود دخلت على عائشة رضي الله عنها، فكان من جملة ما قالت: أعاذكِ الله من عذاب القبر، فاستغربت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن يكون في القبر عذاب، فلمّا جاء النبيّ ﷺ سألته عن عذاب القبر، فقال: «نَعَمْ، عَذَابُ القَبْرِ حَقٌّ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) (٧/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٢)، ومسلم (٩٠٣).

وقد استدلّ على عذاب البرزخ بآيات؛ منها الآية التي ابتدأ بها الشارح - رحمه الله تعالى - وهي قصة آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

وأخرج الطبري[1]: أن رجلاً سأل الأوزاعي، فقال: رحمك الله، رأينا طيورًا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضًا فوجًا فوجًا، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سودًا، قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون، يُعرضون على النار غدوًا وعشيًا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها وصارت سوداء، فتنبت عليها من الليل رياش بيض وتتناثر السود، ثم تغدو، ويعرضون على النار غدوًا وعشيًا، ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دأبها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله: ﴿ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾.

وإذا كان هذا في حقّ آل فرعون، فكذلك كلّ كافر، وكلّ خارج عن الإسلام وكلّ مبتدع، يثبت له هذا العذاب الذي ثبت لآل فرعون.

والآية الثانية التي يُستدل بها على عذاب القبر في آخر سورة الطور ﴿ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴾ [الطور:٤٥]، يعني: يوم القيامة، قال: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الطور:٤٧]، فسّر ﴿ دُونَ

---

(١) في تفسيره (٢٤/ ٧١).

ذَٰلِكَ ﴾: ـ أي قبل ذلك ـ بأنه إنّه عذاب القبر، وقيل: إنّه عذاب في الدنيا، ورجّح الشارح أنّه عذاب القبر، وذلك أنّ كثيرًا منهم مات ولم يعذّب في الدنيا، فدلّ على أنّه لا بدّ أنْ يأتيهم عذاب قبل عذاب يوم القيامة، ولا يكون إلا عذاب البرزخ.

وقد استدلّ أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة:٢١]، العذاب الأدنى: فُسِّر بعذاب القبر، وهو قبل العذاب الأكبر وهو العذاب الأخرويّ.

واستدلّ أيضًا عليه بقوله تعالى في سورة التوبة، لما ذكر المنافقين قال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١]، المرتان: مرّة في الدنيا، ومرّة في البرزخ، أو مرّتين في البرزخ، وهما: عذاب على الأرواح، وعذاب على الأبدان.

هذه الآيات تدلّ على أنّه وجد ذكر عذاب القبر في القرآن.

وقد تكلّم العلماء على القبور وما يكون فيها، فكتب المتقدّمون كتبًا كبيرة مثل ابن أبي الدنيا الذي ألّف كتاب «القبور»، وكذلك ابن القيم تكلّم على عذاب القبر في كتاب «الروح»، ذكر الأدلّة عليه، وذكر أنواعه، وكذلك تلميذه ابن رجب في كتابه «أهوال القبور» تكلّم فيه على عذاب القبر وأنواعه، وتوسّع في ذلك، وذكروا أدلّة وأمثلة على ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة تدلّ على إثبات عذاب القبر، ذكر الشارح بعضها كما مرّ معنا، وذكر ابن كثير في «التفسير» عند قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧]، أنّها نزلت في عذاب القبر، وقد أورد عندها أحاديث طويلة وقصيرة فيها ذكر ما يعرض على الميت في قبره وما يناله من العذاب، ومنها هذا الحديث الطويل الذي ذكره الشارح، فنتأمّل في هذا العذاب ونأخذ منه العبرة.

فمثلًا: اشترك المؤمن والكافر في أن ملك الموت يجلس عند رأس كلّ واحد منهما، إلّا أنّه يقول للمؤمن: «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». ويقول للكافر: «أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ».

أمّا روح المؤمن، فتخرج كما تسيل القطرة من فيّ السّقاء، وأمّا روح الكافر فتتفرّق في جسده، فينتزعها بقوّة كما ينتزع السُّفّود من الصوف المبلول. والسفّود: هو الذي له أطراف محددة إذا أدخل في الصوف المبلول، فلا يخرج إلّا بعد أن يتقطّع ما علق به. فمثلًا إذا أردت أن تخرج شوكة من وسط صوف أو قطن لا تخرج إلّا بعد أن يتقطّع ما يحيط بها، فهذا لأنّه ينتزعها بقوّة فتتقطع العروق وتتقطّع الشرايين، ولا تخرج إلّا بقوة، وهذا دليلٌ على أنّ هذا أولُ عذابه.

بعدما تخرج الروح تأخذها الملائكة، فملائكة المؤمن كأنّ وجوههم الشمس، وملائكة الكافر سود الوجوه، ومع ملائكة المؤمن أكفانٌ من الجنّة، وحنوطٌ من الجنّة، والحنوط: هو الطيب الذي يطيّب به الميّت، فهذا الحنوط

تطيّب به روح المؤمن. وأمّا الكافر فإنّ روحه تجعل في تلك المُسوح، وهي خشن الثياب.

بعدما يُصعد بها يخرج من المؤمن كأطيب ريح مسك وجدت على الأرض، ويخرج من الكافر كأنتن ريح جيفة وجدت على الأرض، مع أنّها روحه كذلك المؤمن يسمّى بأحسن أسمائه في الدنيا، والكافر بأسوأ أسمائه في الدنيا. والمؤمن تفتح له أبواب السماء، ويُرحَّب به، وتصل روحه إلى السماء السابعة، فعندئذ يقول تعالى: «اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوه إلى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَة أخرى»، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، وهو مشتق من العلو.

وأما الكافر، فيقول تعالى: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ»، قال تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، قالوا: إنّه مشتقّ من السجن، يعني: كأن أرواحهم مسجونة في جبٍّ في أسفل الأرض السفليّة. فهذا مستقرّ أرواحهم ومحلّ كتابهم، روح الكافر لا تفتح لها أبواب السماء، كما قال تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، وسَمّ الخياط: هو ثقب الإبرة، فكيف يتصوَّر أنّ الجمل يدخل في ثقب الإبرة، والمعنى: أنّهم لا يدخلون الجنّة، وكذلك فإنّ روح الكافر تطرح طرحًا من السماء إلى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

والمؤمن والكافر كلّ منهما تعاد روحه إلى جسده، وينزل به ملكان يقال لهما: منكر ونكير، يسألانه عن ثلاث مسائل: عن ربّه، ونبيّه، ودينه. فيثبّت الله المؤمن، ويُنطقه بالصواب، ولو كان أمّيًا لا يقرأ، ولكن تكون عقيدته التي مات عليها يبقى عليه أثرها، فيقول: ربّي الله، وديني الإسلام، ونبيّ محمد ﷺ.

أما الكافر ولو كان قارئًا، ولو كان عالمًا، فلا يدري بالجواب، ويزيغه الله، فيقول: هاه هاه لا أدري، وفي بعض الروايات أنّه يضرَبُ بمرزبّةٍ من حديد، والمرزبة: هي حديدةٌ كبيرةٌ لها رأس كبير يضرب بها، وفي بعض الروايات: «لو ضُرِبَ بها جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا»[1]! ماذا يتحمّل هذا الإنسان، يُضرب بهذه المرزبة، ولكن لَـمّا أنّ الله ما أراد إفناءه لا يفنى، ولكن يتألّم بذلك، ولو كنّا لا نشعر بذلك، ولا تدركه أفهامنا.

ولكن إذا سئل المؤمن وأجاب بالجواب الصحيح، «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوه مِنَ الجَنَّة، وَافْتَحُوا له بَابًا إلى الجَنَّة، قَالَ: فَيَأْتِيه مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه»، وينظر إلى منزله من الجنّة، وفي بعض الروايات: «يُفْتَحُ له بَابٌ إلى النَّارِ، فيقول: هذا كان مَنْزِلُكَ لو كَفَرْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذْ آمَنْتَ فَهَذَا مَنْزِلُكَ، فَيُفْتَحُ له بَابٌ إلى الجَنَّةِ»[2]، فينظر إليه فيراهما جميعًا، فيقول: ربِّ أقِم الساعة حتّى أرجع إلى أهلي ومالي، ويفسح له في قبره مدّ

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

بصره، ويكون قبره روضة من رياض الجنّة، وإن كنّا لا ندرك ذلك.

كذلك الكافر والعياذ بالله، «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوه مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا له بَابًا إلى النَّارِ، فَيَأْتِيه مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عليه قَبْرُه، حتى تَخْتَلِفَ فيه أَضْلَاعُه»، ويكون عليه حفرة من حفر النار، وإن كنّا لا ندرك ذلك؛ لأنّه في عالم ونحن في عالم.

وقد وردت الأدلّة توضّح مثل هذا، وتثبت عذاب القبر، مثل ما في حديث أنس ﷺ الذي مرّ معنا قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِه وَتَوَلَّى عنه أَصْحَابُه، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيه مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِه ...»[1]. إلى آخره.

فإذا قال قائل: أين هذا؟ فنحن قد نحفر القبر بعد يومين أو ثلاثة، فنجده كما وضعناه لم يتغيّر، ويقول بعضُهم: إنّنا نضع على صدره الزّئبق الذي هو خفيف الحركة، فنجده لا يتغيّر عن موضعه، كيف يكون ذلك؟

الجواب: أنّكم في عالمٍ، وهم في عالمٍ، العالم الذي هم فيه هو عالم الأرواح، التي يكون عليها الحساب وعليها العذاب، وهي التي تتعذّب وتتنعّم ونحن لا نشعر بذلك ولا تدركه أفهامنا. ولذلك يقول في الحديث: «يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إلا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ»[2]. لو أسمعنا الله ما يكون من أهل القبور، لَمَا استقرّ الناس في الدنيا، ولما تهنّوا في مأكلٍ ولا مشربٍ، ولما عمرت هذه

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الدّنيا بأهلها؛ لأنّهم لو كانوا يسمعون عذاب هؤلاء وبكاءهم وعويلهم وأنّهم سيصيرون إلى مثل ذلك تنكّدت عليهم الحياة، وتكدّر عليهم صفوها. ولذلك لِمَا أراد الله عمارة هذه الدنيا حجب عنهم الأمور الأخرويّة التي أوّلها ما بعد الموت فلا يسمعون شيئًا ممّا فيها، ولا يعلمون ما فيها.

لكن قد يطلع الله أفرادًا منهم على شيء من ذلك، فمن أراد أن يعرف شيئًا من ذلك، فليرجع إلى الكتب التي ذكرنا، مثل: كتب ابن أبي الدنيا، وكتاب «أهوال القبور» لابن رجب، وكتاب «الروح» لابن القيم؛ فقد ذكروا أُناسًا أطلعوا على بعض من الأمور الأخرويّة، منها ما هو أحلام ورؤى، ومنها ما هو رأيُ عين، فقد روي أن شابًا مات فدفن، فرآه رجل من جيرانه في المنام وقد شاب، فقال له: ما قصتك؟ قال: دُفن بشر المريسي في مقبرتنا، فزفرت جهنم زفرة شاب منها كل من في المقبرة[1].

معلوم أنّ الاثنين قد يكون أحدهما سعيدًا والآخر شقيًّا، ويدفنان في قبرين متجاورين، فيكون هذا قبره روضة من رياض الجنّة، وهذا قبره حفرة من حفر النار، وهما متلاصقان ولا يتألّم هذا بعذاب هذا، ولا يتنعم هذا بنعيم هذا، والله قادر على كلّ شيء؛ لأنّه يقدر على إيصال كلٍّ ما يستحقّه، ولا يستبعد في قدرة الله أمثال هذه الأمور.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٦٦). وأخرج نحوه الخطيب في تاريخ بغداد (١٤/ ٤٣٣)، وابن الجوزي في المنتظم (١٠/ ٢٧٨).

وأمّا الحكايات الدنيويّة، فقد ذكروا منها أشياء كثيرةً: ذكروا أنّ رجلًا من النّاس لما دفنوه وسوّوا عليه لَبِنَهُ، سقطت قلنسوة واحد منهم، فخفض رأسه ليأخذها، فرأى القبر قد مدَّ وقد وسِّع في نظر عينه، ولو لم ير ذلك غيره، وهذه بشرى للميت.

وكذلك أيضًا ما يحكى عن كثير من الذين يُشهد لهم بالخير، أنّه يخرج من قبورهم رائحة المسك، وأنّهم يشمّ منهم قبل أن يدفنوا روائح طيّبة على الأبدان، فكيف بالأرواح؟! والله تعالى أخبر على لسان رسله بهذه الأمور، وبيّن منها علامات؛ لتكون شاهدًا ودليلًا للأمّة على مثل هذه الأمور التي لم يروها.

وكذلك يُطلع اللهُ نبيَّه ﷺ على ما لا يطّلع عليه غيره، فقد أخرج مسلم في «صحيحه»[1] عن زَيْد بن ثَابِتٍ ﷺ قال: بَيْنَمَا النبي ﷺ في حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ على بَغْلَةٍ له وَنَحْنُ معه، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وإذا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أو خَمْسَةٌ أو أَرْبَعَةٌ، فقال: «من يَعْرِفُ أَصْحَابَ هذه الْأَقْبُرِ؟»، فقال رَجُلٌ: أنا، قال: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟**»، قال: مَاتُوا في الْإِشْرَاكِ، فقال: «**إِنَّ هذه الْأُمَّةَ تُبْتَلَى في قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ من عَذَابِ الْقَبْرِ الذي أَسْمَعُ منه**». فأطلعه الله على ما لم يطلع عليه غيره، ولا يلزم من ذلك أن يكون مطّردًا، فليس كلّ من ركب حمارًا ومرّ على قبر يشعر بذلك الحمار.

والدوابّ قد يكون لها سماع وانتباه لشيء لا يسمعه الإنسان، ولكن قد

---

(١) برقم (٢٨٦٧).

لا يظهر عليها أثر هذا السماع، وقد أخبر النبيّ ﷺ بأنّ الدوابّ في صباح كلّ يوم جمعة تصيخ قرب الصباح أو بعد الصباح إلى طلوع الشمس، تخشى أن يكون ذلك يوم القيامة. يقول في الحديث في فضل يوم الجمعة: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فيه الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عليه، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وما من دَابَّةٍ الا وهي مُسِيخَةٌ[(١)] يوم الجُمُعَةِ من حِينِ تُصْبِحُ حتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقاً مِنَ السَّاعَةِ إلا الجِنَّ والأنس»[(٢)]. ونحن لا نشعر بهذه الإصاخة التي فيها هذا الوجل وهذا الخوف، وكذلك أيضًا لا نشعر بما يحصل لها من الخوف، أو من السماع المفزع أو نحو ذلك.

أما الرسل، فإنّ الله سبحانه قد يطلعُهم على بعض الأمور الغيبيّة؛ فمن ذلك أنّ الله تعالى أطلع نبيّه على هذين القبرين الذين يعذّبان، وقد مرّ بنا حديثهم في قوله: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»[(٣)]. وهذا من خصائص الرسول ﷺ، فالله تعالى هو الذي يطلعه على ما يشاء، ولا يجوز لغيره أن يغرز جريدة، أو عصًا رطبةً على أيّ قبر، ولا يمكن أن تكون تلك الجريدة تؤثّر كغيرها، ولا يمكن أن يقاس على الجريدة التي غرزها الرّسول ﷺ غيرها.

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٣٣): «مسيخة: أي مصغية مستمعة، ويروى بالصاد وهو الأصل».

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٤٦) واللفظ له، والنسائي (١٤٣٠)، وأحمد (٢/ ٤٨٦)، (٥/ ٤٥٣)، ومالك (١/ ١٠٨)، وابن حبان (٧/ ٧)، والحاكم (١/ ٢٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٧).

وقد ذُكر أن بعض الناس يستدلون بهذا الحديث على مشروعية أن يُغرز على كلّ قبر جريدة، وكلّما يبست نزعت وغرز مكانها أخرى، وهذا لم يفعله النبيّ ﷺ مع كلّ أحد، ولم يفعله الصحابة رضي الله عنهم، فلا يجوز، ولا وزن له ولا دلالة، ولكن علينا أن نعمل الأعمال الصالحة التي تُنجي من عذاب القبر، وعلينا أن ننصح المسلمين بأن لا يعملوا عملًا يدخلهم في العذاب، أو يؤهّلهم في العذاب، ونحثّهم على الأعمال الصالحة التي يستحقّون بها نعيم البرزخ، وينجيهم الله بها من عذاب النار وعذاب القبر.

واستحبّ العلماء في الصلاة على الجنازة أن يُدعى للميّت بالنجاة من عذاب القبر، كأن يُقال في الدعاء له ـ بعد ما يُدعى له بالمغفرة وتكفير الخطايا ـ: اللهمّ افسح له في قبره، ونوِّر له فيه. هذا مما يُرجى إجابته، أن يُفسح له في قبره. ويقال أيضًا: اللهمّ أنجه من عذاب القبر، ومن عذاب النار. هكذا يستحبّ أن يُدعى للميّت.

ويُدعى كذلك لكلّ المسلمين، أن ينجيهم الله من عذاب القبر، ومن فتنة القبر، ومن فتنة ما بعد الموت... وهكذا

أجمع المسلمون على الدعاء بذلك، بل أوجبه بعضهم في آخر الصلاة، فهو دليل على أنّهم موقنون بذلك، ويدلّ على وجوبه قوله ﷺ: «إذا فَرَغَ أَحَدُكُم مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ فَلْيَتَعَوَّذْ بِالله من أَرْبَعٍ: من عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ

فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»[١]. فجعل من جملتها عذاب القبر، فدلّ على أنّه عقيدة راسخة عند المسلمين أنّ القبر فيه عذاب، ولو لم يقبر، قد يقال: إنّ هناك أمم لا يدفنون أمواتهم بل يحرقونهم، وهناك من يموت في الصحراء ولا يُدفن بل تأكله الطيور، وتقطّعه السباع ولا يبقى له جثة أبدًا؟

نقول: يأتيه عذابه ولو كان رمادًا، ولو كان ترابًا؛ فقدرة الله تأتي على كلّ شيء، يعذّب أيًا كانت حياته وحالته، لكن الأصل شرعيّة الدفن للأموات، فالإسلام شرع التدافن. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ [عبس:٢١]، أي: فشرع أن يقبر. ويقول النبيّ ﷺ: «إِنَّ هذه الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ من عَذَابِ الْقَبْرِ الذي أَسْمَعُ منه»[٢]. كأنه يقول: لو أنّه أسمعهم ما يسمع من عذاب القبر خُشِيَ أنّهم لا يتدافنون، وأنّهم يقولون لا حاجة إلى الدفن؛ فإنّه يعذّب في قبره، ولكن شرع الله التدافن، وقدّر أن يصل العذاب أو النعيم إلى كلّ واحد، سواء أدفن أم لم يدفن.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ١٥٥).

قال الشارح:

وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَسُؤَالِ المَلَكَيْنِ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ وَالْإِيمَانُ به، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي كَيْفِيَّتِه، إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وُقُوفٌ على كَيْفِيَّتِه، لِكَوْنِه لَا عَهْدَ له به في هذه الدَّارِ، وَالشَّرْعُ لَا يأتي بِمَا تُحِيلُه الْعُقُولُ، وَلَكِنَّه قَدْ يأتي بِمَا تَحَارُ فيه الْعُقُولُ. فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إلى الجَسَدِ لَيْسَ على الْوَجْه المَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ تُعَادُ الرُّوحُ إليه إِعَادَةً غَيْرَ الْإِعَادَةِ المَأْلُوفَةِ فِي الدُّنْيَا.

قال الشيخ:

قد كثرت الأدلة في إثبات عذاب القبر، فأخبر النبي ﷺ به، وعلينا أن نصدق به، وقد كتب العلماء في ذلك وتوسعوا فيه، كتب في ذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب «الروح» وأورد الأدلة، ثم إنه أورد شبهات من الفلاسفة ونحوهم الذين يكذبون بذلك، ويقولون: كيف يُجلس في قبره، وكيف يوسع عليه، وكيف يُضيق عليه، ويقولون: إننا وضعنا على صدره الزئبق الذي هو أخف شيء حركة، وفتحنا عليه بعد ثلاثة أيام فوجدناه كما وُضع لم يتحرك أية شيء منه، ونحو ذلك من شبههم.

فنحن نصدق بما جاء في الأحاديث ونقول: سمعنا وأطعنا، نعتقد أن ذلك حق.

قوله: (وَسُؤَالِ المَلَكَيْنِ)، أي: سؤالهم لكل ميت من ربك؟ وما دينك؟

ومن نبيك؟

ونظرًا لتواتر الأخبار عن الرسول ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه كان ذلك مما يجب تصديقه، وإن لم تدركه العقول، وإن لم يكن في متناول الأنفس، بل إن هذا من الأمور الغيبية التي نؤمن بها وإن لم نرها.

يقول: (**وَالشَّرْعُ لَا يأتي بِمَا تُحِيلُه الْعُقُولُ، وَلَكِنَّه قَدْ يأتي بِمَا تَحَارُ فيه الْعُقُولُ**)، تتحير العقول وتسلم أمرها لله، ولا تكيف، ولا تنكر الأشياء التي جاءت الأدلة عليها يقينًا.

ثم قال: (**فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إلى الجَسَدِ لَيْسَ على الْوَجْه المَعْهُودِ في الدُّنْيَا**)، ما جاء في الحديث: «**وَتُعَادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ...**»[1] إلى آخره، ليس معناه أن روحه تعود إليه كما كانت في الدنيا بحيث يستيقظ ويحتاج إلى أكل ويحتاج إلى شراب، وإلى حركة طبيعية، ولكنه اتصال الله تعالى أعلم بحقيقته.

قوله: (**بَلْ تُعَادُ الرُّوحُ إليه إِعَادَة غَيْرَ الْإِعَادَة المَأْلُوفَة في الدُّنْيَا**)، أي: كما يشاء الله تعالى.

---

(١) تقدم تخريجه (١٤٦).

قال الشارح:

فَالرُّوحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ التَّعَلُّقِ، مُتَغَايِرَةِ الْأَحْكَامِ:

أَحَدُهَا: تَعَلُّقُهَا به في بَطْنِ الْأُمِّ جَنِينًا.

الثاني: تَعَلُّقُهَا به بَعْدَ خُرُوجِهِ إلى وَجْهِ الْأَرْضِ.

الثَّالِثُ: تَعَلُّقُهَا به في حَالِ النَّوْمِ، فَلَهَا به تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْه، وَمُفَارَقَة مِنْ وَجْه.

الرَّابِعُ: تَعَلُّقُهَا به في الْبَرْزَخِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ فَارَقَتْه وَتَجَرَّدَتْ عنه فَإِنَّهَا لَمْ تُفَارِقْه فِرَاقًا كُلِّيًّا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَهَا إليه الْتِفَاتٌ أَلْبَتَّةَ، فإنه وَرَدَ رَدُّهَا إليه وَقْتَ سَلَامِ الْمُسَلِّمِ[1]، وَوَرَدَ أنه يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عنه[2]، وَهَذَا الرَّدُّ إِعَادَة خَاصَّة، لَا يُوجِبُ حَيَاةَ الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَة.

الْخَامِسُ: تَعَلُّقُهَا به يَوْمَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالْبَدَنِ، وَلَا نِسْبَةَ لِمَا قبله مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إليه، إِذْ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ معه مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا، فَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ. فَتَأَمَّلْ هَذَا يُزِحْ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كثيرة.

قال الشيخ:

قوله: (فَالرُّوحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ)، كما ذكر ذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب «الروح»، وتوسع في ذلك، في نحو عشرين صفحة.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٧).

(٢) كما في حديث أنس ﷺ الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).

قوله: (أَحَدُهَا: تَعَلُّقُهَا به في بَطْنِ الْأُمِّ جَنِينًا)، فإذا كان في بطن أمه فإن فيه روح، ولكن تلك الروح لا نعلم كيفيتها؛ ولذلك لا يتنفس ولكنه يتحرك في بطن أمه مما يدل على حياته.

قوله: (الثاني: تَعَلُّقُهَا به بَعْدَ خُرُوجِه إلى وَجْه الْأَرْضِ)، وهو هذا التعلق المشاهد، إذا ولد البشر فساعة ما يخرج يُسمع له صوت، يعني: صيحة تدل على حياته، وكذلك أيضًا حركة، ثم بعد ذلك يبقى في هذه الحياة الدنيا يتنفس التنفس العادي، ويأكل ويشرب، ويحتاج إلى إخراج فضلات الأكل والشرب، وينام ويستيقظ، ويذهب ويجيء، ويسعى ويمشي، ويصعد وينزل، فهو حي كما هو مشاهد، يتكلم، ويتحرك، وينطق، ويسمع، ويبصر على ما هو معروف.

قوله: (الثَّالِثُ: تَعَلُّقُهَا به في حَالِ النَّوْمِ، فَلَهَا به تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْه، وَمُفَارَقَة مِنْ وَجْه)، النائم لم يفقد الحياة؛ ولأجل ذلك يتنفس التنفس العادي، ولكن ليس به الحركة، وليس به اليقظة، وقد جاء في حديث أبي قَتَادَةَ ﷺ أنه قال: سِرْنَا مع النبي ﷺ لَيْلَةً، فقال بَعْضُ الْقَوْمِ: لو عَرَّسْتَ بِنَا يا رَسُولَ الله، قال: «أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عن الصَّلَاةِ»، قال بِلَالٌ: أنا أُوقِظُكُمْ، فَاضْطَجَعُوا، وَأَسْنَدَ بِلَالٌ ظَهْرَهُ إلى رَاحِلَتِهِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ النبي ﷺ وقد طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ، فقال: «يا بِلَالُ، أَيْنَ ما قُلْتَ؟» قال: ما أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُهَا قَطُّ، قال: «إِنَّ الله قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حين شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حين

شَاءَ...» الحديث[1]. إلى آخر ما ذُكر، فمفارقتها له بالنوم ليست بمفارقة كاملة كالمفارقة بعد الموت، ولكن خرجت وبقي أثرها، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

قوله: (**الرَّابِعُ: تَعَلُّقُهَا به في الْبَرْزَخِ**)، وهذا هو ما يحصل به عذاب القبر أو نعيمه، فنعتقد أنه إذا مات فإن روحه تبقى حية، وموتها خروجها من هذا الجسد ومفارقتها له، ولكنها باقية؛ ولهذا توصف بأنها تصعد وتنزل، وتذهب وتجيء، وتوصف بأنها حية تتحرك كما يشاء الله، ونحن نعجز عن أن ندرك ماهية الروح التي كانت في البدن وخرجت منه، ولكن نعلم أنها مخلوقة، ونعلم أن لها حركة وانتقال وذهاب ورجوع، فإذا مات وفارقته هذه الروح لا يُقال: إنها فارقته فراقًا كليًا، بل لا يزال لها تعلق به، يبقى لها إليه التفات، لا تفارقه فراقًا كاملاً أبدًا، وقد ورد أنها تُرد إليه وقت سلام المسلم، ثبت ذلك في حق النبي ﷺ، أنه قال: «**ما من أَحَدٍ يُسَلِّمُ عليّ إلا رَدَّ الله عليّ رُوحِي حتى أَرُدَّ عليه السَّلامَ**»[2]، وورد أيضًا كذلك في حق غيره أن الإنسان إذا سلم على

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٦٧): «هو كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، ولا يلزم من قبض الروح الموت، فالموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهرًا وباطنًا، والنوم: انقطاعه عن ظاهره فقط».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الميت أو على أهل القبور يسمعون سلامه، ولما وقف النبي ﷺ على جثث القتلى في بدر، أخذ يخاطبهم مخاطبة الأحياء، ويوبخهم على أعمالهم وردهم لرسالته، وقال لأصحابه: «**ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ منهم، غير أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شيئًا**»[1]، ويريد بذلك أرواحهم التي قد فارقت أجسادهم، هكذا أخبر.

وورد أن الميت إذا انصرف أصحابه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وفي حديث عن أنس رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم: «**إِنَّ الْعَبْدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عنه أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ**»[2].

ثم قال: (**وَهَذَا الرَّدُّ إِعَادَة خَاصَّة، لَا يُوجِبُ حَيَاة الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَة**)، فترد عليه الروح مع أن البدن قد فني وصار ترابًا أو رمادًا، أو أُحرق، أو أكلته الطيور أو السباع، ومع ذلك فإن الروح باقية إذا سلم عليه أحد يرد عليه السلام.

قوله: (**الْخَامِسُ: تَعَلُّقُهَا به يَوْمَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ**)، فعندما يعيد الله الأجساد وتنبت إلى أن تتواصل وتكمل ولو كانت قد أُحرقت الأبدان، ولو أكلها الدود، ولو أكلها التراب يعيدها الله، وهو سبحانه على كل شيء قدير؛ كما في قصة ذلك الرجل الذي مر على قرية فقال: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٠) بنحوه، ومسلم (٢٨٧٣) واللفظ له، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾، ومعلوم أنه بعد موته مئة عام يصير ترابًا، وكان معه أيضًا حمار فأحيا الله أيضًا ذلك الحمار، وقال له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩]، فكل ذلك دليل على قدرة الله تعالى، وأنه في الآخرة يعيد الأجسام حتى تتكامل، ثم تدخلها الأرواح، ثم يقوم حيًا سويًا، وهذه الإعادة هي أكمل الإعادات.

ثم قال: (وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالْبَدَنِ، وَلَا نِسْبَةَ لِمَا قبله مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إليه، إِذْ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ معه مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا، فَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ. فَتَأَمَّلْ هَذَا يُزِحْ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كثيرة).

قال الشارح:

وَلَيْسَ السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ لِلرُّوحِ وَحْدَهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وغيره، وَأَفْسَدُ منه قَوْلُ مَنْ قَالَ: أنه لِلْبَدَنِ بِلَا رُوحٍ! وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ تَرُدُّ الْقَوْلَيْنِ.

وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْقَبْرِ يَكُونُ لِلنَّفْسِ وَالْبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السنة وَالْجَمَاعَةِ، تَنْعَمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ مُفْرَدَةً عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً به.

وَاعْلَمْ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ نَالَه نَصِيبُه منه، قُبِرَ أَوْ لَمْ يُقْبَرْ، أَكَلَتْه السِّبَاعُ أَوِ احْتَرَقَ حتى صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ صُلِبَ، أَوْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ، وَصَلَ إِلَى رُوحِه وَبَدَنِه مِنَ الْعَذَابِ مَا يَصِلُ إِلَى الْمَقْبُورِ.

قال الشيخ:

أخبر النبي ﷺ بأن السؤال في القبر للبدن والروح، فقد جاء في حديث البراء بن عازب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ له: من رَبُّكَ؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي»[1]، وإن كنا لا نسمع ذلك السؤال والجواب، وإن كنا نتيقن أن البدن لا يتحرك، فالله تعالى على كل شيء قدير، قادر على أن يعيد إليه الحياة حياة برزخية، كما أخبر الله عن حياة الشهداء في قوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، وقال

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

النبي ﷺ: «أَرْوَاحُهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ من الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إلى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ...»[1]، مع أن أجسادهم قد دُفنت، فقد دفنهم أهلوهم، حفروا لهم ودفنوهم مما يدل على أنهم ماتوا الموتة التي كتبها الله عليهم، وأخبر الله أن أهل الجنة لا يموتون بقوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان:٥٦]، فهكذا يكون عذاب القبر، فليس السؤال في القبر للروح وحدها ولا للبدن بلا روح بل لهما كما يشاء الله.

وكذلك العذاب يكون على البدن ولو كان ترابًا، ويكون على الروح، باتفاق أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة يقولون: (تَنْعَمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ مُفْرَدَة عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَة به)، كما يشاء الله.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ: (وَاعْلَمْ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ)، البرزخ هو: ما بين الدنيا والآخرة، فالعذاب الذي يُسمى (عذاب البرزخ) هو العذاب الذي قيل: إنه عذاب القبر، ولكن عُبر بعذاب القبر؛ لأنه هو الغالب.

قوله: (قُبِر أو لم يُقبر، ولو أكلته السباع، أو احترق حتى صار رمادًا...)، هذا هو الصحيح عند أهل السنة أنه يصل إليه ما كتب الله عليه من العذاب ولو لم يكن مدفونًا، هكذا يعتقد أهل السنة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود ﷺ.

قال الشارح:

وَمَا وَرَدَ مِنْ إِجْلَاسِه وَاخْتِلَافِ أَضْلَاعِه وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُه مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، فَلَا يُحَمَّلُ كَلَامُه مَا لَا يَحْتَمِلُه، وَلَا يُقَصَّرُ به عَنْ مُرَادِ مَا قَصَدَه مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عنه مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُه إِلَّا الله. بَلْ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ الله ورسوله أَصْلُ كُلِّ بِدْعَة وَضَلَالَة نَشَأَتْ في الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطَأٍ في الْفُرُوعِ وَالْأُصُولِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ أُضِيفَ إليه سُوءُ الْقَصْدِ. والله الْمُسْتَعَانُ.

قال الشيخ:

صح أن الميت يجلس في قبره، ويأتيه ملكان فيجلسانه، ونحن نعلم أنه ليس الإجلاس الحقيقي؛ لأننا نعلم أن القبر يضيق به لو جلس في حياته الدنيا، وورد أيضًا أنه إذا كان شقيًا ينضم إليه القبر حتى تختلف أضلاعه، يعني: من شدة ضم القبر، هذا أيضًا ليس كالضم الذي نعرفه، بل هو كما يشاء الله، وكذلك أيضًا أن القبر يوسع عليه مد بصره، ليس كما ندركه نحن؛ لأننا في عالم وهم في عالم.

قوله: (فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُه مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ)، أي: يجب أن نفهم مراد النبي ﷺ، ونقول: هذا كله صحيح، ولكن لا نقول: إنه كحالته في الدنيا، فإن ذلك معلوم أنه ليس بصحيح، فالذين غلوا وقالوا: إن الأموات في قبورهم كأنهم أحياء، كما يعتقد ذلك أهل الغلو، الذين يغلون في

الأولياء ونحوهم، فهذا خطأ؛ لأنهم قد ماتوا كما يموت غيرهم، وما ورد من إحياء الشهداء ونحوهم أمر لا يعرف كيفيته إلا الله، ولا نقصر كما فعلت الفلاسفة الذين أنكروا ذلك إنكارًا حقيقًا.

قوله: (فَلَا يُحَمَّلُ كَلَامُه مَا لَا يَحْتَمِلُه)، أي: لا نحمل كلام النبي ﷺ ما لا يحتمله، فنقول: إنه حقيقي وأنه يصوت وأنه يُسمع ونحو ذلك.

قوله: (وَلَا يُقَصَّرُ به عَنْ مُرَادِ مَا قَصَدَه مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ)، وكذلك لا نقصر به عن مراده، إذا أراد شيئًا فلا نقصر به عنه، ولا عما قصده من الهدى والبيان فإن له قصد أن يهدي الناس ويُبين لهم.

قوله: (فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عنه مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُه إِلَّا الله. بَلْ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ الله ورسوله أَصْلُ كُلِّ بِدْعَة وَضَلَالَة نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ)، حيث إنهم صدوا عن سبيل الله، وفهموا عن الله فهمًا بعيدًا خاطئًا، ثم أدى بهم ذلك إلى أن ابتدعوا بدعًا ما أنزل الله بها من سلطان، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

قوله: (وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطَأٍ فِي الْفُرُوعِ وَالْأُصُولِ)، يعني: كل من أخطأ في الفروع التي هي الاجتهادات والأعمال، والأصول التي هي: العقائد، أصلها سوء الفهم، فأصل كل خطأ سوء الفهم عن الله ورسوله.

قوله: (وَلَا سِيَّمَا إِنْ أُضِيفَ إليه سُوءُ الْقَصْدِ)، يعني: أن يكون قصده شيئًا كحالة المبتدعة ونحوهم.

قال الشارح:

فَالحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَة: دَارُ الدُّنْيَا، وَدَارُ الْبَرْزَخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ. وَقَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخُصُّهَا، وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا على الْأَبْدَانِ، وَالْأَرْوَاحُ تَبعا لَهَا، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ على الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانُ تَبعا لَهَا، فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ على الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا.

فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا المعنى حَقَّ التَّأَمُّلِ، ظَهَرَ لَكَ أَنَّ كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّة أَوْ حُفْرَة مِنْ حُفَرِ النَّارِ مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ، وأنه حَقٌّ لَا مِرْيَة فيه، وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّارَ التي في الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ، لَيْسَت مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِنْ كَانَ الله تعالى يَحْمِي عليه التُّرَابَ وَالْحِجَارَة التي فَوْقَه وَتَحْتَه حتى تَكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحِسُّوا بِهَا. بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنُ أَحَدُهُمَا إلى جَنْبِ صَاحِبِه، وَهَذَا في حُفْرَة مِنَ النَّارِ، وَهَذَا في رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّة، لا يَصِلُ مِنْ هَذَا إلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ حَرِّ نَارِه، وَلَا مِنْ هَذَا إلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِه. وَقُدْرَة الله أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ مُولَعَة بِالتَّكْذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ به عِلْمًا.

وَقَدْ أَرَانَا الله في هذه الدَّارِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَته مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ. وَإِذَا شَاءَ الله أَنْ يُطْلِعَ على ذَلِكَ بَعْضَ عِبَادِه أَطْلَعَه وَغَيَّبَه عَنْ غيره، وَلَوْ أَطْلَعَ الله على ذَلِكَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ لَزَالَتْ حِكْمَة التَّكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَمَا تَدَافَنَ النَّاسُ، كَمَا

في «الصَّحِيحِ» عنه ﷺ: «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ»[1]. وَلَمَّا كَانَتْ هذه الْحِكْمَةُ مُنْتَفِيَةً فِي حَقِّ الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ وَأَدْرَكَتْ.

قال الشيخ:

قوله: (فَالْحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَةٌ: دَارُ الدُّنْيَا، وَدَارُ الْبَرْزَخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ)، كما يشاء الله، دار الدنيا: معروفة، ودار البرزخ: بين الدنيا والآخرة، ودار القرار: هي الآخرة التي ليس بها ظعن ولا ارتحال.

قوله: (وَقَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخُصُّهَا)، فدار الدنيا لها أحكام، ودار البرزخ الذي هو بعد الموت لها أحكام تخصها، وهكذا دار الآخرة.

قوله: (وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ)، والمراد بالنفس الروح، أي: أنه بدن الذي له ثقل، ونفس التي ليس لها ثقل، فإن الإنسان إنما ثقله ووزنه هو بهذا البدن الذي هو دم وجلد وعظم وعصب ولحم وأمعاء.. ونحو ذلك؛ ولهذا إذا خرجت منه الروح لا يخف وزنه بل هو كما كان عليه.

قوله:(وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا على الْأَبْدَانِ)، أي: جعل الله أحكام الدنيا على الأبدان: الجلد والعقوبات والطعن والقصاص ونحو ذلك على هذه الأبدان، التي هي الجسد واللحم والعظم.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٥٥).

قوله: (وَالْأَرْوَاحُ تَبَعا لَهَا)؛ لأنها هي التي تتألم؛لأن بها الحياة، فالأرواح تابعة للأبدان، وإلا فالأحكام في الدنيا كلها على الأبدان.

قوله: (وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ على الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانُ تَبَعا لَهَا)، بحيث إن الروح هي التي تُعذب وتُنعم،وهي التي تذهب وتجيء، وهي التي تخرج وترجع، والأبدان تبع لها قد يوصل إليها الله تعالى شيئًا من النعيم، ومن العذاب، وإن كنا لا ندرك ذلك.

قوله: (فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ على الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا)، أي: إذا رُدت الأرواح إلى أجسادها في الآخرة فإن الأحكام تتعلق بالبدن والروح جميعًا؛ لأنها اتصلت بالبدن اتصالاً كليًا بحيث إنها لا تفارقه أبدًا لا في موت ولا في نوم ونحو ذلك، فإذا قام الناس من قبورهم وردت إليهم أرواحهم، فالحكم حينئذٍ والنعيم أو العذاب عليهما جميعًا: الروح والجسد.

ثم قال: (فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا المعنى حَقَّ التَّأَمُّلِ، ظَهَرَ لَكَ أَنَّ كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الجَنَّة أَوْ حُفْرَة مِنْ حُفَرِ النَّارِ مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ) أي: عليك أن تتأمل اتصالات أو تعلق الروح بالبدن، وكذلك أيضًا تتأمل الدور الثلاثة، وتعرف بذلك أن النبي ﷺ لما أخبر أن القبر روضة من رياض الجنة على المؤمنين أن ذلك صحيح، أو كذلك حفرة من حفر النار[1] أن ذلك مطابق للعقل، وأن

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الذين أنكروا ذلك قصرت عقولهم.

قوله: (وأنه حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فيه)؛ لأنه أخبر به الصادق المصدوق؛ (وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ)، فنحن نؤمن بالغيب الذي مدح الله تعالى به المتقين، قال تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة:٢، ٣]، أي: من الغيب كل ما أخبر الله به وأخبر به نبيه ﷺ مما يكون بعد الموت كعذاب القبر ونعيمه ونحو ذلك.

ثم يقول: (وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّارَ التي في الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ، لَيْسَت مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِنْ كَانَ الله تعالى يَحْمِي عليه التُّرَابَ وَالْحِجَارَة التي فَوْقَه وَتَحْتَه حتى تكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحِسُّوا بِهَا)، أي: ليست محسوسة، والتي لها حرارة، والله تعالى قادر على أن يجعل التراب الذي عليه، واللبن الذي عليه يشتعل حرارة شديدة، ولكن ذلك ليس بمحسوس؛ لأننا لا نحس به ولا نشعر بشيء من ذلك، وكذلك لو كان عليه حجارة فالله قادر على أن يجعلها حارة شديدة الحرارة، ولكن لا نحس بشيء من ذلك، نحن نجعل فوقه هذه اللبنات، وقد يُجعل فوقه أيضًا حجارة على فم اللحد، وكذلك يكون تحته لبن أو تحته تراب، والله تعالى قادر على أن يجعله حارًّ حتى يكون أعظم حرارة من جمر الدنيا، ولكن أهل الدنيا لو لمسوه ما أحسوا بذلك؛ لأن هذا شيء من الأمر الأخروي الذي لا يصل إليه فهم الناس، ولا معرفة أذهانهم ولا ما هم عليه.

يقول: (بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنُ أَحَدُهُمَا إِلى جَنْبِ صَاحِبِه، وَهَذَا في حُفْرَة مِنَ النَّارِ، وَهَذَا في رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الجَنَّة، لَا يَصِلُ مِنْ هَذَا إِلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ حَرِّ نَارِه، وَلَا مِنْ هَذَا إِلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِه)، أي: إذا كان أحدهما شقيًا كافرًا فاسقًا خارجًا عن طاعة الله أو مبتدعًا، والآخر مؤمنًا نقيًا عقيدته سليمة يحب الله ورسوله، ويحب صحابة رسوله رضوان الله عليهم، ويحب العمل الصالح ويعمل بها، فالله تعالى قادر على أن يجعل هذا كأنه في حفرة من حفر النار، والآخر في روضة من رياض الجنة، وكل منهما إلى جنب صاحبه لا يحس هذا بحرارة النار التي على صاحبه، ولا هذا بالنعيم والزهور والروح والريحان الذي فيه الآخر، فالله تعالى على كل شيء قدير، (وَقُدْرَة الله أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ).

قوله: (وَلَكِنَّ النُّفُوسَ مُولَعَة بِالتَّكْذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ به عِلْمًا)،كما يقول ذلك ويفعله الفلاسفة والمكذبون، كأنهم يقولون: لا نصدق إلا بما نشاهد، وهذه حالة كثير من الفلاسفة ونحوهم الذين لا يقرون إلا بما يشاهدونه بالحواس، أي: بما يرونه وبما يسمعونه وبما يلمسونه، فالفلاسفة كذبوا بما لم يروه، وقالوا: إنا وضعنا على الميت زئبقًا ووجدناه لم يتحرك ولم يتغير.

يقول: (وَقَدْ أَرَانَا الله في هذه الدَّارِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِه مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ)، بمعنى أننا رأينا عجائب قدرة الله في أنه يتصرف في عباده، فيكون هذا مؤمنًا وأهله كفار، وبعكس ذلك، وهذا من العجائب، وقدرة الله أوسع من ذلك كله.

وقد ذكر العلماء الذين كتبوا في هذا الباب وقائع كثيرة، فذكر ابن أبي الدنيا في كتاب (القبور) أمثلة تدل على عذاب هذا ونعيم هذا، مما اطلع الله عليه العباد، وكذلك أيضًا ذكره ابن القيم في كتاب (الروح) فقد توسع في مثل ذلك، وكذلك أيضًا ابن رجب في كتابه (أهوال القبور)، أمثلة كثيرة مما أطلعهم الله على بعض الأموات المعذبين أو المنعمين، هذا كله مما قدره الله، ومما أطلع به عباده على المغيبات.

قوله: (وَإِذَا شَاءَ الله أَنْ يُطْلِعَ على ذَلِكَ بَعْضَ عِبَادِهِ أَطْلَعَه وَغَيَّبَه عَنْ غيره)، كما وقع ذلك لكثير حتى ذكروا أن إنسانًا رأى إنسانًا يخرج ثم يشتعل نارًا ثم يغيب، وغير ذلك من الأمثلة. ثم قال: (وَلَوْ أَطْلَعَ الله على ذَلِكَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ لَزَالَتْ حِكْمَة التَّكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَمَا تَدَافَنَ النَّاسُ)، يعني: لو أنهم اطلعوا على هذه الأحوال لزالت حكمة الإيمان بالغيب.

يقول: (كما في الصحيح عنه ﷺ: «فَلَوْلا أَنْ لا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ من عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ»)،أي: يقول: إنه يسمع كثيرًا من عذاب القبر ويطلع على بعض من يُعذب، كما في الصحيح أَنَّهُ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ من الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[1]، فهكذا أطلعه الله، وأخبر ﷺ بأن الميت يصيح، وقال: «ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ من حَدِيدٍ ضَرْبَةً بين أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٧).

من يَلِيهِ إلا الثَّقَلَيْنِ»(١)، وقال ﷺ: «إذا وُضِعَتْ الْجَنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ على أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كانت صَالِحَةً قالت: قَدِّمُونِي، وَإِنْ كانت غير صَالِحَةٍ قالت لأَهْلِهَا: يا وَيْلَهَا، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بها؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إلا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سمع الإِنْسَانُ لَصَعِقَ»(٢)، ولكن الله أخفى عن الإنسان هذه الأمور الغيبية، وليحصل الإيمان بالغيب الذي قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٢، ٣]، ومن جملة الغيب أن يؤمنوا بما أخبرهم الله به، وبما أخبرهم رسوله، ولو لم تدرك ذلك أذهانهم، ولا أعينهم، ولا أيديهم، بل يصدقون بذلك.

ثم قال: (وَلَـمَّا كَانَتْ هذه الْحِكْمَةُ مُنْتَفِيَةً في حَقِّ الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ وَأَدْرَكَتْ)؛ لأنها تسمع شيئًا من عذاب القبر، كما رُوي في ذلك أمثلة، رُوي أن بعض الدواب تحيص بصاحبها، ويُقال: إنها تسمع ولا نسمع ونحو ذلك كثير.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين؛ كالاسماعيلية والنصيرية وسائر القرامطة من بنى عبيد وغيرهم، الذين بأرض مصر والشام وغيرهما، فإن أهل الخيل يقصدون قبورهم لذلك، كما يقصدون قبور اليهود

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٨) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٦) حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

والنصارى، والجهال تظن أنهم من ذرية فاطمة، وأنهم من أولياء الله، وإنما هو من هذا القبيل، فقد قيل: إن الخيل إذا سمعت عذاب القبر حصلت لها من الحرارة ما يذهب بالمغل»[1].

وقال أيضًا: «وطلبت طائفة من سياس الخيل، فقلت: أنتم بالشام ومصر إذا أصاب الخيل المغل أين تذهبون بها؟ فقالوا: في الشام يُذهب بها إلى قبور اليهود والنصارى، وإذا كنا في أرض الشمال يُذهب بها إلى القبور التي ببلاد الإسماعيلية كالعليقة والمنيقة ونحوهما، وأما في مصر فيُذهب بها إلى دير هناك للنصارى، ونذهب بها إلى قبور هؤلاء الأشراف ـ وهم يظنون أن العبيديين شرفاء؛ لما ظنوا أنهم من أهل البيت ـ فقلت: هل يذهبون بها إلى قبور صالحي المسلمين، مثل: قبر الليث بن سعد، والشافعي، وابن القاسم، وغير هؤلاء؟ فقالوا: لا، فقلت لأولئك: اسمعوا، إنما يذهبون بها إلى قبور الكفار والمنافقين، وبيَّنت لهم سبب ذلك، قلت: لأن هؤلاء يُعذبون في قبورهم، والبهائم تسمع أصواتهم، فإذا سمعت ذلك فزعت، فبسبب الرعب الذي حصل لها تنحل بطونها فتروث، فإن الفزع يقتضي الإسهال، فيعجبون من ذلك، وهذا المعنى كثيرًا ما كنت أذكره للناس ولا أعلم أن أحدًا قاله، ثم وجدته قد ذكره بعض العلماء»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٧).

(٢) الرد على البكري (٥٠١ـ٥٠٣).

قال الشارح:

وَلِلنَّاسِ فِي سُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنكِيرٍ: هَلْ هُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّة أَمْ لَا؟ ثَلَاثَة أَقْوَالٍ: الثَّالِثُ التَّوَقُّفُ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَة، مِنْهُمْ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، فَقَالَ: وفي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ النبي ﷺ، أنه قَالَ: «إِنَّ هذه الْأُمَّة تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»[1]، مِنْهُمْ مَنْ يَرْوِيه «تُسْأَلُ»، وعلى هَذَا اللَّفْظِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هذه الْأُمَّة قَدْ خُصَّتْ بِذَلِكَ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُقْطَعُ به، وَيَظْهَرُ عَدَمُ الِاخْتِصَاصِ، والله أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

قوله: (وَلِلنَّاسِ فِي سُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنكِيرٍ: هَلْ هُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّة أَمْ لَا؟ ثَلَاثَة أَقْوَالٍ)، القول الأول: إنه خاص، والقول الثاني: إنه عام، القول الثالث: التوقف، وهو قول جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر.

ثم ذكر حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ هذه الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»، فأخبر أنها تُبتلى، ولكن لا ينفي ذلك أن الأمم الأخرى تُبتلى، فإن الحكم واحد، وأن عذاب القبر يستحقه كل كافر من هذه الأمة ومن غيرها، فالصحيح والأقرب أن عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ليس خاصًا بهذه الأمة، بل يكون أيضًا للأمم كلها، الأمم السابقة، وهذه الأمة وغيرها.

وهذا الحديث فيه: «إِنَّ هذه الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»، ويرويه بعضهم:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٥٥).

(تُسأل)، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة قد خُصت بذلك، وهذا أمر لا يُقطع به، ويظهر عدم الاختصاص، وهذا هو الصحيح، أن عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ليس خاصًا بهذه الأمة، بل الأمم السابقة يجيئهم مثل هذا، وكذلك أيضًا الأمم اللاحقة المعاصرون ولو كانوا يحرقون أمواتهم، ولو كانوا لا يدفنونهم، فإن عذاب القبر يأتي كل من قدر الله أن يعذب ولو كان رمادًا، ويقدر الله أن يوصل إليه العذاب ولو كان ترابًا، ولو كان لحمه في أجواف السباع أو نحو ذلك.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ اخْتُلِفَ فِي سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا.

وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ ؟

جَوَابُه أنه نَوْعَانِ: منه مَا هُوَ دَائِمٌ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦]، وَكَذَا في حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي قِصَّة الْكَافِرِ: «ثُمَّ يُفْتَحُ له بَابٌ إلى النَّارِ فَيَنْظُرُ إلى مَقْعَدِه فِيهَا حتى تَقُومَ السَّاعَة»، رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1] في بَعْضِ طُرُقِه.

وَالنَّوْعُ الثاني: أنه مُدَّة ثُمَّ يَنْقَطِعُ، وَهُوَ عَذَابُ بَعْضِ الْعُصَاة الَّذِينَ خَفَّتْ جَرَائِمُهُمْ، فَيُعَذَّبُ بِحَسَبِ جُرْمِه، ثُمَّ يُخَفَّفُ عنه، كَمَا تَقَدَّمَ ذكره في الْمُمَحِّصَاتِ الْعَشْر.

قال الشيخ:

قوله: (وَكَذَلِكَ اخْتُلِفَ فِي سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا)، كما بحث ذلك ابن القيم في كتاب «الروح»[2]، ولعل الأقرب أنهم لا يُسألون؛ وذلك لأنهم لم يُكلفوا، والسؤال إنما يكون على المكلف الذي يُعذب أو يُنعم، أما الأطفال فقد اختُلف في أطفال الكفار الذين يموتون وهم صغار، والراجح أنهم

(١) في المسند (٤/ ٢٩٥).

(٢) (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦).

يمتحنون في الآخرة كالذين لم تبلغهم الرسالة وهم أهل الفترات.

يقول: (وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ ؟)، هذا أيضًا فيه خلاف، ثم ذكر أنه نوعان: الأول: ما هو دائم، والثاني: ما هو مدة ثم ينقطع.

وقد ذكر الله عذاب آل فرعون بقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦]، دل على أنه دائم عرضهم على النار، وهذا في الدنيا قبل يوم القيامة، تُعرض أرواحهم على النار، وقد ذُكر في بعض الروايات أنها تذهب في أول النهار وهي صحيحة، وترجع وهي محترقة كأنها صور طير أو نحو ذلك، وهي أرواحهم، وأخرج الطبري[1] أن رجلاً سأل الأوزاعي فقال: رحمك الله، رأينا طيورًا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضًا فوجًا فوجًا، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سودًا، قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون، يُعرضون على النار غدوًا وعشيًا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها وصارت سوداء، فتنبت عليها من الليل رياش بيض وتتناثر السود، ثم تغدو، ويعرضون على النار غدوًا وعشيًا، ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دأبها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله: ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

---

(١) في تفسيره (٢٤/ ٧١).

وذُكر في حديث البراء بن عازب ﷺ الطويل في قصة الكافر: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بابٌ إلى النَّارِ، فَيَنْظُرُ إلى مَقْعَدِه منها حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، هذا الحديث مشهور أخرجه الإمام أحمد وغيره، وقد سبق قريبًا، فهكذا أخبر بأنه يُفتح له بابٌ إلى النار، وأنه يأتيه من لهبها، ويأتيه من حرها، وأنه ينظر إلى ذلك المقعد ويقول: رب لا تقم الساعة؛ لأنه يعرف أنه إذا قامت الساعة جاء إلى ذلك المكان من النار الذي هو أشد عذابًا، فهؤلاء لا ينقطع عذابهم، عذاب القبر يستمر إلى قيام الساعة.

والنوع الثاني: ما هو مدة ثم ينقطع عذاب القبر في حقهم، وهذا عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فإذا ماتوا وهم على هذه المعاصي، فقد يُعذب بقدر جرمه، ثم يخفف عنه.

قوله: (كَمَا تَقَدَّمَ ذكره في الْمُمَحِّصَاتِ الْعَشْرِ)، يعني: المكفرات، يعني: أن هناك مكفرات للذنوب وهي عشرة، كالتوبة، والابتلاء في الدنيا، والحسنات الماحية، وكذلك عذاب القبر، والألم الذي في الموقف ونحو ذلك، وعلى كل حال فالأصل أن عذاب القبر قد اعترف به أهل السنة، وكذلك غيرهم وأنكره هؤلاء الفلاسفة ونحوهم، ولا عبرة بإنكارهم، والله تعالى على كل شيء قدير، والله تعالى أعلم.

قال الشارح:

وَقَدِ اخْتُلِفَ في مُسْتَقَرِّ الْأَرْوَاحِ مَا بَيْنَ الْمَوْتِ إلى قِيَامِ السَّاعَةِ:

فَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ في الجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ في النَّارِ.

وَقِيلَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ بِفِنَاءِ الجَنَّةِ على بَابِهَا، يَأْتِيهِمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا وَرِزْقِهَا.

وَقِيلَ: على أَفْنِيَةِ قُبُورِهِمْ.

وَقَالَ مَالِكٌ: بَلَغَنِي أَنَّ الرُّوحَ مُرْسَلَةٌ، تَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَتْ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَزِيدُوا على ذَلِكَ.

وَقِيلَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ بِالجَابِيَةِ مِنْ دِمَشْقَ، وَأَرْوَاحَ الْكَافِرِينَ بِبَرَهُوتَ بِئْرٍ بِحَضْرَمَوْتَ!

وَقَالَ كَعْبٌ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ في عِلِّيِّينَ في السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ في سِجِّينَ في الْأَرْضِ السَّابِعَةِ تَحْتَ خَدِّ إِبْلِيسَ!

وَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ بِبِئْرِ زَمْزَمَ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ بِبِئْرِ بَرَهُوتَ.

وَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ يَمِينِ آدَمَ، وَأَرْوَاحُ الْكُفَّارِ عَنْ شِمَالِهِ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وغيره: مُسْتَقَرُّهَا حَيْثُ كَانَتْ قَبْلَ خَلْقِ أَجْسَادِهَا.

وَقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ في الجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ على أَفْنِيَةِ قُبُورِهِمْ.

وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أنه قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ كَطَيْرٍ خُضْرٍ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ، تَغْدُو وَتَرُوحُ إلى رِيَاضِ الجَنَّةِ، تأتي رَبَّهَا كُلَّ يَوْمٍ تُسَلِّمُ عليه.

وَقَالَتْ فِرْقَة: مُسْتَقَرُّهَا الْعَدَمُ المَحْضُ. وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ النَّفْسَ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِ الْبَدَنِ، كَحَيَاتِه وَإِدْرَاكِهِ! وَقَوْلُهُمْ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ والسنة.

وَقَالَتْ فِرْقَة: مُسْتَقَرُّهَا بَعْدَ المَوْتِ أَبْدَانٌ أُخَرُ تُنَاسِبُ أَخْلَاقَهَا وَصِفَاتِهَا التي اكْتَسَبَتْهَا في حَالِ حَيَاتِهَا، فَتَصِيرُ كُلُّ رُوحٍ إلى بَدَنِ حَيَوَانٍ يُشَاكِلُ تِلْكَ الرُّوحَ! وَهَذَا قَوْلُ التَّنَاسُخِيَّة مُنْكِرِي المَعَادِ، وَهُوَ قَوْلٌ خَارِجٌ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ كُلِّهِمْ. وَيَضِيقُ هَذَا المُخْتَصَرُ عَنْ بَسْطِ أَدِلَّة هذه الْأَقْوَالِ وَالْكَلَامِ عَلَيْهَا.

وَيَتَلَخَّصُ مِنْ أَدِلَّتِهَا: أَنَّ الْأَرْوَاحَ فِي الْبَرْزَخِ مُتَفَاوِتَة أَعْظَمَ تَفَاوُتٍ:

فَمِنْهَا: أَرْوَاحٌ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، في المَلَأِ الْأَعْلَى، وهي أَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ وَسَلَامُه، وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ.

وَمِنْهَا: أَرْوَاحٌ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَسْرَحُ فِي الجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ، وهي أَرْوَاحُ بَعْضِ الشُّهَدَاءِ، لَا كُلِّهِمْ، بَلْ مِنَ الشُّهَدَاءِ مَنْ تُحْبَسُ رُوحُه عَنْ دُخُولِ الجَنَّة لِدَيْنٍ عليه. كَمَا فِي «المُسْنَدِ»[1] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَحْشٍ: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلى النبي ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله: مَا لِي إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله؟ قَالَ: «الجَنَّة»، فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: «إِلَّا الدَّيْنَ، سَارَّنِي به جِبْرِيلُ آنفا»».

وَمِنَ الْأَرْوَاحِ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا على بَابِ الجَنَّة، كَمَا فِي الحَدِيثِ الذي قَالَ فيه رَسُولُ الله ﷺ: «رَأَيْتُ صَاحِبَكُمْ مَحْبُوسًا على بَابِ الجَنَّة»[2].

---

(١) (٤/ ١٣٩، ١٥٠).

(٢) أخرجه بنحوه: أحمد (٥/ ١١، ١٣)، والطبراني في الكبير (٦٧٥٠، ٦٧٥١)، والحاكم =

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا في قَبْرِه، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا في الْأَرْضِ، وَمِنْهَا أَرْوَاحٌ في تَنُّورِ الزُّنَاة وَالزَّوَانِي، وَأَرْوَاحٌ في نَهْرِ الدَّمِ تَسْبَحُ فيه وَتُلْقَمُ الْحِجَارَة، كُلُّ ذَلِكَ تَشْهَدُ له السنة، والله أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح - رحمه الله - أن الأرواح باقيةٌ بعد الموت، وأن الفناء يكون على الأجساد. وإذا عرفنا أن الأرواح باقية، فأين تكون مصيرها؟ ذكر الشارح كثيرًا من الأقوال في مستقر الأرواح، وهذه الأقوال الغالب أنها مبنية على الظن، وقد يكون بعضها له دليل من الكتاب والسنة، ولكن يظهر أن الأرواح تتفاوت بحسب الأعمال.

فقد ثبت في «الصحيح» أن أرواح الشهداء «في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ من الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ...»[1]. فدل على أن أرواحهم تكون في الجنة.

وثبت في القرآن أن أرواح آل فرعون تعرض على النار: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر:٤٦]. وعلى هذا فأرواح آل فرعون في النار يعرضون

=

(٢/ ٢٥)، والبيهقي (٦/ ٧٦) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٦٧).

عليها غدوًا وعشيًا.

وقد ورد في القرآن أيضًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ [المطففين:٧]، وسجّين: فسّر بأنّه في الأرض السابعة، أو تحت الأرض السابعة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، وعليّون: فوق السماء السابعة في أعلى ما شاء الله. ومعناه كتاب أعمالهم، وقيل إن أرواحهم كذلك.

وقد سبق في حديث البراء الطويل[1]: أنّ الله يقول: «اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوه إلى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخرى». ويقول في الكافر: «اكْتُبُوا كِتَابَه فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُه طَرْحًا»، ثُمَّ قَرَأَ النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج:٣١]. فدلّ على أنه يطرح من السماء ويتألم بهذا الطرح.

ومعلوم أن الروح بعد خروجها من الجسد ليست مرئيّةً فلا يراها البشر، ولا تدركها الأبصار، كما لا يرون الشياطين، ولا يرون الجنّ، فكذلك لا يرون أرواحهم عند خروجها.

فأما مستقرّها، فلم يرد نصّ صريح في أنها تستقرّ في مكان كذا وكذا، فالذين قالوا: إنّها تنعدم، العدم المحض؛ هؤلاء ينكرون عذاب القبر وينكرون نعيمه

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

وينكرون تألُّم الروح، وينكرون إعادتها في الجسد؛ لأنها إذا عدمت كما عدم الجسد لا يبقى لها حياة، ولا بقي لها تألم ولا عذاب، ولا يبقى القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار كما تقدّم. فهذا قول باطل.

وكذلك القول الذي هو أبشع منه، وهو قول الفلاسفة: أنها تكون في أجساد تلائمها؛ فروح الكافر إذا مات جعلت في كافر آخر، وروح المؤمن إذا مات جعلت في مؤمن آخر جديد، إذا مات هذا وولد هذا أخذت روح هذا ونفخت في هذا. يسمّى هؤلاء بأهل التناسخ، أو التناسخيون؛ لأنّهم يقولون: نسخت روح هذا وجعلت في هذا. وينكرون أيضًا بعث الأجساد، فهم يقولون الأجساد لا تعود، وكذلك ينكرون بدء الخلق، فيقولون: الخلق ليس له مبدأ، وينكرون فناء الدنيا ويقولون: هذه الدنيا مستمرّة، وليس لها نهاية، بل تستمرّ هكذا إلى غير نهاية، بل ينكرون الحشر والجزاء في الآخرة والنفخ في الصور وما أشبه ذلك.

أما الأقوال الأخرى؛ فالذين يقولون: إن هذه في الجنة وهذه في النار. والذين يقولون: إن أرواح المؤمنين على أبواب الجنة، وأرواح الكفار على أبواب النار. أو يقولون: إن أرواح المؤمنين على أفنية قبورهم، وكذلك أرواح الكافرين. أو يقولون: إنها بداخل القبور، أو يقولون: إن أرواح المؤمنين في بئر زمزم، وأرواح الكافرين في بئر برهوت، وهي بئر منتنة يذكرها بعضُهم، وهي في بلاد حضرموت. كل هذه أقوال ظنّيّة ليس عليها دليل قطعيّ.

نحن تحقّقنا أنّ الأرواح تخرجُ من الأبدان، وأنّ أرواح المؤمنين منعّمة، وأرواح الكفار معذّبة. وأمّا مقرّها، فلا علم لنا بها.

وكذلك إذا خرجت الأرواح، وقلنا إنها باقية فكيف مع ذلك تتعارف؟ ورد في الحديث أنّ: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعَارَفَ منها ائْتَلَفَ، وما تَنَاكَرَ منها اخْتَلَفَ**»[1]. إذا كانت أرواحًا مجردة، ومع ذلك يلقى بعضها بعضًا، فكيف يعرف هؤلاء أنّ هذه روح فلان؟ لابدّ أنهم يعرفونه بميزة يتميّز بها مع أنّها أرواح؛ لأنّ الأجساد فيها علامات ظاهرة يتميّز فيها النّاس في صورته، وفي طوله وشعره وقِصره، وفي بياضه أو سواده. وأما الروح، فليس لها ميزة. فهذا هو الصحيح: أنّها باقية وأنّها تتعارف وتتآلف، وأنّهم يلقى بعضهم بعضًا، وأنّهم يسألونه.

وقد ورد في الحديث أنه: «**إذا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إلى رَوْحِ الله وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ، حتى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حتى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: ما أَطْيَبَ هذه الرِّيحَ التي جَاءَتْكُمْ من الأرض، فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ من أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عليه، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فإنه كان في غَمِّ الدُّنْيَا، فإذا قال: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قالوا: ذُهِبَ بِهِ إلى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ**»[2]، إذا كان كافرًا ولم يأتهم، عرفوا أنه بعد موته

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه النسائي (١٨٣٣)، وابن حبان (٧/ ٢٨٤)، والحاكم (١/ ٢٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وكونه لم يأتهم، فلا بدّ أنه شقيٌّ، وأنّه ذُهِب به إلى دارٍ غير دارهم. فدلّ على أن أرواح المؤمنين تجتمع ويأتي بعضهم بعضًا، ويعرف بعضهم بعضًا، ويتفقّد بعضهم بعضًا، ويفرحون بمن جاءهم إذا مات، وصار معهم في أرواح المؤمنين، ويحزنون إذا مات أحد أقاربهم ولم يأتهم، ويعرفون أنه ذُهِب به إلى غيرِ موضعهم ومحلِّهم، وهو الهاوية التي هي دار العذاب. فكلّ ذلك دليل على أنّهم يتلاقون.

أمّا مقرّهم، فالله أعلم، هل هم في السماء أو في الأرض؟ وهل هم على أفنية القبور أو في الجنة أو في النار، أو في بئر زمزم، أو في بئر برهوت، أو في أي مكان؟ وكلّ ذلك ليس عليه دليل يقينيّ، ولكنّهم متحقّق بقاؤهم وتلاقيهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا الحَيَاة التي اخْتُصَّ بِهَا الشَّهِيدُ وَامْتَازَ بِهَا عَنْ غيره، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٥٤]، فهي: أَنَّ الله تعالى جَعَلَ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ. كما في حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ، أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَـمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ - يعني يَوْمَ أُحُدٍ - جَعَلَ الله أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّة، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُظَلَّلَة في ظِلِّ الْعَرْشِ»، الحَدِيثَ، رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ[١]، وَأَبُو دَاوُدَ[٢]، وَبِمَعْنَاه فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رواه مُسْلِمٌ[٣].

فَإِنَّهُمْ لَـمَّا بَذَلُوا أَبْدَانَهُمْ لله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى أَتْلَفَهَا أَعْدَاؤُه فيه، أَعَاضَهُمْ مِنْهَا فِي الْبَرْزَخِ أَبْدَانًا خَيْرًا مِنْهَا، تَكُونُ فِيهَا إِلى يَوْمِ الْقِيَامَة، وَيَكُونُ نَعِيمُهَا بِوَاسِطَة تِلْكَ الْأَبْدَانِ أَكْمَلَ مِنْ تَنَعُّمِ الْأَرْوَاحِ الْمُجَرَّدَة عَنْهَا.

وَلِهَذَا كَانَتْ نَسَمَة الْمُؤْمِنِ فِي صُورَة طَيْرٍ، أَوْ كَطَيْرٍ، وَنَسَمَة الشَّهِيدِ فِي جَوْفِ طَيْرٍ. وَتَأَمَّلْ لَفْظَ الحَدِيثَيْنِ، ففي «الْمُوَطَّأِ»[٤] أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ

---

(١) في المسند (١/ ٢٦٥).

(٢) برقم (٢٥٢٠).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ١٦٧).

(٤) (١/ ٢٤٠).

رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «إِنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٍ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حتى يُرْجِعَه الله إلى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُه»؛ فقوله: «نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ» تَعُمُّ الشَّهِيدَ وغيره، ثُمَّ خَصَّ الشَّهِيدَ بِأَنْ قَالَ: «هي في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ»، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ صَدَقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا طَيْرٌ، فَتَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْحَدِيثِ الْآخَرِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، فَنَصِيبُهُمْ مِنَ النَّعِيمِ فِي الْبَرْزَخِ أَكْمَلُ مِنْ نَصِيبِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ على فُرُشِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْمَيِّتُ على فراشه أَعْلَى دَرَجَةً مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، فله نَعِيمٌ يَخْتَصُّ به لا يُشَارِكُه فيه مَنْ هُوَ دُونَه، والله أَعْلَمُ.

وَحَرَّمَ الله على الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا رُوِيَ فِي السُّنَنِ[1]. وَأَمَّا الشُّهَدَاءُ فَقَدْ شُوهِدَ مِنْهُمْ بَعْدَ مُدَدٍ مِنْ دَفْنِهِ كَمَا هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ، فَيُحْتَمَلُ بَقَاؤُه كَذَلِكَ فِي تُرْبَتِهِ إلى يَوْمِ مَحْشَرِهِ، وَيُحْتَمَلُ أنه يَبْلَى مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ، والله أَعْلَمُ. وَكَأَنَّه - والله أَعْلَمُ - كُلَّمَا كَانَتِ الشَّهَادَةُ أَكْمَلَ، وَالشَّهِيدُ أَفْضَلَ، كَانَ بَقَاءُ جَسَدِهِ أَطْوَلَ.

قال الشيخ:

ما تقدم عن الأرواح عمومًا، وهذا الكلام عن أرواح الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وأخبر الله بحياتهم فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٦٣٦)، وأحمد (٤/ ٨)، والدارمي (١/ ٤٤٥)، والبيهقي (٣/ ٢٤٨) من حديث أوس بن أوس الثقفي ﷺ.

﴿يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩ ـ ١٧١].

وكونهم أحياء هي حياة برزخية: معلوم أنّهم أموات، أي: أرواحهم خرجت من أبدانهم، ومعلوم أنّ أبدانهم بقيت لا إحساسَ فيها ولا حياة كحياة أهل الدنيا، ومعلوم أنهم ليسوا كما كانوا في حياتهم قبل أن يموتوا أو يقتلوا، فلا يحتاجون إلى أكل ولا شرب ولا تخلٍّ ولا تنقّل. فإذًا هي حياة برزخية، وقد فارقوا الدنيا، وقسمت أموالهم على الورثة، وحلّت نساؤهم لغيرهم.

ذكر الله أنهم أحياء عنده، وهذه العنديّة تفيد مزيّة وفضيلة، فهم عند ربّهم يرزقون. ولو كانوا في الجنّة فهم عند ربّهم، فلو كانوا في قبورهم فأرواحهم عند ربّهم. وقد أخبر بأنّهم يرزقون، والرزق قد يكون حسيًّا وقد يكون معنويًّا، فإن كان حسيًّا: فمعناه أنّهم يحتاجون إلى ما يحتاج إليه أهل الدنيا من الأكل والشرب، ولكن معلوم أن ذلك ليس للأرواح وإنما هو للأجساد. ففي الأحاديث الواردة أن أرواحهم نقلت إلى أجساد طير خضر تعلق في شجر الجنّة، وتأوي إلى قناديل معلقة في الجنّة. معلوم أنّ الطير تشاهد بالعين، ولذلك وصفها بأنها خضر، فكأنّ روح هذا الشهيد أدخلت في هذا الطير، فأصبح حيًّا يطير ويتقلّب ويدخل الجنّة، ويعلق في شجرها، يعني: يأكل، ويأوي إلى قناديل يعني: سرج معلّقة في الجنّة. فهذه هي أرواحهم.

وذكر الله أنّهم يستبشرون بأصحابهم الذين يأتونهم، كلّما جاءهم شهيد

فرحوا به، ويستبشرون بمن جاءهم من الأحياء، ويستبشرون أيضًا بنعمة الله، التي أنعم عليهم.

لا شكّ أنّ الشهداء لهم هذه المزيّة، وأنّ أرواحهم باقية، وأنّها في أجساد، وأنّها تتنعّم. أما أرواح غيرهم، فلم يذكر أنها تكون في أجساد، بل تكون روحًا من غير جسد، هذه أرواحهم كأرواح الشياطين وأرواح الجنّ التي لا تكون لهم أجساد تقوم بها.

ومعلوم أن أبدانهم تدفن في الأرض، وقد يكون بعضها لا يستطاع دفنه، فمعلوم أنّ هناك الكثير من الوقائع التي تكون بين المسلمين والمشركين، فيُقتل فيها الجمّ الغفير، الذين يصعب دفنهم، فتطول مدتهم وهم باقون من غير دفن وقد لا تطول، ومن غير شكّ أنهم يفنون بالعيان، وتأكلهم الأرض أو الطيور وما أشبه ذلك. وأما الذين يدفنون فقد ورد أنّهم يبقون مدة.

وفي «الصحيح»[1] عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: لَـمَّا حَضَرَ أُحُدٌ دَعَانِي أبي من اللَّيْلِ فقال: ما أُرَانِي إلا مَقْتُولًا في أَوَّلِ من يُقْتَلُ من أَصْحَابِ النبي ﷺ، وَإِنِّي لَا أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غير نَفْسِ رسول الله ﷺ، فإن عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ، وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا، فَأَصْبَحْنَا فكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ، وَدُفِنَ معه آخَرُ في قَبْرٍ، ثُمَّ لم تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَتْرُكَهُ مع الْآخَرِ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فإذا هو كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ هُنَيَّةً غير أُذُنِهِ».

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥١).

وكذلك ذُكر لنا عن بعض الإخوان الذين قُتلوا في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف، في الوقعة التي تسمّى (تربة)، أنّهم حفروا في بعض الأماكن، فعثروا على جثة أحد الإخوان الذين قتلوا، وإذا هو لم تأكله الأرض، أي بعد خمسين أو ستين سنة، وهو لا يزال بدنه باقيًا.

وكذلك ذكر لنا من القتلى الذين قتلوا في أفغانستان في أول القرن الخامس عشر أن كثيرًا منهم نُبشوا بعد أيام، ووجدوا كما هم لم تأكلهم الأرض. ويذكرون أيضًا أنهم يجدون القتلى من الشيوعيين رائحتهم نتنة خلال يومين، لا يستطيع أحد أن يقربهم، والقتلى من المسلمين من الشهداء يؤتون بعد خمسة أيام ويدفنون ولا يحسّ برائحتهم، بل تكون منهم رائحة المسك.

فهذا دليل على أن الحياة يصل أثرها إلى البدن، ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]؛ ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤]، ولو كانت حياة برزخيّة، ولو كانت حياة على الأرواح ولكن يصل أثرها إلى الأجساد، ولو أنّها فنيت بعد مدّة، ولو أنّها تمزّقت فصارت أشلاءً، لكن لا بدّ أنّ أثر هذه الحياة ونعيمها ينال الجسد كما ينال الروح، وهذه كرامة الله لأوليائه الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الله، لـمّا رخصت عندهم هذه الحياة، ولـمّا آثروا الحياة الآخرة، على الحياة الدنيا، وقدّموا رضا الله تعالى على شهوات نفوسهم، عجّل لهم الثواب، عاجلاً يعني يُرى أثره في الدنيا، ويراه أهل الدنيا، ولعلّ في ذلك ما يحمل أهل الدنيا على المنافسة، وعلى

بذل المهج في سبيل الله، وعلى بذل كل شيء فيه إعزاز دين الله ونصره.

فهذا معنى الحياة التي وصف الله بها الشهداء من عباده، وقد سماهم شهداء في قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، الشهداء: هم الذين يقتلون في سبيل الله، وصفهم الله بذلك، قيل: لأنهم يشاهدون الآخرة كرأي عين، وقيل: لأنهم شهداء على غيرهم، وشهداء على الأمة؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، هذا بالنسبة إلى أرواح الشهداء.

أمّا الأنبياء، فهم أعلى مقامًا من الشهداء؛ لأنّ الله ميّزهم بميزة، وخصّهم بكرامة، وهي الوحي والرسالة والفضيلة التي فضّلهم بها على غيرهم، ومعلوم أنّهم يموتون، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وإذا كانوا يموتون فلابدّ أنّ لهم حياة أكمل من حياة الشهداء، ولكن حياة برزخية أكمل من حياة الشهداء، أي: أجسادهم قد ذكر أنّها لا تبلى، بل تبقى في قبورهم لا تأكلها الأرض. وقد ذكر في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «**إِنَّ من أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يوم الجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ من الصَّلَاةِ فيه، فإن صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**»، قالوا: يا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وقد أَرِمْتَ؟ - أي: بَلِيتَ - فقال: «**إِنَّ الله - عز وجل - حَرَّمَ على الأرض أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»[1]. فأجسادُ الأنبياء لا تأكلها الأرض ولا تبلى، ولو أنّهم

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٩١).

دفنوا في الأرض، أو لم تعرف أماكنهم.

ومن العلماء من يقول: إنهم يرفعون. ولذلك رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماء؛ فرأى آدم - عليه السلام - في السماء الدنيا، ورأى يحيى وعيسى - عليهما السلام - في السماء الثانية، ورأى يوسف - عليه السلام - في السماء الثالثة، ورأى إدريس - عليه السلام - في السماء الرابعة، ورأى هارون - عليه السلام - في السماء الخامسة، وموسى - عليه السلام - في السادسة، وإبراهيم - عليه السلام - في السابعة. ولكن الصحيح أن الذي رآه هو أرواحهم، ولكنّها مُثّلت في أجساد حتى رأوه وعرفوه، وسلّموا عليه، وقالوا: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ»[1]. أما أجسادهم فيمكن أن تكون رفعت، ويمكن أنّها دفنت في الأرض، وهو المتبادر.

وبكلّ حال فشهادتهم كونهم شهداء لا شكّ أنهم أكمل من الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله. وبلا شكّ أنّ بعضًا من الشهداء قد يكون عليه شيء من الذنوب التي لا تكفّرها الشهادة. ففي الحديث أنّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال: أَرَأَيْتَ إن قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم إن قُتِلْتَ في سَبِيلِ الله، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»، ثُمَّ قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟»، قال: أَرَأَيْتَ إن قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إلا الدَّيْنَ، فإن

---

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

جِبْرِيلَ - عليه السَّلَام - قال لي ذلك»[1]. فإذًا مَنْ كان عنده شيء من حقوق الآدميين لا تغفر له، بل لا بدّ فيها من المحاصّة والمقاصّة في الآخرة، إذا لم يوفّها عنه أولياؤه في الدنيا، فإنها تؤخذ من حسناته في الآخرة، وأما ذنوبه التي بينه وبين ربه فالقتل في سبيل الله يمحوها كلّها ولا يبقى عليه ذنب.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٥) من حديث أبي قتادة الأنصاري ﷺ.

قال الطحاوي:

وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ.

قال الشارح:

الْإِيمَانُ بِالْمَعَادِ مِمَّا دَلَّ عليه الْكِتَابُ والسنة، وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ. فَأَخْبَرَ الله سبحانه عنه في كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَأَقَامَ الدَّلِيلَ عليه، وَرَدَّ على الْمُنْكِرِينَ، فِي غَالِبِ سُوَرِ الْقُرْآنِ.

وَذَلِكَ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ - عليهم السلام - كُلَّهُمْ مُتَّفِقُونَ على الْإِيمَانِ بالله، فَإِنَّ الْإِقْرَارَ بِالرَّبِّ عَامٌّ فِي بني آدَمَ، وَهُوَ فِطْرِي، كُلُّهُمْ يُقِرُّ بِالرَّبِّ، إِلَّا مَنْ عَانَدَ، كَفِرْعَوْنَ، بِخِلَافِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّ مُنْكِرِيه كَثِيرُونَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَـمَّا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَانَ قَدْ بُعِثَ هُوَ وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ[1]. وَكَانَ هُوَ الْحَاشِرُ الْمُقَفِّي[2]، بَيَّنَ تَفْصِيلَ الْآخِرَةِ بَيَانًا لَا يُوجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ. وَلِهَذَا ظَنَّ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَنَحْوِهِمْ أنه لَمْ يُفْصِحْ بِمَعَادِ الْأَبْدَانِ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَجَعَلُوا هَذَا حُجَّةً لَهُمْ فِي أنه مِنْ بَابِ التَّخْيِيلِ وَالْخِطَابِ الْجُمْهُورِي!.

وَالْقُرْآنُ بَيَّنَ مَعَادَ النَّفْسِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَمَعَادَ الْبَدَنِ عِنْدَ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى، فِي غَيْرِ

---

(١) كما في حديث سهل بن سعد ﷺ الذي أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) كما في حديث جبير بن مطعم ﷺ الذي أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤).

مَوْضِعٍ. وَهَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى، وَيُنْكِرُونَ مَعَادَ الْأَبْدَانِ، وَيَقُولُ مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ: إنه لَمْ يُخْبِرْ به إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ على طَرِيقِ التَّخْيِيلِ!! وَهَذَا كَذِبٌ، فَإِنَّ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى هي مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ، مِنْ آدَمَ إلى نُوحٍ، إلى إِبْرَاهِيمَ وموسى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَقَدْ أَخْبَرَ الله بِهَا، مِنْ حِينِ أُهْبِطَ آدَمُ، فَقَالَ تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف:٢٥]، وَلَمَّا قَالَ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، [الحجر:٣٦]، قَالَ: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر:٣٧، ٣٨].

وَأَمَّا نُوحٌ ـ عليه السَّلَامُ ـ فَقَالَ: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح:١٧، ١٨].

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ـ عليه السَّلَامُ ـ: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء:٨٢]، إلى آخِرِ الْقِصَّةِ. وَقَالَ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١]، وَقَالَ: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ الآية [البقرة:٢٦٠].

وَأَمَّا موسى عليه السَّلَامُ، فَقَالَ الله تعالى لَمَّا نَاجَاه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه:١٥، ١٦].

بَلْ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْلَمُ المَعَادَ، وَإِنَّمَا آمَنَ بِمُوسَى، قَالَ تعالى حِكَايَة عنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر:٣٢، ٣٣]، إلى قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، إلى قوله: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]. وَقَالَ موسى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وَقَدْ أَخْبَرَ الله في قِصَّة الْبَقَرَة: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣].

قال الشيخ:

هذا الكلام وما بعده يتعلّق بالبعث بعد الموت، الذي هو بعث الأجساد وحشرها، والنشرُ، وإعادة الأرواح إلى الأجساد، وجمع الأجساد بعد أن بليت، وبعد أن كانت ترابًا، وبعد أن تمزّقت وتفرّقت، يبعثها الله، ويعيد إليها الحياة، وتعود كما كانت، وتتصل بها أرواحها اتصالًا أبديًا محكمًا ليس فوقه اتصال، وليس كاتصالها في هذه الدنيا الذي يعتريه شيء من الانفصالات.

هذا هو البعث بعد الموت، ويكون يوم القيامة عندما ينفخ في الصور، وقيل: إن الصور هو قرن واسع كبير، فيه ثقوب بعدد أرواح بني آدم، ينفخ فيه إسرافيل، فتخرج كل روح على ثقب وتصل إلى جسدها، وأنه قبل النفخ في الصور ينزل الله

مطرًا فتنبت منه أجسادهم، والله قادر على أن ينبتها من دون مطر وغيره كما في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧]، يعني: أخرجكم إلى هذا الوجود.

والإيمان بالبعث وما بعده، والإيمان باليوم الآخر ويوم القيامة ركن أساسي من أركان الإيمان. وقد يكون هو الركن الأكيد؛ ولأجل هذا كثيرٌ ما يقتصر عليه مع الإيمان بالله في كثير من الأحاديث، كقوله ﷺ: «من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ»[1]، وقوله ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحِدُّ على مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إلا على زَوْجٍ»[2]. لم يذكر مع الإيمان بالله إلا الإيمان باليوم الآخر؛ لأنَّ الإيمان باليوم الآخر وقع فيه الخلاف بين الأمم ورسلهم، وأنكره المشركون، وبالغوا في إنكاره، واعتقدوا أن الأجساد بعد موتها تضمحلّ ولا تعود، وأنه ليس هناك حياة، وأنّ هذه الدنيا باقية وليس لها فناء، وقد حكى الله عنهم أنّهم يقولون: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، أي: الزمان. ومعنى قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت قوم ويحيا آخرون، وهو معنى قولهم: أرحامٌ تدفع وأرض تبلع. هذه عقيدة أولئك المشركين، وهي أيضًا عقيدة الدهريين.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤٠١).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٤٠١).

ولَـمَّا كان الإيمان بالله واليوم الآخر آكدَ الأركان، وهو آكد من الإيمان بالكتب والرسل والملائكة؛ لأن الخلاف في الإيمان بها قليل، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فإن المنكرين له كثير، فلما كان كذلك؛ جاءت الأدلة عليه كثيرة، في الآيات التي تؤكّد البعث بعد الموت، وسيأتي شيء من الآيات التي توضح البعث بعد الموت، والتي ردّ الله بها على المشركين الذين أنكروا البعث بعد الموت، وكيف احتجّ عليهم بحججٍ عظيمة، فإذا آمن العباد باليوم الآخر وبالبعث بعد الموت فإنهم يستعدون لذلك بالأعمال الصالحة التي يكونون بها سعداء، وإذا لم يؤمنوا به، فإنهم لا يهتمون إلا بهذه الحياة؛ لأنه ليس هناك - في ظنهم - حياة بعد هذه الحياة.

والإيمان باليوم الآخر من آكد أركان الإيمان، وهو يعمّ البرزخ والحشر، ولكن أكثر ما يركّز على الحشر، الذي هو حياةُ الأجساد وحشرها وحسابها، وجمع الناس في الدار الآخرة وما أشبه ذلك؛ حتى يحصل الجزاء على الأعمال، وإدخال أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار. هذا هو الذي اتفقت عليه دعوة الرسل. وهذه الآيات التي مرت معنا تدل على أن الرسل مجمعون على أن اليوم الآخر لابدّ منه، وأنه سيأتي، كما في هذه الآيات من قول نوح - عليه السلام -: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح:١٧، ١٨]. هذا كلام نوح لقومه، ينبههم على أنهم سيخرُجون منها مثل قوله: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾[طه:٢٠]. وكذلك بقية الرسل ذكروا ذلك لأقوامهم يحثونهم على الإيمان بالله، وعلى الإيمان بالبعث بعد الموت،

وعلى الاستعداد له.

كذلك غير الأنبياء؛ ذكر الله عن مؤمن آل فرعون، الذي قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر:٣٢]، أي: يوم القيامة إلى آخر الآيات حيث قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠]. فكلّ ذلك دليل على أنّ أتباع الأنبياء أيضًا صرَّحوا على أنهم يؤمنون باليوم الآخر الذي هو يوم القيامة وما بعده.

الإيمان باليوم الآخر خبر الله. فالله سبحانه هو الذي أخبر باليوم الآخر، وبما يكون فيه، فمن آمن بالله آمن بأخبار الله.

واليومُ الآخر يشمل البعث وما بعده. بل يشمل الموت وما بعده، ولكن أكثر ما يذكرون البعث بعد الموت، وما بعده من الجزاء والحساب والثواب والحوض والميزان، وجزاء الأعمال، ومحاسبة الله تعالى للعباد، وما يكون في عرصات القيامة من طول الوقوف، ومن طلب الشفاعة، ومن الأهوال وطول ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبًا. يؤمن بذلك أهل السنّة على التفصيل الذي ذكره الله تعالى، ويكون من آثار إيمانهم الاستعداد ليوم المعاد. فإنّ الذي يؤمن بالشيء ويصدّق به تظهر عليه آثاره فيستعدّ له ويتهيّأ لذلك اليوم ويعرف أنّه لا نجاة له إلا بالأعمال الصالحة التي كلِّف بها.

إذا قرأنا القرآن وجدنا فيه الأدلة الكثيرة على الإيمان بالبعث، وضرب الأمثلة على ذلك، ولعلّ السبب في ذلك، كثرة المنكرين له من المشركين، الذين

يستبعدون إعادة الموتى من القبور بعد التفرُّق وذهاب الأشلاء وصيرورة الأجسام ترابًا، ويقولون: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق:٣]، يستبعدون ذلك، ويطلبون شططًا، فيقولون: ﴿ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجاثية:٢٥]، أي: ابعثوا آباءنا الذين ماتوا من قبل حتى نعرف صدقكم.

ولـمّا كان هذا تكذيبهم، فإن الله سبحانه ضرب لهم الأمثلة، وذكر الأدلّة، وبيّن لهم كمال القُدرة، ولأجل ذلك يقول العلماء: إنه لم يشتمل كتاب من الكتب السابقة على تقرير البعث وذكر أدلّته مثل ما اشتمل كتاب الله المنزّل على محمّد ﷺ. ففيه التصريح به تصريحًا بليغًا لا يحتمل أن يتطرّق إليه تأويل، أو حمل على محمل بعيد، ومع هذه الأدلّة وقوّتها وصراحتها وكثرة ضرب الأمثلة عليها، فإن كثيرًا ممن تسمّوا بأنّهم مسلمون ينكرون هذا البعث الجسماني، ويقال لهؤلاء: الفلاسفة الإلهيون؛ وهم الذين ينكرون أولًا: بدء الخلق، ويقولون إنّ جنس الإنسان لم يزل قديمًا، وليس له أول، وينكرون أن يكون أبو البشر آدم، وينكرون أن يكون بدء خلقه من طين، وينكرون أن يكون هناك وقت للإنسان لم يكن شيئًا مذكورًا. وثانيًا: ينكرون نهاية الدنيا ويقولون: الدنيا ليس لها آخر، وهذه الحياة تستمرّ أبدًا إلى غير نهاية، ويعبّرون بقولهم: أرحام تدفع وأرض تبلع. ينكرون عودة الأجساد وجمعها بعد تفرّقها، ويجعلون الجزاء على الأرواح، ويدّعون أنّ هذه الأرواح هي التي أهبطت من السماء، واتصلت بالجسد، ثم بعد ذلك خرجت منه إلى حيث كانت. ويقول رئيسهم ابن سينا ـ وهو من أكابرهم ـ في مطلع قصيدته العينية:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ   وَرْقَــاءُ ذَات تَقَلُّـــبٍ وَتَفَجُّـــعِ
وَصَلَتْ عَـلَى كُرْهٍ فَلَمَّا وَاصَلَتْ   أَلِفَـتْ مُرَافَقَـةِ الخَـرَابِ البَلْقَـعِ[1]

يصف الروح بأنها هبطت من المكان الأرفع، واتصلت بجسدك إلى أن ألفته، ثم صارت جزءًا منه، ثم بعد ذلك تنفصل وتعود كما كانت. فهؤلاء ما آمنوا بالله حقّ الإيمان؛ فإن الإيمان بالله يستدعي الإيمان بخبره، ومن خبره حشر الأجساد، و بعثها، وجمعها بعدما تتفرّق، وهذا لم يكن من هؤلاء.

---

(١) راجع (٤/ ١٣٧).

قال الشارح:

وَقَدْ أَخْبَرَ الله أنه أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، في آياتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ إِذَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١]. وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ الدَّاخِلِينَ جَهَنَّمَ أَنَّ الرُّسُلَ أَنْذَرَتْهُمْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا، فَجَمِيعُ الرُّسُلِ أَنْذَرُوا بِمَا أَنْذَرَ به خَاتَمُهُمْ مِنْ عُقُوبَاتِ الْمُذْنِبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَعَامَّة سُوَرِ الْقُرْآنِ التي فِيهَا ذِكْرُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، يُذْكَرُ ذَلِكَ فِيهَا: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَمَرَ نَبِيَّه أَنْ يُقْسِمَ به على المَعَادِ، فقَالَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية [سبأ:٣]. وَقَالَ تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]، وَقَالَ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وَأَخْبَرَ عَنِ اقْتِرَابِهَا، فَقَالَ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج:١، ٢]، إلى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦، ٧].

وَذَمَّ الْمُكَذِّبِينَ بِالمَعَادِ، فَقَالَ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ

لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى:١٨]، ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦]، ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [النحل:٣٨]، إلى أَنْ قَالَ: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل:٣٩]، ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر:٥٩]، ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء:٩٧ - ٩٩]، ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٤٩ - ٥٢].

فتَأَمَّلْ مَا أُجِيبُوا به عَنْ كُلِّ سُؤَالٍ على التَّفْصِيلِ: فَإِنَّهُمْ قَالُوا أَوَّلًا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾. فَقِيلَ لَهُمْ في جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ: إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنه لَا خَالِقَ لَكُمْ وَلَا رَبَّ لَكُمْ، فَهَلَّا كُنْتُمْ خَلْقًا لَا يُفْنِيه المَوْتُ، كَالْحِجَارَةِ وَالحَدِيدِ وَمَا هُوَ أَكْبَرُ فِي صُدُورِكُمْ مِنْ ذَلِكَ؟! فَإِنْ قُلْتُمْ: كُنَّا خَلْقًا على هذه الصِّفَةِ التي لَا تَقْبَلُ الْبَقَاءَ، فَمَا الذي يَحُولُ بَيْنَ خَالِقِكُمْ وَمُنْشِئِكُمْ وَبَيْنَ إِعَادَتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا؟!

وَلِلْحُجَّة تَقْدِيرٌ آخَرُ، وَهُوَ: لَوْ كُنْتُمْ مِنْ حِجَارَة أَوْ حَدِيدٍ أَوْ خَلْقٍ أَكْبَرَ مِنْهُمَا، فإنه قَادِرٌ على أَنْ يُفْنِيَكُمْ وَيُحِيلَ ذَوَاتَكُمْ، وَيَنْقُلَهَا مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ، وَمَنْ يَقْدِرُ على التَّصَرُّفِ في هذه الْأَجْسَامِ ـ مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا ـ بِالْإِفْنَاءِ وَالْإِحَالَة، فَمَا الذي يُعْجِزُه فِيمَا دُونَهَا؟ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ سُؤَالًا آخَرَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾، إذَا اسْتَحَالَتْ جُسُومُنَا وَفَنِيَتْ؟ فَأَجَابَهُمْ بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الْحُجَّة، وَلَزِمَهُمْ حُكْمُهَا، انْتَقَلُوا إلى سُؤَالٍ آخَرَ يَتَعَلَّلُونَ به بِعِلَلِ الْمُنْقَطِعِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: متى هُوَ؟ فَأُجِيبُوا بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾

قال الشيخ:

قد ذكرنا أنّ القرآن قد اشتمل على الأدلّة الكثيرة على تقرير البعث والنشور، وعلى تعظيم قدرة القادر، وعلى أنّه لا يعجزه شيء، وعلى أنّ الرسل أوّلهم وآخرهم بلّغوا هذا البيان، الذي هو اليوم الآخر والبعث والجزاء في الدار الآخرة، وذكروا ما يكون بعد الموت، فقد اتفقت دعوة الرسل كلهم على ذلك. والحكمة تقتضي ذلك، فإنّ هذه الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فالناس في هذه الدنيا يعملون، وفي الآخرة يلقون جزاء أعمالهم. ولذلك صار اهتمام العقلاء بما بعد الموت، وذلك بعمارة الدار الآخرة، عمارة ما سيفدون إليه، وقد انتبهوا إلى أنهم مأمورون بالعمارة، مأمورون بالبناء، ولكن البناء هو الذي يبقى، وليس الذي يفنى، فإن بناء الدنيا يفنى ويفنى ساكنوه، تفنى الدار ويموت صاحبها. وأما

العمارة في الآخرة فإنها هي الباقية، يقول بعضهم[١]:

لَا دَارَ لِلْمَـرْءِ بَعْـدَ المَـوْتِ يَـسْكُنُهَا ... إِلَّا الَّتِـي كَـانَ قَبْـلَ المَـوْتِ يَبْنِيهَـا

فَـإِنْ بَنَاهَـا بِخَـيْرٍ طَـابَ مَـسْكَنُهُ ... وَإِنْ بَنَاهَــا بِــشَرٍّ خَــابَ بَانِيهَــا

النَّفْسُ تَرْغَـبُ فِي الـدُّنْيَا وَقَـدْ عَلِمَـتْ ... أَنَّ الزَّهَــادَةَ فِيهَــا تَــرْكُ مَــا فِيهَــا

فَاغْرِسْ أُصُولَ التُّقَى مَا دُمْتَ مُجْتَهِدًا ... وَاعْلَـمْ بِأَنَّـكَ بَعْـدَ المَـوْتِ لَاقِيهَـا

فإذا [illegible] بأنه مأمور بالعمل للآخرة فوق العمل للدنيا؛ لأن الآخرة هي دار الجزاء، فالمؤمنون يعملون لها، بمعنى أنّهم يقدّمون ما تعمرُ به مساكنُهم في الجنّة. روي في بعض الآثار: أن الملائكة يبنون القصور لبني آدم، فإذا توقّف [illegible]ن عن العمل توقّفوا عن البناء، وقالوا: نتوقّف حتّى تأتينا النّفقة. ومعلوم ان من يبني في الدنيا يتوقّف العمّال حتى يعطيهم أجرتهم، وكذلك في الآخرة لا تُبنى الغرف التي فوقها غرف إلا بالأعمال الصالحة.

مرّت بنا هذه الأدلّة، ومنها: أنّ الرسل كلّهم أخبروا باليوم الآخر، واعترفت الأمم التي تدخل النار بأنّ رسلهم قد بلّغوهم، واعترفوا بأنّهم لم يصدّقوا بذلك لنقصٍ في عقولهم، وحكى الله عنهم ذلك بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ [الملك:٨، ٩]، فاعترفوا بالنذير، وتكذيبهم لهذا النذير حتى أوقعهم هذا التكذيب بالعذاب، حتى قالوا: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ

---

(١) انظر: الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (ص١٧١).

خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. يقول الله تعالى لهم هذه المقالة، فيقولون: بلى، ويعترفون بأنهم جاءتهم الرسل الذين أنذروهم لقاء يومهم هذا، ولكنّهم لم يتقبّلوا، بل كذّبوا الرّسل، واستبعدوا أن يكون هناك بعث بعد الموت، وظنوا أنه ليس هناك إلا هذه الدنيا، وأنّهم إنّما خلقوا لكي يأكلوا ويشربوا ويُمتّعُوا أنفسهم، وأجسامهم، وأنّهم بعد أن يخرجوا من الدنيا، لا يعودون للحياة مرة أخرى. هذه عقيدةٌ أوبقتهم، وأهلكتهم، وأنستهم ما خُلقوا له.

ومن الأدلة ـ ما مر بنا ـ أن الله أمر نبيّه ﷺ أن يقسم بربه على اليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣]. الضمير في ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾، يعود على البعث وما بعد الموت، من الجزاء على الأعمال، أي: أحقّ ثابت ما أخبرتنا به من البعث والجزاء؟ قل: إي وربّي؛ أمره أن يحلف بالله رب المخلوقات جميعًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى ﴾ هذا حلف أيضًا، ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾، أي: لابدّ أن تأتيكم هذه الساعة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾[التغابن: ٧]، هذا أيضًا قسم ثالث، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أي: لابدّ من البعث.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣]، ونحو ذلك من الآيات التي يأمر الله بها نبيّه أن يقسم بأنّهم لا بدّ أن يبعثوا.

أمّا المشركون فإنّهم ينكرون هذا، بل ويحلفون عليه، فيقول تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]. هذا على حسب نظرهم، فالله تعالى يقيم عليهم الحجج بعد جزمهم هذا، ويخبرهم بأنه هو الذي بدأ خلقهم، فلا بدّ أن يعيدهم، وهو الذي خلق هذه المخلوقات التي هذه عظمتها، فلابدّ أن يعيد الإنسان الذي هو أحقر وأصغر وأذلّ من هذه المخلوقات العظيمة. فيقول تعالى: إنّ خلق السموات والأرض بما فيها أكبر من خلق الناس، والله تعالى هو الذي خلقها، والإنسان لا شكّ أنّه من أفضل المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، لـمّا أنّه خلق الإنسان، وأعطاه السمع والبصر والفؤاد، وخصّه بالعلم والمعرفة، وأمره بأن يتعبّد لربّه ويطيع، وأمره بأن يستعدّ للقاء الله، وأخبره بأنه لا بدّ من لقاء ربّه، وأنّ اللقاء حتم لا بدّ منه.

فمن حقّق ذلك الإيمان وذلك الرجاء استعدّ له، فقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠]، أي: من كان مُوقنًا بأنّه لا بدّ من أن يلقى الله تعالى، فليستعدّ بالعمل الصالح الخالي من الشرك.

وقد أخبر الله تعالى بأنّ هذه الدنيا وما عليها حقيرةٌ مهينةٌ، لا تستحقّ أن يهتمّ لها هذا الاهتمام، فقال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، هذه أكثر ما يشتغلُ به أهلها. ثم ضرب لها مثلًا في أنها سوف تنقضي وجعلها: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾، الكافرون بالله هم الذين تعجبهم زهرة الدنيا، وهم الذين تُعجبهم زينتها وزينة ما عليها؛ لأنهم لهم رغبة في الدنيا، وليس لهم رغبة في الآخرة.

وقيل: إن الكفار هنا هم الزرّاع.

ولكن الأولى أنّهم الكفار بالله، فهم الذين يعجبهن نباته، وبعد مدة ما يكون هذا النبات؟ لا شكّ أنه ييبس، ويصير حطامًا، وتذروه الرياح. وهكذا هذه الدنيا: تزهر لأهلها وتخضرّ، ثم بعد ذلك تدبر عنهم، ولا تقبل، ويذوقون الضرّ كما ذاقوا الخير، وتنزع عنهم، أو ينزعون عنها، ولسان حالها يقول، كما أنشد بعضهم[1]:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمِلْءِ فِيهَا ... حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فَلَا يَغْرُرْكُمْ طُولُ ابْتِسَامِي ... فَقَوْلِي مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبْكِي

فهذه حالة هذه الدنيا، إذا فكّر العباد فيما عليها، علموا أنها متاع، وقنعوا منها باليسير، وشمّروا للدار الآخرة، ونصبوا الأقدام، وهجروا التواني والتكاسل، الذي يعوقهم عن السير إلى الآخرة، وهجروا الفتور الذي يثني هممهم، وأنصبوا

(١) البيتان لأبي الفرج الساوي قالها في مرثية فخر الدولة. انظر: يتيمة الدهر (٣/ ٤٥٨).

أبدانهم في طاعة الله تعالى، وعلموا أنّ الدنيا فانية، وجعلوا رغبتهم في الآخرة، ووثقوا بقول الله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٣٠]، هذه حال المصدّقين.

أما المكذّبون فقد مرّ معنا ما ذكر الله من حالهم في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء:٤٧ ـ ٤٩]. ثم يقول تعالى: ﴿قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١]. فهذه حجّة عليهم أنّ الذي يعيدهم هو الذي فطرهم أوّل مرة، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾، متى هذا البعث؟ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٢].

إذا دعاهم الله وأخرجهم، تذكّروا حياتهم الأولى، ويقولون: كم لبثتم؟ فيظنون أنّهم ما لبثوا في الدنيا إلاّ أيامًا قليلة، ويظنون أنّهم ما لبثوا إلا يومًا أو بعض يوم، كما قال الله تعالى عنهم ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ [طه:١٠٣]، ويقول أمثلهم وأعقلهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه:١٠٤]، يتقالّون الزمن الذي لبثوه والذي مكثوه في الدنيا؛ لأنّهم لما كانوا في سرور كأنّهم مرّت عليهم الأيام قصيرةً، ولا شكّ أنّهم سيلقون بعد ذلك السرور جزاءً ينسيهم ما كانوا فيه من قبل، فإنّهم يعذّبون في الآخرة أو يثابون في الآخرة، فقد ورد في

الحديث أنه ﷺ قال: «يُؤْتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا من أَهْلِ النَّارِ يوم الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يا بن آدَمَ، هل رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لَا والله يا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيَا من أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فَيُقَالُ له: يا بن آدَمَ، هل رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لَا والله يا رَبِّ، ما مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيت شِدَّةً قَطُّ»[1]، نسي النعمة التي في الدنيا؛ لأن لحظة واحدة تنسيه ما كان فيه من النعيم الذي كان في الدنيا، ويضرب ذلك بعضهم مثلًا فيقول[2]:

مَسَرَّةُ أَحْقَابٍ تَلَقَّيْتُ بَعْدَهَا ... مَسَاءَةَ يَوْمٍ إِنَّهَا شِبْهُ أَنْصَابِ
فَكَيْفَ بِأَنْ تَلْقَى مَسَرَّةَ سَاعَةٍ ... وَرَاءَ تَقَضِّيهَا مَسَاءَةُ أَحْقَابِ

لو أن إنسانًا نُعِّم في الدنيا عشرات السنين، وهو أنعم ما يكون، وألذُّ ما يكون من الحياة والبهجة، ثم بعد ذلك ناله عذاب ساعة واحدةٍ، فإنه سينسي ذلك النعيم والسرور والبهجة، أنساه إياه عذاب ساعةٍ أو بعض ساعة. فكيف إذا كان نعيم الدنيا بأسرها قليلًا، والذي تناله أنت في عمرك أقل من القليل، فكيف إذا تعقبّ هذا النعيم العذاب المستمرّ الذي لا انقضاء له ولا انقطاع، وهو عذاب الآخرة، عذاب النار وبئس القرار. فإنه الذي لا انقضاء له أبدًا. فهذا يبيّن لك أنّ الدنيا قليل متاعها، وأنّ حظّ الإنسان منها أقلّ من القليل.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٨٢).

وذكر الشارح أيضًا الآيات التي تدلّ على قرب قيام الساعة.

وقد يقول قائل: قد مرّ مئات السنين بعد نزول هذه الآيات، مرّ أربعة عشر قرنًا وبعض قرن، فكيف يقال: إنّها قريب؟ كما ذكر الله تعالى أنها قريب في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٧]، وفي قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، يعني: استعدّوا لها؛ فإنّها تأتي على حين غرّةٍ وبغتة، فلا بدّ أن تأتي، فترقّبوا أن تأتي في ذلك اليوم أو في تلك الليلة. يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢-٤٦]. وفي آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار.

فالآيات التي يذكر الله تعالى فيها أن الساعة قريبة مثل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر:١]، أو: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء:١]، أو ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، تدلّ على أنها قريبة.

والنبيّ ﷺ أخبرَ بأنّها قريبة، وأنّ الناس عليهم أن ينتظروها، فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: متى الساعة؟ قال ﷺ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»،

قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إلى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ»(١). فإذا رأينا أماراتها أو أشراطها؛ فإنّ علينا أن ننتظر الساعة بغتةً، أو يأتي أمر الله.

أولها: النفخ في الصور، وهي نفخة الصعق، ثم تموت الأجساد وتفنى، ثم ينفخ فيه نفخة أخرى هي نفخة البعث، وهي نفخة القيام من القبور. فيبعث الناس، ويجتمعون في دار الجزاء للآخرة، وليس دون ذلك إلا أيامٌ قليلة، فالمسلم يكون متأهبًا لذلك، فإذا جاءه أمر الله، يكون على أهبة لذلك، وقد أعدّ للساعة عدّتها، وقد وثق بعمله، عمل عملًا صالحًا يكون سببًا في نجاته.

وقد كان السلف يهتمّون للآخرة، حتى ولو قيل لأحدهم: إنّك ميّتٌ هذا اليوم، لم يستطع أن يزيد في عمله؛ إذ قد بلغ الغاية القصوى من العمل، ومن الاجتهاد في الأعمال الصالحة؛ لأنه يترقّب الموت في كلّ حالة، ويمتثل قول النبيّ ﷺ: «كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ»، وكان ابن عُمَرَ - رضي الله عنهما - يقول: «إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرْ المَسَاءَ، وَخُذْ من صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»(٢). أي: ترقّب الموت بينك وبين الصباح، أو بينك وبين المساء، مخافة أن يأتيك أمر الله. ومن مات فقد قامت قيامته.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

قال الشارح:

وَمِنْ هَذَا قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس:٧٨]، إلى آخِرِ السورة. فَلَوْ رَامَ أَعْلَمُ الْبَشَرِ وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ على الْبَيَانِ، أَنْ يأتي بِأَحْسَنَ مِنْ هذه الحُجَّة، أَوْ بِمِثْلِهَا، بِأَلْفَاظٍ تُشَابِه هذه الأَلْفَاظَ في الإِيجَازِ وَوَضْعِ الأَدِلَّة، وَصِحَّة الْبُرْهَانِ، لَمَا قَدَرَ. فإنه سبحانه افْتَتَحَ هذه الحُجَّة بِسُؤَالٍ أَوْرَدَه مُلْحِدٌ، اقْتَضَى جَوَابًا، فَكَانَ في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، مَا وَفَى بِالجَوَابِ، وَأَقَامَ الحُجَّة وَأَزَالَ الشُّبْهَة، لولا ما أَرَادَ سبحانه مِنْ تَأْكِيدِ الحُجَّة وَزِيَادَة تَقْرِيرِهَا، فَقَالَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، فَاحْتَجَّ بِالإِبْدَاءِ على الإِعَادَة، وَبِالنَّشْأَة الأولى على النَّشْأَة الأخرى؛ إِذْ كُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّ مَنْ قَدَرَ على هذه، قَدَرَ على هذه، وأنه لَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الثَّانِيَة لَكَانَ عَنِ الأولى أَعْجَزَ وَأَعْجَزَ.

وَلَمَّا كَانَ الخَلْقُ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَة الخَالِقِ على المَخْلُوقِ، وَعِلْمَه بِتَفَاصِيلِ خَلْقِه، أَتْبَعَ ذَلِكَ بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، فَهُوَ عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِ الخَلْقِ الأَوَّلِ وَجُزْئِيَّاتِه، وَمَوَادِّه وَصُورَتِه، فَكَذَلِكَ الثاني. فَإِذَا كَانَ تَامَّ الْعِلْمِ، كَامِلَ الْقُدْرَة، كَيْفَ يَتَعَذَّرُ عليه أَنْ يُحْيِيَ الْعِظَامَ وهي رَمِيمٌ؟.

ثُمَّ أَكَّدَ الأَمْرَ بِحُجَّة قَاهِرَة، وَبُرْهَانٍ ظَاهِرٍ، يَتَضَمَّنُ جَوَابًا عَنْ سُؤَالِ مُلْحِدٍ آخَرَ يَقُولُ: الْعِظَامُ إِذَا صَارَتْ رَمِيمًا عَادَتْ طَبِيعَتُهَا بَارِدَة يَابِسَة، وَالحَيَاة لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَادَّتُهَا وَحَامِلُهَا طَبِيعَتُه حَارَّة رَطْبَة، بِمَا يَدُلُّ على أَمْرِ الْبَعْثِ، ففيه الدَّلِيلُ

وَالجَوَابُ، فَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس:٨٠]، فَأَخْبَرَ سبحانه بِإِخْرَاجِ هَذَا الْعُنْصُرِ، الذي هُوَ في غَايَة الحَرَارَة وَالْيُبُوسَة، مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ المُمْتَلِئِ بِالرُّطُوبَة وَالْبُرُودَة، فالذي يُخْرِجُ الشَّيْءَ مِنْ ضِدِّه، وَتَنْقَادُ له مَوَادُّ المَخْلُوقَاتِ وَعَنَاصِرُهَا، وَلَا تَسْتَعْصِي عليه، هُوَ الذي يَفْعَلُ مَا أَنْكَرَه المُلْحِدُ وَدَفَعَه، مِنْ إِحْيَاءِ الْعِظَامِ وهي رَمِيمٌ.

ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا بِأَخْذِ الدِّلَالَة مِنَ الشَّيْءِ الْأَجَلِّ الْأَعْظَمِ، على الْأَيْسَرِ الْأَصْغَرِ، فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ قَدَرَ على الْعَظِيمِ الجَلِيلِ فَهُوَ على مَا دُونَه بِكَثِيرٍ أَقْدَرُ وَأَقْدَرُ، فَمَنْ قَدَرَ على حَمْلِ قِنْطَارٍ، فهو على حَمْلِ أُوقِيَّة أَشَدُّ اقْتِدَارًا، فَقَالَ: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس:٨١]، فَأَخْبَرَ أَنَّ الذي أَبْدَعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، على جَلَالَتِهِمَا، وَعِظَمِ شَأْنِهِمَا، وَكِبَرِ أَجْسَامِهِمَا، وَسَعَتِهِمَا، وَعَجِيبِ خَلْقِهِمَا، أَقْدَرُ على أَنْ يُحْيِي عِظَامًا قَدْ صَارَتْ رَمِيمًا، فَيَرُدَّهَا إلى حَالَتِهَا الأولى. كَمَا قَالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧]، وَقَالَ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الأحقاف:٣٣]. ثُمَّ أَكَّدَ سبحانه ذَلِكَ وَبَيَّنَه بِبَيَانٍ آخَرَ، وَهُوَ أنه لَيْسَ فِعْلُه بِمَنْزِلَة غيره، الذي يَفْعَلُ بِالْآلَاتِ وَالْكُلْفَة، وَالنصبِ وَالمَشَقَّة، وَلَا يُمْكِنُه الِاسْتِقْلَالُ بِالْفِعْلِ، بَلْ لَابُدَّ معه مِنْ آلَة وَمُعِينٍ، بَلْ يَكْفِي في خَلْقِه لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَه وَيُكَوِّنه نَفْسُ إِرَادَتِه، وقوله لِلْمُكَوَّنِ: «كُنْ»، فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ كَمَا شَاءَه وَأَرَادَه.

ثُمَّ خَتَمَ هذه الحُجَّة بِإِخْبَارِه أَنَّ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِه، فَيَتَصَرَّفُ فيه بِفِعْلِه وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

قال الشيخ:

هذه الآيات في آخر سورة يس احتجّ الله بها على بعض المشركين. روي أنّ الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، جاء ومعه عظم ميت قد بلي وجعل يحتّه، وقال: أتزعم يا محمّد أنّ ربّك قادر على أن يعيد هذا حيًا بعد أن صار فتاتًا وترابًا. فقال: «نعم، يميتك الله ثم يحييك، ثم يحشركَ إلى جهنّم». نزلت فيه هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

فهذه هي الحجّة الأولى يذكّرُهُ بأنّه خُلق من نطفة، والنطفة: ماء قذرٌ لو تُرِك لحظةً لَفَسَدَ، والله هو الذي أوجدَ الإنسان من هذه النطفة، ثم طوّره إلى أن أخرجه إنسانًا سويًا، وجعله بشرًا متكامل الخلق، فإذا هو يخاصم ربّه ويجادله، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨].

فهذا المثل كأنّه أتى بهذا العظم يفتّه. نسي مبدأ خلقه، نسي أنّ الله هو الذي أوجده من تلك النطفة إلى أن صار رجلًا، نسي قولَ الله تعالى لهُ ولغيره: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠، ٢١]. نسي خلقه

فقال: من يحيي العظام وهي رميم.

الآيات التي بعدها في تقرير الحياة، وفيها عدة حجج:

الحجّة الأولى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، فإنّ من ابتدأ الخلق قادر على أن يعيده، وليس بدء الخلق أهون من إعادته. هذه حجّة قاطعةٌ لكلّ خصومة، وذلك لأنّ الذي ابتدأ خلق الإنسان وأحياه في هذه الدنيا، وكذلك سائر المخلوقات، قدّر الله أنها تتوالد وأنّها تنشأ على هذه الحياة شيئًا فشيئًا، فالذي أوجده وخلقه وكوّنه وقدّره ما يقدر عليه؟ لا شكّ أنه قادر على أن يعيده كما كان.

الحجّة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، فهو عالم بكلّ شيء، ولا يخفى عليه شيء، يعلم عدد المخلوقات، علم عدد الرمل والتراب، وأبصر فلم يستر بصره حجابٌ، وسمع جهر القول وخَفيّ الخطاب، لا يخفى عليه شيء من أمر عباده، علم عددهم قبل أن يخلقهم، وعلم آجالهم، وعلم أعمالهم، وعلم أوقاتهم التي يولدون فيها، فهو بكل خلق عليم، فإذا كان عليمًا فلا يليق به أن يهمل الخلق.

الحجة الثالثة: قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]. يقولون: هناك شجر اسمه المرخ، وشجر اسمه العفار، يعرفه أهل البوادي، إذا أرادوا أن يقدحوا نارًا قطعوا عودين أخضرين وحزّوا في أحدهما حزًّا، ثم إنّهم يحركونه تحريكًا جيدًا فتنقدح منه النار، ثم

يجعلون الشرارة التي تنقدح منه في خرقة، ثم بعد ذلك ينفخونها ثم يشعلونها نارًا، ويغني هذا عن الكبرين الذي نستعمله، وهذا كانت تعرفه العرب، ويعرفه أهل البوادي إلى القريب. يقولون:

في كلِّ شجـرٍ نار يستنجد المرخَ والعفار

الله تعالى يخرج النار من هذا العود الأخضر، مع أنّ طبيعة النار حارة، وطبيعة هذا العود أنه رطب وأنه مائي، فتنقدح منه هذه الحرارة؛ أليس ذلك دليلًا على أن الذي أوجد هذه الحرارة في هذا العود قادر على أن يعيد إلى الإنسان حياته، ولو كان ترابًا، فهو قادر على أن يجمع أشلاءه، ولو كانت متفرّقة، فهو لا يصعب عليه أن يعيد إليه حرارته وحياته وطبيعته، كما لم يستعصِ عليه أن يخرج النار من ذلك الشجر الأخضر، الذي توقدون منه.

الحجّة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس:٨١]؛ لأن خلق هذه السموات، مع ارتفاعها، وما فيها من الأفلاك، وما فيها من النجوم السائرة والثابتة، وما فيها من الشمس والقمر وهذه الأجرام العلوية، وكذلك هذه الأرض وما فيها من الشعاب والجبال والوهاد، أكبر من خلق الإنسان. فإن المخلوق العظيم يدلّ على عظمة خالقه، فإذًا القادر على أن يخلق هذه الأشياء، قادر على أن يخلق الإنسان مع صغره ومع حقارته، وقادر على أن يعيده كما كان. وقد قال الشارح: من يقدر أن يحمل قنطارًا، لم يصعب عليه حمل أوقية. والقنطار ملء الثوب من الذهب أو الفضة، والأوقية

ملء اليد. ومن يستطيع أن يخلق هذه المخلوقات العلوية العظيمة، لا يستطيع عليه أن يوجد الإنسان.

الحجة الخامسة: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]. ليس كالذي يحتاج إلى حرفة وإلى صنعة وإلى عمل وإلى مواد يجمعها. فإن أراد الصانع أن يصنع طاولة، فإنه يحتاج إلى خشب ومسامير ومنشار ومطرقة ودهان، وكذلك من يريد صنع الزجاج، فإنه يحتاج إلى مواده التي يصنع منها. أما الربّ تعالى فلا حاجة به إلى مواد ولا إلى أعوان ولا إلى أجهزة، بل يأمر مجرّد أمر، ويريد مجرّد إرادة، إذا أراد فإنما يقول له: كن فيكون. فأمره بين الكاف والنون. فهذه أدلّة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان كما كان، فإذا عرف الإنسان ذلك استعدّ لما بعد الموت.

والإيمان بالحساب والجزاء والحوض والميزان، كلّ ذلك داخلٌ في الإيمان باليوم الآخر، وأنّ الشريعة الإسلامية قد فصّلت ذلك في الكتاب والسنّة، ما لم يكن مفصلًا في الشرائع قبلها، وأنّ الإيمان باليوم الآخر قد توافقت عليه الشرائع، شرائع الأنبياء المنزلة عليهم متّفقة على أنّ هناك بعثًا بعد الموت، وجزاء على الأعمال، خيرها وشرّها، وكذلك هناك حساب عسير أو يسير كما أخبر الله، وهناك وقوف في الموقف الذي هو موقف الناس يوم يقوم الناس لربّ العالمين، وتضمّنت إثبات البعث الذي هو بعث الأجساد وإعادتها بعد أن كانت ترابًا ورميمًا، وأنّ ذلك يسير على الله تعالى. ووردت آيات كثيرة في القرآن في تقرير هذا

البعث. ومرّت بنا آيات توضّح ذلك. وأنّ الله تعالى يحتجّ على البعث بحجج عقليّة معقولة مشاهدة، ويحتجّ عليه للمنكرين بإحياء الأرض بعد موتها. فيقول تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم:١٩]. لما ذكر بأنه يحيي الأرض بعد موتها، أخبر بأنهم كذلك يخرجون من الأرض، ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾، يعني: كانت أرضًا ميتة، فأحييناها فأحيينا به الأرض بعد موتها، ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الأعراف:٥٧]، يعني: كما تحيا هذه الأرض الميتة التي ليس فيها عود أخضر أو ورقة خضراء، ينزل عليها المطر فيغمرها فتصبح بعد ذلك تهتزُّ خضراء، فيها من أنواعِ النباتات المختلفة الطُّعوم والألوان والروائح والطبائع والأغراض. لا شكّ أنّ ذلك آية بينة على إخراج الموتى وإعادتهم، بعد أن يكونوا ترابًا.

ويحتجّ أيضًا ببدء الخلق، فيقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧]، أي: كما أنه بدأ خلق الإنسان وأحياه بعد أن كان عدمًا، وكذلك يعيده بعد أن يكون ترابًا، فالذي أخرج الإنسان بعد أن كان ماءً مهينًا، وبعد أن كان نطفةً قَذِرةً، أخرجه بشرًا سويًا حيًا عاقلًا متكلّمًا له حركاته وله حواسّه، فلا شكّ أنّه قادر على أن يعيده ولو تفرّقت أشلاؤه، ولو أكلته الدود أو أكله التراب وانعدم، فلا يعجز الله أن يعيده كما كان، فهذا من حجّة الله على خلقه، كذلك يحتجّ الله بمخلوقاته العلويّة والسفليّة التي هي أعظم من خلقه،

فيقول تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧]، ويقول تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس:٨١]. ويقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الأحقاف:٣٣]. ونحو ذلك من الأدلّة.

ويخبر أنّه سبحانه لا يحتاج في خلقه ولا في تصرفه إلى حركة ولا إلى عمل، ولا إلى معين ولا مساعدٍ ولا شريك. وإنّما يأمر أمرًا لا يُرَدّ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]. فالذي تذلّ له المخلوقات وتطيعه كلها، ولا تستعصي عليه، إنّما إذا أمرها انقادت لأمره، لا يستعصي عليه أن يعيد خلق الإنسان كما كان، فهذه من الأدلّة التي سمعنا إيضاحها، ودلالتها على إعادة الخلق.

والإنسان العاقل الذي يسمع هذه الأدلّة يقنع أشدّ القناعة، ويصدّق بذلك غاية التصديق، ويستسلم لذلك ولا يبقى في قلبه شكّ ولا ريب، ولكن لا يكتفي بذلك، لا يكتفي بأن يقول: أنا مؤمن وأنا مصدّق وأنا موقن بذلك كلّه، وأنا لا أشكّ ولا أتردّد، بل يطلب منه فوق ذلك العمل الذي يلقى به ربه في ذلك اليوم، فلا بدّ أن يعمل العمل الذي ينجو به في ذلك اليوم. فإذا علم أنّ ذلك يوم عسير، ويوم طويل، كألف سنة مما تعدّون، وأنّه لا يخفّ إلا على أهل الإيمان، وعلم أنّ فيه الحساب، وأنّ الحساب يكون عسيرًا إلا على أهل الإيمان، وأهل

الأعمال الصالحة، فإنّ الله يحاسبهم حسابًا يسيرًا، وعلم أنّ فيه الوزن للأعمال، وأنّها تخفّ وتثقل، وأنّ الذي تثقل موازينه هم أهل الأعمال الصالحة، وأنّ فيه الحساب على الأعمال، وأنّ الله سريع الحساب، وأن الله يحاسبهم على الأعمال في طرفة عين، ولا يشغله شأن عن شأن، وعلم أيضًا أنّ فيه تطاير الصحف، فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، وآخذ كتابه من وراء ظهره. لاشكّ أنه يستعدّ لمثل هذه الأشياء، فيعلم أنّها لا تحصل إلا بعمل، فيسأل عن العمل ويتقربّ بذلك العمل.

قال الشارح:

وَمِنْ هَذَا قوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٦ - ٤٠]، فَاحْتَجَّ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَتْرُكُه مُهْمَلًا عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَأَنَّ حِكْمَتَه وَقُدْرَتَه تَأْبَىٰ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [النور:١١٥]، إلى آخر السورة. فَإِنَّ مَنْ نَقَلَه مِنَ النُّطْفَة إلى الْعَلَقَة، ثُمَّ إلى الْمُضْغَة، ثُمَّ شَقَّ سَمْعَه وَبَصَرَه، وَرَكَّبَ فيه الحَوَاسَّ وَالْقُوَى، وَالْعِظَامَ وَالمَنَافِعَ، وَالْأَعْصَابَ وَالرِّبَاطَاتِ التي هي أَشَدُّه، وَأَحْكَمَ خَلْقَه غَايَةَ الْإِحْكَامِ، وَأَخْرَجَه على هَذَا الشَّكْلِ وَالصُّورَة، التي هي أَتَمُّ الصُّوَرِ وَأَحْسَنُ الْأَشْكَالِ، كَيْفَ يَعْجِزُ عَنْ إِعَادَتِه وَإِنْشَائِه مَرَّة ثَانِيَة؟ أَمْ كَيْفَ تَقْتَضِي حِكْمَتُه وَعِنَايَتُه أَنْ يَتْرُكَه سُدًى؟ فَلَا يَلِيقُ ذَلِكَ بِحِكْمَتِه، وَلَا تَعْجِزُ عنه قُدْرَتُه.

فَانْظُرْ إلى هَذَا الِاحْتِجَاجِ الْعَجِيبِ، بِالْقَوْلِ الْوَجِيزِ، الذي لَا يَكُونُ أَوْجَزَ منه، وَالْبَيَانِ الجَلِيلِ، الذي لَا يُتَوَهَّمُ أَوْضَحُ منه، وَمَأْخَذِه الْقَرِيبِ، الذي لَا تَقَعُ الظُّنُونُ على أَقْرَبَ منه.

وَكَمْ في الْقُرْآنِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الِاحْتِجَاجِ، كَمَا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج:٥]، إلى أَنْ قَالَ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن

سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾ [المؤمنون:١٢]، إلى أَنْ قَالَ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٦]، وَذَكَرَ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَكَيْفَ أَبْقَاهُمْ مَوْتَى ثَلَاثَمِائَة سنة شَمْسِيَّة، وهي ثَلَاثُمِائَة وَتِسْعُ سِنِينَ قَمَرِيَّة، وَقَالَ فِيهَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ ﴾ [الكهف:٢١].

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَة مِنَ الجَوَاهِرِ المُفْرَدَة، لَهُمْ فِي المَعَادِ خَبْطٌ وَاضْطِرَابٌ. وَهُمْ فيه على قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تُعْدَمُ الجَوَاهِرُ ثُمَّ تُعَادُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تُفَرَّقُ الْأَجْزَاءُ ثُمَّ تُجْمَعُ. فَأُورِدَ عَلَيْهِمُ الإِنْسَانُ الذي يَأْكُلُه حَيَوَانٌ، وَذَلِكَ الحَيَوَانُ أَكَلَه إِنْسَانٌ، فَإِنْ أُعِيدَتْ تِلْكَ الأَجْزَاءُ مِنْ هَذَا، لَمْ تُعَدْ مِنْ هَذَا؟ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ: أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَحَلَّلُ دَائِمًا، فَمَاذَا الذي يُعَادُ؟ أَهُوَ الذي كَانَ وَقْتَ المَوْتِ؟ فَإِنْ قِيلَ بِذَلِكَ، لَزِمَ أَنْ يُعَادَ على صُورَة ضَعِيفَة، وَهُوَ خِلَافُ مَا جَاءَتْ به النُّصُوصُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَيْسَ بَعْضُ الأَبْدَانِ بِأَوْلَى مِنْ بَعْضٍ! فَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ فِي الإِنْسَانِ أَجْزَاءً أَصْلِيَّة لا تَتَحَلَّلُ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الحَيَوَانِ الذي أَكَلَه الثاني! وَالْعُقَلَاءُ يَعْلَمُونَ أَنَّ بَدَنَ الإِنْسَانِ نَفْسَه كله يَتَحَلَّلُ، لَيْسَ فيه شَيْءٌ بَاقٍ، فَصَارَ مَا ذَكَرُوه فِي المَعَادِ مِمَّا قَوَّى شُبْهَة المُتَفَلْسِفَة فِي إِنْكَارِ مَعَادِ الأَبْدَانِ.

وَالْقَوْلُ الذي عليه السَّلَفُ وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ: أَنَّ الْأَجْسَامَ تَنْقَلِبُ مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ، فَتَسْتَحِيلُ تُرَابًا، ثُمَّ يُنْشِئُهَا الله نَشْأَة أخرى، كَمَا اسْتَحَالَ فِي النَّشْأَة الأولى، فإنه كَانَ نُطْفَة، ثُمَّ صَارَ عَلَقَة، ثُمَّ صَارَ مُضْغَة، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا وَلَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأَه

خَلْقًا سَوِيًّا. كَذَلِكَ الْإِعَادَة: يُعِيدُه الله بَعْدَ أَنْ يَبْلَى كله إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النبي ﷺ، أنه قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ ابْنُ آدَمَ، ومنه يُرَكَّبُ»[١] . وفي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّ السماء تُمْطِرُ مَطَرًا كَمَنِيِّ الرِّجَالِ، يَنْبُتُونَ فِي الْقُبُورِ كَمَا يَنْبُتُ النَّبَاتُ»[٢] .

قال الشيخ:

الاحتجاج الأوّل لتكميل الأدلّة، يقول تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦]، قيل: إن المراد أن يهمل في الدنيا فلا يؤمر ولا يُنهى، مع أنّه قد أكملت عليه النعم، فيهمل دون أن يكلّف أو أن يؤمر بعبادة يدين بها لمن خلقه، ولمن تكفّل برزقه؛ هذا لا يليق، فلا يليق بعاقل أن يعتقد أن الإنسان في هذه الحياة مهمل بمنزلة البهائم التي لا عقول لها، لا يليق بحكمة الحكيم أن يهمل الإنسان على هذا، ولا بدّ أن جنس الإنسان الذي منّ الله عليه بالعقل والإدراك أن يكون قد خلق لحكمة وهي طاعة من خلقه وعبادته والامتثال لما أمر، فلا يليق أن يكون مهملًا دون أن يكلّف وأن يؤمر وينهى.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٨)، ومسلم (٢٩٩٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥١١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧٨٤)، والطبراني في الكبير (٩٧٦١)، موقوفًا على ابن مسعود ﷺ، وصححه الحاكم (٤/ ٥٩٨-٦٠٠)، وانظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٩-٣٣٠).

والقول الثاني: أن المراد: أن يهمل فلا يبعث، وأن يترك سدىً، فإذا مات لا يُبعث ولا يُحاسب، بل يكون آخر عهده إذا مات وصار ترابًا، فلا يكون بعد موته جزاء ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب، فهل يعتقد العاقل مثل هذا؟ لا يليق بالخالق الرازق المتصرّف المالك العالم بأحوال عباده، أن يتركه فلا يثيب من أطاع، ولا يعاقب من عصى، ولا يبعثهم ويجمعهم ليوم الحساب وجزاء الأعمال، بل لا بدّ وأن يحاسبهم وأن يثيب من يستحقّ وأن يعاقب من يستحقّ.

ثمّ إن مثل هذه الآية: قول الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [النور:١١٥]، يعني: أتحسبون أنّكم مهملون في الدنيا، وأنّكم مخلوقون كالبهائم السائمة، لا تحاسب ولا تكلّف، أحسبتم أنّكم إلينا لا ترجعون رجوعًا حقيقيًا تحاسبون فيه على أعمالكم، هذا ظنّ خاطئ بعيد.

ومثل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص:٢٧]. وأنّ الإنسان ما خلق هملًا وسدىً. احتج عليه بأول خلقه، ألم يكُ نطفةً. يعني ألم يكن خلق ابن آدم أوّله نطفةٌ من ماء مهين، وجعله الله في قرار مكين وهو الرحم، ثم خلقه وطوّره من حال إلى حال، من نطفة، ثم من علقة، وهي قطعة من الدم، ثم من مضغة، وهي قطعة اللحم الصغيرة بقدر ما يمضغها الماضغ، ثم خلق هذه المضغة عظامًا، ثم صوّرها على هذه العظام التي تكون في الإنسان؛ الرأس والعنق والمنكب واليدان بما فيهما من مفاصل والظهر والرجلان، ثم كسيت هذه العظام لحمًا وجلدًا

وعروقًا ومفاصل وأعضاء، وشدّها سبحانه وأحكمها، وخلق ما في جوف الإنسان من كبده ورئتيه وكليتيه وأمعائه وأعضائه الداخلة، وأحكم خلقه على هذا الخلق، أيحسب بعد ذلك أن يتركه مهملًا، لا يؤمر ولا ينهى، أليس أوله نطفة من منيٍ يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوّى، فجعل منه الزوجين، هل يستطيع الإنسان أن يخلق نفسه؟ أو يخلق ولده؟ أو يتحكّم في جنسه ذكر أو أنثى، بل الله هو الذي يخلقهم فيجعل هذا ذكرًا وهذا أنثى، حتى تتمّ حكمته التي شاء أن يكون الإنسان مكوّنًا من الزوجين الذكر والأنثى ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة:٣٩، ٤٠]، بلى ونحن على ذلك من الشاهدين، نشهد بأنّه قادر على أن يحيي الموتى بعد موتهم وتفرّقهم، وهو على كلّ شيء قدير.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، يعني: أباكم آدم. ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج:٥]، يعني: تارة تكون مخلّقة، وهي التي يتمّ خلقها، وتارة تكون غير مخلّقة وهي التي يقذفها الرحم ولا يتمّ خلقها. ثمّ ذكر بعد ذلك حالة الإنسان وتطوّره، ثمّ ذكر أن القادر على هذا قادر على أن يحيي الموتى. بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج:٦، ٧].

كذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون:١٢]،

خلق الله آدم من طين، وخلق زوجه منه، أما أولاده فقد ذكر الله خلقهم فقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون:١٣، ١٤]، إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٥، ١٦]، ثمّ احتجّ بالمخلوقات الكبرى فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون:١٧].

والذي أوجَدَ الإنسانَ عَلَى هذا لا يُهمل خلقه، ولا يليق به أن يتركهم هملًا وسُدَى، لا يؤمرون ولا ينهون. وعلى هذا فالإنسان لا بدّ وأنّه مكلّفٌ، ولا بدّ وأنّه مأمورٌ ومنهيٌّ، وأنّ فرضًا عليه أن يفعل ما أُمر به، وأن يجتنب ما نُهي عنه، حتى يصدُق عليه أنّه ممتثل، وأنه مستحقّ للجزاء في الآخرة.

وقد مرّ معنا أنّ الفلاسفة والمتكلّمين يقولون: إن الإنسان مكوّنٌ من الجواهر المفردة، وأنّه تكوّن وتجمّع حتى صار على هذه الحالة، والجوهر عندهم هو أصغر شيء في الوجود يُدرَك بالبصر، فكأنهم يقولون إنّ الإنسان مجموعة من هذه الجواهر تجمّعت هذه على هذه حتى أصبح بهذه الصورة، كما في سارية المسجد المكوّنة من حبات التراب الصغيرة، قد تجمّعت حبّة مع حبّة مع حبّة، إلى أن صارت سارية، كذلك السقف وكل الأشياء الموجودة مكوّنة من هذه الجواهر المفردة. وذلك أنّا نشاهد أنّ الإنسان يولد وهو طفل صغير، غاية في الصغر، ثمّ ينمو ويكبر، فمن أين تأتيه هذه الجواهر، أليس ذلك إنّما نموّه ونباته وكبره،

بسبب ما يغدقه الله عليه وما يعطيه إياه، وما يتولّد منه.

ومن ذلك أن نشاهد أنّ الشجرة تنبت من الأرض وهي ورقة صغيرة كالنخلة مثلًا، ثم بعد ذلك تصبح نخلة صغيرة، فمتى جاءت هذه الجواهر وتركّبت منها حبّات حبّات، إلى أن صارت نخلة سويّة؟ ومن أين جاءت الجواهر إلى جسم الإنسان ودخلت في أعضائه وكبرت منها أعضاؤه؟ فهذا قول يستنكره كلّ عاقل.

وأيضًا قالوا: إنّ الإنسان إذا تُوفي، فإنّ تلك الأجزاء تتفرق وتصير ترابًا، ثم تعود تلك الحبّات كما كانت. معلوم أنّ الإنسان الذي يطول عمره حتى يبلغُ مئة سنة يضعف خلقه، ويموت وهو أضعف ما يكون، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ [الروم:٥٤]. فيموت وهو في غاية الضعف، فهل يليق أنّه إذا أعيد بعد الموت أن يحيا في هذه الحالة من الضعف؟! هذا يخالف ما ذكر الله؛ فقد ذكر الله أنّه يحيهم أقوى ما يكونون، ويعيد إليهم قوّتهم، وأنّهم يكمل خلقهم، فيعود هذا الإنسان أكمل ما كان، ويعاد إليه ما فقد من أجزاء، قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»[1]. فهذا يبيّن ضعف مقالاتهم.

وضرب الشارح لذلك مثلًا: لو أنّ إنسانًا أكلته سمكة، وأصبح في بطنها، ثم إن تلك السمكة اصطادها إنسانٌ، فأكلها شيئًا فشيئًا وأصبحت غذاءً له. أين يكون الإنسان الأول؟ اضمحلّ في جوف تلك السمكة ولم يبق منه شيء، وأين تلك السمكة؟ فإن تلك السمكة ـ ولو كانت كبيرة ـ قد يأكلها الإنسان في سنة أو

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أكثر، شيئًا فشيئًا، أو يأكلها عدة أناس، فأين ذلك الذي أكلته؟ لا شكّ أنّه أصبح غذاء لها، ولكن الله تعالى قادر على أن يعيده حيًا سويًا، ولو أكلته السمك أو السباع أو الطيور وما أشبه ذلك.

فهؤلاء الفلاسفة الإلهيون ونحوهم، يدّعون أنّ الذي يعاد إنّما هو الأرواح، وهناك كثير من المتكلّمين يدّعون أنّ الإنسان مركّب من جواهر مفردة، وأنّ تلك الجواهر هي التي تعاد، وذلك كلّه قول باطل. فالإنسان قد أخبر الله أنّه مركّب من هذه الخلقة الظاهرة التي نقلها طورًا بعد طور من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم كسيت العظام لحمًا. ولم يذكر أنّه مكوّن من جواهر تواردت عليه في الرحم شيئًا فشيئًا إلى أن تكوّن منها هذا الإنسان.

فبطلت بذلك أقوالهم، وصحّ أنّ الله هو الذي يحيي الإنسان ويعيده كما كان عليه، وأنّه يعيد خلق الإنسان كما يشاء، دون أن يقال: إنّه مكوّن من جواهر مفردة أو غير مفردة، أو أعراض. وذلك لأنّ المتكلّمين يقسّمون الموجودات إلى جواهر وأعراض، ويقولون: كل ما تركّب من الجواهر المفردة هو ما يدركه البصر وما تدركه الحواس. وأما الأعراض: فهي التي ليس لها جرم، وإنما هي صفات أو أعراض كالبياض والسواد، والظلمة والنور، والألوان كالحمرة والخضرة، وما أشبه ذلك. وكذلك الأعراض من الأعمال كالأقوال والأفعال هذه أيضًا يسمّونها أعراضًا، وهذا مما توّغلوا فيه، ولا حاجة لأهل السنّة إلى مناقشتهم في ذلك، بل يقولون: إنّ هذه المخلوقات خلق الله عرضها وجوهرها، وهو الذي يجسّد هذا ويجمع هذا متى شاء وكيف شاء.

قال الشارح:

فَالنَّشْأَتَانِ نَوْعَانِ تَحْتَ جِنْسٍ، يَتَّفِقَانِ وَيَتَمَاثَلَانِ مِنْ وَجْه، وَيَفْتَرِقَانِ وَيَتَنَوَّعَانِ مِنْ وَجْه، وَالْمُعَادُ هُوَ الْأَوَّلُ بِعَيْنِه، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ لَوَازِمِ الْإِعَادَة وَلَوَازِمِ الْبَدَاءَة فَرْقٌ، فَعَجْبُ الذَّنَبِ هُوَ الذي يَبْقَى، وَأَمَّا سَائِرُه فَيَسْتَحِيلُ، فَيُعَادُ مِنَ الْمَادَّة التي اسْتَحَالَ إِلَيْهَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ رأى شَخْصًا وَهُوَ صَغِيرٌ، ثُمَّ رَآه وَقَدْ صَارَ شَيْخًا، عَلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ ذَاكَ، مَعَ أنه دَائِمًا فِي تَحَلُّلٍ وَاسْتِحَالَة. وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتُ، فَمَنْ رأى شَجَرَة وهي صَغِيرَة، ثُمَّ رَآهَا كَبِيرَة، قَالَ: هذه تِلْكَ. وَلَيْسَتْ صِفَةَ تِلْكَ النَّشْأَة الثَّانِيَة مُمَاثِلَة لِصِفَة هذه النَّشْأَة، حتى يُقَالَ: إِنَّ الصِّفَاتِ هي الْمُغَيَّرَة، لَاسِيَّمَا أَهْلُ الْجَنَّة إِذَا دَخَلُوهَا فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَهَا على صُورَة آدَمَ، طُولُه سِتُّونَ ذِرَاعًا، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] وَغَيْرِهِمَا، وَرُوِي: أَنَّ عَرْضَهُ سَبْعَةُ أَذْرُعٍ. وَتِلْكَ نَشْأَة بَاقِيَة غَيْرُ مُعَرَّضَة لِلْآفَاتِ، وهذه النَّشْأَة فَانِيَة مُعَرَّضَة لِلْآفَاتِ.

وقوله: (وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ)، قَالَ تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤]، ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٢٥]، وَالدِّينُ: الْجَزَاءُ، يُقَالُ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، أَي كَمَا تُجَازِي تُجَازَى، وَقَالَ تعالى: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٦]، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٠]، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٩، ٩٠]، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:٨٤]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَقَالَ ﷺ، فِيمَا يروي عَنْ رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ حَدِيثِ أبي ذَرٍّ الْغِفَارِي ﷺ: «يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَه»(١).

وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَة بَيَانٍ عَنْ قَرِيبٍ، إِنْ شَاءَ الله تعالى.

قال الشيخ:

ما سبق يتعلّق ببقيّة الردّ على الفلاسفة والمتكلّمين الذين يزعمون أنّ الإعادة هي الإعادة لتلك الجواهر المفردة، ويزعمون أنّ الإنسان مركّب من تلك الجراهر.

فيقول الشارح: إننا نرى أنّ الإنسان يتغيّر من حال إلى حال، فيتغيّر من مرضٍ إلى صحّة، ومن صحّة إلى مرض، ويتغيّر من صغر إلى كبر. والتغير الظاهر: بأن يشاهد أنّه رضيع طفل، ثم بعد ذلك يكون شابًا، ثم يكون كهلًا، ثم يكون شيخًا كبيرًا، ثم يكون هرمًا. تقلّبه من هذه الحال إلى هذه الحال؛ هل يكون

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

قد تغير، واكتسب روحًا غير روحه الأولى، أو اكتسب اسمًا غير اسمه الأول؟ لم يتغير، فإذا رُؤِيَ، قيل: هو هذا الطفل، الذي رأيته قبل خمسين سنة وهو رضيع، قد أصبح كهلًا كبيرًا، ما تغيّر منه شيء إلا أنه نما جسمه وكبر وترعرع.

وكذلك مثّل الشارح بالشجر؛ من غرس شجرة وهي عود، ثم جاءها بعد سنتين، وقد أصبحت شجرة كبيرة ذات عروق وساق وأغصان وأوراق وثمر، فيقول: هذه هي تلك الشجرة التي غرسها فلان قبل كذا وكذا، وهي عود دقيق. فعلى هذا يقال: كيف تركّبت من جواهر؟ ومن أين جاءت هذه الجواهر حتى اتصلت بها، مع أنّا نشاهدها فقط تنمو وتكبر بواسطة غذائها الذي تتغذّى به، وهو ماؤها الذي تشربه.

كذلك الحيوانات كلّها، فيشاهد مثلًا أنّ السخلة تولد وهي صغيرة، ثم بعد ذلك تنمو بسبب الغذاء الذي تتغذى به، وكذلك بقية الأنعام، كلّها تنمو بسبب الغذاء الذي تتغذّاه دون أن تأتي جواهر لتلتصق بها، وتزيدها كبرًا. فهذا دليل على بطلان قول هؤلاء.

وعلى الرغم من هذا فإن كلامهم قد انتشر وتمكّن من كثير من العقلاء، وصاروا يغالون في كتب الفلاسفة، ويرجعون إليها مع ما فيها من هذا التهافت والتناقض. وبذلك يعلم أن هؤلاء الفلاسفة الإلهيين الذين يُمدحون ويُثنى عليهم ويُعظّم شأنهم، ويتعجّب من أفكارهم، ومن ابتكاراتهم، أنّهم ليسوا على شيء، وأنّ كلامهم متهافت، لا أصل له.

أما الكلام على جزاء الأعمال، فقد مر بنا أنّ الله سبحانه يُجازي عباده على

أعمالهم، فكثيرًا ما يقول تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران:١٨٢]، ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤].

فيذكر الله تعالى أن الثواب الذي يحصل لعباده وأوليائه في الجنّة هو جزاء على أعمالهم. وكذلك في الأحاديث.

ففي القرآن يقول تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، ويقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]. يحاسبهم على حبّة الخردل، يعني: على مثقال هذه الحبّة.

وكذلك يذكر الله تعالى أنّه يجازيهم في أعمالهم في هذا الحديث القدسي: «**إِنَّمَا هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**»(١)، أي: جزاءها. مع أنّه سبحانه قد أخبر بأنّه يضاعف الحسنات أضعافًا كثيرة، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء:٤٠]. أخبر أنّه لا يظلم عباده، ولا يكتب عليهم مالم يفعلوا، ولا يجازيهم على السيئة بأكثر منها وإنّما بمثلها. وأما الحسنة فإنّه يضاعفها أضعافًا كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]. وقال النبيّ ﷺ: «**إِنَّ اللَّـهَ**

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1].

والحاصل: أنّ القرآن مشتمل على أنّ الإنسان يُجازى على عمله، وأنّ أعماله التي يعمل في الدنيا يلاقي جزاءها، ولا يضيع منها شيء، فهو: **أوّلًا**: قد كُتب عليه قبل أن يُخلق أنه يفعل كذا وكذا. **وثانيًا**: تكتبها الملائكة في صحفهم، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. **وثالثًا**: يثبت الله مما في صحف الملائكة ما فيه حساب وعليه ثواب أو عقاب، ويمحو غير ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩].

والإنسان إذا علم أنّه مجازىً على عمله، اهتمّ بهذا العمل، فيحمله على أن يخلص فيه حتى يثاب عليه، فإنّه إن لم يكن خالصًا بطل ثوابه، ثم يحرص على أن يستكثر من الأعمال الصالحة حتى يتضاعف له أجرها ويكثر، فإنّه كلّما كثرت الحسنات كثر الثواب عليها. فهذا هو جزاء الأعمال حيث أخبر الله بأن الإنسان يجازى على أعماله في الآخرة.

وقد عرفنا أنّ من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وهو الركن الخامس من أركان الإيمان، وسمّي باليوم الآخر؛ لأنه ليس بعده يوم،

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٥).

والدار الآخرة هي يوم القيامة. اليوم الأول هو الدنيا وتُعدّ كأنها يوم. ثمّ اليوم الآخر هو الذي يكون بعد البعث. فعندنا يومان: الدنيا يوم، والآخرة يوم. الدنيا سمّيت بذلك؛ لأنها دنيّة، أو لأنّها دانية، وهي اليوم الأول. والآخرة سمّيت بذلك؛ لأنها متأخّرة عن هذه الدنيا، أو لأنها آخر ما يمرّ به الإنسان، وليس بعدها يوم، بل هي مستمرّة دائمًا وأبدًا. وأوّل ما يكون في اليوم الآخر هو البعث، الذي هو: إعادة الناس وإحياؤهم بعد تفرّق أشلائهم، وبعد صيرورتهم ترابًا ورفاتًا، فإعادتهم هو أوّل ما يكون في هذا اليوم، ثم بعده الحشر، الذي هو سوقهم إلى الموقف. وقد أخبر الله تعالى بأنّهم يحشرون على هذه الأرض، وأنّهم يحشرون زرقًا ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ [طه: ١٠٢، ١٠٣] ، يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشرة أيام، ويقول أمثلهم طريقة: ما لبثتم إلا يومًا واحدًا. فالحشر هو سوقهم إلى الموقف.

والموقف هو موضع خصصه الله على الأرض، وقد أخبر الله بأنّ الأرض تبدّل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وأخبر بأنّها تمدّ مدًّا: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق:٣ ـ ٥]، وذكر بأنّه يزال ما فيها، أي تمدّ كما يمدّ الأديم، كذلك يزال ما عليها من بنيان وجبال، ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥]، وتتفتت. تصير أولًا كالرمل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [المزمل:١٤]؛ يعني: رملًا ينهال. ثم بعد ذلك تكون كالهباء الذي يسير: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ

ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، أي: كأنها السحاب الذي هو هباء وغيم. وبعد ذلك يزال ما عليها، فيقول تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧]، مستوية ليس فيها منخفض ولا مرتفع، تزال الجبال والأبنية والمرتفعات والكثب ونحو ذلك ويقوم الناس عليها أوّلهم وآخرهم، يجمعهم الله تعالى كلّهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. فأخبر بأنّ أوّليهم وآخريهم كلّهم مجتمعون في ذلك اليوم الذي هو يوم الجمع.

والعرض يكون على الله تعالى، ولكن ذلك بعد أن تطول المدّة في ذلك الموقف، وبعد أن يلحقهم التّعب والعناء، ويستشفعون بالأنبياء ونحوهم، ويشفع محمّد ﷺ لينزل الله تعالى لفصل القضاء، وبعد ذلك العرض الذي هو عرض الناس، يقول تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨]، أي: صفوفًا، صفًا بعد صفّ ليحاسبهم.

وأخبر تعالى بأنّه يحاسبهم، وكذلك أخبر النبيّ ﷺ أن الناس يحاسبهم الله ويناقشهم ويذكّرهم بما عملوا، فيقول ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ الله ليس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ**»[1]، وقد أخبر الله تعالى بأنه سريع الحساب، لا يشغله شأن عن شأن.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٥)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وكذلك من الأهوال التي تكون يوم القيامة نصب الميزان، وتطاير الصحف، فإنّ الناس يأتيهم الهول عندما تنصب الموازين، حتّى يعلم من يخفّ ميزانه ومن يثقل. وعندما تتطاير الصحف حتّى يعلم من يأخذ كتابه بيمينه، ومن يأخذ كتابه بشماله. فإذا ثقلت موازينه نودي: سعد فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا. وإذا أوتي كتابه بيمينه: عندئذ يفوز فوزًا عظيمًا، ويقرأ كتابه، ويعرضه على من يعرفه، ويقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩].

ونعرف أنّ ذلك كلّه مفصّل في القرآن بعبارات لا يعتريها الشكّ والرّيب. ولكن الفلاسفة الذين ينكرون هذه الأشياء حقيقة يتسلّطون على تأويلها وصرفها عن ظاهرها، حتّى تسلم لهم عقيدتهم، كما تسلّط إخوانهم من المعتزلة على نصوص الصفات فتأوّلوها، وفتحوا للناس باب التأويل.

وبكل حال؛ فهذه الأمور التي وردت في القرآن، لا يتمّ إيمان العبد إلا بالإيمان بها وتحقّقها وتيقّنها ومعرفة أنّها صحيحة ثابتة، ولا يعلم ذلك إلا بالاستعداد لها والتأهّب؛ لأنّ من آمن باليوم الآخر استعدّ لذلك اليوم، وقدّم العمل الصالح الذي يكون سببًا في نجاته وفوزه. وأما من يصدّق به بلسانه، ولا يستعدّ له فإنّ هذا يقول ما لا يفعل، ولا ينفعه قوله بلسانه ما دام أنّه لا يطبّق ما يقوله. كما يقول بعضهم في مثل هؤلاء المفرّطين: ألسنةٌ تصف، وقلوبٌ تعرف، وأعمال تخالف.

قال الطحاوي:

وَالعَرْضُ وَالحِسَابُ، وَقِرَاءَةُ الكِتَابِ، وَالثَّوَابُ وَالعِقَابُ.

قال الشارح:

قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٥ ـ ١٨] إلى آخر السورة.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٦ ـ ١٥].

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، إلى آخر السورة.

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ [غافر: ١٥]، الآية، إلى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر:١٧].

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨١].

وَرَوَى البُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي «صَحِيحِهِ»[1]، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أحدٌ يُحاسَبُ يَومَ القِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق:٧، ٨]. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ». يَعْنِي: أَنَّهُ لَو نَاقَشَ فِي حِسَابِهِ لِعَبِيدِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

عرفنا من إيراد الآيات السابقة أن القرآن مشتمل بإيضاح على ذكر الدار الآخرة وما يكون فيها، وأنّ أوّل ما يكون هو النفخ في الصور، وقد ذكر في القرآن في عدّة مواضع، فذكر الله تعالى نفختين أو ثلاث نفخات: نفخة سماها نفخة الفزع حيث ذكر بعدها الفزع في سورة النمل: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ ﴾ [النمل:٨٧].

---

(١) برقم (١٠٣).

وسمّيت في سورة الزمر بنفخة الصعق: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨].

يقول بعض العلماء: إنها نفختان؛ نفخة فزع ونفخة صعق. وقال بعضهم: بل نفخة واحدة، يفزعون في أوّلها، ثم يصعقون في آخرها. وقال بعضهم: إنّ الفزع صعْقٌ، أي موت، أوله فزع ثمّ موت.

أمّا النفخة الثانية فهي نفخة البعث. كما في قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]. وهي النفخة التي يبعثون بعدها. وقد ورد في الحديث: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»[1]؛ توقف الراوي لا يدري: أربعون يومًا، أو أربعون شهرًا، أو أربعون سنة. وجزم بعضهم بأنّها أربعون سنة، أي ما بين نفخة الصعق، ونفخة القيام لربِّ العالمين.

بعد ذلك السَّوق: فتسوقهم الملائكة إلى الموقف، ويسمّى أيضًا الحشر في قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]. وبعد ذلك العرض، في قوله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨]، أي: صفوفًا. وبعده القيام الطويل، ثم ما يكون بعده.

إذا تأمّلنا النصوص وجدنا ما يؤيّد هذه الأشياء في آياتٍ متتابعة متكرّرة؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣]، هي نفخة البعث أو

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٣٨).

نفخة الصعق. ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقة:١٤]، أي: جعلت الأرض والجبال شيئًا واحدًا، حتى تكون مستوية صالحة لأن يوقف عليها، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ [الحاقة:١٥]، أي: حصلت الواقعة التي هي يوم القيامة. الله تعالى سمّى يوم القيامة بهذه الأسماء: الواقعة، الحاقّة، القارعة، وسمّاه بيوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [القيامة:١]، وسمّاه بالطامّة والصّاخة: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات:٣٤]، ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ [عبس:٣٣].

هذه أسماء لهذا اليوم، الذي هو يوم القيامة، وكل اسم له معنى؛ فمعنى كونها الطامّة: أنّها تطمّ ما قبلها وتنسي ما قبلها، والطمّ في الأصل: التغطية، وطمّ البئر: إذا غطّاها. أو أنّها طامّة مذهلة، أو عامّة لكلّ الخلق. وأما تسميتها بالصاخّة: فإنه لثقلها على الناس، والصخُّ: هو الضربُ بقوّة، أو الثقل، ونحو ذلك.

وكلّ هذه الآيات تخوّف بما اشتملت عليه؛ وذلك أنّ هذا اليوم الذي هو يوم القيامة، الذي ذكر بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٨١]، ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة:٤٨]. هذا اليوم هو يوم الجزاء، وهو اليوم الذي يوقف فيه الناس ويقومون ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٦].

والآيات التي ذكرت فيه ووضّحت معناه متقاربة المعنى، ولو اختلفت الأسماء والألفاظ، فإنّ المعاني متقاربة؛ لأنّ الله تعالى يذكره في كلّ موقع بما يناسبه.

والقصد من تكرار ذكر يوم القيامة تحقّقه حتى لا يقال إنّه خيال، أو أنّه تقريبيّ وما أشبه ذلك، وحتى لا تتسلّط عليه التأويلات التي يسلكها النّفاة من الفلاسفة ونحوهم، فإنّهم يعجزون أن يصرفوا الآيات عن معناها إذا جُمِعَتْ.

ولذلك آمن أهل السنّة وآمن المسلمون بالبعث بعد الموت. وقالوا: ليس في العقول ما ينكره، والقدرة الإلهيّة عامّة له ولغيره، والعقلُ يقتضيه لأجل الجزاء على الأعمال، ولأجل الانتقام من الظالم، وأخذ الحق للمظلوم، ولأجل ثواب المطيع، وعقوبة العاصي. وذلك لأنّا نشاهد في الدنيا أنّ هناك ظلمة يموتون وهم مصرّون على الظلم، معهم أموالٌ اغتصبوها، ومنهم من قتل، ومنهم من انتهب مالًا سرقةً أو اختلاسًا أو غصبًا. ومنهم من انتهك عرضًا، ومع ذلك لا يؤخذ الحقّ منهم، ويموتون ويبقى الحقّ عندهم، والله تعالى أعدل من أن يذهب صاحب المظلمة دون أن ينتقم منه؛ فلا بدّ أن يكون هناك يوم آخر ينصف فيه الله المظلوم، وينتقم من الظالم بما يستحقّه، فيكون ذلك هو اليوم الآخر الذي هو يوم القيامة.

كذلك نشاهد من يجدّ في الأعمال الصالحة، ويتقرّب بالحسنات، فلا يأتيه جزاء في الدنيا إلا ما يجده من لذّة الطاعة ونحوه، فلا بدّ أنّ الله لا يضيع عمله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف: ٣٠]. فلا يضيع أجره، مادام أنّه لم يتمتّع بشيء من أجره في الدنيا، فأجره يوفّى إليه في الدار الآخرة. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

كما أنَّنا نشاهد الكفرة والفجرة الذين تمتّعوا من الدنيا بملذّات، وهم يظهرون الكفر والفسوق والسخرية بالرسل ويكذّبونهم، ويسخرون من الحقّ، ويفعلون المعاصي، ويتركون الطاعات، ومع ذلك يموت أحدهم وهو على إصراره لم ينله عقوبة في الدنيا، فلا بدّ أن يكون هناك دارٌ أخرى يعاملهم الله فيها بما يستحقونه، أو يعاملهم فيها بعدله، إذا لم يعفُ عن المحسن منهم. فهذه الأمور العقلية تدعو المؤمن أن يؤمن بالبعث بعد الموت، وأن يتحقّق وقوعه.

قال الشارح:

وفي الصَّحِيحِ عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا موسى آخِذٌ بِقَائِمَة الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِصَعْقَة يَوْم الطُّورِ؟»[1] وَهَذَا صَعْقٌ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَة، إِذَا جَاءَ الله لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِه، فَحِينَئِذٍ يَصْعَقُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ تَصْنَعُونَ بقوله في الحَدِيثِ: «إِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الْأَرْضُ، فَأَجِدُ موسى بَاطِشًا بِقَائِمَة الْعَرْشِ»[2].

قِيلَ: لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ قَدْ وَرَدَ هَكَذَا، ومنه نَشَأَ الْإِشْكَالُ. وَلَكِنَّه دَخَلَ فيه على الراوي حَدِيثٌ في حَدِيثٍ، فَرَكَّبَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ، فَجَاءَ هَذَانِ الحَدِيثَانِ هَكَذَا: أَحَدُهُمَا: «أَنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ»، كَمَا تَقَدَّمَ، والثاني: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَة»، فَدَخَلَ على الراوي هَذَا الحَدِيثُ في الْآخَرِ. وَمِمَّنْ نَبَّه على هَذَا أَبُو الحَجَّاجِ الْمِزِّي، وبعده الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الْقَيِّمِ، وَشَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ ابْنُ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ الله.

وَكَذَلِكَ اشْتَبَه على بَعْضِ الرُّوَاة، فَقَالَ: «فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى الله عَزَّ وَجَلَّ»؟ وَالمَحْفُوظُ الذي تَوَاطَأَتْ عليه الرِّوَايَاتُ الصَّحِيحَة هُوَ الْأَوَّلُ، وعليه المعنى الصَّحِيحُ، فَإِنَّ الصَّعْقَ يَوْمَ الْقِيَامَة لِتَجَلِّي الله لِعِبَادِه إِذَا جَاءَ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٣).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٣).

لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، فَمُوسَى - عليه السَّلَامُ - إِنْ كَانَ لَمْ يُصْعَقْ مَعَهُمْ، فَيَكُونُ قَدْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ يَوْمَ تَجَلَّى رَبُّه لِلْجَبَلِ فَجَعَلَه دَكًّا، فَجُعِلَتْ صَعْقَةَ هَذَا التَّجَلِّي عِوَضًا عَنْ صَعْقَةِ الْخَلَائِقِ لِتَجَلِّي رَبِّه يَوْمَ الْقِيَامَة. فَتَأَمَّلْ هَذَا المعنى الْعَظِيمَ وَلَا تُهْمِلْه.

وروى الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1]، والترمذي[2]، وَأَبُو بَكْرِ بْنِ أبي الدُّنْيَا، عَنِ الحَسَنِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا موسى الْأَشْعَرِي يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَة ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَعَرْضَتَانِ جِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَعَرْضَة تَطَايُرِ الصُّحُفِ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَه بِيَمِينِه، وَحُوسِبَ حِسَابًا يَسِيرًا، دَخَلَ الْجَنَّة، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَه بِشِمَالِه، دَخَلَ النَّارَ».

وَقَدْ روى ابْنُ أبي الدُّنْيَا عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: أنه أَنْشَدَ في ذَلِكَ شِعْرًا[3]:

وَطَارَتِ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي مُنَشَّرَة ... فِيهَا السَّرَائِرُ وَالْأَخْبَارُ تُطَّلَعُ
فَكَيْفَ سَهْوُكَ وَالْأَنْبَاءُ وَاقِعَة ... عَمَّا قَلِيلٍ وَلَا تَدْرِي بِمَا تَقَعُ
أَفِي الْجِنَانِ وَفَوْزٍ لَا انْقِطَاعَ لَه ... أَم الْجَحِيم فَلَا تُبْقِي وَلَا تَدَعُ
تَهْوِي بِسَاكِنِهَا طَوْرًا وَتَرْفَعُهُمْ ... إِذَا رَجَوْا مَخْرَجًا مِنْ غَمِّهَا قُمِعُوا

---

(١) في المسند (٤/ ٤١٤).

(٢) برقم (٢٤٢٥)، ولكنه من طريق الحسن عن أبي هريرة ﷺ، وقال عَقِبَه: «ولا يَصِحُّ هذا الْحَدِيثُ من قِبَلِ أَنَّ الْحَسَنَ لم يَسْمَعْ من أبي هُرَيْرَةَ، وقد رَوَاهُ بَعْضُهُمْ عن عَلِيِّ الرِّفَاعِيِّ عن الْحَسَنِ عن أبي مُوسَى عن النبي ﷺ، ولا يَصِحُّ هذا الْحَدِيثُ من قِبَلِ أَنَّ الْحَسَنَ لم يَسْمَعْ من أبي مُوسَى».

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٩٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٧٣).

طَالَ الْبُكَاءُ فَلَمْ يُرْحَمْ تَضَرُّعُهُمْ فِيهَا وَلَا رِقْيَةٌ تُغْنِي وَلَا جَزَعُ
لِيَنْفَعِ الْعِلْمُ قَبْلَ الْمَوْتِ عَالِمَه قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا

قال الشيخ:

تحقيق لما مرّ بنا من أمر الحشر والبعث بعد الموت، أخبر النبي ﷺ بأنه أوّل من تنشقّ عنه الأرض. فدلّ على أنّهم يجمع خلقهم ويكمّل وهم في جوف الأرض، إما في نفس القبور، وإما في بطن الأرض، ثم بعد ذلك تنشقّ الأرض عنهم، فتخرج الأرواح والأجساد على وجه الأرض، يقومون من قبورهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[يس:٥١]؛ الأجداث: القبور. ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، كأنّهم شعروا بأنّهم قبل بعثهم كانوا نيامًا، قد رقدوا فيقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

الأنبياء لهم مزيّة، ونبيّنا ﷺ أفضلهم، فهو أوّل من تنشقّ عنه الأرض، ثم بعد ذلك بقيّة الأنبياء، ولو كانت أرواحهم قد رُفعت في الملأ الأعلى، وأما أجسادهم فبقيت في الأرض، وبعد ذلك يبعثهم الله؛ لأنّه أخبر أن الأرض هي مردّ كل إنسان في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس:٢١]، وفي قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]. يعمُّ الأنبياء وغيرهم، وبعدما يجتمعون في ذلك المجمع، وفي ذلك المكان الذي يجتمع فيه أوّلهم وآخرهم،

لا يحصي عددهم إلا الله تعالى. ويطول فيه وقوفهم، أخبر في هذا الحديث بأنّهم يصعقون؛ وهذه صعقة جديدة. إمّا أنّهم يسمعون صوتًا مزعجًا عندما تتشقّقُ السّماء بالغمام لتنزّل الملائكة، ويكون من أثر تشقّقها أصوات مزعجة، يصعق الناس فيها يعني: يغشون. وقد تطول هذه الغشوة، يكون نبيّنا ﷺ أوّل من يفيق، ولكن يجد موسى ـ عليه السلام ـ أيضًا قد أفاق قبله، ويكون في ذلك مزيّة لموسى عليه السلام، يقول النبي ﷺ: «**فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**»[1]؛ وصعقة الطور: هي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]. فهذا صعق في الدنيا، يعني: كأنّه جوزي بهذا الصّعق.

وبكلّ حال: فإنّ هذا الصعق يكون في الموقف، وفي الموقف أيضًا أهوال عظيمة منها: العرض على الله تعالى، ومنها نصب الموازين، ومنها تطاير الصحف، ومنها نشر كتب الأعمال التي هي دواوين الأعمال، كلٌّ ينشر له ديوان فيه أعماله، ويقول الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]. ويقرأه من يقرأ ومن لا يقرأ. فيقولون كما أخبر عنهم الله أنهم يقولون: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٣).

وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ [الكهف:٤٩].

فهذه بلا شكّ حقائقُ يقينيّة دلّ عليها القرآنُ، ودلّ على أنّه يُحضر للإنسان كلّ شيء عمله من خير أو شر، فيسرّه أن يجد الحسنات مضاعفة موفّرة، وأمّا إذا وجد السيّئات، فيستاء لذلك ويحزن. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران:٣٠]، فتجد النفس ما عملت من خير محضرًا، وما عملت من سوء تودّ لو أنه يبعد عنها؛ لأنّ السيّئات تسوء صاحبها، ويخاف من الجزاء عليها. وهذه كلّها حقائق يجب الإيمان بها، والاستعداد والتأهّب لها، ولما بعدها.

قال الشارح:

وَقَولُهُ: (والصِّرَاط)؛ أَي: وَنُؤمِنُ بِالصِّرَاطِ، وَهُوَ جِسْرٌ عَلَى جَهَنَّم، إِذَا انْتَهَىٰ النَّاسُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ مَكَانَ المَوْقِفِ إِلَى الظُّلْمَةِ التِي دُونَ الصِّرَاطِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِي الله عَنْهَا ـ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ: أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَات؟ فَقَالَ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْر»[1]. وفي هَذَا المَوْضِع يَفْتَرِقُ المُنَافِقُون عَنِ المُؤْمِنِينَ، وَيَتَخَلَّفُونَ عَنْهُمْ، وَيَسْبِقُهُمُ المُؤْمِنُونَ، وَيُحَالُ بَينَهُم بِسُورٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الوُصُولِ إِلَيْهِمْ.

وَرَوَى البَيْهَقِيُّ[2] بِسَنَدِهِ عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيامَةِ»، إِلَى أَنْ قَالَ: «فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمالِهِم، قَالَ: فَمِنْهُم مَنْ يُعْطَىٰ نُوْرَهُ مِثْلَ الجَبَلِ بَيْنَ يَدَيهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يُعْطَىٰ نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعطَىٰ دُوْنَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ، حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُ ذَلِكَ مَنْ يُعْطَىٰ نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً، إِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ، وَإِذَا طُفِيءَ قَامَ، قَالَ: فَيَمُرُّ وَيَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ، دَحْض مَزَلَّة، فَيُقَالُ: امْضُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الكَوكَبِ، ومِنْهُم مَنْ يَمُرُّ

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (٣١٥).

(٢) أخرجه مختصرًا بغير سنده في شعب الإيمان (١/ ٣٣٩)، وأشار إلى سنده في كتابه «البعث والنشور» (ص٢٥٢). وأخرجه بطوله الطبراني في الكبير (٩٧٦٣)، والحاكم (٢/ ٣٧٦)، والدارقطني في رؤية الله (ص١٣٩). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤٠): «رواه الطبراني من طرق، ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني، وهو ثقة».

كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُم مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّحْلِ، وَيَرْمُلُ رَمَلًا، فَيَمُرُّوْنَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِم، حَتَّى يَمُرَّ الذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، تَجُرُّ يَدٌ، وَتَعْلَقُ يَدٌ، وتَجُرُّ رِجْلٌ، وَتَعْلَقُ رِجْلٌ، وَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ، قَالَ: فَيَخْلُصُونَ، فَإِذَا خَلَصُوا قَالُوا: الحَمْدُ للَّهِ الذِي نَجَّانَا مِنْكِ، بَعْدَ أَنْ أَرَانَاكِ، لَقَدْ أَعْطَانَا اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا» الحَدِيث.

قال الشيخ:

هذا من الأهوال التي ذكرت في يوم القيامة، فذكر الله تعالى أنّ الأرض تبدّل. وقد سئل النبيّ ﷺ: أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَات؟ فَقَالَ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْر». وقال في رواية أخرى: «عَلَى الصِّرَاط»[1].

وقد تكاثرت الأدلّة بأنّهم يعبرون على الصراط. والصراط: الطريق الذي يسار عليه، وفي الدنيا صراط، قال تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وهو صراط معنويّ.

وفي الآخرة صراط حسّيٌّ يعبر الناس عليه، أي يسيرون عليه. وهذا الصراط منصوب على متن جهنم، يمرّ الناس عليه على قدر أعمالهم. وقد أخبر الله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بأنّهم يتميّزون؛ فميّز الله المؤمنين من المنافقين، في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٢، ١٣]؛ إذا أعطوا نورًا وفرّقت عليهم الأنوار انطفأ نورُ المنافقين، وسار المؤمنون بنورِهم، فإذا ساروا تأخّر المنافقون في تلك الظلمة، فعند ذلك يحجزون ويمنعون، ويقولون انتظرونا، نأخذ قبسًا من نوركم نستضيء به، فيقال: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾، ارجعوا إلى المكان الذي قُسِّمت فيه الأنوار، فيرجعون، فإذا رجعوا ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾، حاجز منيع ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾، لا يُدخَل إليه إلا من خلال ذلك الباب، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديث: ١٣]، فهذا الوقت الذي يتميّز فيه المنافقون من المؤمنين.

وقد ورد في الحديث أيضًا: «إذا كان يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ ما كانت تَعْبُدُ، فلا يَبْقَى أَحَدٌ كان يَعْبُدُ غير اللَّـهِ سُبْحَانَهُ من الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إلا يَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يَبْقَ إلا من كان يَعْبُدُ اللَّـهَ، من بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لهم: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ عُزَيْرَ بن اللَّـهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ ما اتَّخَذَ اللَّـهُ من صَاحِبَةٍ ولا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ ألا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لهم: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ بن اللَّـهِ، فَيُقَالُ

هـم: كَـذَبْتُمْ، مـا اتَّخَـذَ اللَّـهُ مـن صَـاحِبَةٍ ولا وَلَـدٍ، فَيُقَـالُ لهـم: مَـاذَا تَبْغُـونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، قـال: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ ألا تَـرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يَبْقَ إلا من كان يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى من بَرٍّ وَفَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ في أَدْنَى صُورَةٍ من التي رَأَوْهُ فيها، قال: فما تَنْتَظِرُونَ، تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ ما كانـت تَعْبُدُ، قالوا: يا رَبَّنَا فَارَقْنَا الناس في الدُّنْيَا أَفْقَرَ ما كنا إِلَيْهِمْ ولم نُصَاحِبْهُمْ، فيقـول: أنـا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، لَا نُشْرِكُ بِاللَّـهِ شيئًا ـ مَرَّتَيْنِ أو ثَلَاثًا ـ حتـى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فيقول: هل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَـهُ بهـا؟ فَيَقُولُـونَ: نعم، فَيُكْشَفُ عن سَاقٍ، فلا يَبْقَى من كان يَسْجُدُ لِلَّـهِ مـن تِلْقَـاءِ نَفْسِهِ إلا أَذِنَ اللَّهُ له بِالسُّجُودِ، ولا يَبْقَى من كـان يَـسْجُدُ اتِّقَـاءً وَرِيَـاءً إلا جَعَـلَ اللَّـهُ ظَهْـرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَـلَى قَفَـاه»[1]، وذلـك قولـه تعـالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣]؛ وقـد كـانوا يُـدعون في الدنيا إلى الصلاة وهم سالمون فلا يسجدون، فكذلك إذا دعوا إلى السجود يوم القيامـة وأرادوا أن يـسجدوا لم يحـصل لهـم، ولم يـستطيعوا الـسجود، وحينئـذٍ تُقـسّم علـيهم الأنـوار، ويتميّـز المؤمنـون عـن المنـافقين، وينـادون المـؤمنين:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾، فيقولـــون: ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ [الحديد:١٤].

وفي الأحاديث التي وردت عن النبيّ ﷺ الإخبار عن الجسر الذي يُنصبُ على متن جهنّم يوم القيامة، ويعبرونه، ويقول العلماء: إنّ هذا هو المرور أو الورود.

أخبر الله تعالى بأنّ كلًا يرِد على النار. قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧١، ٧٢]. فمرورهم على هذا الصراط، هو ورودهم المذكور في هذه الآية، فأمّا المؤمنون المتّقون فإنّ الله تعالى ينجّيهم: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾، لا تضرّهم، بل كلّما مرّوا على لهبٍ منها طُفِئ ذلك اللهب، كما جاء في الحديث: «**وَتَقُولُ النَّارُ لِلمُؤْمِنِ: جُزْ يَا مُؤْمِن، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي**»[1]، فإذا عبروا يتساءلون: ألم يعدنا ربّنا أنّا نردُ النّار، فيقال: إنّكم قد وردتُموها وهي هامدةٌ خامدةٌ. هذا هو مرورهم على هذا الصراط.

وقد ورد أيضا في وصف هذا الصراط بأنّه: دحضٌ مزلّة، تزلّ عنه الأقدام إلا من ثبّته الله، وأنّه أدقّ من الشعرة، وأحدّ من السيف الأبتر، وأنّ الناس يمرّون عليه، على قدر أعمالهم، أو على قدر النور الذي أعطاهم الله، فمنهم من يكون

---

(١) سيأتي تخريجه.

نوره الذي أعطيه مثل الجبل، ولكن لا يضيء إلاّ له، ومنهم من يكون نوره أقلّ من ذلك، وبعضهم إنّما يعطى نورًا على رأسِ إبهامِ قدَمِهِ يُضيءُ مرّةً ويطفأ مرّة،إذا أضاء مدّ رجله، وإذا طفئ وقف.

ويصف النبيّ ﷺ مرورهم على الصراط لَـمّا سُئل: وما الْجِسْرُ؟ قال: «**دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فيه خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فيها شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لها: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»[1]. هذه الكلاليب التي مثل شوك السعدان، تخطف العصاةَ إذا مرّوا على هذا الصراط من أهل كبائر الذنوب ونحوهم، فإذا اختطفته وسقط وتكردس في النار، عُذِّب فيها على قدرِ عمله، أمّا الذين يعبرون على هذا الصراط إلى أن يتجاوزوه، فأولئك هم الذين يحمدون العاقبة، حتى ولو كان أحدهم يسير زحفًا، ولكن في نهايته أنّه سلم ونجا فيحمد العاقبة ويقول إذا التفت إلى النار: الحمد لله الذي أنجاني منك، لقد أعطاني ما لم يعطِهِ أحدًا من العالمين. فاغتبط حيث نجا من عذاب النار.

يتذكّر المؤمن مثل هذه الأهوال فيستعدّ لها، ويذكّر بها إخوانه الغافلين، ليستعدوا لها، وليعلموا أنّها حقّ ويقين، وأنّه ليس بينك وبين هذا إلا خروج هذه الروح من هذا الجسد، ثم بعد ذلك يلاقي أوّل الحساب.

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما أخبر الله مما يكون في يوم القيامة، فقد

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

أخبر الله وأخبر رسوله ﷺ بطول الموقف، فنؤمن بذلك اليوم الذي يقوم فيه الناس لربّ العالمين. أخبر النبي ﷺ بعرض الناس على ربّهم، وأنّهم يحشرون حفاة عراة غُرْلًا[1]، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، أي: كما خلقهم أوّل مرة. وأخبر تعالى بالحشر كما في قوله - جل وعلا -: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [طه:٨٥، ٨٦]؛ والحشر: هو الجمع، حشر الناس في يوم القيامة، وأخبر الله تعالى بأنّهم يأخذون صحفهم وكتبهم بأيمانهم أو بشمائلهم، ومن وراء ظهورهم، وأخبر تعالى بالحساب: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٧]، ويقول ﷺ: «مَنْ نُوْقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»[2].

وأخبر ﷺ بالحوض المورود يوم القيامة، ومن يرده ومن يذاد عنه، وأخبر بالصراط الذي ينصب على متن جهنّم، ليرده الناس، أو يسيرون من فوقه، على قدر أعمالهم وإيمانهم سيرًا سريعًا أو بطيئًا. وكذلك أخبر تعالى بالميزان: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢، ١٠٣].

أخبر الله تعالى وأخبر رسوله ﷺ بجملة هذه التفاصيل، ومن جملتها: كون الربّ - سبحانه وتعالى - يبرز لعباده، ويسجد المؤمنون، ولا يستطيع المنافقون

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣، ٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

السجود. وأخبر تعالى بأنّ نور المؤمنين يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وبأنّ نور المنافقين ينطفىء إذا بدؤوا بالسير. وهي تفاصيلُ كثيرة، والإيمان باليوم الآخر يلزمه أن يؤمن المسلم بكلّ هذه التفاصيل، ما فصّل منها وما أجمل، من آمن بهذا اليوم آمن بكلّ ما فيه. والنهاية كما قال تعالى: ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى:٧].

وأخبرَ الله تعالى ورسولُه ﷺ بالأعمال التي تدخل الجنّة، والأعمال التي تدخل النار، وأخبر ﷺ بمن يُخرَج من النار بشفاعة الشافعين، أو برحمة الله تعالى، ومن لا يخرج منها، بل يخلّد فيها.

فكلّ هذه من التفاصيل التي وردت عن اليوم الآخر الذي هو يوم القيامة، وقد عرفنا أنّ الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان، وأنّ المؤمنين يصدّقون به، وأنّ من يصدّق به لا يكون تصديقه مجرّد قوله: آمنت بذلك وصدّقت به، بل يكون من آثار تصديقه العمل الصالح الذي يستعدّ به لذلك، فيستعدّ به ليكون نوره كالشمس، ويستعدّ بالعمل الصالح الذي يرجح به الميزان، ويستعدّ بالعمل الصالح الذي يسير به على الصراط كالبرق، والعمل الصالح الذي يجعله يعطى كتابه بيمينه، ويقول: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة:١٩]، وبقية الأمور التي تكون في هذا اليوم لا بدّ من عمل صالح ينجو به من طريقة أهل الجحيم، ويفوز به بطريقة أهل النعيم.

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالْوُرُودِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم:٧١]. مَا هُوَ؟ وَالأَظْهَرُ وَالأَقْوَىٰ أَنَّهُ الْمُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧٢]. وَفِي «الصَّحِيحِ»[1] أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»، قَالَتْ حَفْصَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، فَقَالَ: «أَلَمْ تَسْمَعِيهِ قَالَ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾». أَشَارَ ﷺ إِلَى أَنَّ وُرُودَ النَّارِ لَا يَسْتَلْزِمُ دُخُولَهَا، وَأَنَّ النَّجَاةَ مِنَ الشَّرِّ لَا يَسْتَلْزِمُ حُصُولَهُ، بَلْ يَسْتَلْزِمُ انْعِقَادُ سَبَبُهُ، فَمَنْ طَلَبَهُ عَدُوُّه لِيُهْلِكُوهُ وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْهُ، يُقَالُ: نَجَّاهُ اللَّهُ مِنهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ [هود: ٥٨]، ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ [هود: ٩٤]. وَلَمْ يَكُنِ العَذَابُ أَصَابَهُمْ، وَلَكِن أَصَابَ غَيْرَهُم، وَلَوْلَا مَا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاةِ، لَأَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ أُولَئِكَ.

وَكَذَلِكَ حَالُ الوَارِدِينَ النَّارَ، يَمُرُّونَ مِنْ فَوْقِهَا عَلَى الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا، ويَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا، فَقَدْ بَيَّنَ ﷺ فِي حَدِيثِ جَابِرِ الْمَذْكُورِ: أَنَّ الوُرُودَ هُوَ الْمُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر رضي الله عنها.

وَرَوَى الحَافِظُ أَبُو نَصْر الوَائِلِي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ ﷺ: «عَلِّم النَّاسَ سُنَّتِي وَإِنْ كَرِهُوا ذَلِكَ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ لَا تُوقَفَ عَلَى الصِّرَاطِ طَرْفَةَ عَينٍ حَتَّى تَدْخُلَ الجَنَّةَ، فَلَا تُحْدِثَنَّ فِي دِينِ اللَّهِ حَدَثًا بِرَأْيِكَ». أَوْرَدَهُ القُرْطُبِي[1].

وَرَوَى أَبُو بَكْر أَحْمَدُ بْن سَلْمَانَ النَّجَّاد، عَنْ يَعْلَى بْنِ مُنْيَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَقولُ النَّارُ لِلْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيامَةِ: جُزْ يَا مُؤْمِنُ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي»[2].

قال الشيخ:

قال تعالى لَـمَّا ذكر النار: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم:٧١]، ظاهره أنّ كلّ الناس واردون للنار، فما هذا الورود؟ وقد قال ﷺ: «لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ فَيَلِجُ النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ»[3]، والمراد: الورود المذكور في هذه الآية، كأن الله أقسم أنّكم لا بدّ أن تردوها.

والورود في الأصل: الإتيان إلى الشيء، ومنه تسمية الإبل التي تأتي إلى الماء ورودًا، يُقال: وردت الإبل أو الدوابّ المياه: جاءت إليه.

---

(١) في كتاب التذكرة (ص٣٣٦، ٣٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٢٩)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٣٩٤)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٩/ ٣٣٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠): «رواه الطبراني وفيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف». وانظر: لسان الميزان (٦/ ٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢) عن أبي هريرة ﷺ.

وأخبر تعالى ببعض من يردها كآل فرعون في قوله تعالى عن فرعون: ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [هود:٩٨]. فظاهر هذا أنّه أدخلهم فيها، فوردوا إليها وسقطوا فيها، أمّا في يوم القيامة: «**يُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لهم: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ عُزَيْرَ بن اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ ما اتَّخَذَ اللَّهُ من صَاحِبَةٍ ولا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ ألا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لهم: ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ بن اللَّهِ، فَيُقَالُ لهم: كَذَبْتُمْ، ما اتَّخَذَ اللَّهُ من صَاحِبَةٍ ولا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لهم: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، قال: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ ألا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ**»[1].

فالورود في هذه الآيات وفي هذه الأحاديث هو الوصول إليها، فكيف يكون ورود الأنبياء والأتقياء والصالحين والصحابة الذين لا بدّ أن يردوها؟ يخاطبنا الله بقوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم:٧١]، الحتم: الأمر الذي لابدّ منه، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧٢]، أخبر بأنّه يُنجّي أهل التقوى، ويُبْقي أهلَها الظالمين جاثين فيها.

الأشهر أنّ هذا الورود هو المرور على الصراط. وقد تقدّم أنّ الصراط جسر

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٥٦).

مزلّة، منصوب على متن جهنّم، أحدّ من السيف، وأدقّ من الشعرة، يمرّ الناس عليه بأعمالهم؛ فإذا مرّ المؤمن فإنّه بنوره وإيمانه لا يُحسّ بحرارة، ولا يحسّ بلهب، ولذلك تقول النار: «**جُزْ يَا مُؤْمِنُ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي**»[1]. النار لها لهب، وهذا اللهيب ينطفي من نور المؤمن، ولا يحسّ بأنّ تحته نارًا، ثم يمرّ على هذا الصراط كالبرق؛ والبرق أسرع من طرفة العين. ويمرّ بعضهم كالريح، ومنهم من يمرّ كأجاود الخيل، ومنهم من يمرّ كأجاود الرّكاب، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا. فهذا سيرهم على قدرِ أعمالِهم.

فإذًا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، أي: لا بدّ أن تمرّوا عليها مرورًا على الصراط، وإن لم يحسّ بها المؤمنون. ففي بعض الآثار أنّ المؤمنين بعدما يدخلون الجنّة يقولون: أليس قد أخبرنا الله أنّا نرد النار، أين النار؟ ما شعرنا بها؟ فيقال لهم: مررتم عليها وهي خامدة. يعني: بمرور المؤمنين تخمد فلا يحسّون بلهب، ولا يحسّون بحرارة أبدًا، وأمّا المنافقون والعصاة؛ فيخطفون وهم على الصراط. فقد ورد في الحديث أنّ على جنبات الصراط كلاليب، والكلُّوب: حديدة محنيّة محدّبة، وهي مثل شوك السعدان، أي: كلاليبها كثيرة، ولكن لا يقدر قدرها إلّا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فتخطف من أمرت بخطفه؛ فتخطف اليد، وتخطف الرجل، وتخطف بعد منتصف الطريق، وتخطف بعد ثلثه، وتخطف عند آخره. فإذا جاوزها الإنسانُ ولو كان مخدوشًا، وأصابه اللهيب، ولو

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٥٧).

بعد مئة سنة، فإنه عندما يجوز الصراط يلتفت نحو جهنم ويقول: الحمد للهّ الذي نجّاني منكِ، لقد أعطاني ما لم يعطِ أحدًا من خلقه؛ لأنّه رأى أنّه نجا مِنها ومن عذابها المستمرّ، ورأى أنّ ذلك سعادةٌ، وأيُّ سعادة ولو أنّ غيره قد ظفر بالنجاة قبله.

ففي الحديث أنّ حفصة ـ رضي الله عنها ـ استشكلت قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾، ولكنّ النبيّ ﷺ بيّن لها أنّ الورود يكون للجميع، ولكن ينجّي الله سبحانه الذين اتّقوا. كيف ينجّيهم؟ هل يدخلونها ثم يخرجون منها؟ لا يلزم ذلك، ولكن كل من تجاوزها يقال بأنّه نجا منها، ويقال: لقد أنجاك الله من النار، وسلّمك منها، وأنقذك من دخولها. فكلّ من سلم من شرّ، يقال: هذا قد نجا، ولا يلزم أنّه دخل فيها ثمّ أخرج.

فالنجاة تُستعمل فيمن سَلِمَ من العذاب الذي عذِّب به غيره، ولا يلزم أنّ العذاب قد أصابه. فقد قال الله عن لوط ـ عليه السلام ـ وأهل بيته: ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ [العنكبوت:٣٢]، أي: لنخرجنه حتّى يسلم من العذاب، فلا يحسّ بالعذاب ولا يدخل به. هذه هي النجاة. وأنت دائمًا تدعو وتقول: اللهمّ أنْجِنا من النار. وكذلك حكى الله عن الذين آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ أنهم قالوا: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس:٨٥، ٨٦]، نجّنا: سلّمنا وأنقذنا، فكلّ من سلم من العذاب فهو ناجٍ.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَالمِيزَان)، أَيْ: وَنُؤْمِنُ بِالمِيزَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

قَالَ القُرْطُبِي: قَالَ العُلَمَاءُ: إِذَا انْقَضَى الحِسَابُ، كَانَ بَعْدَهُ وَزْنُ الأَعْمَالِ؛ لأَنَّ الوَزْنَ لِلجَزَاءِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ المُحَاسَبَةِ، فَإِنَّ المُحَاسَبَةَ لِتَقْرِيرِ الأَعْمَالِ، وَالوَزْنُ لإِظْهَارِ مَقَادِيرِهَا؛ لِيَكُونَ الجَزَاءُ بِحَسَبِهَا، قَالَ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ المَوْزُونَاتُ، فَجُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَنَوّعِ الأَعْمَالِ المَوْزُونَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ: أَنَّ مِيزَانَ الأَعْمَالِ لَهُ كِفَّتَانِ حِسِّيَّتَانِ مُشَاهَدَتَانِ، رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ[1]، مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِي، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَاللَّهِ ابْن عَمْرو رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يومَ القِيامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ قَالَ:

(١) في المسند (٢/ ٢١٣).

لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[١]، وَابْنُ مَاجَه[٢]، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا، مِنْ حَدِيثِ الليثِ، زَادَ التِّرْمِذِيُّ: «وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ». وَفِي سِيَاقٍ آخَرَ: «تُوضَعُ المَوَازِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ»، الحديث[٣].

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ، وَهِيَ أَنَّ العَامِلَ يُوزَنُ مَعَ عَمَلِهِ وَيَشْهَدُ لَهُ مَا رَوَى البُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَقَالَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»[٤].

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ[٥]، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ،

---

(١) برقم (٢٦٣٩)

(٢) برقم (٤٣٠٠).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٥) في المسند (١/ ٤٢٠، ٤٢١).

وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ القَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ»؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ».

قال الشيخ:

نؤمن بالميزان الذي أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف:٨، ٩]. وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢، ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦ـ ٩]، وكذلك في كثير من الآيات.

كما وردت أحاديث كثيرة ذكر فيها النبي ﷺ الميزان، مثل قوله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ على اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمَن: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيم، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»(١). وكذلك في الحديث الصحيح في «صحيح مسلم»(٢):

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦) و (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) برقم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

«الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»، أي: كلمة (الحمد لله) تملأ الميزان، مما يدلّ على أنّ الكلمات أيضًا توزنُ. وغير ذلك من الأدلّة.

وقد أنكرت المعتزلة الميزان في الآخرة، وقالوا: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقّال. والله تعالى ليس بحاجة إلى أن ينصب الميزان، وفسّروا الميزان في هذه الآيات بالعدل؛ ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ﴾، يعني: العدل، ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾، يعني: نجح عندما يعدل بين الناس.

ولا شكّ أنّ هذا إنكار لخبر الله، ولخبر رسوله ﷺ، فالله تعالى ينصب الموازين ويظهرها؛ حتى لا يكون هناك ظلم، ولذلك أخبر تعالى عن هذه الموازين بأنّها يوزن فيها القليل والكثير، ففي هذه الآية في سورة الأنبياء يقول ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧]، بعد أن قال: ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾، فالإنسان لا يُظلم بمثقال حبة من خردل. وكذلك يقول تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]. المثقال: بمعنى الوزن، أي: إنّ الله تعالى يحضر الأعمال؛ صغيرها وكبيرها، حسنها وسيّئها، وتوزن حتّى مثاقيل الذّر. وهذه الموازين موازين حقيقيّة، وردت بالجمع، فهو لم يقل ميزانه، فدلّ على أنّ هناك عدد، يوزن لهذا ولذاك.

ثم اختلفوا في الموزون ما هو؟ على ثلاثة أقوال:

الأول: أنّ الذي يوزن الأعمال، ولو كانت أعراضًا، يقلبها الله تعالى أجسامًا،

ثمّ توزن؛ لأنّ الأعراض ليس لها جرم، فكلمة الحمد لله ليس لها جرم تمسك به. وقراءتك وأذكارك وأدعيتك يقلبها الله أجسامًا مثل الخشب والحجر، فهي لها جسم ولها وزن. وكذلك يقلب الله الكلام، فيصبح جسمًا وجرمًا ووزنًا؛ ولذا يقول ﷺ: «**الحَمْدُ للَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ**». ويقول: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ على اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلى الرَّحْمَن: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ**»؛ يدلّ على أن كلمة سبحان الله وبحمده، تصبح جرمًا وتوزن. ولا يخرج عن قدرة الله شيء، فهو قادر أن يقلب الأعراض أجسامًا.

الثاني: أنّ الذي يوزن هو الصحف، وتثقل الصحف وتخفّ بحسب ما كتب فيها، ودلّ على ذلك الحديث الذي مرّ بنا[1]: عن الرجل الذي كُتبت عليه الملائكة سيّئات كثيرة، حتى بلغت تسعة وتسعين سجلًا، والسجلّ: هو الصحيفة التي تكتب فيها القضايا. هذه السجلاّت تطوى طويًا، ثمّ إذا نشرت كانت مدّ البصر، نهايتها لا يدركها البصر الحديد. فهذه السجلات مليئة بالسيّئات من كلام أو فعل أو غير ذلك، لما وقف على هذه السجلاّت يسأله الله تعالى: هل تنكر شيئًا من هذا؟ لا يستطيع الإنكار. ويسأله: هل ظلمك الكرام الكاتبون؟ فلا يستطيع أن ينكر. ويسأله: هل لك عذر؟ فما له عذر. هل لك حسنة تقابل هذه السيّئات وتمحوها، فإنّ الحسنات يذهبن السيّئات؟ فينبهر وينبهت، ويقول: لا ليس لي حسنات، كأنّه أيس من النجاة، عندما وجد هذه السجلاّت المليئة بالسيّئات

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٦٦).

ولا يستطيع أن ينكرها، ولكنّ الله تعالى يقول: بلى لك عندنا حسنة واحدة، فتخرج له هذه البطاقة: وهي ورقة صغيرة مكتوب فيها: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله. ولكن: قالها عن يقين، وتصديق وعقيدة، وختمت بها أيامه وأعماله، وخرج من الدنيا وهو على هذه الحسنة، التي أثّرت فيه وفي قلبه. ولكنّه عندما يرى البطاقة يقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلاّت؟ فيقول الله تعالى: إنّك لا تظلم. فتجعل السجلاّت في كفّة، والبطاقة في كفّة، فعند ذلك تخف السجلاّت وتثقلُ البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء. فكانت سببًا في نجاته.

معلوم أنّ كثيرًا من الذين يقولونها يعذّبون؛ لأنّهم لم يقولوها عن يقين، ولم تؤثّر في عقيدتهم، ولم تصدر عن قلب مصدّق بها؛ ولذلك تخفّ موازينهم. أما هذا، فقد قالها عن علم ويقين وإخلاص وتقبّل فأثّرت في قلبه، فوقعت موقعًا، فثقلت موازينه. وهو ممّن يصدق عليه أنّه ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية.

الثالث: أنّ العامل نفسه يوزن، فيثقل إن كان قلبه ممتلئًا إيمانًا، ويخفّ إن كان قليل الإيمان. ونستدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]. وإن كانت محتملة: لا نقيم لهم قدرًا. ولكن ظاهرها أنّهم يوزنون، ولا يكون لهم وزن ظاهر. ويؤيّد ذلك هذا الحديث: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**»[1]. فإذا جُعل في الميزان كان أخف من جناح الناموسة، فدل على أنّ العامل نفسه يوزن، وأنّه يثقل إذا كان

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٦٧).

تقيًّا. كما مرّ بنا من حديث ابن مسعود: فقد صعد مرّة على شجرة الأراك يقطع منها سواكًا، ولّما صعد ورآه بعض الصحابة عَجبوا من دقّة ساقيه، فجعلوا يضحكون. فقال لهم النبيّ: «لَـهُما أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُد»[1] فالعامل نفسه يوزن، فيثقل إن كان من أهل السعادة، ويخفّ إذا كان من أهل الشقاوة.

وقد قال الشارح: إنّ الوزن بعد الحساب، وذلك بأن يقال: حاسب نفسك، هذه صحائفك، هذه حسنة وهذه سيّئة، وبعدما يحاسب، ويقرّ بها له وما عليه، توزن هذه الأعمال حتّى يعرف مقدارها، وحتّى يحقّق في أمرها. فإذا وزنت عرف من يستحقّ أن يكون سعيدًا، وهو الذي حسناته ثقيلة، ومن بخلاف ذلك؛ لأنّ الحساب إنّما هو لتمييز الحسنات من السيّئات.

ولكن الميزان يميّز الحسنات؛ فقد تكون كثيرة وخفيفة، وقد تكون قليلة وثقيلة في الوقت نفسه. فقد يكون هناك إنسان له أذكار وأوراد وقراءات، ولكنها خفيفة. وآخر أذكاره قليلة ولكنها ثقيلة، بسبب صدورها عن الإخلاص والإيمان الراسخ المتمكّن في القلب.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٢٦٨).

قال الشارح:

وَقَدْ وَرَدَتِ الأَحَادِيثُ أَيْضًا بِوَزْنِ الأَعْمَالِ أَنْفُسِهَا، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورَ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالحَمْدُ للَّهِ تَمْلأُ المِيزَانِ»[1] الحديث.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَهُوَ خَاتِمَةُ كِتَابِ البُخَارِي، قَوْلُهُ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ»[2].

وَرَوَى الحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ البَيْهَقِيُّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كِفَّتَي المِيزَانِ، وَيُوكَّلُ بِهِ مَلَكٌ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ، نَادَى المَلَكُ بِصَوتٍ يُسْمِعُ الخَلَائِقَ: سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا، وَإِنْ خَفَّ مِيزَانُهُ، نَادَى المَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الخَلَائِقَ: شَقِيَ فُلَانٌ شَقَاوَةً لَا يَسْعَدُ بَعْدَهَا أَبَدًا»[3].

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧٤) وقال: «تفرد به داود بن المحبر»، والبزار -كما تفسير ابن كثير ٥/ ٤٩٧، وقال ابن كثير: «إسناده ضعيف، فإن داود بن المحبر متروك». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٠): «رواه البزار، وفيه صالح المري، وهو مجمع على ضعفه». كما ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤٢٥) بصيغة التضعيف، ونسبه إلى البزار والبيهقي.

فَلَا يُلتفَتُ إِلَى مُلْحِدٍ مُعَانِدٍ يَقُولُ: الأَعْمَالُ أَعْرَاضٌ لَا تَقْبَلُ الوَزْنَ، وَإِنَّمَا يَقْبَلُ الوَزْنَ الأَجْسَامُ!! فَإِنَّ اللَّهَ يَقْلِبُ الأَعْرَاضَ أَجْسَامًا، كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَمَا رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ[١]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَبْشًا أَغْبَرَ فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَرَوْنَ أَنْ قَدْ جَاءَ الفَرَجُ، فَيُذْبَحُ، وَيُقَالُ: خُلُودٌ لا مَوْتَ». وَرَوَاهُ البُخَارِيُّ بِمَعْنَاه[٢]. فَثَبَتَ وَزْنُ الأَعْمَالِ وَالعَامِلِ وَصَحَائِفِ الأَعْمَالِ، وَثَبَتَ أَنَّ المِيزَانَ لَهُ كِفَّتَانِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الكَيْفِيَّاتِ.

فَعَلَيْنَا الإِيمَانُ بِالغَيْبِ، كَمَا أَخْبَرَنَا الصَّادِقُ ﷺ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

وَيَا خَيْبَةَ مَنْ يَنْفِي وَضْعَ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ كَمَا أَخْبَرَ الشَّارِعُ، لِخَفَاءِ الحِكْمَةِ عَلَيْهِ، وَيَقْدَحُ فِي النُّصُوصِ بِقَوْلِهِ: لَا يَحْتَاجُ إِلَى المِيزَانِ إِلَّا البَقَّالُ وَالفَوَّالُ!! وَمَا أَحْرَاهُ بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الذِينَ لَا يُقِيمُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا. وَلَو لَمْ يَكُن مِنَ الحِكْمَةِ فِي وَزْنِ الأَعْمَالِ إِلَّا ظُهُورُ عَدْلِهِ سُبْحَانَهُ لِجَمِيعِ عِبَادِهِ، فَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فَكَيْفَ وَوَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الحِكَمِ مَا لَا اطِّلَاعَ لَنَا عَلَيْهِ. فَتَأَمَّلْ قَوْلَ المَلَائِكَةِ لَمَّا قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن

---

(١) في المسند (٢/ ٤٢٣).

(٢) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥].

وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ الحَوْضِ كَلَامُ القُرْطُبِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أَنَّ الحَوْضَ قَبْلَ المِيزَانِ، وَالصِّرَاطَ بَعْدَ المِيزَانِ. فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «أَنَّ المُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وُقِفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجَنَّةِ»(١). وَجَعَلَ القُرْطُبِيُّ فِي «التَّذْكِرَةِ» هَذِهِ القَنْطَرَةَ صِرَاطًا ثَانِيًا لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّة، وَلَيْسَ يَسْقُطُ مِنْهُ أَحَدٌ فِي النَّارِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

من الأقوال الواردة في تفسير وزن الأعمال: أن الأعمال تُجسَّد، وأنّها توزن ولو كانت أعراضًا، فالله تعالى قادر على أن يقلب الأعراض أجسادًا كما يشاء، فيقلب التسبيح والتكبير أجسادًا وأجرامًا، ويكون لها ثقل ويكون لها وزن. وقد دلّت على ذلك السنّة كما في الأحاديث التي مرّت، والتي تدلّ على أنّ الأعمال تجسّد، وأنّها توزن، وأنّ الله لا يستعصي عليه شيء، كأن يقلب هذه الأعراض أجرامًا، وأنْ يكون لها وزن يخفّ ويثقل.

وقد أنكر المعتزلة الميزان الذي ينصب يوم القيامة، مع وروده في الآيات

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٣)، ولم يخرجه مسلم في صحيحه.

الصريحة، والأحاديث الصحيحة، ومع ذلك يقولون: (**لَا يَحْتَاجُ إِلَى المِيزَانِ إِلَّا البَقَّالُ وَالفَوَّالُ**)، تعالى الله عن قولهم. أنكروا أن يكون الميزان حقيقيًا، ولذلك يردّ عليهم الشارح، فيقول: إنّهم حريّون بأن يكونوا من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنًا.

ولا شكّ أن في وضع الموازين يوم القيامة حكمة عظيمة، ولو لم يكن فيها إلّا العدل، ولذلك وصفها الله تعالى بالقسط: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [الأنبياء:٤٧]؛ القسط: العدل، يعني: الموازين العادلة.

إذا نُصِبَ الميزان وحضر الموزون وزنَ أعماله، يقال: احضر وزن أعمالك، فإذا رجح ميزانه، نادى ذلك الملك: سعد فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا. وإذا خفَّ ميزانه نادى ذلك الملك: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا. وإذا تساوت الحسنات والسيئات، عومل بما يستحقه، بأن يعذّب بقدر سيّئاته، ثم يخرج إذا كان من أهل التوحيد، أو نحو ذلك مما يشاؤه الله.

وأوّل ما يكون يوم القيامة هو الحساب، ثم بعده الميزان، ثم بعده المرور على الصراط، ثم بعده القنطرة، ثم دخول الجنّة. أمّا الكفار الذين لا حسنات لهم ولا حساب، فلا يحاسبون؛ لأنهم ليس لهم حسنات، فإن كان لهم حسنات فقد استوفوها في الدنيا.

فأوّل شيء تعرض أعمالهم، ويقال: حاسبوا أنفسكم، ثم بعد ذلك تُنصبُ الموازين، ويعرف خفّة الأعمال وثقلها، ثم بعد ذلك ينصب الصراط فيسلكونه إن

كان لهم حسنات وسيئات فيسلم من يسلم، ويخدش من يخدش. ثم بعدما يسلمون ويعبرون الصراط، يوقفون على قنطرة بين الجنّة والنار، وهذه القنطرة يحاسبون فيها عن مظالم كانت بينهم، فمن كان عنده مظلمة يُجازى بها، فيُؤخذ من حسناته، ومن كان له حقّ يؤخذ له. فإذا هذِّبوا ونقّوا أُذن لهم في دخول الجنّة؛ لأنّهم لا يدخلون الجنّة وفي قلوبهم غلّ، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف:٤٣]. فلا يدخلون الجنّة إلا بعد التنقية والتصفية، وبعد أن يكونوا متحابّين ليس بينهم إحن ولا بغضاءُ.

ومن آمن بتفاصيل اليوم الآخر على الحقيقة واليقين، ظهرت آثار ذلك في أعماله وفي سيرته وفي نهجه، وكلّما كان أشدّ يقينًا وأشدّ إيمانًا كان أكثر استعدادًا وتأهّبًا، وهكذا كانت حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، فإيمانهم حملهم على الاستعداد للموت، وللقاء ربّهم وللجزاء، وأن يعملوا الأعمال الصالحة، التي ينجون بها ويكونون بها من أهل السعادة وأهل الفلاح. حتّى إنّ أحدهم لو قيل له: إنّك تموت في هذا اليوم؛ لم يكن له عملٌ يزداد به؛ لأنه لم يضيّع لحظة من لحظاته في غير طاعة، وقد علم أنّ الموت لا بدّ نازل، وأنّه قد يأتي فجأة على غير موعد، وأنّ بعد الموت حسابًا وعذابًا أو ثوابًا، وعلم أنّ بعد الموت بعثًا ونشورًا، وجنّةً أو نارًا، فاستعدّ لذلك، فصار كل دقيقة تمرّ عليه يشغلها في طاعة الله. هكذا هو حال أولياء الله.

أمّا المفرّطون الذي يقولون آمنا، ولكن يقولونه بالألسن، وقلوبهم كأنّها غير

مصدّقة، ولذلك لا يستعدّون، فهؤلاء إيمانهم ضعيفٌ. ألسنتهم تصف، وقلوبهم تعرف، وأعمالهم تخالف؛ لأنَّ إيمانهم وتصديقهم كان عن تردّد أو كان يقينهم قد أتاه ما يضعفه؛ من أمثال الشهوات، وزينة الدنيا، والركون إليها، ومحبّة التوسّع في الملذّات وعدم استحضار الموت، وما بعد الموت، فكان ذلك حاملًا لهم على كثرة الغفلة، والانغماس في لذّة الدنيا، وعدم التفكّر في عاقبتها، وعدم التفريق بين الحلال والحرام، فحصل التفريط منهم، فجاءهم أمر الله بغتة وهم لا يشعرون، فندموا حين لا ينفع الندم، وقال أحدهم: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦].

فيجب أن نتفقّد أنفسنا، ونتفقّد إخواننا، فإذا رأينا الذي شغل وقته كلّه بأعمال الآخرة، قلنا: هذا صادق الإيمان بالآخرة، هذا مؤمن حقًّا، هذا ممّن استعدّ للقاء ربّه. وإذا رأينا ضعيف الإيمان، قليل الأعمال، ضعيف الاحتمال؛ قلنا: هذا ضعيف الإيمان، وقليل الاهتمام، وضعيف الإيمان بالآخرة، ولو كان إيمانه قويًا لما فرّط في أيامه، ولما تناسى لقاء ربّه. فنثبّت الأول ونحثّه على الزيادة، ونحذّر الثاني، وننبّهه على هذا التفريط، ونخوّفه من أن يأتيه الأجل وهو على هذا الإهمال. وبذلك نكون من المؤمنين بالدار الآخرة.

قال الطحاوي:

وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخلُوقَتَانِ، لَا تَفنَيانِ أَبَدًا وَلَا تَبيدَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ الخَلْقِ، وَخَلَقَ لَهُما أَهْلًا، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُم إِلى الجَنَّةِ فَضْلًا مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلى النَّارِ عَدْلًا مِنْهُ، وكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَد فُرِغَ لَهُ، وَصَائِرٌ إِلى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالخَيْرُ وَالشَّرُّ مُقَدَّرَانِ عَلى العِبَادِ.

قال الشارح:

أَمَّا قَوْلُهُ: (إِنَّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ)؛ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ مَوْجُودَتَانِ الآن، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ، حَتَّى نَبَغَتْ نَابِغَةٌ مِنَ المُعْتَزِلَةِ وَالقَدَرِيَّةِ، فَأَنْكَرَتْ ذَلِكَ، وَقَالَتْ: بَلْ يُنْشِئُهُما اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ. وَحَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَصْلُهُمُ الفَاسِدِ الذِي وَضَعُوا بِهِ شَرِيعَةً لِمَا يَفعَلُهُ اللَّهُ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَقَاسُوهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي أَفْعَالِهِمْ، فَهُمْ مُشَبِّهَةٌ فِي الأَفْعَالِ، وَدَخَلَ التَّجَهُّمُ فِيهِم، فَصَارُوا مَعَ ذَلِكَ مُعَطِّلَةً! وَقَالُوا: خَلْقُ الجَنَّةِ قَبْلَ الجَزَاءِ عَبَثٌ؛ لأَنَّهَا تَصِيرُ مُعَطَّلَةً مُدَدًا مُتَطَاوِلَةً. فَرَدُّوا مِنَ النُّصُوصِ مَا خَالَفَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ البَاطِلَةَ التِي وَضَعُوهَا للرَّبِّ تَعَالَى، وَحَرَّفُوا النُّصُوصَ عَنْ مَوَاضِعِهَا، وَضَلَّلُوا وَبَدَّعُوا مَنْ خَالَفَ شَرِيعَتَهُم.

فَمِنْ نُصُوصِ الكِتَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الجَنَّةِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]. وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ

﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٢١، ٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم:١٣ ـ ١٥]. وَقَدْ رَأَىٰ النَّبِيُّ ﷺ سِدْرَةَ المُنْتَهَىٰ، وَرَأَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةَ المَأْوَىٰ. كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ، فِي قِصَّةِ الإِسْرَاءِ، وَفِي آخِرِهِ: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى سِدْرَةَ المُنْتَهَىٰ، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ»[1].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيهِ مَقْعَدُهُ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2].

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ، وَفِيهِ: «يُنَادِ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا»[3].

وتقدّم حديث أنسٍ بمعنى حديثِ البراء[4].

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

(٤) تقدم تخريجه (٤/ ١٤٦).

قال الشيخ:

نعلم أنّ بعد الموقف في يوم القيامة دار الجزاء: جزاء المحسنين جنات النعيم، وجزاء الكافرين نار الجحيم.

الجنّة في الأصل هي البستان الذي يجمع الخضرة والزهور والأنهار والظلال والأشجار والنُّضرة والبهجة والسرور، وسُمِّي بذلك؛ لأنه يجنّ مَنْ دخَلَهُ يستتر به، ومنه قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [القلم:١٧]، يَعْنِي: أَصْحابَ البُسْتانِ. ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ ﴾ [الكهف:٣٢].

فالجنّة في الدُّنيا هي البساتين التي تبهج وتفرح مَن دخَلَها، وسُمِّيَت دارُ النَّعيم بهذا الاسم؛ لأنّ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فقد ذكر الله ما في الجِنان، كما في قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن:٥٢]، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن:٥٠]، ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن:٦٨]. وكذلك ذكر الكثير من نعيمها في الأحاديث وفي الآيات، كقوله تعالى: ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [محمد:١٥]. وكما في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة:٢٥]. وكما في قوله تعالى: ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء:٥٧] وقوله:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] وغير ذلك من الآيات الدالّة دلالة واضحة على أنّ هذه الجنّة مشتملة على ما يجلب السرور والحبور، وأنّ فيها الجزاء الأوفى، وأنّ فيها النّعيم الذي ليس بعده نعيم، وأنّ أهلها يغتبطون فيها، ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]. وكذلك يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]. هكذا نعيمهم.

وضدّ ذلك الجحيم التي هي: نار تلظّى، نار موقدة، نار حامية، ذكر الله لها عدّة أسماء، وقال في وصفها: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]، وأخذ العلماء لها سبعة أسماء من الآيات: لظى، والحطمة، وجهنّم، والجحيم، وسقر، والسعير، والهاوية، وكلّها موجودة في القرآن بهذه الأسماء، وكلّها دالّة على شدّة الحرارة.

وقد أخبر الله تعالى بشدّة العذاب فيها، وأن أهلها كلّما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلودًا غيرها، وأنّه يحشرهم يوم القيامة على وجوههم، عميًا وصمًّا وبكمًا، كلّما خبت زادهم سعيرًا، أي: كلما انطفأت زيد في حرِّها، وأنّ وقودها النّاس والحجارة، وأنّها تطّلع على الأفئدة، وأنّها عليهم مؤصدة؛ أي: مقفلة. وذلك من أنواع العذاب الذي ذكره الله.

وعندما يذكر الجنّة يشوّق إليها، كأنّه يقول: أيّها المؤمنون بالجنّة المصدّقون

بها! اطلبوها بالأعمال الصالحة، فهذا نعيمها وهذه صفتها. ويا أيّها المؤمنون بالنّار والمصدّقون بها! احذروا منها وابتعدوا عنها، فهذه حرارتها، وهذا عذابها. وأيّها المفرّطون، وأيّها الكافرون! أفلا تتوبون، أفلا تندمون وتبتعدون عن الأعمال السيّئة التي تجعلكم من أهل ذلك العذاب.

هكذا ذكر الله هذا العذاب وهذا الثواب، وسمّى دار الكفار بالنار، والنّار في الأصل: هي هذه النار التي نوقدها في الدّنيا، وننتفع بها، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة:٧١ ـ ٧٣]؛ تذكرة أي: تذكرة بالنّار الأخرى، فسمّى ذلك العذاب نارًا؛ لأنّ فيه نارٌ تشتعل، وتتّقد، وقودها النّاس والحجارة.

وقد ورد ذكر الجنّة والنّار كثيرًا في القرآن الكريم، لكي يرغّب الله في هذه الدار التي هي دار الثواب، ويحذّر من تلك الدار التي هي دار العقاب.

عقيدة أهل السنّة أنّ الجنّة والنّار موجودتان الآن، وإن كنّا لا نعلم جهتهما ولا مكانهما، فإنّ علمنا قاصر، لا نحيط إلّا بالأرض وما على الأرض، ولكن الجهات كثيرة لا يعلمها إلّا الله. ففي يوم «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مع كل زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»[1]، أولئك الملائكة قد يكون أحدهم لو تمكّن لقلع الجبال، وجرّها خفيفةً بإذن الله، ومع ذلك هذا عددهم، فما مقدارها؟! فإخبار الله تعالى بأنّه يجاء بها يوم القيامة دليل على أنّها موجودة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

وكذلك الجنّة موجودة أيضًا، وتُبرَز يوم القيامة؛ يقول تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء:٩٠]، أُزلفت: يعني أُطلعت وأُظهرت، وهذا دليل على أنّها موجودة، وأنّها تبرز، فيقال: هذه الجنّة دار المتّقين، ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء:٩١]، بُرِّزت أي: أبرِزت وأُظهرت، وإبرازها يدلّ على أنّها موجودة الآن، وكذلك الآيات التي مرّت بنا: قول الله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، أي: هُيِّئت لهم، وفي النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾، أي: هُيِئت لهم؛ دليل على أنّها موجودة، وقد أعدّت لأهلها.

وكذلك قوله في الجنّة: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم:١٣ - ١٥]، دليل أنّ الجنّة فوق السّماء السّابعة حيث يشاء الله أنّها موجودة الآن. وذكر الله أيضًا سعتها فقال: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣]. وأنّه يقال للعبد في قبره: افتحوا لَهُ بابًا إِلى الجَنّة، فيأتيه من روحها وريحانها، فيقول: ربِّ أقم السّاعة. ويقال للكافر: افتحوا له بابًا إلى النّار، فيأتيه من حرّها وسمومها، فيقول: ربِّ لا تُقِم الساعة[1]. وهذا أيضًا دليل على أنّها موجودة، وأنّه يفتح له باب إليها، ويقال للمؤمن: هذا مقعدك من الجنّة، وللكافر: هذا مقعدك من النار. أليس ذلك دليلًا على أنّها موجودة؟

---

(١) تقدم في حديث البراء بن عازب ﷺ الطويل (٤/ ١٤٦).

وقد ذكر الشارح أنّ قومًا من المعتزلة أنكروا وجود الجنة والنار الآن، وقالوا: لا حاجة إلى وجودها الآن، وما دام أنّه ليس فيها أحد، تبقى مغلقة الأبواب، ومغلقة الغرف، وتحتاج إلى من يسقيها، ويرعاها هذه المدة الطويلة قبل أن يأتي إليها أهلها، فجعلوا أفكارهم متحكّمة في أمر الله، فقالوا: إن الجنة والنار ليستا موجودتين، وزعموا أنهما تُنشآن في يوم القيامة، عندما يبعث الله الخلق، ينشئ الجنّة وينشئ النار.

ولكن الذي عليه أهلُ السنّة والجماعة، أنّ الجنّة موجودة الآن، وقد دخلها النبيّ ﷺ، وأنّ النار موجودة، وقد عرضت عليه الجنّة والنار في صلاة الكسوف، فلمّا عرضت عليه الجنّة تقدّم، ولمّا عرضت عليه النّار تقهقر وتأخّر[1]. كلّ هذا دليل على أنّه رآها، وأنّها موجودة الآن، ولا يلزم ما يقوله أولئك المعتزلة، من أنّها معطّلة، وأنه لا حاجة إلى وجودها، على أصلهم الفاسد الذي أصّلوه، وهو أنّهم يتحكّمون في أمر الله، ويفرضون على الله ما يريدونه، ويقولون: يجب على الله أن يفعل كذا، فكأنّهم هم الذين يُوجبون بعقولهم ما يشاؤون. فهذه عقيدة ثابتة، ولا يضرّ خلاف من خالفها.

---

(١) انظر: التعليق التالي.

قال الشارح:

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[(١)] عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَتِ الحَدِيثَ، وَفِيهِ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُمْ بِهِ، حَتَّىٰ لَقَدْ رَأَيْتُنِي آخُذُ قِطْفًا مِنَ الجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي أُقَدِّمُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[(٢)]، وَاللفْظُ لِلبُخَارِي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: انْخَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ الحَدِيثَ، وَفِيهِ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ، لَأَكَلْتُم مِنْه مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ»، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتُ إِلى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّه، ثُمَّ رَأَت مِنْكَ شَيْئًا، قَالتْ: مَا رَأَيتُ خَيرًا قَطُّ!!».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[(٣)] مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ: «وَايْمُ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَو رَأَيْتُمْ

---

(١) برقم (٩٠١)، وأخرجه البخاري أيضًا برقم (١٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

(٣) برقم (٤٢٦).

مَا رَأَيْتُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وبَكَيْتُمْ كَثيرًا»، قَالُوا: وَمَا رَأَيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «رَأَيْتُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ».

وَفِي «المُوطَّأ» وَ«السُّنَنِ»، مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا نَسمَةُ المُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ، حَتَّىٰ يُرْجِعَهَا اللَّهُ إِلى جَسَدِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1]. وَهَذَا صَرِيحٌ فِي دُخُولِ الرُّوحِ الجَنَّةَ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[2]، وَ«السُّنَنِ»[3]، وَ«المُسْنَدِ»[4]، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَـمَّا خَلَقَ اللَّهُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ، أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الجَنَّةِ، فَقَالَ: اذْهَبْ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِالجَنَّةِ فَحُفَّتْ بِالمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيْهَا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيهَا، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّارِ، قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ثُمَّ رَجَعَ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١١٨).

(٢) لم يخرجه مسلم كما ذكر المصنف، وإنما أخرج حديث أنس رضي الله عنه (٢٨٢٢)، وفيه: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

(٣) أخرجه أبوداود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣٧٦٣).

(٤) (٢/ ٢٣٢).

فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَا يَدْخُلُها أَحَدٌ سَمِعَ بِهَا، فَأَمَرَ بِهَا، فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ، فَانْظُر إلى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيْتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي السُّنَّةِ كَثِيرَةٌ.

قال الشيخ:

هذه الأحاديث صريحة في وجود الجنّة وفي وجود النار، وأنّ الرّسول ﷺ رآها أكثر من مرة، ففي صلاة الخسوف ذكر أنّه عرضت عليه الجنّة، وأنّه تناول منها عنقودًا لو أخذه لأكلوا منه ما بقيت الدنيا؛ لأنّ نعيم الجنّة لا ينفد. وعُرضت عليه النّار فتكعكع، يعني: تقهقر وتأخر، وذكر أنّه رأى فيها فلانًا وفلانة، وسمّى فيها عمرو بن لحيّ، وهو أوّل من غيّر دين إبراهيم عليه السلام، ورأى فيها سارق الحاجّ، الذي يسرق المتاع بمحجنه، ورأى المرأة التي تعذّب بهرّة ربطتها حتّى ماتت جوعًا، وفي هذا الحديث يقول: «رَأَيتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»؛ لأنّهن يكفرن الإحسان، إذا أحسن الزوج إلى المرأة غالبًا وليس دائمًا، ثمّ رأت منه شيئًا يخالف ما تشتهيه أنكرت إحسانه، ويكون ذلك سببًا في عذابها.

وكذلك أخبر النبيّ ﷺ أنّ أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلق في شجر الجنّة. حتّى يردّها اللهّ إلى أجسادها. وأخبر الله تعالى أن أرواحًا من الكفار - كآل فرعون - تعرض على النّار، فقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾

[غافر:٤٦]. مما دلّ على أنّها موجودة، وأنّهم يعرضون عليها في الصباح والمساء.

فكلّ هذه الأدلّة واضحة الدلالة في أنّ الجنّة والنّار موجودتان الآن، ولا يهمّنا ما يقوله المعتزلة من أنّها تبقى معطّلة سنين طويلة، فإنّها تبقى تذكرة، وتعتبر ظاهرة لمن أطلعه الله عليها، وقد ذكر ابن عمر - رضي الله عنهما - أنّه رأى رؤيا، وفيها: أنّ رجلين أتيا به النّار، فإذا هي مطويّة كطيّ البئر، يقول: رأيت فيها رجالًا أعرفهم، فقيل: لن تراع.

وكذلك أخبر النبيّ ﷺ في حديث سمرة ﷺ الطويل[1] في المنام، أنّه دخل الجنّة في المنام مع رجلين هما ملكان، وأنّه رأى فيها كذا وكذا، وهذا كلّه دليل على أنّها معدّة موجودة، وأنّ من مات وصل إليه ألمه إن كان من أهل العذاب، ونعيمه إن كان من أهل الثواب.

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦، ٧٠٤٧).

قال الشارح:

وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الجَنَّةَ المَوْعُودُ بِهَا هِيَ الجَنَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا آدَمُ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا، فَالقَوْلُ بِوجُودِهِمَا الآن ظَاهِرٌ، وَالخِلَافُ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفٍ.

وَأَمَّا شُبْهَةَ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ، وَهِيَ: أَنَّهَا لَو كَانَتْ مَخْلُوقَةً الآن لَوَجَبَ اضطرارًا أَنْ تَفْنَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَنْ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ فِيهَا وَيَمُوتُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ»[١]، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِىء أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُم أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةَ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ للَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ». قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَفِيهِ أَيْضًا[٢] مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ»، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، قَالُوا: فَلَو كَانَتْ مَخْلُوقَةً مَفْرُوغًا مِنْهَا لَمْ تَكُنْ قِيعَانًا، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذَا الغِرَاسِ مَعْنًى.

وَقَالُوا: وَكَذَا قَوْلَهُ تَعَالَى عَنِ امْرَأَةِ فِرْعَونَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا

---

(١) برقم (٣٤٦٢).

(٢) برقم (٣٤٦٤، ٣٤٦٥).

﴿فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١].

فَالجَوَابُ: إِنَّكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ بِقَوْلِكُمْ: إِنَّهَا الآن مَعْدُومَةٌ بِمَنْزِلَةِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ، وَقِيَامِ النَّاسِ مِنَ القُبُورِ، فَهَذَا بَاطِلٌ، يَرُدُّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الأَدِلَّةِ وَأَمْثَالِهَا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ، وَإِنْ أَرَدْتُم أَنَّهَا لَمْ يَكْمُلْ خَلْقُ جَمِيعِ مَا أَعَدَّ اللَّـهُ فِيهَا لِأَهْلِهَا، وَأَنَّهَا لَا يَزَالُ اللَّـهُ يُحدِثُ فِيهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَإِذَا دَخَلَهَا المُؤْمِنُونَ، أَحْدَثَ اللَّـهُ فِيهَا عِنْدَ دُخُولِهِمْ أُمُورًا أُخَر، فَهَذَا حَقٌّ لَا يُمْكِنِ رَدُّهُ، وَأَدِلَّتُكُمْ هَذِه إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى هَذَا القَدْرِ.

قال الشيخ:

هذه الأحاديث وأشباهها دالّة على أنّ الجنّة موجودة، ولكن يحدث الله فيها ما يشاء، ويجدّد فيها ما يشاء.

ففي حديث الإسراء: أخبر ﷺ أنّه لقي إبراهيم عليه السلام، فقال: «أَقْرِىء أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُم أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةَ المَاءِ، وَأَنَّها قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِراسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ للَّـهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ، وَاللَّـهُ أَكْبَر»، يعني: أنّ الجنّة موجودة، ولكن كلّ أحد يُغْرَسُ له فيها غراس، أعمال يعملها في الدنيا، تكون مما يُغْرَسُ له في الجنّة، فإذا قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، غرست له شجرة في الجنّة، وإذا كرّرها فكذلك. وأيضًا يبنى له غرف بأعماله الصالحة. ففي بعض الآثار أنّ الملائكة تبني لابن آدم بيوتًا وغرفًا ما دام يعمل الصالحات، يذكر الله ويشكره ويأتي بالحسنات، فإذا توقّف عن العمل

توقّفوا عن البناء، فإذا قيل: لماذا توقّفتم؟ قالوا: حتّى تأتينا النّفقة. الباني في الدنيا يحتاج إلى نفقة، فالعمال لا يعملون لك من دون نفقة، ونفقة الملائكة الذين يبنون لك في الجنّة هي: ذكر الله وعبادته وعمل الحسنات. والبناء الذي تبنيه في الآخرة هو الذي يبقى، ولذا يقول بعض الشعراء[(١)]:

لَا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ المَوْتِ يَسْكُنُهَا ... إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ المَوْتِ يَبْنِيهَا

فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ ... وَإِنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا

النَّفْسُ تَرْغَبُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ الزَهَادَةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

فَاغْرِسْ أُصُولَ التُّقَى مَا دُمْتَ مُجْتَهِدًا ... وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ المَوْتِ لَاقِيهَا

فهكذا يكون الإنسان في الدنيا، أعماله تكون بمنزلة الغراس في الجنّة، فكلّما عمل حسنة، غرس له شجرة، أو بني له بيوتٌ ومنازل في الجنّة. مما يدلّ على أنّ الجنّة موجودة، وأنّها تتكامل في يوم القيامة بالأعمال الصالحة. كلّما توفي إنسان بني له بقدر أعماله، وهكذا إلى أن يأذن الله بقيام الساعة.

في حديث عبادة ﷺ الذي في الصحيحين: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبد اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»[(٢)]. ففي الدار الآخرة جنّة هي دار الجزاء أعدّها الله لأوليائه، ودار

---

(١) راجع (٤/ ٢٠٩).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٧).

سمّاها النّار، هي دار العذاب أعدّها لأعدائه ولمن كفر به .

وصفات الجنّة والنّار تؤخذ من الكتاب والسنّة؛ حيث ذكر الله تعالى ما فيهما من العذاب وما فيهما من الثواب. ولا شكّ أنّ من آمن بذلك حقًا يستعدّ لذلك. وقد قال بعض السلف: عجبت للجنّة كيف ينام طالبها، وعجبت للنّار كيف ينام هاربها؛ يعني: أنّ من تحقّق هذه الجنّة فإنّه يطلبها، وإذا طلبها فإنّه لا يهنأ بالمنام ولا بالمقام. وكذلك من تحقّق وجود النّار وعذابها وما فيها من الأنكال والأكبال فإنّه يهرب منها، ولا يهنأ بالمنام ولا يهنأ بالمقام.

الكلام عن الجنّة والنّار يتعلّق بالكلام عن أحقّيتهما، وهذا يؤمن به كل من يؤمن بالله، وأما يتعلّق بوجودهما الآن، فهذا يؤمن به أهل السنّة، ويخالف فيه المبتدعة، ويتعلّق ببقائهما واستمرارهما، وهذا يؤمن به أهل السنّة أيضًا، فيؤمنون بأنّ الجنّة والنّار موجودتان الآن، وأنّهما مخلوقتان، وأنّ النبيّ ﷺ قد رأى الجنّة ورأى النّار رؤيا حقيقيّة، إمّا في المنام، وإما في الإسراء، ويؤمنون بما ذكر الله عنهما، وأنّ الجنّة أعدّت للمتّقين، وأنّ النّار أعدّت للكافرين، وغير ذلك من الأدلّة من الكتاب والسنة التي أوردها الشارح.

ويدخل في ذلك ردّنا على من أنكر ذلك، كما عرفنا عن المعتزلة ونحوهم الذين أنكروا وجود الجنّة والنار الآن، وقالوا: إنّهما يخلقان يوم القيامة، وبيّن أنّ هذا مصادمة لكتاب الله وسنّة رسوله، والتي أخبر فيها بأنّه هيّأ الجنّة وأعدّها لمن آمن، فهي مخلوقة موجودة الآن بما فيها من النعيم، وهيّأ النّار فهي مهيّأةٌ بما فيها من عذاب. وأنّ الميّت في قبره يفتح له بابان؛ باب إلى الجنّة، وباب إلى النّار، فإذا

كان مؤمنًا قيل له: هذا منزلك من الجنّة، وهذا منزلك من النّار لو كفرت. فيزداد فرحًا حيث يرى العذاب الذي سلم منه، والثواب الذي حظي به ويفتح للكافر بابان؛ باب إلى الجنّة، ويقال: هذا منزلك لو آمنت بالله، وباب إلى النّار، ويقال: هذا منزلك ومقيلك، فيزداد حسرة على ما فاته من الثواب، وما فاته من النعيم.

وهذا بلا شكّ دليل على أنّهما موجودتان الآن، مهيّئتان كما أخبر الله.

فيؤمن أهل الإيمان بما أخبر الله، ومن هذا: هذه الأخبار الواضحة التي تدلّ على وجود الجنّة والنّار.

قال الشارح:

وَأَمَّا احْتِجَاجُكُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨]. فَأُتِيتُمْ مِنْ سُوءِ فَهْمِكُمْ مَعْنَى الآيَةِ، وَاحْتِجَاجُكُمْ بِهَا عَلَى عَدَمِ وُجُودِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ الآنَ نَظِيرُ احْتِجَاجِ إِخْوَانِكُمْ بِهَا عَلَى فَنَائِهِمَا وَخَرَابِهِمَا وَمَوتِ أَهْلِهِمَا!! فَلَمْ تُوفَّقُوا أَنْتُمْ وَلَا إِخْوَانُكُمْ لِفَهْمِ مَعْنَى الآيَةِ، وَإِنَّمَا وُفِّقَ لِذَلِكَ أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ، فَمِنْ كَلَامِهِمْ: أَنَّ المُرَادَ كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الفَنَاءَ وَالهَلَاكَ هَالِكٌ، وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ خُلِقَتَا لِلبَقَاءِ لَا لِلفَنَاءِ، وَكَذَلِكَ العَرْشُ، فَإِنَّهُ سَقْفُ الجَنَّةِ. وَقِيلَ: المُرادُ إِلَّا مُلْكَهُ، وَقِيلَ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ، وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فَقَالَتِ المَلَائِكَةُ: هَلَكَ أَهْلُ الأَرْضِ، وَطَمِعُوا فِي البَقَاءِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ، فَقَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ لأَنَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، فَأَيْقَنَتِ المَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالمَوْتِ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ تَوْفِيقًا بَيْنَهَا وَبَينَ النُّصُوصِ المُحْكَمَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى بَقَاءِ الجَنَّةِ، وَعَلَى بَقَاءِ النَّارِ أَيْضًا، عَلَى مَا يُذْكَرُ عَنْ قَرِيبٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

الذين يحتجّون بهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، هم المبتدعة من المعتزلة وغيرهم، قالوا: لوكانت موجودة، لأتى عليها الفناء والهلاك، وكذلك النّار لو كانت موجودة لفنيت كما يفنى غيرها؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ

شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، والرَّدُّ: أنّ الله أخبر بأنّ الذي خُلق للبقاء فإنّه باق، وذلك أنّ الجنّة والنّار خلقتا للبقاء، يثاب بهما ويعاقب بهما، أي بعد الموت وبعد البعث من الموت، فهما خلقتا للبقاء وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أي: كلّ شيء خلقه الله في الدنيا لا بدّ أن يهلك ويفنى إلا وجه الله، أي: إلا الله وحده، أو ما أريد به وجهه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، الضمير في ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾ يعود على الأرض، فإنه فانٍ ويبقى وجه ربّك، ويقال إن المراد: كلّ من على الحياة.

ولا مانع من أن يموت أهل السماء وأهل الأرض، من الملائكة والمخلوقات التي خلقها الله للفناء، ثمّ بعد ذلك يعودون ويبعثون كما كانوا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

ويقول الرسول ﷺ في الحديث: «**أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوت، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُون**»[1]، فأخبر بأنّ الحياة للّهِ وحده، وأنّ كلّ ما سواه يموت، ولا يلزم أنّ ذلك يعمّ المخلوقات كلّها كالجمادات ونحوها.

وقد ذكر الله أنّ الجبال تكون هباءً، وأنّ الأرض تتغيّر بغيرها ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وأنّ السموات تتفطّر ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج:٨]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٨٥).

ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٥]. فذكر أنّ كلّ هذه الأشياء تتغيّر في ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، ولكن لا يكون ذلك عامًّا في كلّ الموجودات.

وعلى كلّ حال: لا يلزم من ذلك فناء الجنّة؛ إذ هي من الذي خلقه الله للآخرة.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (لَا تَفْنَيَان أَبَدًا وَلَا تَبِيدَان)، هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الأَئِمَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ.

وَقَالَ بِبَقَاءِ الجَنَّةِ وَفَنَاءِ النَّارِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ، وَالقَوْلَانِ مَذْكُورَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهَا.

وَقَالَ بِفَنَاءِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ الجَهْمُ بْنُ صَفْوَان إِمَامُ المُعَطِّلَةِ، وَلَيْسَ لَهُ سَلَفٌ قَطٌّ، لَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَلَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَكَفَّرُوهُ بِهِ، وَصَاحُوا بِهِ وَبِأَتْبَاعِهِ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْض، وَهَذَا قَالَهُ لِأَصْلِهِ الفَاسِدِ الَّذِي اعْتَقَدَهُ، وَهُوَ امْتِنَاعُ وُجُودِ مَا لَا يَتَنَاهَى مِنَ الحَوَادِثِ! وَهُوَ عُمْدَةُ أَهْلِ الكَلَامِ المَذْمُوم، الَّتِي اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى حُدُوثِ الأَجْسَامِ، وَحُدُوثِ مَا لَمْ يَخْلُ مِنَ الحَوَادِثِ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ عُمْدَتَهُمْ فِي حُدُوثِ العَالَمِ، فَرَأَى الجَهْمُ أَنَّ مَا يَمْنَعُ مِنْ حَوادِثِ لَا أَوَّلَ لَهَا فِي المَاضِي يَمْنَعُهُ فِي المُسْتَقْبَلِ!! فَدَوَامُ الفِعْلِ عِنْدَهُ عَلَى الرَّبِّ فِي المُسْتَقْبَلِ مُمْتَنِعٌ، كَمَا هُوَ مُمْتَنِعٌ عِنْدَهُ عَلَيْهِ فِي المَاضِي!! وَأَبُو الهُذَيل العَلَّاف شَيْخُ المُعْتَزِلَةِ وَافَقَهُ عَلَى هَذَا الأَصْلِ، لَكِنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا يَقْتَضِي فَنَاءَ الحَرَكَاتِ، فَقَالَ بِفَنَاءِ حَرَكَاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى يَصِيرُوا فِي سُكُونٍ دَائِمٍ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى حَرَكَةٍ!! وَقَدْ تَقَدَّمَ الإِشَارَةُ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي تَسَلْسُلِ الحَوَادِثِ فِي المَاضِي وَالمُسْتَقْبَلِ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ دَوَام فَاعِلِيَّةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهُوَ لَمْ يَزَلْ رَبًّا قَادِرًا فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ حَيًّا عَلِيمًا قَدِيرًا. وَمِنَ المُحَالِ أَنْ يَكُونَ الفِعْلُ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ لِذَاتِهِ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ،

فَيَصِيرُ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ، مِنْ غَيْرِ تَجَدُّدِ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لِلْأَوَّلِ حَدٌّ مَحْدُودٌ حَتَّى يَصِيرَ الفِعْلُ مُمْكِنًا لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ الحَدِّ، وَيَكُونُ قَبْلَهُ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ، فَهَذَا القَوْلُ تَصَوُّرُهُ كَافٍ فِي الجَزْمِ بِفَسَادِهِ.

فَأَمَّا أَبَدِيَّةُ الجَنَّةِ، وَأَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَبِيدُ، فَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَرَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أَي: غَيْرَ مَقْطُوعٍ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي هَذَا الاسْتِثْنَاءِ؛ فَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِلَّا مُدَّةَ مُكْثِهِمْ فِي النَّارِ، وَهَذَا يَكُونُ لِمَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا، لَا لِكُلِّهِمْ.

وَقِيلَ: إِلَّا مُدَّةَ مُقَامِهِم فِي المَوْقِفِ، وَقِيلَ: إِلَّا مُدَّةَ مُقَامِهِمْ فِي القُبُورِ وَالمَوْقِفِ.

وَقِيلَ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ اسْتَثْنَاهُ الرَّبُّ وَلَا يَفْعَلُه، كَمَا تَقُولُ: وَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّكَ إِلَّا أَنْ أَرَى غَيْرَ ذَلِكَ، وَأَنْتَ لَا تَرَاهُ، بَلْ تَجْزِم بِضَرْبِهِ.

وَقِيلَ: «إِلَّا» بِمَعْنَى الوَاو، وَهَذَا عَلَى قَوْلِ بَعْضِ النُّحَاةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَسِيبَوَيه يَجْعَلُ «إِلَّا» بِمَعْنَى «لَكِن»، فَيَكُونَ الاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا، وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِير، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا خُلْفَ لِوَعْدِهِ، وَقَدْ وَصَلَ الاسْتِثْنَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. قَالُوا: وَنَظِيرُهُ أَنْ تَقُولَ: أَسْكَنْتُكَ دَارِي حَوْلًا إِلَّا مَا شِئْتُ. أَي: سِوَى مَا شِئْتُ، أَوْ لَكِنْ مَا شِئْتُ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: الاسْتِثْنَاءُ لِإِعْلَامِهِمْ بِأَنَّهُمْ مَعَ خُلُودِهِمْ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، لَا أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ عَنْ مَشِيئَتِهِ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ عَزِيمَتَهُ وَجَزْمَهُ لَهُمْ بِالْخُلُودِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٦]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤]. وقوله: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]. وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ، يُخْبِرُ عِبَادَهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِمَشِيئَتِهِ، مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَقِيلَ: إِنَّ «مَا» بِمَعْنَى «مَنْ»، أَيْ: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ دُخُولَهُ النَّارَ بِذُنُوبِهِ مِنَ السُّعَدَاءِ. وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ.

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، فَهَذَا الاسْتِثْنَاءُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]، مُحْكَمٌ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤]. وقوله: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥]. وقوله: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨].

وَقَدْ أَكَّدَ اللَّهُ خُلُودَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِالتَّأْبِيدِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦]. وَهَذَا الاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَإِذَا ضَمَمْتَه إِلَى الاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٨]، تَبَيَّنَ لَكَ الْمُرَادُ مِنَ الآيَتَيْنِ، وَاسْتِثْنَاءُ الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَكُونُوا فِيهِ فِي

الجَنَّةِ مِنْ مُدَّةِ الخُلُودِ، كَاسْتِثْنَاءِ المَوْتَةِ الأُولَى مِنْ جُمْلَةِ المَوْتِ، فَهَذِهِ مَوْتَةٌ تَقَدَّمَتْ عَلَى حَيَاتِهِم الأَبَدِيَّةِ، وَذَاكَ مُفَارَقَةٌ لِلْجَنَّةِ تَقَدَّمَتْ عَلَى خُلُودِهِمْ فِيهَا.

وَالأَدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ عَلَى أَبَدِيَّةِ الجَنَّةِ وَدَوَامِهَا كَثِيرَةٌ، كَقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَمُ فِيهَا وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ»[(١)]. وَقَوْلِهِ: «يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا»[(٢)].

وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَبْحِ المَوْتِ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيُقَالُ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»[(٣)].

قال الشيخ:

هذا دليل واضح على أبديّة الجنّة ودوامها. أهل السنّة يقولون بأبديّة الجنّة والنّار ودوامهما، وعدم انقطاعهما. وبعض العلماء قالوا: إنّ عذاب النّار ينقطع، أما الجنّة، فنعيمها دائم أبديّ لا ينقطع. وهناك مبتدعة إمامهم الجهم بن صفوان، قالوا: بأنّ الجنّة والنّار تفنيان، أوّل من قال هذا القول: الجهم بن صفوان، وهو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٦) بنحوه، وأخرجه بلفظه أحمد (٢/ ٣٠٤)، والترمذي (٢٥٢٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الذي جمع ثلاث بدع: بدعة التعطيل، وبدعة الجبر، وبدعة الإرجاء.

ومرّ بنا أنّ من عقيدته: أنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها، ولا بداية لها. وهذا على قاعدة له ابتكرها، ولم يسبق إلى هذا القول، وليس هناك أحد قبله قال بأنّ الجنّة تنقطع وتفنى وتزول، فهو أوّل من قال بذلك، ثم أبو الهذيل العلاّف من رؤوس المعتزلة، ومن رؤوس المتكلّمين، وافقه في أنّ النّار تفنى، وكذلك الجنّة، ولكن يقول: إنّ فناءها بمعنى أنّها تبقى موجودة، وأهلها كأنّهم ليسوا أحياء، أي تذهب حياتهم وتذهب حركاتهم. ولا شكّ أنّ هذا قول بالفناء.

وهناك قول في أنّ أهل النّار يبقون فيها بلا حركة، أو أن طبائعهم تنقلب طبيعة ناريّة، بمعنى أنّهم يبقون في النّار من دون تألّم، أي لا يحسّون بألمها؛ لأنّهم يصبحون ناريّين، كالجنّ والشياطين الذين لا تحرقهم النّار في الدنيا. وكلّ هذه أقوال لا دليل عليها.

أما أبديّة الجنّة فقد أكّدها الله تعالى، وورد التأكيد بالأبديّة في القرآن في عدّة آيات، فيها: قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧]، فأكّد الخلود بالأبديّة. وكذلك في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٠]، أكّد الخلود بالأبديّة، بمعنى: أنّهم مخلّدون فيها خلودًا دائمًا لا يتحوّل، فالأبديّة بمعنى

الدوام. وكذلك في قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [البينة:٨]، أكّد الخلود بالأبديّة، وهذا دليل على البقاء.

وقد ورد التأكيد بثلاثة أشياء في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:٢١]، مقيم: دائم، خالدين: دائمين، أبدًا: مؤبدًا. وهذا دليل مهم على الأبديّة والاستمرار.

واستدلّ الشارح على ذلك أيضًا بقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦]، الموتة الأولى: يعني: التي في الدنيا، فهم دائمون فيها لا يموتون، بل مستمرّ بقاؤهم ولا يتحولّون منها. وهذا أيضًا دليل على بقائها.

واستدلّ أيضًا بقوله ﷺ في وصف أهل الجنّة: «يُنَادِي مُنَادٍ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أَبَدًا»[1]، والحديث الذي تقدّم في ذبح الموت بين الجنّة والنّار، وأنّه يقال: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»[2]. فيزداد أهل الجنّة فرحًا، ويزداد أهل النّار سوءًا؛ لأنّهم يتمنّون الخلاص، ويتمنّون أن يقضى عليهم، ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٠١).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٢٧٤).

مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧]، فيتمنّون أنْ يقضي عليهم الله ليموتوا، فيخبر الله بأنّ ذلك لا يكون فيقول: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر:٣٦]، ويقول في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى:١٣]، يتمنّى الموت فلا يموت، ولا يحيا حياة طيّبة يسعد فيها وينعم، هذه حالتهم. و هذا دليل على البقاء، ودليل على دوامهم وعدم انقطاع نعيم هؤلاء وعذاب هؤلاء.

ومرّ بنا كلام الشارح على ما يتعلّق بقول الله - عز وجل -: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨]، أكّد البقاء بقوله تعالى: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾، أي: ما دامت باقية السماء والأرض، ومعلوم أنّ السماء يعيدها الله كما شاء، وأنّ الأرض يبدّلها ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فتبقى السموات وتبقى الأرض التي تبدّل، ولا نهاية لبقائها، وما دامت السموات والأرض باقية، فالجنّة والنّار باقيتان. وكذلك قوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾، أي: غير مقطوع ولا مصروم ولا نهاية له، وباقٍ مستمرّ متواصل، ليس له ما يكدّره ولا ما يقطعه.

فهذا من المحكم؛ أي إن الآيات التي فيها الخلود والأبديّة والدوام وعدم الانقطاع هي محكمة تدلّ على الأبديّة والاستمرار، وأنّ أهل الجنّة إن قيل لهم: إنّ نعيمكم سينقطع، ولو بعد مئة ألف سنة، ولو بعد ألف ألف سنة، سيتكدّر نعيمهم ويقولون: لا هناء لنا ما دام أنّه سينقطع، فإنّه سيأتي ذلك اليوم ولو كان بعيدًا. فهذا معلوم. ومما يكدّر نعيم الدنيا على أهلها معرفتهم بأنّ نعيمها يزول،

وأنّه يتبدّل. وأمّا نعيم الجنّة فهو لا يزول، ولذلك بشّرهم ربّهم بأنّهم باقون فيها، وأنّهم لا يحولون ولا يزولون.

والاستثناء في آية هود: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، فقد مر بنا أنّ العلماء قالوا: هذا الاستثناء من المتشابه، ومنهم من حمله على ما قبل دخولها، يعني: أنه قد يقضي عليهم قبل دخولها زمان. وهو وقت الحساب، فيكون فعله لذلك هو الاستثناء، أو يكون ذلك وقت الوقوف يوم القيامة قبل نزول الله لفصل القضاء، فيكون هذا هو زمن الاستثناء، وقيل: إنّه استثناء، ولكن لا يدلّ على أنّه يؤتى أو يقطع عليهم نعيمهم، ومثّله الشارح بقولك: سأكرمك إلا أن أشاء، وأنت عازم على إكرامه. وقد ورد ذلك أيضًا في القرآن، في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٤٨].

وعلى كلّ حال فهو من المتشابه، والآيات الدالّة على استمرار النّعيم وبقائه محكمة ليس فيها خفاء.

فيؤمن أهل العقيدة السلفيّة بما تتضمّن تلك الآيات ويستعدّون للقاء الله، ويطلبون هذا الثواب الذي لا يحول ولا يزول.

قال الشارح:

وَأَمَّا أَبَدِيَّةُ النَّارِ وَدَوَامُهَا، فَلِلنَاسِ فِي ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ مَنْ دَخَلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدَ الآبَادِ، وَهَذَا قَوْلُ الخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا، ثُمَّ تَنْقَلِبُ طَبِيعَتُهُمْ، وَتَبْقَى طَبِيعَةٌ نَارِيَّةٌ يَتَلَذَّذُونَ بِهَا لِمُوَافَقَتِهَا لطَبْعِهِم! وَهَذَا قَوْلُ إِمَامِ الاتِّحَادِيَّةِ ابْنِ عَرَبِي الطَّائِي.

الثَّالِثُ: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا إِلَى وَقْتٍ مَحْدُودٍ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ مِنْهَا، وَيَخْلُفُهُمْ فِيهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَهَذَا القَوْلُ حَكَاهُ اليَهُودُ للنَّبِيِّ ﷺ، وَأَكْذَبَهُمْ فِيهِ، وَقَدْ أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١].

الرَّابِعُ: يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَتَبْقَى عَلَى حَالِهَا لَيْس فِيهَا أَحَدٌ.

الخَامِسُ: أَنَّهَا تَفْنَى بِنَفْسِهَا؛ لأَنَّهَا حَادِثَةٌ، وَمَا ثَبَتَ حُدُوثُهُ اسْتَحَالَ بَقَاؤُهُ!! وَهَذَا قَوْلُ الجَهْمِ وَشِيعَتِهِ، وَلَا فَرْقَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

السَّادِسُ: تَفْنَى حَرَكَاتُ أَهْلِهَا، وَيَصِيرُونَ جَمَادًا، لَا يُحِسُّونَ بِأَلَمٍ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الهُذَيْلِ العَلَّاف كَمَا تَقَدَّمَ.

السَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ، ثُمَّ يُبْقِيهَا مَا يَشَاءُ

ثُمَّ يُفْنِيهَا، فَإِنَّهُ جَعَلَ لَهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ، وَيَبْقَى فِيهَا الكُفَّارُ، بَقَاءً لَا انْقِضَاءَ لَهُ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمَا عَدَا هَذَيْنِ القَوْلَيْنِ الأَخِيرَيْنِ ظَاهِرُ البُطْلَانِ.

وَهَذَانِ القَوْلَانِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ يُنْظَرُ فِي دَلِيلِهِمَا.

فَمِنْ أَدِلَّةِ القَوْلِ الأَوَّلِ مِنْهُمَا: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٦، ١٠٧]. وَلَمْ يَأْتِ بَعْدَ هَذَيْنِ الاسْتِثْنَاءَيْنِ مَا أَتَى بَعْدَ الاسْتِثْنَاءِ المَذْكُورِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٣].

وَهَذَا القَوْلُ - أَعْنِي القَوْلَ بِفَنَاءِ النَّارِ دُونَ الجَنَّةِ - مَنْقُولٌ عَنْ عُمَرَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمْ.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» المَشْهُورِ، بِسَنَدِهِ إِلَى عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ، لَكَانَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَقْتٌ يَخْرُجُونَ فِيهِ». ذَكَرَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾.

قَالُوا: وَالنَّارُ مُوجَبُ غَضَبِهِ، وَالجَنَّةُ مُوجَبُ رَحْمَتِهِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ

غَضَبِي»، وَفِي رِوَايَةٍ: «تَغْلِبُ غَضَبِي». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»[1]، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قال الشيخ:

تكلّم الشارح على فناء النار ومن يخرج منها، والأقوال الستّة التي مرّت بنا من أقوال المبتدعة، فمن عقيدة الخوارج والمعتزلة أنّ من دخل النّار لا يخرج منها، وأنّ العصاة وأصحاب الكبائر لا يخرجون منها، فمن دخلها فهو فيها مخلّد، ويستدلون بمثل قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وبقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، ونحو ذلك من الآيات. ولكن هذه الآيات يراد بها الكفار، ولا يراد بها أهل الكبائر من المؤمنين، أو من أهل التوحيد، فقد ورد الدليل بأنّهم يخرجون بالشفاعة، أو برحمة أرحم الراحمين، يعذّبون بقدر ذنوبهم ثمّ يخرجون. فهذا القول الذي هو قول الخوارج والمعتزلة بتخليد أهل الكبائر في النهار تخليدًا مؤبدًا، قول يخالف الأدلّة الصريحة.

وأمّا قول اليهود: إنّ أهل النّار الذين يدخلونها هم اليهود، ثمّ يخرجون منها، ويخلفهم فيها هذه الأمّة. لما قال لهم: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قالوا: نَكُونُ فيها يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فيها، فقال ﷺ: «اخْسَئُوا فِيهَا، والله لَا نَخْلُفُكُمْ فيها أَبَدًا»[2]. وكذّبهم

---

(١) رقم (٣١٩٤، ٧٤٠٤)، وأخرجه مسلم أيضًا برقم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الله تعالى بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ﴾ [البقرة:٨٠]. وقولهم هذا باطلُ أيضًا؛ لأنّها لا يدخلها إلا أهلها.

وكذلك قول المعتزلة الذي مرّ بنا، وهو قول أبي الهذيل العلاّف: أنّهم تفنى حركاتهم، وتبقى ليس فيها حركة. قولٌ باطل.

وكذلك القول بأنّهم يصبحون فيها ناريّين، وتنقلب طبيعتهم طبيعة ناريّة، يتلذّذون بها كما يتلذّذ أهل الجنّة بالجنّة. هذا قول لا دليل عليه؛ لأنّ الأدلّة دلّت على أنّهم يتألّمون، وأنّهم ينادون، ويقولون: ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]. ويقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٧، ١٠٨]، وأخبر بأنّ ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٦، ١٠٧]. فهذا دليل على أنّهم يتألّمون، ولا ينقطع ألمهم، بل أخبر تعالى بتجديد العذاب عليهم بقوله: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ [النساء:٥٦]. فالنّار تحرقهم حتى يصيروا فحمًا، ثم بعد ذلك يجدّد لهم الجلد واللحم حتّى يتألّموا من جديد مرّة بعد مرّة. وهذا دليل على بطلان قول من قال بأنّ طبيعتهم تتبدّل فتصبح ناريّة، وكذلك قول الذين قالوا: إنّها تبطل حركاتهم، فيصبحون جمادًا لا حركة بهم، وغير ذلك من أقوال المعتزلة ونحوهم.

وما بقي غير القولين الأخيرين. قال بعضهم: إنّهم يبقون فيها مدّة، وبعد

ذلك تفنى، وأنّهم لو مكثوا فيها ما مكثوا لا بدّ من نهايتها. والقول الآخر: أنّهم يبقون فيها، وأنّهم لا يفنون، وأنّها لا تفنى. فالذين استدلّوا على فنائها بقوله تعالى: ﴿ لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [النبأ:٢٣]، كأنّهم يقولون: الأحقاب معدودة، ومعروفة، فيدلّ على أنّ لبثهم فيها محدّد، ثم بعد ذلك يفنى ذلك العذاب.

ومرّ بنا هذا الأثر الذي يستدل عليه بهذه الآية، وأنّهم لو لبثوا فيها من السنين عددًا، كمثل عدد رَمْلِ عَالِجٍ؛ لكان لهم يوم يخرجون منها أو يفنون. والصحيح أنّ هذه الآية ليس فيها تحديد الأحقاب، وقد فسّر بعضهم الحقب بأنّه: مئة عام، وقد أخبر الله تعالى عن موسى - عليه السلام - أنه قال لفتاه: ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف:٦٠]، فإذا كان الحقب مئة عام، فالعام اثنا عشر شهرًا، والشّهر ثلاثون يومًا، واليوم الواحد كألف سنة ممّا تعدّون، فلو قال الله: مئة حقب، أو ألف حقب، أو مئة ألف حقب؛ لكان للكافر نظر ورغبة وأمل ورجاء في أنّ عذابه سيزول، ولكن لم يحدّدها الله، ولأجل ذلك يقول بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿ لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾، أي: «كلّما مضى حقب جاء حقب بعده»[١]، إلى غير نهاية؛ لأنها لم تحدّد.

فلا دلالة في هذه الآية ولا في الآيات التي فيها استثناء، فهو كالاستثناء الذي في نعيم أهل الجنّة، وليس فيه ما يدلّ على أنّ أهل الجنة يخرجون من نعيمهم، أو

---

(١) أخرجه الطبري (٣٠/ ١١) عن قتادة رحمه الله.

أن أهل النار يخلصون من عذابهم، بل الأصح والمعتقد أنّ الجنّة والنّار دائمتان، باقيتان، لا تفنيان، ولا تبيدان أبدًا. وبذلك يرغب العباد في الدار التي لا ينقطع نعيمها، ويخشون من الدار التي لا ينقطع عذابها.

ومرّ بنا أنهّ يجب على المؤمن أن يؤمن بالثواب والعقاب، والجنّة والنّار، في قول النبي ﷺ: «من شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبد الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ على ما كان من الْعَمَلِ»[1]، وفي رواية: «فُتِحَتْ له أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ من أَيِّهَا شَاءَ»[2].

اشترط في هذا الحديث الإيمان بالجنّة والنار. وقد مرّ بنا أنّ من الإيمان بالجنّة والنّار الإيمان بوجودهما الآن، ومرّت بنا الأدلّة على ذلك، ومن الإيمان بهما الإيمان بالأبديّة والدوام والسرمديّة، وأنّهما لا ينقطعان.

والحكمة في ذلك صدق الرغبة. فلو قيل لأهل الجنّة: إنّكم ستزولون عن هذه الحياة، وإنّ نعيمكم سينقطع، ولو بعد مئة ألف عام أو أكثر؛ لتكدّر النعيم، وما صفا العيش، لعلمهم أنّ له انقطاع. كما في هذه الحياة؛ فإنّ الحياة الدنيا ما تكدّرت عند العارفين إلا بسبب زوالها وانقطاعها وانقضائها وتغيراتها، لذلك رغب عنها العارفون، وزهد فيها المؤمنون الأتقياء، ولم ينافسوا في نعيمها، ولا في

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

زخرفها، ولا في زينتها. فإذا عرفوا أنّ الجنّة دائمة مستمرّ نعيمها، حملتهم هذه العقيدة على أن يجعلوا المنافسة فيها، وأن يجعلوا فيها تمام الرغبة، وأن يكثروا من العمل الذي يكون مستمرًا ثوابه، ويكون أجره دائمًا، لا يأتي عليه زوال ولا تحوّل ولا انتقال. وأن يهربوا من الألم والعذاب الأبديّ السرمدي. وهذا يظهر بقوّة التصديق واليقين، فكلّما كان هذا الإيمان قويًا ويقينيًّا، وكلّما كان أتمّ وأقوى، كان الجدّ والنشاط والمثابرة والمنافسة أشد وأقوى في طلب الجنّة، وكان البعد عن النّار وأعمالها أشد، وكان الهرب منها أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف الطلب.

وقد ذكرنا فيما سبق قول بعض السلف: «عجبت من الجنّة كيف ينام طالبها، وعجبت من النّار كيف ينام هاربها»[1]. فالمؤمن لا يزال مثابرًا على طلب ذلك النعيم المقيم الدائم، والهارب من النار لا يزال هاربًا منها ومن أسبابها، فاعلًا كلّ سبب يخلّصه منها. فيستدلّ من ذلك على صدقه وإيمانه وإخلاصه.

فما ازدادت منافستنا في هذه الدنيا إلا لضعف إيماننا، وضعف هذا التصوّر لأبديّة هذا النعيم، وأبديّة هذا العذاب. وقد روي عن بعض السلف أنّه كان كثير البكاء، فقال له رجل: ما لعينك لا تجف؟ قال: «ويحك! إن ربي تواعدني أن يحبسني في جهنم، ولو كان يواعدني أن يحبسني في حمام، لكان ينبغي أن لا يجف لي دمعة»[2]. والحمّام معروف، أنّه بيت فيه حرارة وشدّة وهج يسير، وليس كالنار.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١١٩) ونسبه إلى هرم بن حيان.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٥/ ٣٧٧) ونسبه إلى يزيد بن مرثد.

ورُوي أنّ بعض السلف لَـمّا أُهديت إليه جارية أدخله ابن أخيه الحمام، ثم أدخله بيتًا مطيبًا، فقام يصلى، فقامت فصلت، فلم يزالا يصليان حتى برق الفجر، فأتاه فقال له: أي عم! أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقمت تصلى وتركتها؟ فقال: «إنك أدخلتني أمس بيتًا أذكرتني به النار، ثم أدخلتني بيتًا أذكرتني به الجنة، فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحت»[1].

وفي بعض الأحاديث أن الرسول ﷺ قال لجبريل ـ عليه السلام ـ: «ما لي لم أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكاً قَطُّ؟ قال: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ»[2].

ورُوي أن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء إلى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له النبي ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟، قَالَ: مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ جَهَنَّمَ، مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ فَيُلْقِيَنِي فِيهَا»[3]. مع أنَّ الملائكة من أشرف الخلق وأبعدهم عن المعاصي، ولكن كما قال بعض السلف: من كان بالله أعرف، كان منه أخوف.

فهذا حال الجنّة والنّار وحال العاملين لها.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ٢١٩) ونسبه إلى صلة بن أشيم العدوي.

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ١٣٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة النار (٢١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥٢١) عن أبي عمران الجوني مرسلًا.

قال الشارح:

قَالُوا: وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُخْبِرُ عَنِ العَذَابِ أَنَّهُ: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأنعام:١٥]، و﴿أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٦]، و﴿عَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٥]، وَلَمْ يُخْبِرْ وَلَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ عَنِ النَّعِيمِ أَنَّهُ نَعِيمُ يَوْمٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]. وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ المَلَائِكَةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]. فَلَا بُدَّ أَنْ تَسَعَ رَحْمَتُهُ هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ، فَلَو بَقُوا فِي العَذَابِ لَا إِلَى غَايَةٍ لَمْ تَسَعْهُمْ رَحْمَتُهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»[1] تَقْدِيرُ يَوْمِ القِيَامَةِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَالمُعَذَّبُونَ فِيهَا مُتَفَاوِتُونَ فِي مُدَّةِ لُبْثِهِمْ فِي العَذَابِ بِحَسَبِ جَرَائِمِهِمْ، وَلَيْسَ فِي حِكْمَةِ أَحْكَمِ الحَاكِمِينَ، وَرَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا يُعَذِّبُهُمْ أَبَدَ الآبَادِ عَذَابًا سَرْمَدًا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَأَمَّا أَنَّهُ يَخْلُقُ خَلْقًا يُنْعِمُ عَلَيْهِمْ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهِمْ نَعِيمًا سَرْمَدًا، فَمِنْ مُقْتَضَى الحِكْمَةِ، وَالإِحْسَانُ مُرَادٌ لِذَاتِهِ، وَالِانْتِقَامُ مُرَادٌ بِالعَرَضِ.

قَالُوا: وَمَا وَرَدَ مِنَ الخُلُودِ فِيهَا، وَالتَّأْبِيدِ، وَعَدَمِ الخُرُوجِ، وَأَنَّ عَذَابَهَا مُقِيمٌ، وَأَنَّهُ غَرَامٌ، كُلُّهُ حَقٌّ مُسَلَّمٌ، لَا نِزَاعَ فِيهِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي الخُلُودَ فِي دَارِ العَذَابِ مَا دَامَتْ بَاقِيَةً، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي حَالِ بَقَائِهَا أَهْلُ التَّوْحِيدِ. فَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ الحَبْسِ وَهُوَ حَبْسٌ عَلَى حَالِهِ، وَبَيْنَ مَنْ يَبْطُلُ حَبْسُهُ

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٩٨٧).

بِخَرَابِ الحَبْسِ وَانْتِقَاضِهِ.

قال الشيخ:

هذا يتعلّق بقول من يقول: إنّ عذاب النّار لا يبقى، بل ينقطع وإنّ له حدًّا ونهايةً. وهذا قول قاله بعض العلماء عن اجتهاد. وعلّلوا بهذه التعليلات التي مرّت. ونحن لا نشكّ بأنّ الله رحيم بالعباد، وأنّ رحمته تغلب غضبه، ولكن نعرف أنّه خلق للرحمة أهلًا وخلق للعذاب أهلًا، ولا نشكّ أيضًا بأنّه سبحانه جعل هذا العمل اليسير في الدنيا له ثواب عظيم مضاعف مستمر، وكذلك الكفر اليسير له عذاب دائم مستمر كثير، وذلك لمقتضى حكمته.

فمثلًا: قول النبيّ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَها إِلَّا ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها، وإِنَّ أَحَدَكُم ليَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ، فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُها»[1]. يعني: أنّ بعض النّاس قد يولد كافرًا ويحيا كافرًا أو مبتدعًا، ويمضي عليه عمره وهو على بدعته أو كفره، وقبل موته بيوم أو ساعة أو سويعات؛ يمنّ الله عليه، فيهتدي ويسلم، ويموت على العقيدة وعلى الإسلام، فتكون تلك الساعة أو ذلك اليوم مكفّرًا لما مرّ في عمره، ماحيًا لسيّئاته وآثامه وكفره وشركه وذنبه طول حياته، فتكون ساعة واحدة محت

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٩).

كل أعماله الكفريّة، ختم له بها.

ومن هؤلاء: رجل مقنع بالحديد أتى النبي ﷺ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، أُقَاتِلُ وأسلم، قال: «أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ»، فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ فَقُتِلَ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «عَمِلَ قَلِيلاً وَأُجِرَ كَثِيرًا»[1]. فعمله هذا القليل، ثوابه عليه دائم لا ينقطع.

وبالمقابل قاتل رجلٌ مع المسلمين قتالًا شديدًا، لَا يَدَعُ لهم شَاذَّةً ولا فَاذَّةً إلا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فقالوا: ما أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كما أَجْزَأَ فُلَانٌ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّه مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فتبعه رَجُلٌ من الْقَوْمِ، فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بين ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ على سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ[2]. حبط عمله بهذه الفعلة.

نقول: العمل اليسير يُؤجر عليه العبد أبد الآباد، والكفر اليسير يعذّب عليه أبد الآباد. فلا بدّ أن نقول: إنّ الله تعالى قدّر هذا العذاب لمن كفر به، وخرج عن طاعته، وجعل ذلك مستمرًا لمن يستحقه بلا نهاية، كما خلق النعيم والأجر والثواب المستمرّ الباقي، ولم يجعل له نهايةً، وجعل ذلك ثوابًا لمن عمل صالحًا على عمله بغير نهاية، وهذا كلّه لا يخرج عن حكمة الله.

أمّا الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيّئًا، فهؤلاء أمرهم بيد الله، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم، وإن شاء عذّبهم بقدر سيّئاتهم. يدخلون النّار ويبقون فيها

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٨)، ومسلم (١٩٠٠) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

مدّة طويلة أو قصيرة بقدر ذنوبهم، ثمّ يخرجون منها بعدما يمكثون فيها المدّة التي قدّر الله. فأمّا أنّ النّار تخمد وينقطع عذابها، فهذا على الصحيح لا يكون، بل الله تعالى يقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقد ذكرنا قوله تعالى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣]، يقول العلماء: «كلّما مضى حقب جاء حقب بعده»[1]. فالصحيح أنّها دائمة مستمرة.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣١٠).

قال الشارح:

وَمِنْ أَدِلَّةِ القَائِلِينَ بِبَقَائِهَا وَعَدَمِ فَنَائِهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥]، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٩]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(١) [الحجر:٤٨]، ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥]، أَي: مُقِيمًا لَازِمًا.

وَقَدْ دَلَّتِ السُّنَّةُ الْمُسْتَفِيضَة أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ صَرِيحَةٌ فِي خُرُوجِ عُصَاةِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ، وَأَنَّ هَذَا حُكْمٌ مُخْتَصٌّ بِهِمْ، فَلَوْ خَرَجَ الكُفَّارُ مِنْهَا، لَكَانُوا بِمَنْزِلَتِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَصَّ الْخُرُوجُ بِأَهْلِ الإِيمَانِ، وَبَقَاءُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ لَيْسَ لِذَاتِهِمَا، بَلْ بِإِبْقَاءِ اللَّهِ لَهُمَا.

وَقَوْلُهُ: (وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلًا)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]. وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طُوبَى لِهَذَا، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ، فَقَالَ:

(١) هذه الآية من سورة الحجر وردت في أهل الجنة وليست في أهل النار.

«أَوْ غَيْر ذَلِك يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِم، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُم لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِم». رواه مسلم[(١)]، وأبو داود[(٢)]، والنسائي[(٣)].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢، ٣]. وَالْمُرَادُ: الهِدَايَةِ العَامَّةِ، وَأَعَمُّ مِنْهَا الهِدَايَةِ المَذْكُورَة فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال الشيخ:

مرّت بنا الآيات التي تتعلّق بأبديّة النّار، وهذه الآيات تدلّ على أنّ النّار باقية لا فناء لها، فإنّ قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]،المقيم: الدائم الذي لا يتحوّل ولا يتغيّر ولا ينقطع. وكذلك التعبير بالخلود والأبديّة، يدلّ على أنّ الخلود مستمرّ وكذلك الأبديّة. وكذلك قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، صريحة في أنّهم لا خروج لهم منها، بل هم مستمرّ بقاؤهم. وكذلك لمّا قالوا:

---

(١) برقم (٢٦٦٢).

(٢) برقم (٤٧١٣).

(٣) في المجتبى (١٩٤٧).

﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾، تمنّوا الموت، فقال: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].
وكذلك قوله: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، لا يُقضى عليهم فيستريحون من هذا العذاب، ولكنّهم دائمًا ماكثون فيها.

فالأدلّة التي مرّت معنا واضحة في أنّ النّار والجنّة باقيتان دائمتان مستمرّتان. وهذه عقيدة أهل السنّة. التي يؤمن بها المسلمون، ويدلّ إيمانهم بها على أنّهم يؤمنون بالغيب وإن لم يروه.

وأما أنّ الله تعالى علم أهل الجنّة، وعلم أهل النّار. فهو سبحانه قدّر من يعمل للجنّة، ومن يعمل للنّار، قبل أن يخلق الخلق، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، أو قبل أن يخلق السموات والأرض. ولا شكّ أنّ خلقهم على هذا ابتدأ منه، وهو بكلّ شيء عليم، فهو يعلم من هم أهل الجنّة، ومن هم أهل النّار. والآية صريحة في أنّهم خُلقوا هؤلاء للجنّة وهؤلاء للنّار: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩]، ذرأنا: أي خلقنا، لجهنّم أهلًا. وكذلك في الحديث، قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِم، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُم لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِم»، بل في صلب آدم.

وورد في الحديث: أن النبي ﷺ سُئل عن قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ

وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»[1]، فلا يتجاوز أحد ما خُلق له، ومع ذلك فإنّهم مأمورون ما داموا في هذه الحياة بأن يستعدّوا وأن يعملوا.

ولَـمّا قَالَ الصحابة - رضي الله عنهم - لرسول الله ﷺ: أَفَلَا نَتَّكِلُ على كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»[2].

الله تعالى أمرنا بالعمل، مع أنّه علم من يعمل ومن لا يعمل، وكذلك أمرنا بالدعوة إليه، وأمرنا بأن نعلّم الناس، وأن ندعوهم، وأن نبشّر وننذر، بل لذلك أرسل الرّسل مبشّرين ومنذرين، مع أنّه علم من يطيع ومن يعصي، وعلِمَ من هم أهل الجنّة، ومن هم أهل النار، ولكنّه جعل لذلك أسبابًا، فجعل رسالة الرسل سببًا من أسباب معرفته، والدّعوة إليه، والإيمان به، وكذلك جعل ورثة الرسل الذين يدعون إليه من أسباب العمل الصالح؛ لأن اللّـهَ يهدي على أيديهم من جعله اللّـهُ من أهل الجنّة.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٠٤).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٣).

قال الشارح:

فَالمَوْجُودَات نَوْعَان: أَحَدُهُمَا مُسَخَّرٌ بِطَبْعِهِ، وَالثَّانِي: مُتَحَرِّكٌ بِإِرَادَتِهِ، فَهَدَى الأَوَّلَ لِمَا سَخَّرَهُ لَهُ طَبِيعَةً، وَهَدَى الثَّانِي هِدَايَةً إِرَادِيَّةً تَابِعَةً لِشُعُورِهِ وَعِلْمِهِ بِمَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ.

ثُمَّ قَسَّمَ هَذَا النَّوْعَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

نَوْعٌ لَا يُرِيدُ إِلَّا الخَيْرَ، وَلَا يَتَأَتَّى مِنْهُ إِرَادَةُ سُوَاه، كَالمَلَائِكَة.

وَنَوْعٌ لَا يُرِيدُ إِلَّا الشَّرَّ، وَلَا يَتَأَتَّى مِنْهُ إِرَادَةُ سُوَاه، كَالشَّيَاطِين.

وَنَوْعٌ يَتَأَتَّى مِنْهُ إِرَادَةُ القِسْمَيْنِ، كَالإِنْسَان. ثُمَّ جَعَلَهُ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ:

صِنْفًا يَغْلِبُ إِيمَانُهُ وَمَعْرِفَتُهُ وَعَقْلُهُ هَوَاهُ وَشَهْوَتَهُ، فَيَلْتَحِقُ بِالمَلَائِكَةِ.

وَصِنْفًا عَكْسه، فَيَلْتَحِقُ بِالشَّيَاطِين.

وَصِنْفًا تَغْلِبُ شَهْوَتُهُ البَهِيمِيَّة عَقْلَهُ، فَيَلْتَحِقُ بِالبَهَائِم.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْطَى الوجُودَيْنِ: العَيْنِي وَالعِلْمِي، فَكَمَا أَنَّهُ لَا مَوْجُودَ إِلَّا بِإِيجَادِهِ، فَلَا هِدَايَة إِلَّا بِتَعْلِيمِهِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَثُبُوتِ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَتَحْقِيقِ رُبُوبِيَّتِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: (فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الجَنَّةِ فَضْلًا مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ عَدْلًا مِنْهُ) إِلَخ. مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَمْنَعُ الثَّوَابَ إِلَّا إِذَا مَنَعَ سَبَبَهُ، وَهُوَ العَمَلُ الصَّالِحُ، فَإِنَّهُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]. وَكَذَلِكَ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ حُصُولِ سَبَبِ

العِقَابِ، فَإِنَّ اللَّـهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُعْطِي الْمَانِعُ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، لَكِنْ إِذَا مَنَّ عَلَى الإِنْسَانِ بِالإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، لَا يَمْنَعُهُ مُوجِبُ ذَلِكَ أَصْلًا، بَلْ يُعْطِيهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالقُرْبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَحَيْثُ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَلِانْتِفَاءِ سَبَبِهِ، وَهُوَ العَمَلُ الصَّالِحُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، لَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ حِكْمَةٌ مِنْهُ وَعَدْلٌ، فَمَنْعُهُ لِلأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنْ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَأَمَّا المُسَبَّبَاتُ بَعْدَ وُجُودِ أَسْبَابِهَا، فَلَا يَمْنَعُهَا بِحَالٍ، إِذَا لَمْ تَكُنْ أَسْبَابًا صَالِحَةً، إِمَّا لِفَسَادٍ فِي العَمَلِ وَإِمَّا لِسَبَبٍ يُعَارِضُ مُوجِبَهُ وَمُقْتَضَاهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ لِعَدَمِ المُقْتَضِي، أَوْ لِوُجُودِ المَانِعِ، وَإِذَا كَانَ مَنْعُهُ وَعُقُوبَتُهُ مِنْ عَدَمِ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ لَمْ يُعْطِ ذَلِكَ ابْتِدَاءً حِكْمَةً مِنْهُ وَعَدْلًا، فَلَهُ الحَمْدُ فِي الحَالَيْنِ، وَهُوَ المَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، كُلُّ عَطَاءٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلُّ عُقُوبَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكِيمٌ، يَضَعُ الأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا الَّتِي تَصْلُحُ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا زِيَادَةُ بَيَانٍ، إِنْ شَاءَ اللَّـهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلّق بخلق الله تعالى أهل الجنّة وأهل النّار وتقسيمهم؛ لأنّه سبحانه خلق الجنّة وخلق لها أهلًا، وخلق النّار وخلق لها أهلًا، وكلّ موفّق وميسّر لما خُلق له، ولا يتجاوزون ما قدّر لهم. ولكنّه سبحانه جعل بعض الخلق شرًّا محضًا، وبعضهم خيرًا محضًا، وبعضهم فيه مادّتان؛ مادة خير، ومادة شر.

فالملائكة ـ كما مرّ بنا ـ كلّهم خير، ليس فيهم نفوس شريرة، بل كلّهم يعبدون الله. يقول النبيّ ﷺ: «أَطَّتْ السَّماءُ وَحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ، ما فيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصابِعَ إلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»[1].

وعن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ، مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَقْطُرُ مِنْهُ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلَكٍ يُصَلِّي، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً رُكُوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١١٨).

(٢) أخرجه محمد بن نصر المروزي كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٦)، وقال ابن كثير: «إسناده =

وقد ذكر من عبادتهم واجتهادهم في الطاعات وأنواع القربات، مع أنّهم ليس لهم شهوة تحملهم على المعاصي، فلأجل ذلك كانوا كلّهم على خير، وأخبر الله بأنّهم يخدمون أهل الجنّة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٧٥].

أمّا القسمُ الثّاني: فهم الشياطين، ولا شكّ أنّهم خلقوا للشرّ، وأنّهم خلقوا للنّار، وأنّهم مستعدون للقدوم عليها؛ لأنّهم خلقوا منها. ولهذا لا يتألّمون بالنّار في الدّنيا، ومنهم شياطين الجنّ، فإنّهم أيضًا خلقوا من نار، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥]. الشياطين ـ الذين هم إبليس وذريّته ـ كلّهم شرّ محض، ليس فيهم خير أصلًا، وهؤلاء أهل النّار.

القسم الثالث: الإنسان، وقيل: الثقلان: الجنّ والإنس، فهؤلاء فيهم خير، وفيهم شرّ، فمنهم من يغلب خيره، أو يكون كلّه خير وهم الأنبياء، وورثة الأنبياء والأتقياء والعبّاد والزهّاد المؤمنون صادقو الإيمان، هؤلاء يحميهم الله عن

=

لا بأس به»، وأخرجه بنحوه: البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٨٣)، وسمى الصحابي أبا جحش، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٩٣)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٤٧)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٠٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٦١).

الذنوب وعن الكبائر فلا يقربونها، ويحفظون أوقاتهم كلّها بالطاعة، ويتقرّبون إلى ربّهم بأنواع العبادة، فهؤلاء يلحقون بالملائكة، ومنهم من يكونون بضدّ ذلك، منهم أشرار وكفرة وفجرة وفسّاق خارجون عن الطاعة، لا يألفون العبادة، ولا يحبّونها، ويألفون الكفر والفسوق والعصيان، ويتلذّذون بالمعصية، وينفرون من الطاعة، فهؤلاء يلحقون بالشياطين، ويكونون منهم ومن أتباعهم، يدخلون في قول الله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٥]، وكذلك قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:٩٤، ٩٥]. فهذا القسم مُلحق بالشياطين.

ومن القسم الثالث نوع تغلب عليهم الحياة البهيميّة: وهم الذين يجعلون عقولهم تبعًا لما يشتهونه، فيسخّرون عقولهم للشهوات البهيميّة الدنيويّة، فهؤلاء ملحقون بالبهائم، ولكن هم أقرب إلى من اتّبع هواه وعَبَده، فإنّ الله تعالى أخبر بأنّه يكون منهم من يعبد هواه، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

وفي الأثر: «مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ مِن إِلَهٍ يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ أَعْظَمُ عِنْدِ اللَّهِ من هَوًى مُتَّبَعٍ»[1]. الذي يعبد هواه: هو الذي لا يهوى شيئًا ولا يشتهي شيئًا إلّا ركبه. فانْظر أي الأقسام أحسن، فاختر أن تكون منهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٨)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١١٨) من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٨): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه الحسن بن دينار، وهو متروك الحديث».

يقول بعض العلماء: إنّ نفوس البشر ثلاثة أقسام:

نفوس علويّة ملكيّة، وهي نفوس الأتقياء الأصفياء، عباد الله المخلصين.

ونفوس بهيميّة: بمعنى أنّها ليس لها إلا هواها وشهواتها، وما تميل إليه بطباعها، فهؤلاء ملحقون بالبهائم، أشبه ما يكونون بمن لا عقول لهم، داخلون في قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقسم نفوسهم سبعيّة: وهم الذين من طبعهم الاعتداء والظلم والتجبّر والتكبّر والتسلّط على الغير وحبّ السلطة والسيطرة والتعدّي، فهؤلاء أشبه ما يكونون بالسّباع الضارية. وأفضل الأقسام: القسم الذين نفوسهم ملكيّة علويّة، همّتهم رفيعة وليست دنيئة.

هكذا اقتضت حكمةُ الله تقسيم الخلق هذه الأقسام الثلاثة. يعني: الملائكة والشياطين وبني آدم، وجعل الله في بني آدم هذه الأقسام الثلاثة. والله تعالى هو الذي يخلق ما يشاء ويختار.

وأما تقدير الله تعالى لأهل الجنّة ولأهل النار؛ فمعلوم أنّ الله تعالى حكيم في قدرته وفي تدبيره وفي تقديره، وأنّه لو عذّب أهل سمواته وأهل أرضه لما كان ظالمًا لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته أكبر من أعمالهم، فإنّهم ما عملوا ولا آمنوا ولا اتّقوا إلا بفضله[1]:

مَا لِلعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٣٩).

إِنْ عُـــذِّبُوا فَبِعَدْلِــهِ أَو نُعِّمُــوا فَبِفَـضْلِهِ وَهُـوَ الكَـرِيْمُ الوَاسِـعُ

فهو سبحانه خلق الجنّة وخلق لها أهلًا، وقدّر أعمالهم وييسّر لهم السبل والوسائل التي تجعلهم من أهلها، وتلحقهم بالعباد الصالحين، وكذلك قدّر للنّار أهلًا؛ لأنّ هاتين الدارين دار الثواب ودار العقاب قد وعدهما الله تعالى بأن يملأ كلًّا منهما. فلا بدّ من أن يدخلهما الله من يستحقّهما، فبفضله يُنعمُ على أهل الجنّة، وبعدله يعذّب أهل النّار، لا يظلم أحدًا. ﴿وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣١].

من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرّه. وكلّ منهما يحتاج إلى تفاصيل كثيرة. والمؤمن الذي يؤمن بالله يؤمن بما أخبر به من التفاصيل في هذه الأشياء؛ لأنّه من تمام الإيمان بالله الإيمان بما أخبر به عمّا هو كائن، ومن علامات الإيمان باليوم الآخر الاستعداد له.

ويوم القيامة: عظيم الهول، عظيم الكرب، سمّاه الله يوم الفزع الأكبر. وأمّا تفاصيله، فإنّها مأخوذة من الأدلّة التفصيلية التي اشتملت عليها الآيات والأحاديث، فإذا عرفها المؤمن؛ ظهر عليه أثرها، فيستعدّ لهذا اليوم إذا آمن به، ويؤمن بأنّ الجنّة دار الكرامة لأولياء الله، وأنّ النّار دار العذاب لأعداء الله. ولكلّ منهما أهل، وقد وعد الله كلًّا منهما بملئها، كما في قول النبيّ ﷺ: «تَحَاجَّتْ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فقالت النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتْ الجَنَّةُ: ما لي لَا يَدْخُلُنِي إلا ضُعَفَاءُ الناس وَسَقَطُهُمْ، قال اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ

من أَشَاءُ من عِبَادِي، وقال لِلنَّارِ: إنما أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ من أَشَاءُ من عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا»[1].

وإذا كان كذلك، فإنّه يستعدّ لما ينجيه من النّار، ويدخله الجنّة، وأمّا صفة ما فيهما فقد فصّلت في الأدلّة، وألّفت فيها المؤلّفات؛ فلابن القيم رحمه الله كتاب قيّم اسمه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، جمع فيه صفة الجنّة وما ورد فيها، وذكر فيه درجاتها، وأبنيتها وقصورها وأنهارها وأشجارها وثمارها وحورها وسُررها وفرشها، وجميع ما أخبر الله، وفصّل ذلك. وكذلك لتلميذه ابن رجب رحمه الله كتاب سمّاه «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار»، تكلّم فيه عن النّار وعذابها وحميمها وزقومها وأغلالها وزمهريرها ودركاتها وحال أهلها وما ورد فيهم. فإن قرأ القارىء هذا الكتاب اشتدّ خوفه، واشتدّ فزعه، وإن لم يكن فيه تفصيل الأعمال التي يستحقّ بها النّار، وإنّما فيه ذكر العذاب في النّار. وأمّا الأعمال فهي مذكورة في الأدلّة مبسوطة تجدون مثلًا الأحاديث والآيات التي ذكر فيها أهل النار وأهل الجنّة، وهي مشروحة وموسّع الكلام فيها، فإذا عرفها المسلم فلا شكّ أنّه يهتمّ بها. ويعرف الأعمال الصالحة التي تصيّر أهلها من أصحاب الجنّة فيعملها، ويعرف الأعمال التي تُوعِّد عليها بالعذاب والنّار، فيتركها ويبتعد عنها وعن أهلها، حتّى يكون من أهل الوعد ويسلم من الوعيد.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الطحاوي:

وَالاسْتِطَاعَةُ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الفِعْلُ، مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لا يُوْصَفُ المَخْلُوقُ بِهِ تَكُونُ مَعَ الفِعْلِ، وَأَمَّا الاسْتِطَاعَةُ مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ والوُسْعِ والتَّمْكِينِ وَسَلامَةِ الآلاتِ، فَهِيَ قَبْلَ الفِعْلَ، وبِهَا يَتَعَلَّقُ الخِطَابُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال الشارح:

الاسْتِطَاعَةُ وَالطَّاقَةُ وَالقُدْرَةُ وَالوُسْعُ، أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةٌ، وَتَقْسِيمُ الاسْتِطَاعَةِ إِلَى قِسْمَينِ ـ كَمَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ هُوَ قَوْلُ عَامَّةِ أَهْلُ السُّنَّةِ، وَهُوَ الوَسَطُ، وَقَالَتِ القَدَرِيَّةُ وَالمُعْتَزِلَةُ: لَا تَكُونُ القُدْرَةُ إِلَّا قَبْلَ الفِعْلِ، وَقَابَلَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَقَالُوا: لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الفِعْلِ.

وَالَّذِي قَالَه عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ لِلعَبدِ قُدْرَةً هِيَ مَنَاطُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهَذِهِ قَدْ تَكُونُ قَبْلَهُ، لَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ، وَالقُدْرَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الفِعْلُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَعَ الفِعْلِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ الفِعْلُ بِقُدْرَةٍ مَعْدُومَةٍ.

وَأَمَّا القُدْرَةُ الَّتِي مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالوُسْعِ، وَالتَّمَكُّنِ وَسَلَامَةِ الآلَاتِ، فَقَدْ تَتَقَدَّمُ الأَفْعَالَ، وَهَذِهِ القُدْرَةُ المَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فَأَوْجَبَ الحَجَّ عَلَى المُسْتَطِيعِ، فَلَوْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِلَّا مَنْ حَجَّ، لَمْ يَكُنِ الحَجُّ قَدْ وَجَبَ إِلَّا عَلَى مَنْ حَجَّ، وَلَمْ يُعَاقِبْ أَحَدٌ

عَلَى تَرْكِ الحَجِّ! وَهَذَا خِلَافُ المَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الإِسْلَامِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]، فَأَوْجَبَ التَّقْوَى بِحَسَبِ الاسْتِطَاعَةِ، فَلَوْ كَانَ مَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّقْوَى، لَمْ يَكُنْ قَدْ أَوْجَبَ التَّقْوَى إِلَّا عَلَى مَنِ اتَّقَى، وَلَمْ يُعَاقِبْ مَنْ لَمْ يَتَّقِ! وَهَذَا مَعْلُومُ الفَسَادِ.

وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ [المجادلة:٤]. وَالمُرَادُ مِنْهُ اسْتِطَاعَةِ الأَسْبَابِ وَالآلَاتِ.

وَكَذَا مَا حَكَاهُ سُبْحَانَهُ مِنْ قَوْلِ المُنَافِقِينَ: ﴿ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ [التوبة:٤٢]، وَكَذَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ القَوْلِ، وَلَوْ كَانُوا أَرَادُوا الاسْتِطَاعَةَ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ قُدْرَةِ الفِعْلِ، مَا كَانُوا بِنَفْيِهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَاذِبِين، وَحَيْثُ كَذَّبَهُمْ دَلَّ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ المَرَضَ، أَوْ فَقْدَ المَالِ، عَلَى مَا بَيَّنَ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾ [التوبة:٩١ - ٩٣]. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [النساء:٢٥]. وَالمُرَادُ اسْتِطَاعَةُ الآلَاتِ وَالأَسْبَابِ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ لِعُمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: «صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»(١). وَإِنَّمَا نَفَى اسْتِطَاعَةِ الفِعْلِ مَعَهَا.

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٧).

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق بركن من أركان الإيمان وهو القدر. والقدر كما نُقل عن الإمام أحمد: هو قدرة الله. والمعنى: أنّ الله قادر على كلّ شيء، وأنّه يدخل في قدرته أفعال العباد وقدرتهم، وأنّه هو الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، ومن الإيمان بالقدر الإيمان بأنّ للإنسان قدرة وإرادة على أفعاله وبها أصبح مكلّفًا، وأمّا من فقد القدرة فقد سقط عنه التكليف؛ لأنّ هذا شيء محسوس ظاهر ليس فيه خطأ، فالإنسان الأعمى لا يكلّف أن يقرأ في الكتاب، والإنسان الأعرج لا يكلّف أن يسعى السعي الشديد في الرّمل أو الطواف أو السعي. وقد أسقط الله الجهاد عن المعذورين، فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح:١٧]، ونحْوِ ذلك مِن الآيات.

كما مرّ معنا من كلام الشارح: أنّ الاستطاعة تنقسم قسمين: استطاعة بمعنى التوفيق، وهذه لا يملكها إلا الله، واستطاعة بمعنى مزاولة الفعل، وهذه يوصف بها العبد.

فأمّا التوفيق والإلهام والهداية، فهي إلى الله، ولا يستطيعها العباد، وقد نفاها الله تعالى عن نبيّه، فقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦]. وقال: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف:١٧]. وقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧]، وفي قراءة: {لَا يُهْدَى مَنْ يُضِلُّ}، أي: من أضلّه الله لا أحد يقدر على هدايته. فهذه الهداية تستدعي توفيق الله وإلهامه

وإفهامه، وتستدعي الإقبال بقلبه وقالبه إلى الأعمال، وتستدعي هدايته وتوفيقه، هذه هي حقيقة خلق الله وفعل الله، ولكن الإنسان أيضًا له قدرة على بعض الأسباب، فيجعلها الله سببًا لهداية بعض الناس.

ولأجل ذلك قال النبيّ ﷺ لعليّ ﷺ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1]؛ يهدي الله بك: أي يجعلك سببًا في الهداية، والله هو الهادي، بمعنى أنك بيّنت لذلك الرجل ودعوته وحذّرته وخوّفته وأنذرته، ودعوته إلى ما ينفعُه، وبيّنت له ما ينفع، وما يضرّ، وعاقبة هذا وعاقبة هذا، فالله قذف في قلبه المعرفة والقبول، وتقبّل ما جئت به، فأصبح بذلك قابلًا وأيّ قبول. فمثل هذا يكون سببًا في الهداية. فأصلها من الله، وأنت منك الأسباب.

ويدخل في ذلك قول الرسول ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدَى، كَانَ لَهُ مِثْلَ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ»[2]. سمّاه هدى، أي: ضدّ الضلال. فالداعي متسبِّب، والله هو الذي جعل السبب مؤثّرًا ومفيدًا.

وبعد ذلك القسم الثاني من الاستطاعة: وهي الاستطاعة التي هي مزاولة الفعل والقدرة عليه، وهي التي لا يكلّف الله إلا من قدر عليها. فالعاجز عن الحج ماليًّا لا يستطيعه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧]، فالفقير الذي لا يجد مالًا يوصله إلى مكّة؛ فهذا لا يستطيع، ولو كان يستطيع بدنيًّا. والّذي لا يستطيع بدنيًّا كالذي لا يستطيع ركوب سيّارة أو طائرة مثلًا لمرض أو شلل أو خوف، يقال: لا يستطيع الثبوت على المركوب، فهو بذلك لايستطيع ببدنه.

معلوم أنّ الله تعالى لا يكلّف الإنسان مع عجزه، إنّما يكلّفه إن كان قادرًا وإن كان فاهمًا. ولذلك أسقط الله التكاليف عن الأطفال؛ لكونهم غير قادرين أو فاهمين، وأسقطها عن فاقد العقل لنقصه معنويًا، وكذلك أسقطها عن العاجزين، كما في قوله تعالى في الجهاد: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة:٩١]، يعني: ليس عليهم حرج في أن يتخلّفوا عن الجهاد؛ لأن مثل هؤلاء لا يستطيعون، فالضعفاء لا يستطيعون أن يخوضوا المعارك، وكذلك المرضى لا يستطيعون ذلك، وكذلك الّذين لا يجدون ما ينفقون، فهو لا يجد مركوبًا أو سلاحًا وعدّة، هؤلاء أسقط الله عنهم الجهاد، كما أسقط عن العاجزين ماليًا وبدنيًا الحجّ بقوله تعالى: ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧]، وفسّرت السبيل: بالزاد والراحلة، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما يوجب الحج؟ قال: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ»[1]، فدلّ على أن الاستطاعة قدرة العبد من حيث المال والبدن.

---

(١) أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، والبيهقي (٤/ ٣٢٧).

فإن كان الفعل يستدعي مالًا مثل الحج والجهاد، سقط عنه إن كان لا يجد، فإن كان لا يستدعي مالًا كالقريب من مكّة، ولكن يستدعي قوّة بدن، وكان هذا الإنسان عاجزًا بدنيًا سقط عنه. والجهاد كذلك يسقط عنه إن كان عاجزًا بدنيًا، فإن كان عاجزًا ماليًّا، ولكن هناك من تكفّل به، وجهّزه فإنّه لا يسقط عنه. كذلك العبادات البدنيّة المحضة، فإن كان فيها مشقّة، فإنّها تسقط أو تؤجّل، مثل: فطر الصائم في المرض أو في السفر، يقال: لا يستطيع الصيام وهو مريض أو مسافر للمشقّة، فيؤجّل الصيام. أمّا الصلاة فإنّها عمل بدنيّ، ولذلك تتوقّف أعمالها على القوّة والقدرة، فإذا لم يستطع أن يحصل على الماء، سقطت عنه الطهارة بالماء، واكتفى بالتيمّم، فيقال: لا يستطيع أن يجد الماء، أو لا يستطيع استعمال الماء لمرض أو حرق أو نحو ذلك. وكذلك فعل الصلاة إذا لم يستطع أن يصلي وهو قائم صلّى وهو جالس، وإن لم يستطع صلى على جنب أو مستلقيًا؛ لأن هذا قد فقد نوعًا من الاستطاعة البدنية فانتقل إلى ما يستطيعه، ويعرض ذلك العرض في كلّ شيء، حتى قال بعضهم[1]:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

أراد بذلك الأمور العادية، يعني الأفعال المحسوسة، في الحرف مثلًا الأجسام تختلف، فالإنسان الذي معه قوة بدنيّة يستطيع حمل الأثقال، وآخر لا يستطيع ذلك، ولكن يستطيع أن يفعل الأفعال التي ليس فيها حمل ولا ثقل

(١) ذكر هذا البيت ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٦٠) ونسبه إلى عمرو بن معد يكرب ﷺ.

ونحو ذلك؛ كحراسة وما أشبهها، فالنّاس يتفاوتون في هذه الاستطاعة.

معلوم أنّ الاستطاعة تكون قبل الفعل ومع الفعل. فمثلًا نرى إنسانًا قويًا مكتملًا، فنقول: أنت تستطيع أن تصلّي قائمًا. وإن رأينا إنسانًا قويًا غنيًا فنقول: أنت مكلّف بالحجّ؛ لأنّك تستطيعه ماليًا وبدنيًا. وهذه الاستطاعة تستمر إلى أن ينتهي من العمل، فتكون قبل الفعل، وفي أثناء الفعل. ولأجل هذا لو صلّى ركعتين من الظهر وهو قائم ثم عجز، جلس وأتمّ بقيّة صلاته جالسًا. وكذلك في الحج، فلو أنّه عمل أعمال الحج، ثم عجز عن بعضها كالرمي مثلًا، وكّل فيه وسقط عنه لعجزه. ويقال هكذا في سائر الأفعال. فالاستطاعة تكون قبل الفعل، ولا يخاطبها إلا من كان مستطيعًا قبل مزاولة الفعل. وتكون في أثناء الفعل.

وقولُ من قال: إنّ الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، قول باطل؛ لأنّه لو كان كذلك، لم يكن الإنسان مكلّفًا حتى يفعل، فلا يكون على القادر توبيخ، فإذا كان الإنسان قادرًا على الحج، ولكنّه تركه، وقال: أنا غير مكلّف حتّى أفعل، قلنا له: أنت مكلّف من الآن؛ لأنّك موصوف بالقدرة المالية والبدنية، فيلزمك أن تباشر الفعل. ويقال كذلك أيضًا في الإنسان الصحيح البدن الذي يسمع النداء بالصلاة ولا عُذر له، يستطيع أن يأتي المسجد فيؤدي الصلاة فيه، فهل يقال: أنت لا تستطيع حتّى تباشر الفعل، أنت غير مكلّف حتّى تبدأ في الفعل؟! لو قيل كذلك، لسقطت كثير من العبادات. لو قيل: وأنت لست بمكلّف ما دمت في بيتك حتّى تبدأ بمباشرة الفعل، لاعتذر الكثير، وقالوا: لا نكون قادرين إلا إذا باشرنا. وهذا قولٌ لا يقوله عاقل.

فمثلًا في النكاح يقول النبيّ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! من اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فإنه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فإنه له وِجَاءٌ»[1]، فما معنى الاستطاعة هنا؟ هل يقال: أنت لا تستطيع حتّى تدخل بالزوجة؟ إذا رأيناه مثلًا يملك المال والأهليّة، قلنا: أنت مستطيع أن تتزوّج، فلو قال مثلًا: ما دمت لم أتزوّج؛ فأنا لي رخصة في أنْ أترك الزواج، قلنا: هذا خلاف العقل. وقول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ [النساء:٢٥]، رخصة في أن ينكح الأمة المملوكة، فهل هذه الرخصة ما تكون إلا لمن عجز بعد الفعل، نقول: ليس كذلك، بل إذا رأيناه ذا مال يقدر على مهر الحرّة، منعناه أن يتزوّج الأمة، وقلنا: لا تحلّ لك. قد يقول: ما دمت لم أتزوّج فأنا غير مستطيع، نقول: أنت الآن مستطيع، والمال موجود عندك. وهكذا يقال في أنواع الاستطاعة.

أمّا الجهميّة الذين قالوا: إنّ العبد ليس له حركة، وإنّ حركاته ليست اختياريّة، بل اضطراريّة، ويسمّون المجبرة. فهؤلاء سلبوا العبد قدرته، وسلبوه اختياره، وجعلوا حركات يديه أو ركوعه أو سجوده أو زناه أو سكره اضطرارًا أو إجبارًا ليس له أي اختيار، وقالوا: إنّما هو بمنزلة أغصان الشجرة التي تحرّكها الرياح، أو حركة المرتعش الذي ترتعش يداه ولا يقدر على إمساكهما، وكذا جعلوا طاعاته ومعاصيه خارجة عن استطاعته ليس له أيّ اختيار، فأبطلوا بذلك الأوامر

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٥، ٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

والنّواهي، وأبطلوا بذلك الشريعة كلّها، ومع ذلك فإنّهم متناقضون، وقد مرّ معنا كثير من تناقضهم. وذلك أنّك لو ضربت أحدهم واحتججت بالقدر ما عذرك، ولا تركك تضربه، فكذلك أيضًا نقول: لا تحتجّ بالقدر على فعل المعاصي وترك الطاعات، بل عليك أن تزاول الفعل بقدر استطاعتك التي منحك الله، فالله أعطى الإنسان استطاعة بها يزاول الأفعال، ولولا تلك الاستطاعة لما حصل تكليفٌ بهذه العبادات وبهذه الأفعال، ولو نُفيت لبطلت الشريعة.

أمّا مذهب المعتزلة الذين يجعلون أفعال العبادر صادرة منهم، ليس لله قدرة على أفعالهم، فإن المعتزلة من مذهبهم أنّ العبد هو الذي يخلق فعله، وليس لله قدرة على أفعال العبد، فجعلوا العبد مستقلًا بفعله، ونفوا قدرة الله عليه، ونفوا الأدلّة التي تدلّ على ذلك. فقالوا: إنّ الله لا يقدر أن يهدي ولا أن يضلّ، بل العبد هو الذي يهدي نفسه، ويضلّ نفسه. وجعلوا للعباد الاختيار، لا لله تعالى، وأبطلوا قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، وأبطلوا عموم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة:١٢٠]، وقالوا: لا يقدر إلّا على ما يشاء، لا على كلّ شيء. وهكذا قالوا بكلّ ما هذا سبيله.

فنقول: لا شكّ أنّ هذا قول باطل؛ لأنّنا نؤمن بقدرة الله، ونؤمن بعمومها، ولا ينافي ذلك أنّه أعطى العباد قدرة يزاولون بها أعمالهم، أصبحوا بها مكلّفين يثابون على الخير، ويعاقبون على الشرّ. ولكن تلك القدرة مغلوبة بقدرة الله، فقدرة الله غالبة على قدرتهم، وإرادته غالبة على إرادتهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا دَلِيلُ ثُبُوتِ الِاسْتِطَاعَةِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ الْقُدْرَةِ، فَقَدْ ذَكَرُوا فِيهَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، وَالْمُرَادُ: نَفْيُ حَقِيقَةِ الْقُدْرَةِ، لَا نَفْيُ الْأَسْبَابِ وَالْآلَاتِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ ثَابِتَةً. وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ عِنْدَ قَوْلِهِ: (وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَكَذَا قَوْلُ صَاحِبِ مُوسَى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٦٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٢]، وَالْمُرَادُ مِنْهُ: حَقِيقَةُ قُدْرَةِ الصَّبْرِ، لَا أَسْبَابُ الصَّبْرِ وَآلَاتُهُ، فَإِنَّ تِلْكَ كَانَتْ ثَابِتَةً لَهُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ عَاتَبَهُ عَلَى ذَلِكَ؟ وَلَا يُلَامُ مَنْ عَدِمَ آلَاتِ الْفِعْلِ وَأَسْبَابِهِ عَلَى عَدَمِ الْفِعْلِ، وَإِنَّمَا يُلَامُ مَنِ امْتَنَعَ مِنْهُ الْفِعْلُ لِتَضْيِيعِهِ قُدْرَةَ الْفِعْلِ؛ لِاشْتِغَالِهِ بِغَيْرِ مَا أُمِرَ بِهِ، أَوْ شُغْلِهِ إِيَّاهَا بِضِدِّ مَا أُمِرَ بِهِ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْقُدْرَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا حِينَ الْفِعْلِ. يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُدْرَةَ لَا تَصْلُحُ لِلضِّدَّيْنِ، فَإِنَّ الْقُدْرَةَ الْمُقَارِنَةَ لِلْفِعْلِ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِذَلِكَ الْفِعْلِ، وَهِيَ مُسْتَلْزِمَةٌ لَهُ، لَا تُوجَدُ بِدُونِهِ.

قال الشيخ:

معلوم أنّ للإنسان قدرة عامّة، ولكن قد يغلب تلك القدرة والاستطاعة ما يفوّتها عليه، ففي قصّة موسى ـ عليه السلام ـ والخضر، أنّ الخضر قال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف:٦٧ ـ ٦٨]، ولكنّ موسى ـ عليه السلام ـ قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ

أَمْرًا ﴾ [الكهف:٦٩]، مع ذلك لم يستطع الصبر؛ لأَنّه رأى ما أنكره، فهو لم يستطع أن يصبر عندما خرق الخضر السفينة؛ لأنه رأى خرق السفينة سببًا لإغراقها، فأخبره الخضر بأنّه أراد بذلك عيبها حتّى لا تؤخذ منهم. ولَـمَّا رآه قتل غلامًا بغير ذنب لم يصبر؛ لأنه لم يعلم عاقبة هذا الغلام أنّه طبع كافرًا. ولَمَّا أنّ الخضر أقام الجدار في تلك القرية التي لم يضيّفه أهلها، استنكر ذلك وقال: لم يضيّفونا، ومع ذلك تقيم جدارهم! وهو لم يستطع أن يصبر مع أنّه قادر على أن يمسك نفسه. فقوله: ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾، ليس المراد: لن تستطيع بدنيًّا، ولن تستطيع عقلًا، بل نقدر أنّك إن رأيت شيئًا تستنكره وتستقبحه، فالعادة أنّك تندفع، ولو كنت لا تدري ما عاقبته. فهذا معنى الاستطاعة في هذا الباب، وبلا شكّ أنّ هذه الاستطاعة مقدورة، ولو لم تكن كذلك، لما قال موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، فأراد بأنّه قادر على الاستطاعة.

فالاستطاعة إذًا: استطاعة مالية، وهي استطاعة الذي يريد الحجّ ونحوه، واستطاعة بدنيّة كاستطاعة صوم الكفّارات ونحوها. وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء:٩٢]، يعني: في كفّارة القتل، وفي كفّارة الظهار، هذا فيمن لم يستطع العتق وهو استطاعة ماليّة. واستطاعة بدنيّة ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]. أي: فمن لم يستطع الصيام لعذر من الأعذار.

ويقال كذلك في قدرة الله تعالى، وأنّ قدرته عامّة، وأنّه جعل للعباد القدرة

على مزاولة أعمالهم.

وأمّا الآية التي بدأ بها الشارح هنا، وهي قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، فمعلوم أنّ لهم أسماعًا، وأبصارًا، ولكن كأنّهم ينفرون من هذا الشيء، فلا يستطيعون أن ينصتوا ويستمعوا له، وكذلك لا يستطيعون مقابلته، ففي إمكانهم أن يستمعوا، ولكن الدوافع تدفعهم.

وقد ذكر الله مثال ذلك عن المشركين في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥]، معلوم أنّ هذا ليس بظاهر، فقلوبهم كقلوب غيرهم، ولكن كأنّهم يقولون: كلامك لا يدخل في قلوبنا، ولا يدخل في أسماعنا، ولو سمعناه لم نتأمّله ولم نتعقّله، ولا ننظر إليك نظر اعتبار. هل يقال: إنّهم عاجزون عن السمع؟ والجواب: أنهم ليسوا عاجزين، فكذلك قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، هم قادرون على السمع ولكن ينفرون منه، والنفرة من الحقّ بسبب وسوسة الشيطان.

وكثير من أهل البدع لا يستطيعون أن يستمعوا النصائح التي تخالف بدعهم، بل إمّا أنّهم لا ينصتون إليها، وإما أنّهم إذا حضروها أخذوا يتكلّمون، كما في قول المشركين لبعضهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦]. وإمّا أن يهربوا، ويخرجوا ويبتعدوا، كما حكى الله تعالى عن نوح ـ عليه السلام ـ أنّه قال: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧]، كأنّهم يقولون: نخشى أنّ نسمع فيدخل

شيء في قلوبنا أو يعلق به. وهكذا يقوله كثير من المبتدعة الآن.

كما حكى لنا بعض الإخوة الذين ذهبوا إلى نجران، وألقى له محاضرة تتعلّق بعقيدة أهل السنّة، وكان الغالب على أهل المسجد أنّهم من المكرميّة الذين هم إسماعيليّة، فلمّا جلسوا يستمعون، جاء مشايخهم وجعلوا يقيمونهم واحدًا واحدًا، مخافةَ أن يقع في أسماعهم أو يصل إلى قلوبهم شيء يغيّر معتقداتهم. فهم ولو كان الكلام حقًّا لا يقبلونه، ليس معهم قدرة ولا استطاعة على أن يقولوا: نستمع وننظر إن كان حقًّا نقبله، ونعرضه على الحق، ولا يضرّنا سماعنا. بل يبتعدون عنه.

وهناك أحد إخواننا الذين درّسوا في المدارس المتوسّطة في مدارس الشيعة، فاتّفقوا مع أبنائهم أن يناظروهم في القرآن والسنّة، وعندما حان الموعد وهم يظنّون أنّهم غالبون لهم جلسوا معهم مرّة أو مرّتين، وكأنّ آباءهم أحسّوا بشيء من التغيّر، فما كان منهم إلا أنْ رحّلُوه، وقالوا: ابتعد عن بلادنا ولا تعد تدرّس أولادنا، لماذا؟ هل لا يستطيعون أن يسمعوا، مع أنّه بيّن لهم معاني الآيات والأحاديث ونحوها؟ نقول: يستطيعون، ولكن في هذه الآية: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، نحن نعلم أنّهم يستطيعون السّمع، ولكن هناك ما يرجعهم، ويحول بينهم وبين هذا الاستماع، فأسماعهم موجودة، ولكن هناك ما يمنعهم عن السمع.

قال الشارح:

وَمَا قَالَتْهُ الْقَدَرِيَّةُ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ، وَهُوَ إِقْدَارُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، سَوَاءٌ، فَلَا يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ خَصَّ الْمُؤْمِنَ الْمُطِيعَ بِإِعَانَةٍ حَصَّلَ بِهَا الْإِيمَانَ، بَلْ هَذَا بِنَفْسِهِ رَجَّحَ الطَّاعَةَ، وَهَذَا بِنَفْسِهِ رَجَّحَ الْمَعْصِيَةَ! كَالْوَالِدِ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِيهِ سَيْفًا، فَهَذَا جَاهَدَ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهَذَا قَطَعَ بِهِ الطَّرِيقَ.

وَهَذَا الْقَوْلُ فَاسِدٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْمُثْبِتِينَ لِلْقَدَرِ، فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ عَلَى عَبْدِهِ الْمُطِيعِ نِعْمَةً دِينِيَّةً، خَصَّهُ بِهَا دُونَ الْكَافِرِ، وَأَنَّهُ أَعَانَهُ عَلَى الطَّاعَةِ إِعَانَةً لَمْ يُعِنْ بِهَا الْكَافِرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]، فَالْقَدَرِيَّةُ يَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا التَّحْبِيبَ وَالتَّزْيِينَ عَامٌّ فِي كُلِّ الْخَلْقِ، وَهُوَ بِمَعْنَى الْبَيَانِ وَإِظْهَارِ دَلَائِلِ الْحَقِّ. وَالْآيَةُ تَقْتَضِي أَنَّ هَذَا خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، وَالْكُفَّارُ لَيْسُوا رَاشِدِينَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، يُبَيِّنُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هَدَى هَذَا وَأَضَلَّ هَذَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]، وَسَيَأْتِي لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ زِيَادَةُ بَيَانٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

في هذا ردٌّ على القول الذي حكاه عن المعتزلة؛ لأنّه حكى في أول الكلام ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: عن الجبريّة الذين يقولون: إنّ العبد مجبور وليس له اختيار، وأنّه بمنزلة الشجرة التي تحرّكها الرّياح، فهو مدفوع إلى الزّنى، وهو مدفوع إلى الرّبا، وهو مدفوع إلى شرب الخمر، وهو مدفوع إلى الصلاة، وليس له أيّ اختيار.

القول الثاني: قول المعتزلة: بأنّ العبد هو يخلق فعله، ويزاوله، وليس لله أيّ قدرة على فعله.

والقول الثالث: قول أهل السنّة: وهو أنّ للعبد قدرةً واختيارًا، ولكنّ قدرته واختياره مغلوبة بقدرة الله وباختياره، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء. وهدايته للمؤمنين تُعدّ فضلًا منه وكرمًا، وإضلاله للكافرين يُعدّ عدلًا منه دون ظلم، فما ظلم هؤلاء، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]. فقد امتنّ على هؤلاء وعلم أنّهم أهلٌ للفضل والنّعمة والهداية، فهداهم وسدّدهم.

أمّا المعتزلة، فقالوا إنّه ليس لله أيُّ قدرة، وإنّ العبد هو الذي يهدي نفسه أو يضلّها، ونفوا مدلول الآيات ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٦، ٣٧]، وقد عرفنا الرَّدَّ عليهم بمثل هذه الآيات: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا

حَرَجًا ﴾ [الأنعام:١٢٥]، هذا أنعم عليه، وهذا خذله. فإنعامه على هذا يُعدّ فضلًا، وخذلانه لذاك يُعدّ عدلًا[1].

مَا لِلعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَو نُعِّمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الكَرِيْمُ الوَاسِعُ

إنّ من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر. وكلمة القدر كلمة لها أهميّتها وقدرها، لها معنويّتها: بمعنى أنّ من آمن بقدرة الله، وأنّ الله على كلّ شيء قدير؛ صدّق بالقدر.

ويدخل في القدر تقدير الأشياء قبل أوقاتها. ويدخل فيه كتابتها قبل أن تخلق وتُوجدُ، ويدخل فيه إرادة كلّ ما يحدث، ومشيئته العامّة، ويدخل فيه خلقها وإيجادها وتكوينها، وأنّها لا تكون إلا بإرادة الله وبخلقه وبتقديره وتكوينه، هذه تسمّى مراتب القدر الأربع: الأولى العلم، والثانيه الكتابة، والثالثة الإرادة، والرابعة الخلق.

فيؤمن العباد بهذه المراتب الأربع، ومن كذّب بشيء منها نقص إيمانه بالقدر. فأنكر ذلك طوائف من الغلاة، أنكروا أن يكون الله يعلم الأشياء قبل أن تحدث، وهم الذين يقول فيهم الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: ناظروهم بالعلم، فإن أقرّوا به خصموا، وإن جحدوه كفروا. أي: سلوهم: أتقرّون بأنّ الله تعالى موصوف بالعلم، وأنّ الله بكلّ شيء عليم، فإذا اعترفوا بذلك خصموا وقيل لهم: ما الفرق

---

(١) راجع (٤/ ٣٢٧).

بين علم الماضي وعلم المستقبل؟ فإنّ الله عليم بكلّ شيء، فإذا علم ما قد مضى، فلا يخفى عليه ما هو آت وما هو مستقبل. وأمّا الخلق والتكوين فإنّه يدخل في القدرة، يدخل في الإيمان بقدرة الله، فإذا كنّا نؤمن بأنّ الله على كلّ شيء قدير، فلا بدّ أنْ يدخل في هذه القدرة كلّ ما في الكون، لا يخرج عن قدرة الله شيء من الوجود ولا من الحركات التي تكون في هذا الكون، كلّها كائنة بقدرة الله وبمشيئته وبخلقه وتكوينه، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد.

ونعتقد أنّ ربّنا سبحانه أعطى الإنسان قدرة على مزاولة أفعاله، وأنّ العباد لهم إرادة، وقدرة الله غالبة على قدرتهم وغالبة على إرادتهم، فإذا أراد الله شيئًا فلابدّ أن يكون. وهذا معنى قول الشافعي في أبياتٍ مشهورةٍ[1]:

فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَىٰ مَا عَلِمْتَ ... فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَىٰ وَالْمُسِنْ
عَلَىٰ ذَا مَنَنْتَ وَهَـٰذَا خَذَلْتَ ... وَهَـٰذَا أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تَعِنْ

ومع ذلك فإنّ للعباد قدرةً تناسبهم، وبهذه القدرة أصبحوا مكلّفين، وبها أصبحوا مأمورين ومنهيين، ولو سقطت عنهم هذه القدرة، سقطت عنهم التكاليف. ومن أجل هذا تسقط التكاليف عن العاجز، ويُنفى عنه الحرج، فلا يكلّف إلا ما يطيق. فمن فقد العقل، لم يكن إلى إفهامه من سبيل، فلا يكلّف. ومن فقد البصر لم يكلّف بالغزو والقتال. وكذا سائر العاجزين ونحوهم. يقول

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة:٩١]، يعني: إذا تخلّفوا عن الجهاد. فدلّ على أنّ غيرهم عليهم حرج؛ لأنّ لهم استطاعة، وإنْ كانت تلك الاستطاعة مخلوقةً لله، وداخلة تحت قدرته.

وبكلّ حال، فالاستطاعة التي منحها الإنسان، هي التي في إمكانه أن يزاول بها الأعمال، مع أنّها داخلة في خلق الله تعالى، وأنّ الله سبحانه لا يكلّفهم إلا ما بقدرتهم واستطاعتهم ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]. ولذلك أسقط الحجّ عن غير المستطيع، بل جعل فرضه على من استطاع إليه سبيلًا، وكذلك أسقط ما يعجز عنه الإنسان أو يشقّ عليه: فرخّص للمسافر أن يفطر؛ لأنّ عليه مشقّة، وكذلك المريض له أن يفطر ويقضي لما في الصيام عليه من الصعوبة، وكذلك في سائر العبادات التي يعجز عنها العبد.

فالقدرة والاستطاعة التي في ملكيّة الإنسان، هي ما منحه الله، وما أودع فيه، وما قوّاه به، وإن كان ذلك كلّه داخلًا في عموم قدرة الإنسان.

وقد مرّ بنا أنّ الاستطاعة التي نفيت هي التي لا تدخل في مقدور الإنسان. كما نفي بقول الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق:٧]، أي: لا يكلّفها بغير ما أعطاها، لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها.

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَقَوْلُ الْقَائِلِ: يُرَجِّحُ بِلَا مُرَجِّحٍ. إِنْ كَانَ لِقَوْلِهِ: (يُرَجِّحُ) مَعْنًى زَائِدٌ عَلَى الْفِعْلِ، فَذَاكَ هُوَ السَّبَبُ الْمُرَجِّحُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَعْنًى زَائِدٌ كَانَ حَالُ الْفَاعِلِ قَبْلَ وُجُودِ الْفِعْلِ كَحَالِهِ عِنْدَ الْفِعْلِ، ثُمَّ الْفِعْلُ حَصَلَ فِي إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ دُونَ الْأُخْرَى بِلَا مُرَجِّحٍ !وَهَذَا مُكَابَرَةٌ لِلْعَقْلِ!! فَلَمَّا كَانَ أَصْلُ قَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ: إِنَّ فَاعِلَ الطَّاعَاتِ وَتَارِكَهَا كِلَاهُمَا فِي الْإِعَانَةِ وَالْإِقْدَارِ سَوَاءٌ. امْتَنَعَ عَلَى أَصْلِهِمْ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْفِعْلِ قُدْرَةٌ تَخُصُّهُ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي تَخُصُّ الْفِعْلَ لَا تَكُونُ لِلتَّارِكِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْفَاعِلِ، وَلَا تَكُونُ الْقُدْرَةُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْقُدْرَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَبْلَ الْفِعْلِ، قَالُوا: لَا تَكُونُ مَعَ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ هِيَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْفِعْلُ وَالتَّرْكُ، وَحَالَ وُجُودِ الْفِعْلِ يَمْتَنِعُ التَّرْكُ، فَلِهَذَا قَالُوا: الْقُدْرَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا قَبْلَ الْفِعْلِ! وَهَذَا بَاطِلٌ مُطْلَقًا، فَإِنَّ وُجُودَ الْأَمْرِ مَعَ عَدَمِ بَعْضِ شُرُوطِهِ الْوُجُودِيَّةِ مُمْتَنِعٌ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الْفِعْلُ مِنَ الْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ مَوْجُودًا عِنْدَ الْفِعْلِ. فَنَقِيضُ قَوْلِهِمْ حَقٌّ، وَهُوَ: أَنَّ الْفِعْلَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ قُدْرَةٌ.

لَكِنْ صَارَ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ هُنَا حِزْبَيْنِ: حِزْبٌ قَالُوا: لَا تَكُونُ الْقُدْرَةُ إِلَّا مَعَهُ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ الْقُدْرَةَ نَوْعٌ وَاحِدٌ لَا يَصْلُحُ لِلضِّدَّيْنِ، وَظَنًّا مِنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْقُدْرَةَ عَرَضٌ، فَلَا تَبْقَى زَمَانَيْنِ، فَيَمْتَنِعُ وُجُودُهَا قَبْلَ الْفِعْلِ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّ الْقُدْرَةَ نَوْعَانِ كَمَا تَقَدَّمَ: نَوْعٌ مُصَحِّحٌ لِلْفِعْلِ، يُمْكِنُ مَعَهُ الْفِعْلُ وَالتَّرْكُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَهَذِهِ تَحْصُلُ لِلْمُطِيعِ

وَالْعَاصِي، وَتَكُونُ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَهَذِهِ تَبْقَى إِلَى حِينِ الْفِعْلِ، إِمَّا بِنَفْسِهَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِبَقَاءِ الْأَعْرَاضِ، وَإِمَّا بِتَجَدُّدِ أَمْثَالِهَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْأَعْرَاضَ لَا تَبْقَى زَمَانَيْنِ، وَهَذِهِ قَدْ تَصْلُحُ لِلضِّدَّيْنِ، وَأَمْرُ اللَّهِ مَشْرُوطٌ بِهَذِهِ الطَّاقَةِ، فَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ هَذِهِ الطَّاقَةُ، وَضِدُّ هَذِهِ الْعَجْزُ، كَمَا تَقَدَّمَ.

قال الشيخ:

يناقش الشارح بعض المبتدعة الذين يقولون: إنّ القدرة على الفعل تسبق الفعل وتسبق مزاولته، ولا تصحبه حالة وجوده. فيقولون مثلًا: إنّ الإنسان الذي عنده مال، وتمّت قوّته وقدرته على الإتيان بالحج، فإذا تمّت أصبح مكلّفًا، ولا تكون القدرة حالة مزوالته للعمل، مثل طوافه وسعيه وإحرامه ووقوفه ورميه ونحو ذلك، يقولون: لا تشترط القوّة ولا القدرة في هذه الحالات، وما ذاك إلا أنّها شرطت في أوّل الأمر، وزالت الحاجة إليها بعد ذلك، فلا حاجة إلى وجودها وبقائها حالة مزاولة الفعل، ويقولون كذلك في سائر العبادات؛ كصلاة الجماعة مثلًا: إذا أمن على نفسه، وكان معه قدرة وقوة، وكان صحيح البدن ليس به مرض، وليس بخائف، وجب عليه أن يصلي مع الجماعة، فإذا دخل المسجد، أو أُقيمت الصلاة، أو بدأ في الصلاة، فلو زالت القدرة لم تضرّ، ولا تشترط القدرة ولا وجودها حالة مزاولة الصلاة. هذا تقرير قولهم.

ولا شكّ أنّ القدرة والقوّة على الفعل لا بدّ من وجودها قبل الفعل وفي حالة وجود الفعل. فإن الإنسان مأمور بأن يصلي قائمًا، فإن صلّى ركعتين من

الظهر قائمًا، ثـم عـجـز، رخّص لـه أن يجلس ويـتـمّ جالسًا، فـدلّ على أنّ القـدرة مشترطة حالة الفعل من أوّله إلى آخره. فلو أنّ إنسانًا تجهّز للحج، فلو قطع نصف الطريق مثلًا، ثم عجَز وقلّت نفقته، أو حصل له خوفٌ أو مرض جاز له أن يرجع ويؤجّل الحجّ؛ لأنّ القدرة لم تبقَ معه، بل حدث ما يضادّها. وهكذا بقيّة الأعمال.

ولكن قد يستثنى منها البعض: فمثلًا: إذا تمّ الحـول على المال ووجب فيه الزكاة، تعلّق بذمّة المالك، ولو تلف المال بقيت الزّكاة في الذمّة؛ لأنّه فرّط حيث أخّر إخراجها، وهناك من يقول: إنّهـا تسقط عنـه، فمثلًا إذا حصد زرعـه، ولـمّا حصده كلّه وجمعه، وقبل أن يخرج زكاتـه احـترق كلّـه، أو حملته الرّيـاح وفرّقتـه، فالصحيح أنّه لا يلزمه زكاة؛ لأنّها مـا وجـدت مواساة، ومـن أيـن يـواسي والمـال الذي وجبت فيه قد تلف. وكذا مثلًا لو تمّ حول نصاب الماشية السائمة، فلـما تـمّ الحول ماتت كلّها، أو لم يبق منها قدر النصاب، سقطت الزكاة عنهـا وأصبح مـن غير أهل الزكاة.

وكذلك الإنسان إذا صام نصف النهار، أصبح وهو قادر وعنده قوّة، وعنده استطاعة على إتمام ذلك اليوم، ولكن في أثناء النهار مرض أو أصابه مـانع شـديد منعه من الإتمام جاز له أن يفطر، ويقضي ذلك اليـوم؛ لأنـه أصبح مـن غـير أهـل الاستطاعة.

فتبـيّن بهـذا أنّ الاسـتطاعة التـي أُمرنـا بهـا في قولـه تعـالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]، أنّ المراد بها الاستطاعة التي قبل الفعل، والتي مع

الفعل، فقبل الفعل يكون نشيطًا قويًّا، قادرًا على أن يكمّل الفعل، ومع الفعل يحصل منه أنّه قادر على إتمامه إلى آخره، فإذا لم يكمّله فهو معذور. فهذا توجيه قول أهل السنّة، ولا يلتفت إلى قول من يقول: إنّ القدرة تشترط قبل الفعل، ولا حاجة إلى اشتراطها، ولا إلى لزومها حالة مزاولة الفعل، وما ذاك إلا أنّهم متناقضون كما مرّ بنا.

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَالِاسْتِطَاعَةُ الْمَشْرُوطَةُ فِي الشَّرْعِ أَخَصُّ مِنَ الِاسْتِطَاعَةِ الَّتِي يَمْتَنِعُ الْفِعْلُ مَعَ عَدَمِهَا، فَإِنَّ الِاسْتِطَاعَةَ الشَّرْعِيَّةَ قَدْ تَكُونُ مَا يُتَصَوَّرُ الْفِعْلُ مَعَ عَدَمِهَا وَإِنْ لَمْ يَعْجِزْ عَنْهُ، فَالشَّارِعُ يُيَسِّرُ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُرِيدُ بِهِمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِهِمُ الْعُسْرَ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، وَالْمَرِيضُ قَدْ يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ مَعَ زِيَادَةِ الْمَرَضِ وَتَأَخُّرِ بُرْئِهِ، فَهَذَا فِي الشَّرْعِ غَيْرُ مُسْتَطِيعٍ، لِأَجْلِ حُصُولِ الضَّرَرِ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُسَمَّى مُسْتَطِيعًا. فَالشَّارِعُ لَا يَنْظُرُ فِي الِاسْتِطَاعَةِ الشَّرْعِيَّةِ إِلَى مُجَرَّدِ إِمْكَانِ الْفِعْلِ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَى لَوَازِمِ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ الْفِعْلُ مُمْكِنًا مَعَ الْمَفْسَدَةِ الرَّاجِحَةِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ اسْتِطَاعَةٌ شَرْعِيَّةٌ، كَالَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الْحَجِّ مَعَ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُ فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ يُصَلِّي قَائِمًا مَعَ زِيَادَةِ مَرَضِهِ، أَوْ يَصُومُ الشَّهْرَيْنِ مَعَ انْقِطَاعِهِ عَنْ مَعِيشَتِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَإِذَا كَانَ الشَّارِعُ قَدِ اعْتَبَرَ فِي الْمُكْنَةِ عَدَمَ الْمَفْسَدَةِ الرَّاجِحَةِ، فَكَيْفَ يُكَلِّفُ مَعَ الْعَجْزِ ؟!

وَلَكِنَّ هَذِهِ الِاسْتِطَاعَةَ مَعَ بَقَائِهَا إِلَى حِينِ الْفِعْلِ لَا تَكْفِي فِي وُجُودِ الْفِعْلِ، وَلَوْ كَانَتْ كَافِيَةً لَكَانَ التَّارِكُ كَالْفَاعِلِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِحْدَاثِ إِعَانَةٍ أُخْرَى تُقَارِنُ، مِثْلَ جَعْلِ الْفَاعِلِ مُرِيدًا، فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِقُدْرَةٍ وَإِرَادَةٍ، وَالِاسْتِطَاعَةُ الْمُقَارِنَةُ تَدْخُلُ فِيهَا الْإِرَادَةُ الْجَازِمَةُ، بِخِلَافِ الْمَشْرُوطَةِ فِي التَّكْلِيفِ، فَإِنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِيهَا الْإِرَادَةُ. فَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْفِعْلِ مَنْ لَا يُرِيدُهُ، لَكِنْ لَا يَأْمُرُ بِهِ مَنْ لَوْ أَرَادَهُ لَعَجَزَ عَنْهُ. وَهَكَذَا أَمْرُ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، فَالْإِنْسَانُ يَأْمُرُ عَبْدَهُ بِمَا لَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ، لَكِنْ لَا يَأْمُرُهُ بِمَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْعَبْدُ، وَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْإِرَادَةُ الْجَازِمَةُ وَالْقُوَّةُ التَّامَّةُ، لَزِمَ

وُجُودُ الْفِعْلِ. وَعَلَى هَذَا يَنْبَنِي تَكْلِيفُ مَا لَا يُطَاقُ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: الْقُدْرَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ، يَقُولُ: كُلُّ كَافِرٍ وَفَاسِقٍ قَدْ كُلِّفَ مَا لَا يُطِيقُ. وَمَا لَا يُطَاقُ يُفَسَّرُ بِشَيْئَيْنِ: بِمَا لَا يُطَاقُ لِلْعَجْزِ عَنْهُ، فَهَذَا لَمْ يُكَلِّفْهُ اللَّهُ أَحَدًا، وَيُفَسَّرُ بِمَا لَا يُطَاقُ لِلاشْتِغَالِ بِضِدِّهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ التَّكْلِيفُ، كَمَا فِي أَمْرِ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، فَإِنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، فَلَا يَأْمُرُ السَّيِّدُ عَبْدَهُ الْأَعْمَى بِنَقْطِ الْمَصَاحِفِ! وَيَأْمُرُهُ إِذَا كَانَ قَاعِدًا أَنْ يَقُومَ، وَيُعْلَمُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ بِالضَّرُورَةِ.

قال الشيخ:

هذه أمثلة ساقها الشارح لَـمّا تقدّم من أنّ الله تعالى لا يكلّف العباد إلّا ما في وسعهم، وما في إرادتهم، وما تصل إليه قدرتهم، وما لا مشقّة عليهم فيه، وإن كانوا قد يستطيعون فعل بعض الأشياء التي أُسقطت عنهم، لكن مع مشقّة تلحقهم، والمشقّة تجلب التيسير، ولكن نفى الله الحرج في هذه الشريعة فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. ولَـمّا ذكر أنّهم يجوز لهم استعمال التراب عند فقد الماء أو عند التكلّف في استعماله، بمرض ونحوه قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦]. ولَـمّا أباح لهم الفطر في رمضان للسفر وللمرض قال بعد ذلك: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]. فإنّ المسافر قديمًا يشقُّ عليه الصيام ولكنّه يستطيعه، فإنْ صام انقطع عن العمل، وانقطع عن خدمة نفسه، واحتاج إلى أن يخدمه رفقته،

ويرشّ عليه الماء لشدّة جهده؛ فهذا قد يقول: إنّي أطيق، ولكنّا نقول: إنّ ما فاتك أشدّ وأعظم؛ لأنك أعوزت غيرك إلى أن يخدموك، وإلى أن يقوموا عليك، وأبطلت مصالح نفسك، واحتجت إلى من يخدمك، ولو كنت تستطيع أن تكمّل يومك.

وكذلك المريض لو قال: أنا أستطيع أن أصوم مع المرض، ولكن المرض يزداد مع هذا الصيام ويشتدّ ويتكلّف صاحبه إذا صام، نقول: إنّه قد كلّف نفسه ما لا تطيق، وإنّه ولو كان يستطيع الإكمال، لكن عليه مشقّة من هذا الصيام، فله رخصة.

وكذا لو قال الفقير: أنا أستدين وأحجّ وأصبر على الدين الذي أتحمّله في ذمّتي، نقول: إنّك قد كلّفت نفسك ما فيه مشقّة؛ لأنّك لست على يقين بأنّك تقدر على وفاء هذه الديون التي تتحمّلها، أو أنّك في سفرك قد تضيّع أهلك، وقد يحتاجون إلى أن يتكففوا النّاس؛ لأنّك أنت الذي تتكسّب لهم، وتنفق عليهم، فإن سافرت عنهم، أدّى ذلك إلى أنّهم يحتاجون، ويسألون النّاس، فيسقط عنك الحجّ في هذه الحالة.

وكذلك في المصلّي الذي أُبيح له أن يصلّي جالسًا، ولكن يقول: في استطاعتي أن أقوم، ولو كان القيام يزيد في المرض، ويؤخّر البرء والشفاء. نقول: لست بمكلّف، وأنت لست بمستطيع، والذي يعجزه القيام يجزئه الجلوس، ويكون أجره كأجر القائم سواء. يقول النبيّ ﷺ: «صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ

لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[١]. ولو كانت الاستطاعة قد تحصل مع نوع من المشقّة.

وبكلّ حال، فإنّ المشقّة التي نفاها الله تعالى هي التي فيها صعوبة على العباد. فهذا من جملة ما لم يكلّفوا به، فإن كان عليهم شيء من الضيق والحرج والشدّة، فإنّ ذلك يجلب لهم الرخصة في أمورهم عامّة، وفي هذا الأمر خاصّة.

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٣١).

قال الطحاوي:

وَأَفْعَالُ العِبَادِ خَلْقُ اللَّـهِ وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ.

قال الشارح:

اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَفْعَالِ الْعِبَادِ الاخْتِيَارِيَّةِ.

فَزَعَمَتِ الجَبْرِيَّةُ وَرَئِيسُهُمُ الجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ التِّرْمِذِيُّ: أَنَّ التَّدْبِيرَ فِي أَفْعَالِ الخَلْقِ كُلِّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ كُلُّهَا اضْطِرَارِيَّةٌ، كَحَرَكَاتِ الْمُرْتَعِشِ، وَالْعُرُوقِ النَّابِضَةِ، وَحَرَكَاتِ الأَشْجَارِ، وَإِضَافَتِهَا إِلَى الخَلْقِ مَجَازٌ! وَهِيَ عَلَى حَسَبِ مَا يُضَافُ الشَّيْءُ إِلَى مَحَلِّهِ دُونَ مَا يُضَافُ إِلَى مُحَصِّلِهِ!

وَقَابَلَتْهُمُ المُعْتَزِلَةُ، فَقَالُوا: إِنَّ جَمِيعَ الأَفْعَالِ الاخْتِيَارِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ الحَيَوَانَاتِ بِخَلْقِهَا، لَا تَعَلُّقَ لَهَا بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى. وَاخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: أَنَّ اللَّـهَ تَعَالَى يَقْدِرُ عَلَى أَفْعَالِ الْعِبَادِ أَمْ لَا؟!

وَقَالَ أَهْلُ الحَقِّ: أَفْعَالُ الْعِبَادِ بِهَا صَارُوا مُطِيعِينَ وَعُصَاةً، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنْفَرِدٌ بِخَلْقِ المَخْلُوقَاتِ، لَا خَالِقَ لَهَا سِوَاهُ. فَالجَبْرِيَّةُ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ الْقَدَرِ، فَنَفَوْا صُنْعَ الْعَبْدِ أَصْلًا، كَمَا غَلَتِ المُشَبِّهَةُ فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، فَشَبَّهُوا. وَالْقَدَرِيَّةُ نُفَاةُ الْقَدَرِ جَعَلُوا الْعِبَادَ خَالِقِينَ مَعَ اللَّـهِ تَعَالَى؛ وَلِهَذَا كَانُوا مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ، بَلْ أَرْدَأُ مِنَ المَجُوسِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ المَجُوسَ أَثْبَتُوا خَالِقَيْنِ، وَهُمْ أَثْبَتُوا خَالِقِينَ!!

وَهَدَى اللَّـهُ المُؤْمِنِينَ أَهْلَ السُّنَّةِ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّـهُ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

فَكُلُّ دَلِيلٍ صَحِيحٍ يُقِيمُهُ الجَبْرِيُّ، فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّـهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مِنْ جُمْلَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ فِي الحَقِيقَةِ وَلَا مُرِيدٍ وَلَا مُخْتَارٍ، وَأَنَّ حَرَكَاتِهِ الِاخْتِيَارِيَّةَ بِمَنْزِلَةِ حَرَكَةِ الْمُرْتَعِشِ، وَهُبُوبِ الرِّيَاحِ، وَحَرَكَاتِ الْأَشْجَارِ.

وَكُلُّ دَلِيلٍ صَحِيحٍ يُقِيمُهُ الْقَدَرِيُّ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ فَاعِلٌ لِفِعْلِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّهُ مُرِيدٌ لَهُ مُخْتَارٌ لَهُ حَقِيقَةً، وَأَنَّ إِضَافَتَهُ وَنِسْبَتَهُ إِلَيْهِ إِضَافَةُ حَقٍّ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ وَاقِعٌ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

فَإِذَا ضَمَمْتَ مَا مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمَا مِنَ الحَقِّ إِلَى حَقِّ الْأُخْرَى، فَإِنَّمَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَسَائِرُ كُتُبِ اللَّـهِ المُنَزَّلَةِ، مِنْ عُمُومِ قُدْرَةِ اللَّـهِ وَمَشِيئَتِهِ لِجَمِيعِ مَا فِي الْكَوْنِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَفْعَالِ، وَأَنَّ الْعِبَادَ فَاعِلُونَ لِأَفْعَالِهِمْ حَقِيقَةً، وَأَنَّهُمْ يَسْتَوْجِبُونَ عَلَيْهَا المَدْحَ وَالذَّمَّ.

وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ أَدِلَّةَ الحَقِّ لَا تَتَعَارَضُ، وَالحَقُّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَيَضِيقُ هَذَا المُخْتَصَرُ عَنْ ذِكْرِ أَدِلَّةِ الْفَرِيقَيْنِ، وَلَكِنَّهَا تَتَكَافَأُ وَتَتَسَاقَطُ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ دَلِيلِ كُلِّ فَرِيقٍ بُطْلَانُ قَوْلِ الْآخَرِينَ. وَلَكِنْ أَذْكُرُ شَيْئًا مِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ أُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا اسْتُدِلَّ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ.

قال الشيخ:

من هنا الكلام على أفعال العباد، فقال الطحاوي: (وَأَفْعَالُ العِبَادِ خَلْقُ اللَّهِ وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ)، فلم يثبتوا للعباد فعلًا، وإنّما أثبتوا لهم كسبًا، أي: هم الذين كسبوها، وهم الذين زاولوها، وإنما تنسب لهم؛ فالعبد يوصف بأنّه: الذي صلّى، وهو الذي صام، ولا يقال: خلق الله فيك الصوم، ولا خلق فيك الصلاة، ولا خلق فيك القتل والشرك أو الزنى؛ بل يقال: أنت المصلّي أو الصائم، وأنت القاتل أو السارق، وأنت البرّ أو الفاجر، وأنت العامل للصالحات أو السيّئات، وأنت الذي صبرت أو جزعت، وأنت الذي تشجّعت أو جبنت. يوصف بهذه الأفعال، ولو كانت خلق الله. اللهّ تعالى خالق كلّ شيء، وهو الذي خلقها وهو الذي أرادها، ولو شاء ما آمن أحد، ولا كفر أحد، ولكنّه تعالى أعطى العبد قدرة يزاول بها هذه الأعمال، فيصبح من أهلها وتنسب إليه، هو الذي تكلّم عليه الطحاوي.

الأشاعرة لا يثبتون للعبد فعلًا، ويعتقدون أنّ الأفعال لا حقيقةَ لها أصلًا، الكسب عند الأشعريّ[1] لا حقيقة له، وهو يثبت الكسب، ومع ذلك ينفي قدرة

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٨/ ١٢٨) عن الأشاعرة: «ثم أثبتوا كسباً لا حقيقة له، فإنه لا يُعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل؛ ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا، ويقولون: ثلاثة أشياء لا حقيقة لها: طفرة النظّام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري».

العبد. والحال عند البهشمي[1]: لا يثبت للحال حقيقة. وطفرة النَظَّام[2] ـ الذي هو أحد المعتزلة ـ التي اعتقدها وذهب إليها لا حقيقة لها.

وقد جُمعت بقول بعض الشعراء[3]:

مِمَّا يُقَالُ وَلَا حَقِيقَةَ تَحْتَهُ ... مَعْقُولَةً تَدْنُو لِذِي الأَفْهَامِ
الكَسْبُ عِنْدَ الأَشْعَرِي وَالحَالُ ... عِنْدَ البَهْشَمِي وَطَفْرَةُ النَظَّامِ

والشارح ـ رحمه الله ـ ذكر أنّ للنّاس في هذه الأفعال ثلاثة مذاهب: مذهب باطل ن وهو مذهب الجبرية، ويقابله مذهب باطل آخر، وهو مذهب نفاة قدرة الله، ومذهب حقّ، وهو إثبات قدرة الله، وإثبات قدرة العبد التي تناسبه.

فالأول الذي قال أهله: إنّ العبد ليس له قدرة أصلًا، فهذا قول المجبرة أو الجبريّة، الذين يقولون: إنّ العبد مجبور على أفعاله، وليس له أيّ اختيار، بل حركاته بمثابة حركات المرتعش، وهو الذي ترتعش يداه، ولا يقدر على إمساكها، أو بمنزلة العروق النابضة التي تتحرّك، ولا يقدر على إمساكها، أو

---

(١) هو: أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي المعتزلي، تُنسب إليه فرقة البهشمية. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٨٣).

(٢) قال عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق (ص١٣٤): «من فضائحه قوله بالطفرة، وهي دعواه أن الجسم قد يكون في مكان ثم يصير منه إلى المكان الثالث أو العاشر منه، من غير مرور بالأمكنة المتوسطة بينه وبين العاشر؛ ومن غير أن يصير معدومًا في الأول، ومعادًا في العاشر».

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية (١/ ٤٥٩)، والنبوات (١٤٤).

حركاته بمنزلة حركات الأشجار التي تحرّكها الرياح. وهؤلاء جبريّة، رئيسهم الجهم بن صفوان، فهو أوّل من قال: إنّ العباد ليس لهم قدرة وليس لهم اختيار، وأنّهم مجبورون على أفعالهم. وهؤلاء يقولون: إنّ الله إذا عذّب الخلق فإنّه ظالم لهم؛ لأنّه الذي خلق فيهم المعصية، فكيف يخلق فيهم القتل والشرك والزنى وما أشبه ذلك، ويعاقبهم على ذلك؟ فيعدّون ذلك ظلمًا من الله تعالى، مع أنّ الله قد نفى الظلم عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

يقول قائلهم الذي ذكره ابن القيم في بعض كتبه(١):

ألقاهُ في البحرِ مَكتوفًا وقال له ... إياك إياكَ أنْ تبتلَّ بالماءِ

يقولون: مثل العاصي الذي يُجبر على المعصية، كمثل الإنسان المكتوف اليدين الذي يلقى في البحر ويقال له: لا تبتلّ بالماء. هو لا يستطيع الحركة، ومع ذلك ألقي في البحر.

ويقول في ميميّته(٢):

وَعِنْدَ مُرَادِ اللَّهِ تَفْنَى كَمَيِّتٍ ... وَعِنْدَ مُرَادِ النَّفْسِ تسْدِي وَتُلْحِمُ

وَعِنْدَ خِلَافِ الحَقِّ تَحْتَجَّ بِالقَدَرِ ... ظَهِيرًا عَلَى الرَّحْمَنِ لِلجَبْرِ تَزْعُمُ

يقول: إنّ هؤلاء متناقضون، فإذا كان المراد للنفس فإنه يسدي ويلحم، أي: يأتي الأمور من طولها وعرضها، ولا يتوقّف جهده على شيء محدد، بل يبذل كل

(١) انظر: القصيدة الميمية بشرح مصطفى عراقي (ص١٨٠).

(٢) انظر: شفاء العليل (ص٤)، ومدارج السالكين (١/ ١٩٠).

ما في وسعه، ولكن إذا قيل له: إنّ الله أمرك بكذا، ونهاك عن كذا، فإنّه: يتقاعس ويتكاسل، فإذا قيل له: قال هذا مكتوب عليّ، وهذا ليس لي فيه اختيار، فيحتج بالقدر، ويزعُم أنّه مجبور على ذلك. هذا قول المجبرة الذين يزعمون أنّ العبد مجبور على فعله.

ويروى أنه تقدّم واحد منهم إلى شيخ الإسلام ابن تيميّة وهو في مجلسه وحوله تلامذته، فألقى عليه أبياتًا أولها[1]:

أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيُّ دِينِكُمْ ... تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ

ويقول فيها:

دَعَانِي وَسَدَّ الْبَابَ عَنِّي فَهَلْ إِلَى ... دُخُولِي سَبِيلٌ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي

يحتجّ ويقول: إنّ إنسانًا دعاني ثم سدّ الباب دوني، وقال لي ادخل: فكيف أدخل؟.

فردّ عليه شيخ الإسلام بأبيات مشهورة[2]، وقد شرحها عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله، ومطلعها:

سُؤَالُكَ يَا هَذَا سُؤَالُ مُعَانِدٍ ... مُخَاصِمِ رَبِّ الْعَرْشِ بَارِي الْبَرِيَّةِ

فَهَذَا سُؤَالٌ خَاصَمَ الْمَلأَ الْعُلا ... قَدِيمًا بِهِ إِبْلِيسُ أَصْلُ الْبَلِيَّةِ

وَمَنْ يَكُ خَصْمًا لِلْمُهَيْمِنِ يَرْجِعَنْ ... عَلَى أُمِّ رَأْسٍ هَاوِيًا فِي الْحَفِيرَةِ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤٥).

(٢) لسماحة شيخنا عبد الله بن جبرين ـ حفظه الله ـ شرح مطبوع للمنظومة كاملة.

وَيُدْعَى[١] خُصُومُ اللَّهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِلَى النَّارِ طُرًّا مَعْشَرُ الْقَدَرِيَّةِ
سَوَاءٌ نَفَوْهُ أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا بِهِ اللَّهَ أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَةِ

واستمرّ في ذكر ما يتناقضون فيه، وذكر أنّهم يتناقضون؛ وذلك أنّ أحدهم إذا لامه لائم على فعل، فإنه يحتجّ بالقدر، ولكن لا يحتجّ بالقدر إذا كانت المصلحة له، فهو إذا كانت المصلحة له في طلب رزق أو معيشة، فإنه يبذل قصارى جهده، فيقال له: لماذا لا تجلس في بيتك وتترك التكسّب؟ ولماذا لا تترك الأكل وتقول: إن أراد الله لي حياة، فإني سأحيا ولو لم آكل، لماذا تلبس الثياب في الصيف تتّقي الحر، وفي الشتاء تتقي البرد؟ لماذا تتزوّج لتطلب الولد؟ ولماذا تغرس لتطلب الثمر؟! فأنت تفعل هذه الأفعال لطلب المعيشة. فكذلك نقول: لماذا لا تعمل أعمالًا صالحة فتؤهّلك لدخول الجنّة؟ ولماذا لا تترك الأعمال التي تؤهّلك لدخول النّار؟

فإذًا أنت معك قدرة واستطاعة على مزاولة الأعمال.

وقد ذُكر أن رجلًا سرق وجيء به إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وعزم على قطع يده، فقال ذلك السارق: إن هذا بقدر الله، كيف تقطعونني وقد قدر الله عليَّ ذلك؟ فقال عمر ﷺ: «أنت سرقت بقدر الله، وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره»[٢].

ولما توجه عمر ﷺ إلى الشام، وذُكر له وقوع الطاعون بالشام، عزم على أن

---

(١) وفي نسخة: (وَتُدْعَى).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٥٠).

يرجع بمن معه إلى المدينة، فقال له أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: أَفِرَارًا من قَدَرِ اللَّهِ؟ فقال عُمَرُ: «لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نعم نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ»[١]، أي: إن الله تعالى قدّر لنا أن نرجع، فهو كتب علينا هذا، ولم يكتب علينا أنّا نقدم على هذا الوباء.

وقد قال النبيّ ﷺ: «فِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ»[٢].

وبكلّ حال هذه أقوال هذه الطائفة، ولهم حجج طويلة اختصرها الشارح.

والقدرية يخرجون أكثر الأفعال أو كلها عن قدرة الله تعالى، وهم أشبهوا بذلك المجوس، والمجوس هم الذين يجعلون الكون صادرًا عن خالقين، والقدرية جعلوا مع الله من يخلق، وقد تقدّم أنّهم يقولون أنّ القرآن مخلوق، واستدلّوا بقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ﴾ [الزمر:٦٢]. فأدخلوا صفة الله تعالى - التي هي علمُه وكلامُه - في هذه الآية. وتناقضوا فأخرجوا أفعالهم عن عمومها، وجعلوا أفعالهم خلقهم، وليست خلق الله، ولم يعمّموا، ولم يعملوا بعموم الآية.

ولا شكّ أنّ أفعال العباد أولى ما يدخل في عموم الآية، وهو أنّها خلق الله سبحانه وتعالى، وأنّها منسوبة إلى العباد نسبةَ فعل ومباشرة، ولهذا يقال: إنّ الله خالق كلّ شيء بما في ذلك حركات العباد وأفعالهم، ومع ذلك فإنّ الله تعالى هو

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) معلقًا جازمًا به، وأحمد (٢/ ٤٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الذي مكّنهم، وأعطاهم قوّة وقدرة، فهم يزاولون الأعمال بقوّتهم وقدرتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم. فقدرة الله غالبة على قدرتهم، وإرادته غالبة على إرادتهم. وبذلك أصبحت أفعالهم خلق الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦]. وأفعالهم هم الذين باشروها، فتنسب إليهم مباشرة، وتنسب إلى الله خلقًا وإيجادًا. وبما أعطاهم من القوة والقدرة يثابون ويعاقبون.

ولأجل ذلك نقول: إنّ العباد فاعلون حقيقةً، والله خالقهم وخالق أفعالهم. والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلّي والصائم، والمطيع والعاصي. وأنّ للعباد قدرة على أفعالهم ولهم إرادة، ولكن هذه القدرة والإرادة مسبوقة بقدرة الخالق تعالى وبإرادته. وهذا هو قول أهل السنّة.

وقد عرفنا القولين المتطرفين الذين هما طرفان في هذه المسألة:

الطرف الأول: هم المجبرة الذين سلبوا العباد القدرة والإرادة، وجعلوهم مجبورين ليس لهم أية قدرة ولا إرادة، ولا همّة، ولا أثر في الأعمال، وجعلوا حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار التي تحركها الرياح، وأبطلوا حكم الله تعالى. فإذا سئلوا: لماذا أرسل الرسل، لماذا يعذّب الله الكفار؟ ولماذا خصّ الله المؤمنين بأنّهم أهل الثواب؟ لم يكن لديهم جواب، إلا أنّ ذلك محض المشيئة، ومحض الإرادة، ليس لأحد فيه تصرف، ويردّدون قول الله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ويقولون: إنّه قدّر ذلك عليهم، وخلقه فيهم، ويعذّبهم على فعله فيهم. ولكن لا نسأل عن ذلك.

وأمّا **الطرف الثاني**: الذين هم المعتزلة: فأرادوا تنزيه الرّبّ تعالى عن أن يعذّبهم على أمر خلقه فيهم، كما يقولون، فجعلوا أنفسهم هي التي تخلق الفعل، ولم يجعلوا لله أيّ قدرة، بل كثير منهم يقولون: إنّ الله لا يقدر على أن يهدي من يشاء، ولا على أن يضلّ من يشاء، بل هم يهدون أنفسهم ويضلّونها.

فهؤلاء طرف هالك بعيد عن الصواب، وكلا الطرفين على طرفي نقيض.

ولكنّ الله هدى أهل السنّة، وآمنوا بعظيم قدرته، وآمنوا بأنّ له قدرة عامّة على أفعال العباد، وآمنوا بأنّه خلق أفعال العباد، وكتبوا في ذلك المؤلّفات، وألّف البخاري رسالة مشهورة «خلق أفعال العباد». وبيّنوا أنّ قدرة العبد هي التي تناسبه، والتي بها يثاب ويعاقب، وأنّها مع ذلك مغلوبة بقدرة الله تعالى، وبها يصبح العبد مستحقًّا للثواب والعقاب على ما يزاوله من أعمال تنسب إليه لكونه باشر فعلها، ومع ذلك لا يخرج عن قدرة الله تعالى، والهداية بيد الله، فهو الذي أضلّ هؤلاء حكمة وعدلًا، وهدى هؤلاء رحمة وفضلًا وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال الشارح:

فَمِمَّا اسْتَدَلَّتْ بِهِ الجَبْرِيَّةُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، فَنَفَى اللَّهُ عَنْ نَبِيِّهِ الرَّمْيَ، وَأَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لا صُنْعَ لِلْعَبْدِ. قَالُوا: وَالجَزَاءُ غَيْرُ مُرَتَّبٍ عَلَى الأَعْمَالِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»(١).

وَمِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ الْقَدَرِيَّةُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، قَالُوا: وَالجَزَاءُ مُرَتَّبٌ عَلَى الأَعْمَالِ تَرْتِيبَ الْعِوَضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢]، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَأَمَّا مَا اسْتَدَلَّتْ بِهِ الجَبْرِيَّةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَثْبَتَ لِرَسُولِهِ ﷺ رَمْيًا، بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، فَعُلِمَ أَنَّ المُثْبَتَ غَيْرُ المَنْفِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّمْيَ لَهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ، فَابْتِدَاؤُهُ الحَذْفُ، وَانْتِهَاؤُهُ الإِصَابَةُ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُسَمَّى رَمْيًا، فَالمَعْنَى حِينَئِذٍ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.: وَمَا أَصَبْتَ إِذْ حَذَفْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَصَابَ. وَإِلَّا فَطَرْدُ قَوْلِهِمْ: وَمَا صَلَّيْتَ إِذْ صَلَّيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ صَلَّى! وَمَا صُمْتَ إِذْ صُمْتَ! وَمَا زَنَيْتَ إِذْ زَنَيْتَ!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَمَا سَرَقْتَ إِذْ سَرَقْتَ!! وَفَسَادُ هَذَا ظَاهِرٌ.

وَأَمَّا تَرَتُّبُ الجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، فَقَدْ ضَلَّتْ فِيهِ الجَبْرِيَّةُ وَالْقَدَرِيَّةُ، وَهَدَى اللَّهُ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَلَهُ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ. فَإِنَّ الْبَاءَ الَّتِي فِي النَّفْيِ غَيْرُ الْبَاءِ الَّتِي فِي الْإِثْبَاتِ، فَالمَنْفِيُّ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، بَاءُ الْعِوَضِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ كَالثَّمَنِ لِدُخُولِ الرَّجُلِ إِلَى الجَنَّةِ، كَمَا زَعَمَتِ المُعْتَزِلَةُ أَنَّ الْعَامِلَ مُسْتَحِقٌّ دُخُولَ الجَنَّةِ عَلَى رَبِّهِ بِعَمَلِهِ! بَلْ ذَلِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ. وَالْبَاءُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وَنَحْوُهَا، بَاءُ السَّبَبِ، أَيْ: بِسَبَبِ عَمَلِكُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالمُسَبَّبَاتِ، فَرَجَعَ الْكُلُّ إِلَى مَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ المُعْتَزِلَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، فَمَعْنَى الْآيَةِ: أَحْسَنُ المُصَوِّرِينَ المُقَدِّرِينَ. وَالخَلْقُ يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ التَّقْدِيرُ، وَهُوَ المُرَادُ هُنَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]. أَيِ: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ، فَدَخَلَتْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ فِي عُمُومِ: (كُلِّ). وَمَا أَفْسَدُ قَوْلَهُمْ فِي إِدْخَالِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عُمُومِ: (كُلِّ)، الَّذِي هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا! وَأَخْرَجُوا أَفْعَالَهُمُ الَّتِي هِيَ مَخْلُوقَةٌ مِنْ عُمُومِ: (كُلِّ)!! وَهَلْ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ: (كُلِّ) إِلَّا مَا هُوَ مَخْلُوقٌ؟ فَذَاتُهُ المُقَدَّسَةُ وَصِفَاتُهُ غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي هَذَا الْعُمُومِ، وَدَخَلَ سَائِرُ المَخْلُوقَاتِ فِي عُمُومِهَا. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وَلَا نَقُولُ لِأَنَّ: (مَا)

مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ: خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ، إِذْ سِيَاقُ الْآيَةِ يَأْبَاهُ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْمَنْحُوتِ، لَا النَّحْتَ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَنْحُوتَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مَا صَارَ مَنْحُوتًا إِلَّا بِفِعْلِهِمْ، فَيَكُونُ مَا هُوَ مِنْ آثَارِ فِعْلِهِمْ مَخْلُوقًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ النَّحْتُ مَخْلُوقًا لِلَّهِ تَعَالَى لَمْ يَكُنِ الْمَنْحُوتُ مَخْلُوقًا لَهُ، بَلِ الْخَشَبُ أَوِ الْحَجَرُ لَا غَيْرُ.

وَذَكَرَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيُّ إِمَامُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ: أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْعَبْدَ يُحْدِثُ فِعْلَهُ ضَرُورِيٌّ. وَذَكَرَ الرَّازِيُّ أَنَّ افْتِقَارَ الْفِعْلِ الْمُحْدَثِ الْمُمْكِنِ إِلَى مُرَجِّحٍ يَجِبُ وُجُودُهُ عِنْدَهُ وَيَمْتَنِعُ عِنْدَ عَدَمِهِ ضَرُورِيٌّ، وَكِلَاهُمَا صَادِقٌ فِيمَا ذَكَرَهُ مِنَ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ، ثُمَّ ادِّعَاءُ كُلٍّ مِنْهُمَا أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ يُبْطِلُ مَا ادَّعَاهُ الْآخَرُ مِنَ الضَّرُورَةِ، غَيْرُ مُسَلَّمٍ، بَلْ كِلَاهُمَا صَادِقٌ فِيمَا ادَّعَاهُ مِنَ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ، وَإِنَّمَا وَقَعَ غَلَطُهُ فِي إِنْكَارِهِ مَا مَعَ الْآخَرِ مِنَ الْحَقِّ. فَإِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ كَوْنِ الْعَبْدِ مُحْدِثًا لِفِعْلِهِ وَكَوْنِ هَذَا الْإِحْدَاثِ وَجَبَ وُجُودُهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، فَقَوْلُهُ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، إِثْبَاتٌ لِلْقَدَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، وَإِثْبَاتٌ لِفِعْلِ الْعَبْدِ بِإِضَافَةِ الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى إِلَى نَفْسِهِ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا هِيَ الْفَاجِرَةُ وَالْمُتَّقِيَةُ. وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، إِثْبَاتٌ أَيْضًا لِفِعْلِ الْعَبْدِ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

قال الشيخ:

هذه مناقشة لأدلّة الفريقين المتطرفين، ويهمّنا أن نعرف الجواب، وأمّا شرح أدلّتهم والتوسّع فيها وكيفيّة استدلالهم وترجيحها، فلا حاجة بنا إلى التوسّع فيه، وقد عرفنا أنّ كلا القولين: قول الجبرية وقول المعتزلة في طرفي نقيض، وكلاهما لا يزال لهم بقيّة يقولون بمثل هذه الأقوال، ولا تزال مؤلّفاتهم يُعتنى بها، وتنشر وتحقّق وينفق عليها الأموال، مع أنّها سبب في ضلال كثير من الناس، ويدّعون أنّهم بذلك يقوّون حجّتهم ومعتقدهم الذي اعتقدوه.

إذ قالوا: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، وقالوا: هذا دليل على أنّ الفعل ليس للإنسان، ولكنّه لله؛ فالله هو الذي رمى، وأشار الشارح - كما مرّ بنا - إلى أن التقدير: وما أصبت الهدف، ولكنّ الله هو الذي وفّق لإصابته، فأنت الذي رميت، والله وفّق للإصابة.

وهذه القصّة حصلت في غزوة بدر، وحصلت أيضًا في غزوة حنين، وذلك لما تواجه المسلمون مع المشركين، فأخذ رسول الله ﷺ قبضة من حصباء ورمى بها في وجوه القوم، ومعلوم أنّ رميته لو كانت بمجرّد قوّته لا تذهب إلا نحو عشرين مترًا أو ثلاثين، ولكن هذه الرمية وصلت إلى جميعهم أو أكثرهم، بحيث دخلت تلك الحجارة في عيونهم وأفواههم وأنوفهم، وأعمت عليهم الطرق، حصيات قليلة في يده رمى بها، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»[1]. الله تعالى هو الذي

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ.

أوصلها، وهو الذي وفّق لإصابتها، فكيف يقال: إنّ الأفعال ليست للإنسان، بل الفعل حقًا لله، ما دام أنّ الله أثبت الرّمي ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، أي: حرّكت يدك بتلك الحجارة وقذفتها. هذا دليل على أنّ الفعل أصله من الإنسان، وأنّ الله تعالى هو الذي يسدّده ويوصله، وهو الذي يحرّك همّة العبد إلى أن يفعل ذلك الفعل.

كثيرًا ما يكون المسلمون قلّة، وإذا وجّهوا سهامهم إلى المشركين أصابتهم ولو كانوا بعيدًا، فيسدّد الله سهامهم فتصيب العدو، وأمّا سهام أعدائهم، فإنّها تخطئهم وتذهب يمينًا أو شمالًا أو فوق أو تحت، ولا تصيبهم، يصرفها الله تعالى، فمن الغزاة الرمي، ومن الله التسديد والإصابة، ومن هذا قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، هذا من أدلّة الجبريّة.

ومن أدلّتهم في أنّ العمل ليس سببًا في دخول الجنّة قول النبيّ ﷺ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[1]. قالوا: هذا دليل على أنّ الأعمال ليس لها أثر، وأنّ الأعمال ليست هي التي تسبّب دخول الجنّة، فالأعمال ليست من الإنسان، والإنسان ليس له حركة، بل هو مدفوع إلى هذه الحركة، ومغلوب على أمره، لا يقدر أن يحرّك باختياره لا رأسًا ولا يدًا ولا لسانًا ولا إصبعًا ولا قدمًا، بل هو متصرَّف فيه، تحرّكه إرادة الله، كما تحرّك الشجرة بغير اختيارها.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

الجواب على ذلك: أن النبيّ ﷺ أرد به أنّ أعمالنا - ولو كثرت - لا تُقابل نِعَمَ الله. فنعم الله علينا كثيرة، ولو عملنا ما عملنا، فإنّها قليلة بالنسبة إلى ما يجب علينا. وأعمالنا لو كثرت لم تكن سببًا وحيدًا في دخول الجنّة، ويدل لذلك حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ آنِفًا، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ عَبَدَ اللَّهَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا، وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةَ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ، الْأُصْبُعِ تَبِضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ، فَيَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، يَتَعَبَّدُ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنْ الْوُضُوءِ، وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا، ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ، وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ، وَهُوَ سَاجِدٌ، قَالَ: فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا ، وَإِذَا خَرَجْنَا، فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ، فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ، فَيُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ، فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِك أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي مَنْ خَلَقَكَ، وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ

أَنْزَلَك فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ، وَأَخْرَجَ لَكَ المَاءَ العَذْبَ مِنَ المَاءِ المَالِحِ، وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَهُ أَنْ يَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي، وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الجَنَّةَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي، فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ، قَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّمَا الأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ»[1].

وإذا قيل: قد وردت أدلّة في ترتّب الجزاء على الأعمال، وهي التي استدلّت بها المعتزلة، وجعلوا العمل هو السبب الوحيد في دخول الجنّة. واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]، ونحو ذلك. نقول: صحيح أنّ العمل سبب، ولكن رحمة الله مع ذلك السبب، فيدخل الجنّة بسبب عمله، ولكن مع ذلك برحمة الله تعالى، فهو أرحم الراحمين.

وقد ورد في الحديث: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِئَةِ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حتى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عن وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[2]. فإذا كان يوم القيامة،

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٥٠)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٥١)، وتمام في فوائده (١٦٨٨)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٩٥).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣١١).

ضمّه إلى تلك الأجزاء مئة جزء، فيرحم عباده يوم القيامة. وقد أخبر النبيّ ﷺ عن واسع رحمة الله لَـمَّا رأى امرأة تضمّ ولدها إلى صدرها وترضعه، فقال: «أَتَرَوْنَ هذه طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟»، قَالوا: لَا وَهِيَ تَقْدِرُ على أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فقال: «لَلَّـهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ من هذه بِوَلَدِهَا»(١).

فإذًا: رحمة الله بالعباد أوسع لهم. ورد في الحديث: «لَوْ أَنَّ اللَّـهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِه وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وهو غَيْرُ ظَالِمٍ لهم، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لهم خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»(٢). فعرفنا بذلك ضعف ما استدل به هؤلاء وهؤلاء.

أما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١]. يقولون: هذا دليل على أنّ الخالقين كثير، ليس الخالق هو الله وحده، ولكنّ الله أحسنهم، فجعلوا العباد خالقين مع الله، وجعلوهم رازقين مع الله.

والجواب: أنّ هذا ليس بصحيح، بل الله الخالق وحده، الله خالق كلّ شيء، فالخلق خلقه، والأمر أمره، والآية وردت في سياق التكوين والإيجاد، فيقال: إنّ الإنسان ليس هو الذي يخلق نفسه، وإن كان له سببٌ في وجود الولد، وهو

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩)، وأبوداود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وابن حبان (٢/ ٥٠٥)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٤) عن أُبيّ بن كعب، وابن مسعود، وحذيفة بن اليمان - رضي الله عنهم - موقوفًا، ومن حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه مرفوعًا.

النّكاح والوطء والمباشرة، فيُنسب إليه أنّه له سببًا في خلق هذا الولد وتكوينه، ولكنّ الله تعالى أنشأه. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨، ٥٩]، المنيُّ الذي ينصبُّ في الرحم، ليس الإنسان هو الذي يخلقه، بل قدرة الله، فالله هو الذي قدّر أنّه يكون نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة، ثمّ خلقًا آخر، إلى أن يخرج بشرًا سويًّا. فإذن من الإنسان السبب، ومن الله تعالى الخلق والتكوين والتطوير، إلى أن يخرج سويًّا. فهذا معنى قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وقد يُراد بالخالقين الذين يكوّنون بعض المخلوقات في الدنيا، أو يبدعون بعض الأشياء، وإن كانوا مخطئين بذلك، ورد في الحديث القدسي: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أو شَعِيرَةً**»[1]. جعلوا أنفسهم خالقين، وهم المصوّرون الذين يضاهؤون بخلق الله. فهم لهم إرادة وهمّة في أنّهم يضاهؤون خلق الله، ويخلقون كخلقه، ولكن لا يستطيعون أن يضاهؤوا أو يشابهوا خلق الله تعالى، فالخلق الأصل خلق الله تعالى، فهو الذي خلق الأرواح، ولا يستطيعون أن يخلقوها، وهو الذي يحيي الأموات، ولا يستطيعون أن يحيوها. وفي الحديث: «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فإن اللَّهَ مُعَذِّبُهُ حتى يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**»[2].

واستدلّ المعتزلة بترتيب الجزاء على الأعمال بقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢]، أو ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٤]، أو ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة:٢٤].

والجواب: أنّ أعمالكم سبب وليست مستقلّة؛ فالأعمال من جملة الأسباب التي يثاب عليها العباد ويعاقبون.

واستدلّت الجبريّة بآيتين، الأولى: قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الرعد:١٦]، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، في إثبات أنّ الإنسان ليست له أيّة نسبة وليس له أي خلق، وكذلك بقوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. وعرفنا كيف نردّ عليهم.

واستدلّوا بالنسبة إلى الأعمال، وأنّها ليست سببًا في دخول الجنّة، أو النّجاة من النّار، بالآية التي مرّت بنا. وبالحديث: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»[1]. وعرفنا بذلك أنّ أدلّتهم لا تفيدهم شيئًا، وأنّ ترتيب الجزاء على الأعمال من ترتيب الأسباب على المسبّبات.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

قال الشارح:

وَهَذِهِ شُبْهَةٌ أُخْرَى مِنْ شُبَهِ الْقَوْمِ الَّتِي فَرَّقَتْهُمْ، بَلْ مَزَّقَتْهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَهِيَ: أَنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ الْحُكْمُ عَلَى قَوْلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الْمُكَلَّفِينَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ وَهُوَ خَلَقَهَا فِيهِمْ؟ فَأَيْنَ الْعَدْلُ فِي تَعْذِيبِهِمْ عَلَى مَا هُوَ خَالِقُهُ وَفَاعِلُهُ فِيهِمْ؟ وَهَذَا السُّؤَالُ لَمْ يَزَلْ مَطْرُوقًا فِي الْعَالَمِ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ فِي جَوَابِهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَعَنْهُ تَفَرَّقَتْ بِهِمُ الطُّرُقُ: فَطَائِفَةٌ أَخْرَجَتْ أَفْعَالَهُمْ عَنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَائِفَةٌ أَنْكَرَتِ الْحِكَمَ وَالتَّعْلِيلَ، وَسَدَّتْ بَابَ السُّؤَالِ، وَطَائِفَةٌ أَثْبَتَتْ كَسْبًا لَا يُعْقَلُ! جَعَلَتِ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ عَلَيْهِ، وَطَائِفَةٌ الْتَزَمَتْ لِأَجْلِهِ وُقُوعَ مَقْدُورٍ بَيْنَ قَادِرَيْنِ، وَمَفْعُولٍ بَيْنَ فَاعِلَيْنِ! وَطَائِفَةٌ الْتَزَمَتِ الْجَبْرَ، وَأَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُهُمْ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ! وَهَذَا السُّؤَالُ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ التَّفَرُّقَ وَالِاخْتِلَافَ.

وَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ عَنْهُ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مَا يُبْتَلَى بِهِ الْعَبْدُ مِنَ الذُّنُوبِ الْوُجُودِيَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ خَلْقًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَهِيَ عُقُوبَةٌ لَهُ عَلَى ذُنُوبٍ قَبْلَهَا، فَالذَّنْبُ يُكْسِبُ الذَّنْبَ، وَمِنْ عِقَابِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، فَالذُّنُوبُ كَالْأَمْرَاضِ الَّتِي يُورِثُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

يَبْقَى أَنْ يُقَالَ: فَالْكَلَامُ فِي الذَّنْبِ الْأَوَّلِ الْجَالِبِ لِمَا بَعْدَهُ مِنَ الذُّنُوبِ؟ يُقَالُ: هُوَ عُقُوبَةٌ أَيْضًا عَلَى عَدَمِ فِعْلِ مَا خُلِقَ لَهُ وَفُطِرَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَهُ لِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَفَطَرَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَتَأَلُّهِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا خُلِقَ لَهُ وَفُطِرَ عَلَيْهِ؛ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، عُوقِبَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ زَيَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ مَا يَفْعَلُهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي، فَإِنَّهُ صَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا قَابِلًا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ الْخَيْرُ الَّذِي يَمْنَعُ ضِدَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهُ الشَّرُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، وَقَالَ إِبْلِيسُ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وَقَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤١، ٤٢].

وَالْإِخْلَاصُ: خُلُوصُ الْقَلْبِ مِنْ تَأَلُّهِهِ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَخَلَصَ لِلَّهِ، فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهُ الشَّيْطَانُ. وَأَمَّا إِذَا صَادَفَهُ فَارِغًا مِنْ ذَلِكَ، تَمَكَّنَ مِنْهُ بِحَسَبِ فَرَاغِهِ، فَيَكُونُ جَعْلُهُ مُذْنِبًا مُسِيئًا فِي هَذِهِ الْحَالِ؛ عُقُوبَةً لَهُ عَلَى عَدَمِ هَذَا الْإِخْلَاصِ، وَهِيَ مَحْضُ الْعَدْلِ.

قال الشيخ:

في هذا السؤال الذي يردّده المعتزلة أو الجبرية وهو قولهم: إذا كان الله خلق فينا المعاصي فكيف يعذّبنا؟ وإذا كان الله لم يهدنا بل أضلّنا، كيف يعذّبنا؟ وإذا نصحت أحدهم يقول: الله ما هدانا، وإن لم يهدنا الله فأنت لا تهدينا ! وكثيرًا ما يقولون: الله لم يهدنا، وكتب علينا ذلك، فإذا عذّبنا فقد ظلمنا أو نحو ذلك من

العبارات الشنيعة البشعة.

ولسنا بحاجة إلى مناقشة تلك الأقوال السيئة الشنيعة، وقد ذكر لنا الشارح من أقوالهم قول من لم يجعل للعبد أيّ اختيار، وقول من جعل العبد مستقلًا. وقول من أثبت له كسبًا، ولكن لا حقيقة لذلك الكسب. وقول من جعل الفعل صادرًا عن فاعلين، ومن جعل القدرة صادرة عن قادرين.

ونحن نقول: إنّ الإنسان أعطاه الله هذه القوّة والقدرة والمباشرة والهمّة التي يزاول بها الأعمال، وتنسب إليه، ويثاب بسببها، أو يعاقب بسببها، مع أنّه قادر على أن يضلّه، وعلى أن يعجزه، وأنّه هو الذي أمدّه وقوّاه، ومن أجل ذلك تنسب الأفعال إلى الإنسان مباشرة، وتنسب إلى الله خلقًا وتقديرًا، فيقال: هي خلق الله من حيث إنه قدّرها، وقوّى العباد عليها، وهي أعمال العباد من حيث إنّهم باشروها، وفعلوها بأبدانهم، فنسبت إليهم، ونسبت إلى الله تعالى، ولا منافاة بين النسبتين.

ثمّ مرّ معنا أنّ الله تعالى يعاقب العباد في الدنيا، ويعاقبهم أيضًا في الآخرة على السيّئات، فيقول الشارح: إنّ هذه العقوبة على الذنوب، وإنّ الأصل أنّه عاقب على هذه الذنوب بذنوب أخرى، فلمّا أنّهم أذنبوا كان من عقوبة الذنب أن أذنبوا ذنبًا آخر عقوبة، ثم ذنبًا آخر عقوبةً للثاني... وهكذا استمرّت بهم السيّئات، وتمادوا فيها، فيكون الوقوع في هذا الذنب أنّ الله خلّى بينه وبين نفسه، وخلّى بينه وبين هواه، وسلّط عليه أعداءه من شياطين الإنس والجنّ، فلمّا تمكّنوا منه صرفوه عن الهدى، وإن كان ذلك بتقدير الله، ولما صرفوه واستهوته الشياطين، صارت

أعماله سيّئات، عقوبة له على سيّئة اقترفها سابقًا.

ومما نقله الشارح: أنّ من عقوبة السيّئة السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فإذا عمل العبد حسنة، قالت الحسنة بعدها: اعملني، وإذا عمل العبد سيّئة، قالت السيّئة بعدها: اعملني، فتتابع في السيّئات المسيؤون، وفي الحسنات المحسنون، فهذا من ثواب الحسنة، وعقوبة السيّئة.

فإن قالوا: السيئة الأولى عقوبة على أيّ شيء ما دام أنّه وقعت منه هذه السيّئة، فكيف وقعت منه، وكيف خلقت فيه، وكيف فعلها ولم يسبقها سيئة؟ أجاب الشارح بأنّها: عقوبة على ترك الإخلاص، أو ترك الأعمال الصالحة التي أمر بها وكُلّف بها، وما ذاك إلا لأنّا خلقنا لعبادة الله، فإذا انشغلنا عن هذه العبادة أليس هذا يعدّ ذنبًا؟ إمّا في لهو وبطالة، وإما في غفلة، وإما بإقبال على شهوات تفوّت عليك الخير، وإمّا قطع الزمن الذي أنت مأمور أن تستغلّه في الطاعة، تقطعه في غير الطاعة. هذا كلّه يُعد ذنبًا، فيستحقّ من فعله أن يقع منه ذنبٌ آخر، عقوبة على ما فعله من هذا الترك.

الله خلق العباد لعبادته وحده، وأمرهم أن يشكروه، وأن يعرفوا حقّه عليهم، فلمّا خلقهم للعبادة وأمرهم بالإخلاص في قوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، فإذا تركوا هذه العبادة في وقت من الأوقات، عدَّ ذلك ذنبًا وقع منهم وإن لم يكن سيئة، ولكنه ترك لعمل صالح، فاستحقوا بهذا الذنب أن تسلّط عليهم الأهواء والأعداء، فيوقعونهم في الذنوب وتتابع عليهم السيّئات

وتتابع منهم كذلك.

وهذا التعليل علل به العلماء في عقوبة السيّئة. فقالوا: كيف يعاقب الله على السيّئة وهو الذي خلقها، وأجيب على ذلك: بأنّه ولو كان هو الذي قدّرها، لكنّ العبد هو الذي باشرها، ولذلك عُوقب عليها، وعُوقب بسيئة تبحتها. والعقاب الذي في الدنيا قد يكون عقابًا حسيًّا أو معنويًّا. فالعقاب الحسّي: هو ما أنزل الله على المعذّبين. فمنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسف بهم الأرض، ومنهم من أرسل عليه حاصبًا، ومنهم من أغرق، وأما العقوبات المعنويّة: فهي تسليط الأعداء والأهواء عليهم وحرمانهم الطاعة.

فإذا رأيت المكبّ على المعاصي فاعلم أنّه معاقب، وأنّ حرمانه من طاعة الله عقوبة عليه. وإذا رأيت المنهمك في الشهوات، المفوّت للأوقات، فاعلم أنّه معاقب، فإذا قال: على أيّ شيء يعاقبني الله ويقول: أنا ما أذنبت، أنا ما كفرت، أنا ما عصيت، كيف يعاقبني بأن يوقعني في هذا المصائب وفي هذه الذنوب؟ فقل له: إنّك أذنبت أولًا في غفلتك؛ لأنك أضعت وقتًا ثمينًا في الغفلة، وثانيًا: بتركك العمل، إذ كان عليك أن تشغل وقتك بأعمال صالحة، وبحسنات، فلمّا لم تفعل كنت مذنبًا، وكانت عقوبة هذا الذنب أن توالت عليك الذنوب.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه ذكر أنّ الذّنوب تؤثّر في القلوب وتقسّيها وتعميها وتصدّها عن الهدى، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إذا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هو نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ

قَلْبَهُ، وهو الرَّانُ الذي ذَكَرَ الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[1]. فإذا غلبه هذا السواد الذي هو بسبب المعاصي، فعندئذ تثقل عليه الطاعات، وتخفّ عليه المحرّمات.

من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر. ويدخل في القدر الإيمان بعموم قدرة الله تعالى، وأنّه على كلّ شيء قدير، ويدخل في قدرة الله تعالى أنّه قادر على أن يعذّب من يشاء، وقادر على أن يرحم من يشاء، وقادر على أن ينتقم من الظلمة ويهلكهم في أسرع وقت ممكن، وقادر على أن يبسط لهم الرزق، وقادر على أن يعمّم فضله على القاصي والداني، وقادر على أن يحرم هذا ويهلكه، وقادر على أن يغيّر هذا الكون، ويبدّل المخلوقات، فلا يعجزه شيء ولا يخرج عن قدرته شيء.

كذلك لا يكون في الوجود شيء إلا بإرادته، وبعد أن يشاء ذلك ويقدّره، فلا يكون فسوق ولا طاعة ولا معصية ولا هداية ولا ضلال، ولا كفر ولا إيمان، لا يكون إلا بعد أن يشاء ذلك، ﴿لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ [الشورى: ٣٣]، ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

ولكن اقتضت حكمته أن أضلّ أناسًا بعدله، فضلّوا سواء السبيل، ومنّ على

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في الكبرى (١٠١٧٩)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وابن حبان (٣/ ٢١٠)، والحاكم (٢/ ٥١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

آخرين بفضله، فاهتدوا إلى سواء السبيل. وأولئك داخلون تحت قدرته، وهؤلاء كذلك، والجميع عبيده، وتحت تصرّفه، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويخفض ويرفع، لا معزّ لمن أذلّ ولا مذلّ لمن أعزّ، بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

ويدخل في ذلك حركات العباد وأفعالهم فهو الذي قدّرهم، وهو الذي أعطاهم القوّة، وهو الذي بعث هممهم، وهو الذي شاء ما أرادوه وما فعلوه، ولو شاء لَما عصوه، وكلّ ذلك بمشيئته وقدرته، فإن أطاعوه فبفضله، فهو الذي منّ عليهم حتّى أطاعوه، وإن عصوه فبعدله، فهو الذي خذلهم حتّى عصوه.

وقد مرّ بنا أنّ في هذا خلافًا بين ثلاث طوائف:

الأولى: الجبرية، فقد غلوا في نفي قدرة العبد، وجعلوا حركته كحركة الأشجار، ولم يجعلوا له أيّ اختيار واستدلّوا بقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، ولكنّه ردّ عليهم بأنّ الله سبحانه أثبت الرمي لنبيّه ﷺ، فمنه الرمي ومن الله تعالى الإصابة.

الثانية: القدرية، وهم الذين أنكروا قدرة الله على أفعال العباد، وجعلوا العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، وليس لله قدرة على هداية هذا ولا إضلال هذا، ولا توفيق هذا ولا خذلان هذا، فجعلوا العبد أقدر من الله، وجعلوا قدرته تفوق قدرة الخالق، وجعلوا مع الله من يخلق، فهؤلاء يقال لهم: مجوس هذه الأمّة.

وتوسّط أهل السنّة، وجعلوا للعبد قدرةً وإرادةً، ولكنّها مسبوقة بقدرة الله

وإرادته، ومغلوبة بها، فإذا أراد اللهُ هداية عبد وفّقه وأطلق جوارحه فاختار الفعل الطيّب، فأصبح مطيعًا مؤمنًا، فتنسب إليه طاعاته ومعاصيه؛ لأن لـه إرادة، ولأن له قدرة زاول بها الأعمال، وتنسب إلى الله؛ لأنه هو الذي أقدره عليها، وهو الذي قوّاه ورزقه القوّة ورزقه التوفيق. وكذلك المعصية؛ تنسب إلى الله؛ لأنّه هـو الـذي قدّرها، وتنسب إلى العبد؛ لأنه هو الذي باشرها وهو الذي فعلها.

وجميع الحركات من الله تعالى إيجادًا وتكوينًا، ومن العبد فعلًا ومباشرة. فعلى هذا لا يكون هناك من يشترك في خلق الفعل وإيجاده، بل الله هو الذي مكّن العبد حتّى فعله وأظهره، والعبد هو الذي باشره، فتنسب إليه المباشرة، فلا يكون هناك خلاف ولا إجبار ولا إنكار لقدرة الله تعالى.

قال الشارح:

فَإِنْ قُلْتَ: فَذَلِكَ الْعَدَمُ مَنْ خَلَقَهُ فِيهِ؟ قِيلَ: هَذَا سُؤَالٌ فَاسِدٌ، فَإِنَّ الْعَدَمَ كَاسْمِهِ، لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعَلُّقِ التَّكْوِينِ وَالْإِحْدَاثِ بِهِ، فَإِنَّ عَدَمَ الْفِعْلِ لَيْسَ أَمْرًا وُجُودِيًّا حَتَّى يُضَافَ إِلَى الْفَاعِلِ، بَلْ هُوَ شَرٌّ مَحْضٌ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الِاسْتِفْتَاحِ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]. وَكَذَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَقُولُ لَهُ اللَّهُ: «يَا مُحَمَّدُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[2].

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ تَسْلِيطَ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا تَوَلَّوْهُ دُونَ اللَّهِ وَأَشْرَكُوا بِهِ مَعَهُ، عُوقِبُوا عَلَى ذَلِكَ بِتَسْلِيطِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْوِلَايَةُ وَالْإِشْرَاكُ عُقُوبَةَ خُلُوِّ الْقَلْبِ وَفَرَاغِهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ، فَإِلْهَامُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ثَمَرَةُ هَذَا الْإِخْلَاصِ وَنَتِيجَتُهُ، وَإِلْهَامُ الْفُجُورِ عُقُوبَةٌ عَلَى خُلُوِّهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٣٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٩)، والبزار (٧/ ٣٢٩)، والحاكم (٢/ ٣٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧٨) عن حذيفة ﷺ موقوفًا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٧٧): «رواه البزار موقوفًا ورجاله رجال الصحيح». وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٦٧)، والبيهقي في القضاء والقدر (ص٢٧٥) من حديث حذيفة ﷺ مرفوعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ كَانَ هَذَا التَّرْكُ أَمْرًا وُجُودِيًّا عَادَ السُّؤَالُ جَذَعًا، وَإِنْ كَانَ أَمْرًا عَدَمِيًّا فَكَيْفَ يُعَاقَبُ عَلَى الْعَدَمِ الْمَحْضِ؟

قِيلَ: لَيْسَ هَنَا تَرْكٌ هُوَ كَفُّ النَّفْسِ وَمَنْعُهَا عَمَّا تُرِيدُهُ وَتُحِبُّهُ، فَهَذَا قَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ أَمْرٌ وُجُودِيٌّ، وَإِنَّمَا هُنَا عَدَمٌ وَخُلُوٌّ مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ، وَهَذَا الْعَدَمُ هُوَ مَحْضُ خُلُوِّهَا مِمَّا هُوَ أَنْفَعُ شَيْءٍ لَهَا، وَالْعُقُوبَةُ عَلَى الْأَمْرِ الْعَدَمِيِّ هِيَ بِفِعْلِ السَّيِّئَاتِ، لَا بِالْعُقُوبَاتِ الَّتِي تَنَالُهُ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِالرُّسُلِ. فَلِلَّهِ فِيهِ عُقُوبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: جَعْلُهُ مُذْنِبًا خَاطِئًا، وَهَذِهِ عُقُوبَةُ عَدَمِ إِخْلَاصِهِ وَإِنَابَتِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ قَدْ لَا يُحِسُّ بِأَلَمِهَا وَمَضَرَّتِهَا، لِمُوَافَقَتِهَا شَهْوَتَهُ وَإِرَادَتَهُ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ.

وَالثَّانِيَةُ: الْعُقُوبَاتُ الْمُؤْلِمَةُ بَعْدَ فِعْلِهِ لِلسَّيِّئَاتِ. وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ هَاتَيْنِ الْعُقُوبَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ الْأُولَى، ثُمَّ قَالَ: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، فَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ الثَّانِيَةُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِنَابَةِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ وَحْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْلُقَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَجْعَلَهُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ مُنِيبِينَ لَهُ مُحِبِّينَ لَهُ؟ أَمْ ذَلِكَ مَحْضُ جَعْلِهِ فِي قُلُوبِهِمْ وَإِلْقَائِهِ فِيهَا؟ قِيلَ: لَا، بَلْ هُوَ مَحْضُ مِنَّتِهِ وَفَضْلِهِ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْخَيْرِ الَّذِي هُوَ بِيَدِهِ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ، وَلَا يَتَّقِي مِنَ الشَّرِّ إِلَّا مَا وَقَاهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا لَمْ يُخْلَقْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ وَلَمْ يُوَفَّقُوا لَهُ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ بِأَنْفُسِهِمْ، عَادَ السُّؤَالُ؟ وَكَانَ مَنْعُهُمْ مِنْهُ ظُلْمًا، وَلَزِمَكُمُ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْعَدْلَ هُوَ تَصَرُّفُ الْمَالِكِ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

قِيلَ: لَا يَكُونُ سُبْحَانَهُ بِمَنْعِهِمْ مِنْ ذَلِكَ ظَالِمًا، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَانِعُ ظَالِمًا إِذَا مَنَعَ غَيْرَهُ حَقًّا لِذَلِكَ الْغَيْرِ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ الرَّبُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ خِلَافَهُ. وَأَمَّا إِذَا مَنَعَ غَيْرَهُ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ لَهُ، بَلْ هُوَ مَحْضُ فَضْلِهِ وَمِنَّتِهِ عَلَيْهِ، لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا بِمَنْعِهِ، فَمَنْعُ الْحَقِّ ظُلْمٌ، وَمَنْعُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ عَدْلٌ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْعَدْلُ فِي مَنْعِهِ، كَمَا هُوَ الْمُحْسِنُ الْمَنَّانُ بِعَطَائِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ الْعَطَاءُ وَالتَّوْفِيقُ إِحْسَانًا وَرَحْمَةً، فَهَلَّا كَانَ الْعَمَلُ لَهُ وَالْغَلَبَةُ، كَمَا أَنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ؟

قِيلَ: الْمَقْصُودُ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ الْمُتَرَتِّبَةَ عَلَى هَذَا الْمَنْعِ، وَالْمَنْعَ الْمُسْتَلْزِمَ لِلْعُقُوبَةِ لَيْسَ بِظُلْمٍ، بَلْ هُوَ مَحْضُ الْعَدْلِ.

قال الشيخ:

مناقشات لاعتراض المعتزلة الذين ينكرون قدرة الله على أفعال العباد، فيوردون هذه الشبهات ليلبِّسوا على غيرهم.

وقد مرّ بنا أنّ الشرّ لا يُضاف إلى الله على أنّه شرٌّ، نقول: كلّ أفعال الله تعالى خير، ولو كانت عقوبات، أو إهلاكًا أو انتقامًا، فلا يقال إنّه شرٌّ، ولا يقال إنّه مرضٌ بل هو خير بالنسبة إليه سبحانه وتعالى.

وإذا تتبعنا الأدلّة وجدنا أنّ الله تعالى لا ينسب الشرّ إلى نفسه، ولكنّه يذكره على صيغة المبني للمجهول، كما في قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، فالشرّ قالوا أريد بهم، وأراده الله؛ لأنّ الشرّ المحض لا يُنسب إلى الله، وأما الخير فيفصح بأنّه من الله، فقالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فدلّ على أنّ كل ما يصدر من الله فهو خير، فالصواعق التي تنزل، والأمراض التي تحدث بتقدير الله، والجدب والقحط الذي يصيب الكثير من البلاد، لا يقال: إنّه شرّ، بل هو خير بالنسبة إلى الله؛ وذلك لأنّه قدّره لعاقبة حسنة، وقدّره لينبّه عباده على عزّته وقدرته، ولينبههم على خطئهم وذنبهم، وأنه غير ظالم لهم، «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وهو غَيْرُ ظَالِمٍ لهم، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لهم خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»[1]، ومِمّا يستحقّونه.

فإذًا كلُّ ما يحدث فهو بتقدير الله، ولكن لا ينسب إلى الله الشر.

مرّ بنا أن النبيّ ﷺ كان يقول في التلبية: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[2]، جعل الخير كلّه من الله وإليه، والشرّ ليس إلى الله، أي: لا ينسب إلى الله، ولو كان هو الذي قدّره، ولو كان هو الذي شاءه، ولكن لا نسمّيه شرًا بالنسبه إلى إحداث الله له، فإنّه خير؛ لأنّه سبحانه ما أراد إلا الخير، وما أراد بعباده إلا أن ينبّههم، فإن كانوا عصاة سلّط الله عليهم قحطًا أو مرضًا،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٤٤٩).

فهذا خير، حتى ينتبهوا لمعصيتهم، ويعلموا أنّ ما أصابهم فهو عقوبة لهم. وإن كانوا مطيعين، علموا أنّ ذلك ابتلاء وامتحان وتنبيه لهم، ليكون ذلك زيادة في حسناتهم. لذا فإن جميع ما يحدث وما يقدّره الله في الكون، فهو خير إذا صدر من الله تعالى.

ومعلوم أيضًا أنّه سبحانه هو الذي يكوّن الكائنات ويقدّرها، وأنّه يعاقب العباد بما يستحقّون، وقد يعفو عنهم، وتكون عقوباته نوعين: عقوبة ظاهرها أنّها نعمة، وهي محنة وامتحان واختبار. وعقوبة يظهر فيها أنّها عذاب وألم. والكلّ قد يسمّى عقوبة، ولا يكون ذلك إلاّ إذا عصوا ما أمرهم، أو ما كُلِّفُوا به، وخالفوا ما أمروا به. فقد وجّه الله إليهم الأوامر، وبيّن لهم، ولكنّهم بطبعهم خالفوا وارتكبوا المعاصي فعاقبهم بعقوبتين، كما في آية سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤]، وهذه نعمة، ولكنّها عقوبة ومحنة، بمعنى: فتحنا عليهم الأرزاق، ويسّرنا لهم الأسباب، وقوّيناهم، وأعطيناهم الأموال والأولاد والأمن والرّخاء، وكثرة النّعم، وكثرة الخيرات، فازدهرت لهم الدّنيا، وأعجبوا بما أصابوا، وانخدعوا واغترّوا، وظنّوا أنّ ذلك كرامة ومنحة، وقالوا هذا بسبب أعمالنا وما نستحقّه، وعند ذلك يطغون ويبغون، ويتجبّرون ويتكبّرون، ويكفرون نعم الله، ويستعينون بها على المحرّمات والمعاصي، وكلّ ذلك بتقدير الله تعالى، ولو شاء لهداهم، ولكنّه خلّى بينهم وبين أنفسهم وأهوائهم، فاختاروا الضلال، فحقّت عليهم الكلمة، فعند ذلك تنزل

عليهم العقوبة الثانية، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]، أخذهم الله على حين غرّة وغفلة.

فإذًا قول الشارح: إنّ الذين قالوا: لماذا خلق الله فيهم عدم الإيمان؟ أجاب بأنّه: لا يُسمّى العدم شيئًا، وكذلك قولهم: لماذا لم يسوِّ بينهم، فيهديهم كلّهم، ويعطيهم العقول التي تهديهم إلى الخير، فأجاب بأنّه سبحانه له الحكمة، حيث إنّه خلق دارين: دارًا للنّعيم، ودارًا للجحيم، ولو سوّى بينهم في الاختيار والهداية، لتعطّلت إحدى الدارين، فمن حكمته أن جعل أهواءهم تختلف، فمنهم من اختار الهدى، ومنهم من اختار الضلالة، منهم من حقّت عليه كلمة العذاب، ومنهم من اختار أسباب الثواب. ولا يقال: إنّه ظلم هؤلاء حيث لم يوفّقهم، بل يقال: إنّه خلّى بينهم وبين أنفسهم، وإنّه لم يرَ هؤلاء أهلًا لنعمته، ولا أهلًا لحكمته، ولا أهلا لرحمته، بل رأى فيهم من الميل للهوى ما لا يكونون معه أهلًا للفضل.

وأنت تشاهد أبناء رجل واحد، وترى أنّ تربيتهم واحدة، وتعليمهم واحد، وكذلك يقرؤون كتبًا واحدة، ومع ذلك إذا كبروا يتفاوتون؛ فمنهم من يميل إلى الخير ويؤثره ويحبّه ويكون خيرًا محضًا، فيعمل الصالحات ويتقبّلها، ومنهم من يميل إلى الشرّ، ويميل إلى البطالة، وإلى المعصية والضلالة. فتقول: لماذا حصل هذا التفاوت، أليست تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم سواء؟ يقال: بلى، ولكن هؤلاء كتب الله لهم السعادة، وهؤلاء حكم عليهم بالشقاوة، هؤلاء هداهم،

وهؤلاء أضلّهم، والجميع لم يظلمهم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. ولكن بسبب أنّه لم يرَ هؤلاء أهلًا، بل علم أنّ طبعهم وميلهم وعقولهم منتكسة، وليست أهلًا لأن تقبل الهدى، فخلّى بينهم وبين أنفسهم، فانخذلوا وخرجوا عن الطاعة والاستقامة، بخلاف أولئك.

مع أنّنا نؤمن بأنّ هناك أسبابًا جعلها الله مؤثّرةً في هذه الدنيا، والسبب الوحيد في هداية الإنسان هو توفيق الله تعالى له، وإعطاؤه قابليّة للحقّ وميلًا إليه، ويقذف في قلبه محبّة للدين وميلًا إليه، هذا هو السبب الأصل، ثم هناك أسباب أخرى: فتنشئة الوالدين، جعلها الله سببًا للخير أو سببًا للشرّ، فإن كان الوالد محبًّا للخير وربّى أولاده على الخير وعلى العلم وعلى الدين، وعلى التقوى، وعلّمهم كلّ شيء ينفعهم، كان ذلك سببًا، وإن كان قد يتخلّف في بعضهم.

وكذلك إذا أراد الله بعبده الخير، وفّق له جليسًا خيّرًا، ويسّر له أصدقاء صالحين يهدونه ويدلّونه، ويأخذون بيده إلى سبيل النجاة. وكان ذلك كلّه من أسباب الهداية والاستقامة. ولكن ذلك كلّه بتقدير العزيز العليم، فجعل قلبه يميل إلى هذا أو إلى هذا، وهذه الأسباب قد تفعل مع الشخص الآخر ولكن لا تزيده إلاّ عُتُوًّا ونفورًا. فأنت قد تدعو إنسانًا، وتبذل له الأسباب فتعطيه نصائح وترشده، وتخوّفه، وتهدي إليه كتبًا ونشرات وأشرطة مفيدة؛ فيسمعها ويهتدي ويتقبّل، بعد أن كان عاصيًا عاتيًا، وتأتي إلى أخيه أو زميله، وتعمل معه ذلك العمل وتنصحه وتهديه، ولكن لا ينفع معه ذلك، ولا يتقبّل، ولا يزيده

ذلك إلا عتوًّا ونفورًا، بل قد يحتقر من يدعوه إلى الخير، ويتنقّصهم، ويرى نفسه أفضل منه. فليس هناك إلا أنّ هذا منّ الله عليه وجعل فيه هذه القابليّة للهداية، وذاك خذله وخلّى بينه وبين نفسه، وسلّط عليه أعداءه فحبسوه، وتمكّنوا من قيادته حيث يشاؤون، ولم تجدِ فيه الحيَل. وقال تعالى: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

قال الشارح:

وَهَذَا سُؤَالٌ عَنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي أَوْجَبَتْ تَقْدِيمَ الْعَدْلِ عَلَى الْفَضْلِ فِي بَعْضِ الْمَحَالِّ؟ وَهَلَّا سَوَّى بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الْفَضْلِ؟ وَهَذَا السُّؤَالُ حَاصِلُهُ: لِمَ تَفَضَّلَ عَلَى هَذَا وَلَمْ يَتَفَضَّلْ عَلَى الْآخَرِ؟ وَقَدْ تَوَلَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْجَوَابَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، وَقَوْلِهِ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩]. وَلَمَّا سَأَلَهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَنْ تَخْصِيصِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَجْرَيْنِ وَإِعْطَائِهِمْ هُمْ أَجْرًا أَجْرًا، قَالَ: «هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[1]. وَلَيْسَ فِي الْحِكْمَةِ إِطْلَاعُ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ النَّاسِ عَلَى كَمَالِ حِكْمَتِهِ فِي عَطَائِهِ وَمَنْعِهِ، بَلْ إِذَا كَشَفَ اللَّهُ عَنْ بَصِيرَةِ الْعَبْدِ، حَتَّى أَبْصَرَ طَرَفًا يَسِيرًا مِنْ حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَتَخْصِيصِهِ وَحِرْمَانِهِ، وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَ مَحَالِّ ذَلِكَ، اسْتَدَلَّ بِمَا عَلِمَهُ عَلَى مَا لَمْ يَعْلَمْهُ.

وَلَمَّا اسْتَشْكَلَ أَعْدَاؤُهُ الْمُشْرِكُونَ هَذَا التَّخْصِيصَ، قَالُوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، قَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]. فَتَأَمَّلْ هَذَا الْجَوَابَ، تَرَ فِي ضِمْنِهِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِالْمَحَلِّ الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يَصْلُحُ لِغَرْسِ شَجَرَةِ النِّعْمَةِ فَتُثْمِرُ بِالشُّكْرِ، مِنَ المَحَلِّ الَّذِي لَا يَصْلُحُ لِغَرْسِهَا، فَلَوْ غُرِسَتْ فِيهِ لَمْ تُثْمِرْ، فَكَانَ غَرْسُهَا هُنَاكَ ضَائِعًا لَا يَلِيقُ بِالْحِكْمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

قال الشيخ:

هذا المعنى قد ذكرنا ما يدلّ عليه، وقد عرفنا أنّ الربّ سبحانه وتعالى هو الحكيم، الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وأنّه من حكمته قسّمَ خلقَه إلى سعيد وشقي، وإلى فاجر وتقيّ. وعلم من هو أهل للتقوى فوفّقه، ومن هو أهل للشقاء فخذله، ولا يظلم ربّك أحدًا.

فله الحكمة في أمره ونهيه، وله الحكمة في خلقه وتدبيره، وكذلك له الحكمة في هدايته وإضلاله، وتوفيقه وخذلانه، يهدي من يشاء فضلًا، ويضلّ من يشاء عدلًا.

وفضله سبحانه على عباده كلّهم حيث خلقهم على أحسن تقويم، وحيث رزقهم وحيث أنعم عليهم، وأعطاهم ما يعيشون به، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]، فهذا هو الفضل العام الذي عمّمه على جميع الخلق. وأمّا الفضل الخاص فهو الهداية والتوفيق، والمنّة على العبد، وهو الذي يختصّ به من يشاء، ولا يُعاتب على تخصيصه، فلا يقال: لماذا خصّ هذا بالهداية دون هذا، ولماذا أغنى هؤلاء وأفقر هؤلاء، ولا يقال: لماذا أصحَّ هذا وأمرضَ هذا، ولا يجوز

الاعتراض على تصرُّف الله تعالى، فلا يقال: فلان لا يستحقّ أن يُبتلى، أو لا يستحقّ أن يمرض، فالأمر بيدِ الخالقِ سبحانه، فله الحكمة في أن أضلّ هؤلاء وهدى الآخرين وأن أنعم على هؤلاء وخذل غيرهم، وأنّه أعطى هذا ومنع هذا، له الحكمة في ذلك، وله النعمة والمنّة.

والآيات التي استدلّ بها الشارح واضحة الدلالة على أنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من خلقه، وليس الفضل خاصًا بالمال، ولا بالشهوات، ولا بالنّعم، ولا بالبنين، ولا بالخيرات، بل هو التوفيق والهداية، وهو إلهام العبد إيمانًا صادقًا ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:٢٩]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، فهذا الفضل ليس لأحد أن يعترض على الله تعالى في أنه خصّ به قومًا دون قوم.

ولـمّا قال المكذّبون للرّسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠]، قالت لهم رسلهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١١]، يمنّ عليهم: فهدايته منّة عليهم، والله ورسوله أمنُّ، أي: له المنّ وله الفضل. كما دعا بذلك رسول الله ﷺ، كان من دعائه بعد الصلاة أن يقول: «**لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، لا نَعْبُدُ إِلا إِيَّاهُ، لَهُ المَنُّ، وَلَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ**»[(١)]، المنّ: الامتنان على خلقه، يمتنّ عليهم بما يشاء، بمعنى أنّ له المنّة

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٥٠)، وأصله في صحيح مسلم (٥٩٤) من حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما.

عليهم، أي: الإعطاء والتفضّل عليهم، والفضل: العطاء والهداية والتوفيق.

فإذًا: ما دام أنّه سبحانه يعطي هؤلاء دون هؤلاء، فلا يُعترض ويقال: إنّه يعطي هذا دون هذا، فمثلًا قد يعظم أجر هذا ويضاعف له الحسنات أكثر من هذا، لماذا؟ الله أعلم. لا شكّ أنّه رآه أهلًا، ونتذكّر قول الله تعالى لنساء النبيّ ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١]، تخصيصها إذا أحسنت أنّ لها الأجر مرّتين، ذلك فضل الله. وتخصيصها بأنّها إن فعلت ذنبًا تعاقب عليه مرّتين؛ لأنّها ذات منزلة وذات فضيلة، فلا يليق بها أن تفعل الذنب الذي تعاقَب عليه.

فتخصيصه بعض عباده بمضاعفة الثواب فضل منه ومنّةٌ، مع أنّا نعرف أن جميع الخلق سواسيةٌ، لا فرق بينهم أمام الله سبحانه، وليس لهم عنده حسب ولا نسب، ولا يعطي هؤلاء لكونهم ذوي شرف وذوي فضيلة، ولا يمنع هؤلاء لكونهم ذوي نسب دنيء أو نحو ذلك، فربّ شخص يكون من أشراف النّاس ومن مشاهيرهم، ومن أفاضلهم وأرفعهم نسبًا، ومع ذلك يكون بعيدًا عن الخير، بعيدًا عن الهداية، وآخر يكون من ذوي النسب الدنيء الذي لا يؤبه له، ولكن يكون له فضل ومنزلة ورفعة وشرف، وذلك بفضيلة التقوى.

ولذلك يقول بعضهم[1]:

---

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص ١٧٠).

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَىٰ هِيَ العِزُّ وَالكَرَمُ ... وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَم

وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ ... إِذَا حَقَّقَ التَّقْوَىٰ وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ

ويقول آخر أيضًا[1]:

لَعَمْرُكَ مَا الإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ ... فَلَا تَدَعِ التَّقْوَىٰ اتِّكَالًا عَلَى الحَسَبِ

لَقَدْ رَفَعَ الإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسٌ ... وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ اللعِينَ أَبَا لَهَب

فأبو لهب من هاشم، ولكن وضعه الشرك، وسلمان ﷺ ليس من العرب، بل من فارس، ولكن رفعه الإسلام، ولا شكّ أنّ هذا محض عطاء من الله وفضل.

وقد ذكرنا أنّ لذلك أسبابًا، وأنّ من أسباب الهداية: كون العبد يرغب إلى ربّه، ويرفع إليه أكفّ الضراعة، ويتملّقه، ويدعوه في أوقات الإجابة، يسأله هداية قلبه، وهداية روحه، وهداية فطرته، ويسأله الإقبال من قلبه إلى ربّه. فهذا من أهمّ الأسباب الدعاء لله سبحانه. إذا رأيت في قلبك شيئًا من القسوة، دعوت الله أن يليّنه حتّى يتقبّل العظة ونحوها، وإذا رأيت من قلبك كراهية وإعراضًا عن الخير سألت ربّك ودعوته أن يقبل به إلى الخير، وإن رأيت من نفسك تثاقلًا عن الطاعة، سألت ربّك أن يهديك ويعينك على الطاعة، فذلك سبب من أسباب الهداية، والله تعالى جعل لأحكامه ولما قدّره أسبابًا مشاهدة فهذا منها.

كذلك من الأسباب كثرة العبادات والطاعات، فالعبد إذا أكثر من الحسنات وأكثر من القربات كانت سببًا في محبّته للخيرات وفي إكثاره من الحسنات، وبغضه

---

(١) البيتان لمحمد بن علي اليزدي، أخرجهما الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٤٦).

للسيّئات، إنّ الحسنات يذهبن السّيئات، فالحسنة تجرّ إلى أختها، والسيّئة تجرّ إلى مثلها. فهذه بلا شكّ أسباب. كما أنّ للشقاوة أسبابًا، وللضلالة أسبابًا، بعد خذلان الله، وبعد تخليته بينه وبين نفسه، وكثرة المعاصي تقسّي القلوب، والإعراض عن الطاعات والأذكار تقسّيها وتصدّها عن الخير، وتثقّل عليها الطاعات، وهذا كلّه داخل تحت إرادة الله ومشيئته وتقديره.

نحمد الله سبحانه وتعالى على أن هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونحمده لأنّه منّ علينا بالفطرة الحسنة وبالشريعة الإسلامية، وبالعقيدة السُّنّية، وبالطريقة المحمّديّة، وبالهداية إلى الصراط المستقيم، الذي من سلكه فاز ونجا، ومن حاد عنه تردّى وهلك. نحمد الله أن جعلنا من أهل السنّة، وحمانا وحفظنا من البدع والمنكرات والحوادث التي تخالف السنّة وتنافي الشريعة.

وهذا من أكبر النّعم، فقد منّ الله علينا أن عرّفنا السنّة، وعرفّنا سبل السلام، والطريق السوي، وحرم ذلك خلقًا كثيرًا. هناك خلق كثير من القبائل والدول والأمم لا يعرفون الإسلام، ولا يدينون به، بل يرونه عائقًا وقاطعًا عن السير في هذه الحياة التي هي غاية مطلبهم والتي هي نهاية مقصدهم. وهناك فئام من الناس يدينون بديانات أخرى ضالّة، يدّعون أنّها أهدى سبيلًا وأقوم طريقًا وأنّهم على سبيل النجاة، وأنّهم تفوّقوا على المسلمين، وأنّهم دانوا بطريقة وبسنّة أهدى من الشريعة الدينيّة، وهناك فئام ودول وقبائل وخلق كثير ينتسبون إلى الإسلام، ولكن ما معهم منه إلا مجرّد التسمّي، فيتسمّون بأنّهم مسلمون، وعقائدهم تخالف العقيدة الإسلامية، وأعمالهم تخالف الإسلام، فهم على شفا جرف هار، حريّ أن

يموتوا وهم على تلك البدع، وتلك المعاصي والمنكرات، فيكونون من أهل العذاب والعياذ بالله. وهناك فئام وأمم كثيرة يتسمّون بأنّهم مسلمون ولكنّ معهم منكرات ومحدثات وبدع، ولكن سوّل الشيطان لهم وأملى لهم وزيّن لهم أنّهم على الحقّ والهدى، وأنّهم أهدى من أهل السنّة والجماعة، وهم يفتخرون بهذه الأسماء التي ينتحلونها، وهم يظنّون أنّهم على حق، وهم على باطل، ولم يرعووا ولم يقبلوا هدى الله ولم يقبلوا الدليل، ولم يميلوا إلى الشريعة، بل زيّن لهم الشيطان أنّ تلك النحل والبدع هي السنّة، فجعل السنّة بدعة، والبدعة سنّة، والحقّ باطلًا، والباطل حقًّا، وهذا من انتكاس البصائر ومن عمى القلوب والعياذ بالله.

وهناك كثير ممن يدينون بالسنّة، وينتسبون إلى أنّهم من أهل الجماعة، وأنّهم على معتقد السّلف، لكن زيّن الشيطان لهم بعض الذنوب، ووقعوا في المعاصي والمخالفات، وإن لم تكن مكفّرات أو بدعيّات، فإنّها ذنوب عظيمة أصرّوا عليها واستمرّوا عليها، فقضوا أعمارهم وهم على تلك المعاصي والكبائر، وهم على خطر إذا لم يتوبوا ولم يتب الله عليهم، استحقوا من العذاب بقدر ذنوبهم وسيّئاتهم. وهناك آخرون لم يخالفونا في المعتقد، ولم يرتكبوا كبائر الذنوب، ولكنّهم استمروا على صغائر احتقروها، وتهاونوا بها. والاستمرار على الصغيرة والإصرار عليها والاستهانة بها يصيّرها كبيرة. وهذه الأقسام موجودة، وأشدّها الذين لا يعترفون بالله ربًّا، ولا بالشريعة الإسلامية أو غيرها دينًا.

وحيث إن الله سبحانه قد نجانا من هذه الأخطار كلّها، أفلا يكون ذلك حافزًا لنا على أن نتعلّم السنّة النبويّة، حتّى إذا عرفناها تمسّكنا بها، ورددنا على من

يخالفنا سواء كانت المخالفة في الأصول أو الفروع، وهذا والحمد لله ما نقوم به بكل ممكن، وهو من الأسباب التي يفتح الله بها على عباده، وينجّيهم.

وفي هذا الكتاب ناقشنا مسائل القضاء والقدر والإرادة والمشيئة، ووردت معنا شبهات القدرية والجبرية التي شبّهوا فيها على العباد، ولكن الله قيّض لهم من أهل السنّة من ردّ عليهم شبهاتهم فإذا عرف الإنسان جواب هذه الشبهات من أهل السنّة قنع إن شاء الله، بأن الله هو الذي أمر العباد ونهاهم، وقنع بأنّه ما أمرهم إلا لأنّهم قادرون على عمل هذه الأوامر، وكذلك قنع أيضًا بأنّهم لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، وأنّ الله سبحانه قوّاهم وأقدرهم ومكنّهم، وجعل لهم استطاعة يزاولون بها الأعمال، ويتمكّنون بها من الأفعال، وتُنسب بها إليهم أفعالهم طاعات ومعاصي، كما يكتسبون بها، وكما يتسبّبون بها بتحصيل أسباب الرزق، وكلّ ذلك لا يخرج عن قدرة الخالق، فله القدرة وله الاستطاعة الغالبة لكلّ قدرة، ولكنّه سبحانه لمّا أعطاهم هذه القدرة نسبت إليهم، وأصبحوا هم المزاولين للأعمال، فهم الذين يصلّون ويصومون ويتصدّقون، وهم الذين يؤمنون ويسلمون ويحسنون ويتعبّدون، وهم الذين يسرقون ويزنون ويفعلون المعاصي والمحرّمات، ويعاقبون على هذا، ويثابون على هذا، وإن كان الله سبحانه هو الذي قدّر ذلك كلّه في هذا الكون، وإن كان هو الذي مكّن لهؤلاء وأعطاهم القدرة التي زاولوا بها الطاعات، وزاولوا بها المعاصي، ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا حَكَمْتُمْ بِاسْتِحَالَةِ الْإِيجَادِ مِنَ الْعَبْدِ، فَإِذًا لَا فِعْلَ لِلْعَبْدِ أَصْلًا؟

قِيلَ: الْعَبْدُ فَاعِلٌ لِفِعْلِهِ حَقِيقَةً، وَلَهُ قُدْرَةٌ حَقِيقَةً. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧]، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَإِذَا ثَبَتَ كَوْنُ الْعَبْدِ فَاعِلًا، فَأَفْعَالُهُ نَوْعَانِ:

نَوْعٌ يَكُونُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ اقْتِرَانِ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَيَكُونُ صِفَةً لَهُ، وَلَا يَكُونُ فِعْلًا، كَحَرَكَاتِ الْمُرْتَعِشِ.

وَنَوْعٌ يَكُونُ مِنْهُ مُقَارِنًا لِإِيجَادِ قُدْرَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، فَيُوصَفُ بِكَوْنِهِ صِفَةً وَفِعْلًا وَكَسْبًا لِلْعَبْدِ، كَالْحَرَكَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْعَبْدَ فَاعِلًا مُخْتَارًا، وَهُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَلِهَذَا أَنْكَرَ السَّلَفُ الْجَبْرَ، فَإِنَّ الْجَبْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عَاجِزٍ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْإِكْرَاهِ، يُقَالُ: لِلْأَبِ وِلَايَةُ إِجْبَارِ الْبِكْرِ الصَّغِيرَةِ عَلَى النِّكَاحِ، وَلَيْسَ لَهُ إِجْبَارُ الثَّيِّبِ الْبَالِغِ، أَيْ: لَيْسَ لَهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا مُكْرَهَةً.

وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِالْإِجْبَارِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ الْإِرَادَةِ وَالْمُرَادِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُ مُخْتَارًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي أَلْفَاظِ الشَّارِعِ: «الْجَبْلُ» دُونَ «الْجَبْرِ»، كَمَا قَالَ ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ لَخَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ»، فَقَالَ: أَخُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا؟ أَمْ خُلُقَيْنِ جُبِلْتُ عَلَيْهِمَا؟

فَقَالَ: «بَلْ خُلُقَيْنِ جُبِلْتَ عَلَيْهِمَا»، فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّـهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ(١).

وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَذِّبُ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلِهِ الِاخْتِيَارِيِّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعِقَابِ عَلَى الْفِعْلِ الِاخْتِيَارِيِّ وَغَيْرِ الِاخْتِيَارِيِّ مُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ.

وَإِذَا قِيلَ: خَلْقُ الْفِعْلِ مَعَ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ ظُلْمٌ؟! كَانَ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: خَلْقُ أَكْلِ السُّمِّ ثُمَّ حُصُولُ المَوْتِ بِهِ ظُلْمٌ!! فَكَمَا أَنَّ هَذَا سَبَبٌ لِلْمَوْتِ، فَهَذَا سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ، وَلَا ظُلْمَ فِيهِمَا.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ فِعْلٌ لَهُ حَقِيقَةً، وَلَكِنَّهُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمَفْعُولٌ لِلَّـهِ تَعَالَى، لَيْسَ هُوَ نَفْسُ فِعْلِ اللَّـهِ، فَفَرْقٌ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالمَفْعُولِ، وَالخَلْقِ وَالمَخْلُوقِ. وَإِلَى هَذَا المَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّـهُ ـ بِقَوْلِهِ: (وَأَفْعَالُ الْعِبَادِ خَلْقُ اللَّهِ، وَكَسْبٌ مِنَ الْعِبَادِ)، أَثْبَتَ لِلْعِبَادِ فِعْلًا وَكَسْبًا، وَأَضَافَ الخَلْقَ لِلَّـهِ تَعَالَى. وَالْكَسْبُ: هُوَ الْفِعْلُ الَّذِي يَعُودُ عَلَى فَاعِلِهِ مِنْهُ نَفْعٌ أَوْ ضَرَرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

قال الشيخ:

في هذا الكلام الذي تكرر واتّضح معناه والحمد لله، نعرف أنّ الله سبحانه وتعالى أثبت للعباد أفعالًا، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (١٧) مختصرًا، وأخرجه بلفظه: أحمد (٤/ ٢٠٥)، وأبو داود (٥٢٢٥).

[الكهف:٢٩]، وأثبت أيضًا جزاءهم على تلك الأفعال، فقال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [التوبة:٨٢]، فنسب الفعل إليهم، فهم الذين يعملون، وهم المؤمنون والمسلمون والمحسنون. كما أنّهم إذا خالفوا فهم الفاسقون والكافرون والخاسرون والظالمون، فتنسب المعاصي إليهم، وكذلك تنسب الطاعات إليهم، لماذا؟ لأنهم الذين زاولوها، وباشروها ظاهرًا. فأنت تشاهد المصليّ فتقول: هذا يصلي؛ يركع ويسجد، ولا تقول: هذا مجبور على الطاعات، ولا تقول: هذا مجبور على النفقة، بل تقول: هو يصلّي، أو ينفق باختياره، فالصدقة منه تنسب إليه، ويطيع الله بامتثال أمره في الإنفاق: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧]. وفي قوله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [الرعد: ٢٢]، كما يُنسب إليه فعل العبادات في قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

أليس ذلك دليلًا على أنّهم قادرون، أيأمر الله العجزة؟ كلا، إنه لا يأمر من لا يقدر، فالله لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها، والنّاس يعرفون القادر والعاجز، فلا يقال للمقعد: امشِ، ولا يقال له: احمل هذا إلى البيت الفلاني، ولا يقال للأعمى: اكتب هذه الرسالة؛ لأنه معذور، وليس في إمكانه أن يكتبها كغيره. فالله تعالى عندما قال: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، لا شكّ أنّه ما أمرهم إلا لأنّهم قادرون على العمل، ولأجل ذلك يثابون على أعمالهم، وعلى تنافسهم، وعلى طاعاتهم، وتُنسب إليهم خلافًا لما تقوله المجبرة، فتنسب إليهم لأنّهم زاولوها.

فـالله تعـالى يقـول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، ويقـول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧]، ويقول: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]. أليس ذلك نسبة للأفعال إليهم؟ هذه صفات أمر الله بها، ومدح أهلها، وجعلها مقدورة للمخاطبين، وعلى هذا العباد أعطاهم الله هذه القوّة وهذه القدرة، ونحن نعتقد أنّه لو شاء الله ما فعلوا، ولولا مشيئة الله وتمكينهم ما حصلت منهم هذه الأفعال.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٦، ٣٧]، فأخبر بأنّه هو الذي هداهم ووفّقهم وأعانهم، ولكن هو الذي أمرهم ونهاهم، وهو الذي خلقهم وقوّاهم، وهو الذي مكّن لهم وأعطاهم، وهو الذي سخّر هم، كما أنّه هو الذي يعاقب ويثيب، ويعطي ويمنع، ويهدي ويضلّ. ولكن لمّا أنّه أمرهم كانوا متمكّنين من فعل ما أمرهم به، فلا يأمرهم إلا بما في إمكانهم، ولذلك يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق:٧]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، يعني: أنّه ما أمركم إلا بما تستطيعون وتقدرون عليه، ولو كان الأمر كما يقول المجبرة، لكان يأمرهم بما لا يقدرون عليه، وذلك ولا شكّ من تكليف ما لا يطاق.

فالمجبرة يقولون: العبد مجبورٌ على فعله، وليس له فعل، ولا ينسب إليه، بل حركته كحركة المرتعش ـ مثل بعض البشر عند الكبر ترتعش يده من دون

اختياره - حركة قهريّة، وليست اختياريّة.

والمجبرة يزعمون أنّ العباد كلّهم ليس لهم أيّ اختيار أو أي قدرة، وإنّما حركاتهم؛ ركوعهم وسجودهم وكسبهم وعطاءهم ومنعهم وحجهم وعمرتهم وصدقتهم، كلّها ليست اختياريّة بل قهريّة، وكذلك عندهم المعاصي يعدّونها قهريّة، ويعذرون من زنى ومن قتل ومن سرق ومن نهب ومن سلب؛ لأنّهم في زعمهم ليس لهم فعل، بل هم مجبورون على هذا الفعل.

وبقولهم هذا تبطل الحكم، وتبطل الأحكام، وتتعطّل الشرائع، ولا حاجة إلى إرسال الرسل مادام أنّ المطيع مجبور على الطاعة، والعاصي مجبور على المعصية، فلماذا إذن أمر الله ونهى؟ لا شكّ أنّ هذا تجرُّؤ على الله تعالى، ثمّ هو مخالفة للعقول والبدائه، فالإنسان بفطرته يعرف أنّ عنده قدرة على المزاولة، فإذا رأيت إنسانًا نشيطًا وليس له عمل أو حرفة، مع أنه مفكّر وعارف وقادر وقويّ البنية وسليم الأعضاء، ألست تلومه على هذه البطالة، وتقول له: إنّ الله يبغض الفارغ البطّال، لماذا هذا الكسل، لماذا لا تعلّمُ نفسك الكسب، وطلب الرزق، أتريد أن يأتيك رزقك إلى بيتك أو ينزل عليك طعامك وشرابك من السماء؟ فأنت تلومه، وهو يستحقّ أن يلام.

وذلك لأنّ الله تعالى كما أمر بالطاعات، كذلك أمر بالكسب، وأباحه، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وفي قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾

[الجاثية:١٣]، فما دام كذلك فإنّه سبحانه أمرنا بأن نبتغي الرزق، وأن نتطلّبه، وكلّ عاقل إذا تمكّن وقَوِيَتْ بنيته، وكمُلت أعضاؤه واكتملّ نموُّه، ما بقي عليه إلاّ أن يتكسّب كما تكسّب آباؤه وأجداده، ويطلب ما يطلبون، ويُعفّ نفسه ويغنيها عن السؤال فإذا كان ذلك جبلّةً وطبيعةً، فكذلك يقال أيضًا في الجبلّة الإيمانيّة وفي الأوامر الشرعيّة، يقال: إنّ الله أمرك بأن تطلب النّجاة، وأن تعمل الأعمال التي تكون سببًا في سعادتك عاجلًا وآجلًا.

نقول بعد ذلك: أنّ الإنسان قد جُبِل على بعض الصفات، فيسمّى جِبلّةً ولا يسمّى إجبارًا.

وقد ذكر الشارح أنّه لا يقال: مجبورٌ على فعله، ولكن يقال: مجبول على هذه الأخلاق. الجبلّة: الطبيعة والخلطة. يقال: طبيعة فلان وجبلّته الصدق، أو الحلم، أو اللين، أو الكرم، أوالسخاء، أو النصيحة، أو الاهتداء، طبعه الله وجبله عليها، وكذلك على أضدادها، فيقال مثلًا: هذا جُبل على البخل، وعلى الشحّ، وعلى الجبن، وعلى الخوف، وعلى الكذب، وعلى الخيانة، والغشّ، أي: إنّها صفات جِبِلِّيّةٌ مركوزةٌ في نفسه، فنفسه الشريرة تميل إليها، أو نفسه الخيريّة تميل إلى ضدّها. هذا فرق بين الجبلّة والجبر.

أمّا الجبر الذي تقول به الجبريّة، فهو الإكراه والإلزام على الفعل من دون اختيار أو قدرة، فلا يُجبر إلا من كان عاجزًا عن الفعل، فمثلًا الأمير أجبر فلانًا على القتل، أو فلان أُجبر على السكر، وفلانة أُجبرت على الزنى، يعني: هناك من أكرهها عليه، وهكذا. ففرق بين هذا وهذا.

فالصفات الجبلّيّة هذه أخلاق، وليس فيها إكراهٌ، بل يفعلها باختياره سواءً أكانت طاعات أم معاصٍ.

وأما الجبر: فالله تعالى تنزّه عن أن يكره أحدًا أو يجبر أحدًا، بل قال: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وإنّما هو اختيارات وجبلاّت وما أشبهها.

قال الطحاوي:

ولَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللَّـهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ. وَهُوَ تَفسِيرُ: «لَا حَوْلَ وَلا قَوَّةَ إِلَّا باللَّـهِ»، نَقُولُ: لَا حِيلَةَ لأَحَدٍ، وَلَا تَحَوُّلَ لأَحَدٍ، وَلَا حَرَكَةَ لأَحَدٍ عَنْ معْصِيَةِ اللَّـهِ، إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّـهِ، وَلَا قُوَّةَ لأَحَدٍ عَلَى إِقامَةِ طَاعَةِ اللَّـهِ والثَّباتِ علَيهَا إِلَّا بتوفِيقِ اللَّـهِ تَعَالَى، وَكُلُّ شَيْءٍ يجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّـهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. غَلَبَتْ مَشِيئَتُهُ المَشِيْئاتِ كُلَّهَا، وَغَلَبَ قَضاؤُهُ الحِيَلَ كُلَّهَا، يَفْعَلُ مَا يَشاءُ وهُوَ غَير ظَالِمٍ أَبدًا: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

قال الشارح:

فَقَوْلُهُ: (لَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللَّـهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢].

وَعَنْ أَبِي الحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ تَكْلِيفَ مَا لَا يُطَاقُ جَائِزٌ عَقْلًا، ثُمَّ تَرَدَّدَ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ: هَلْ وَرَدَ بِهِ الشَّرْعُ أَمْ لَا؟ وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ بِوُرُودِهِ بِأَمْرِ أَبِي لَهَبٍ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَأَنَّهُ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، فَكَانَ مَأْمُورًا بِأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ. وَهَذَا تَكْلِيفٌ بِالجَمْعِ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ، وَهُوَ مُحَالٌ.

وَالجَوَابُ عَنْ هَذَا بِالمَنْعِ، فَلَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَالِاسْتِطَاعَةُ الَّتِي بِهَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِيمَانِ كَانَتْ حَاصِلَةً، فَهُوَ غَيْرُ عَاجِزٍ عَنْ

تَحْصِيلِ الْإِيمَانِ، فَمَا كُلِّفَ إِلَّا مَا يُطِيقُهُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الِاسْتِطَاعَةِ. وَلَا يَلْزَمُ قَوْلُهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة:٣١]، مَعَ عَدَمِ عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ، وَلَا لِلْمُصَوِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[1]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِتَكْلِيفِ طَلَبِ فِعْلٍ يُثَابُ فَاعِلُهُ وَيُعَاقَبُ تَارِكُهُ، بَلْ هُوَ خِطَابُ تَعْجِيزٍ.

وَكَذَا لَا يَلْزَمُ دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ لِأَنَّ تَحْمِيلَ مَا لَا يُطَاقُ لَيْسَ تَكْلِيفًا، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يُحَمِّلَهُ جَبَلًا لَا يُطِيقُهُ فَيَمُوتَ. وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: أَيْ لَا تُحَمِّلْنَا مَا يَثْقُلُ عَلَيْنَا أَدَاؤُهُ، وَإِنْ كُنَّا مُطِيقِينَ لَهُ عَلَى تَجَشُّمٍ وَتَحَمُّلٍ مَكْرُوهٍ، قَالَ: فَخَاطَبَ الْعَرَبَ عَلَى حَسَبِ مَا تَعْقِلُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَقُولُ لِلرَّجُلِ يُبْغِضُهُ: مَا أُطِيقُ النَّظَرَ إِلَيْكَ، وَهُوَ مُطِيقٌ لِذَلِكَ لَكِنَّهُ يَثْقُلُ عَلَيْهِ. وَلَا يَجُوزُ فِي الْحِكْمَةِ أَنْ يُكَلِّفَهُ بِحَمْلِ جَبَلٍ بِحَيْثُ لَوْ فَعَلَ يُثَابُ، وَلَوِ امْتَنَعَ يُعَاقَبُ، كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.

قال الشيخ:

يدين أهل السنّة بأنّ الله تعالى أمر القادرين، ولم يأمر العاجزين، أمرهم بما في وُسعهم، ولم يأمرهم بما ليس في وُسعهم، وإذا قيل: لماذا سُمّيت العبادات

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

تكاليف؟ نقول: سمّيت بذلك لكون الذي يفعلها يوصف بأنّه مكلّف، يعني: مأمور ومنهيّ. ومع ذلك فليس في فعلها كلفة ولا مشقّة، صحيح أن الكلفة هي الشيء الثقيل، كما قالت الخنساء في صخر[1]:

يُكَلِّفُهُ القَوْمُ مَا نَابَهُمْ   وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدًا

أي: إنّهم يأمرونه بما ينوبهم، فيقوم بذلك، ولو كان أصغرهم، فدلّ على أنّه يفعل شيئًا في إمكانه وقدرته.

ونحن نعتقد بأنّ الله تعالى لم يأمرنا إلاّ بما هو في الإمكان، ولم يكلّف الإنسان إلاّ بما يستطيعه، فمثلًا الصيام، قد يقال إنّ فيه كلفة، خاصّة في الأيام الشديدة الحرّ والطويلة، ولكن هو في الإمكان وفي الاستطاعة، غالبًا أنّهم قادرون على الإمساك إلى غروب الشمس، والقدرة على ذلك معتبرةٌ، فإذا كان هناك مشقّة فإنّهم يفطرون، ومن أجل ذلك قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، يعني: يفطر ويقضي في أيام أخرى. وإذا قلت: إنّ هناك بلاد يطول فيها النّهار بحيث يكون ثمان عشرة ساعة، أو عشرين، أو نحوها، فصيام هذه الأيام فيه كلفة وفيه صعوبة. أجاب العلماء بأنّهم يمكنهم إذا عجزوا أن يُفطروا ويقضوه من أيام أخر، إذا قصُر النّهار أو توسّط؛ لأنّه أحيانًا يقصر عندهم النّهار فيصبح أربع ساعات، أو ست ساعات، ونحوها. فإذًا ليس في الأمر مشقّة.

---

(١) انظر: ديوان الخنساء (ص٢٠).

وإذا قلت مثلًا: إنّ الوضوء فيه مشقّة فلماذا كلِّف به؟ نقول: ليس فيه صعوبة، وإن كان الإنسان يجد برودة في الماء أو في الزمان، ولأجل ذلك إذا كان مريضًا لا يستطيع أن يتطهّر، فإنّه يعدلُ إلى التيمّم؛ لرفع الحرج. فليس في الشريعة شيء من الكلفة الشاقّة على العباد، بل المشقّة تجلب التيسير، فالله سبحانه ما كلّف العباد إلاّ بما يطيقون، ولا يطيقون إلاّ ما كلّفهم به، ولا يطيقون الشيء الزائد على ذلك. صحيح أنّهم قد يطيقون أكثر من ذلك، فقد يقول قائل: الله ما أمر إلا بصيام شهر واحد، ونحن نطيق صوم شهرين، أو ستة أشهر أو نحو ذلك.

فالجواب: أنّ القدرة العامّة التي يشترك فيها النّاس عمومًا هي فرض هذا الشهر، أمّا القدرة الخاصّة؛ فالإنسان يتعبّد بقدر قدرته. معلوم أنّه لو فرض شهران أو ثلاثة أشهر، لشقّ على كثير من النّاس، ولو أنّ آخرين لا يشقّ عليهم، وكذلك لو فُرض عليهم أن يحملوا الماء في الأسفار الطويلة لشقّ على كثير، وإن كان آخرون لا يشقّ عليهم. ويقال هكذا في سائر العبادة. فالعبادة إنّما كلّف الإنسان منها بما يستطيعه. فالمصلّي مأمور بأن يصلّي قائمًا، ولكنّه قد لا يستطيع، فيصلّي جالسًا، وكذلك قد يشقّ عليه أن يصلّي جالسًا، فينتقل إلى الصلاة على جنب. كما ورد ذلك في الأحاديث، فليس في الشريعة كلفة ولا مشقّة، بل ما أمرنا الله إلاّ بما هو مقدور للعباد، والأدلّة واضحة كما مرّ بنا: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وسعها: طاقتها، أو لا تكلّف إلا قدرتها وطاقتها وتمكّنها، فلا تكلّف فوق ذلك ممّا يشقّ عليها.

فلو فرض الله على العباد أن يُخرجوا زكاة من أموالهم النصف في كلّ عام، لكان في ذلك شيء من الكُلفة، يقول قائلهم: أنا جهدت بهذا المال، وتعبت فيه، وما حصّلته إلاّ بعرقي، فكيف مع ذلك أعطيه هذا الذي ما تعب فيه؟ ولكن لمّا علم الله أنّ هناك من الضعفاء والعجزة والفقراء، جعل لهم حقًا في مال الأغنياء، وجعل ذلك الحقّ يسيرًا لا يكلّفهم، إذ ليس في ربع العشر كلفة، فهذا دليلٌ على أن الشريعة جاءت بما في الاستطاعة، ولم يأت أمر فيه مشقّة على النفوس.

معلوم أنّ هناك نفوسًا ضعيفة، قد تتثاقل عن الأشياء الخفيفة، وقد لا تصبر عن الشهوات المحرّمات، فهذه ليست عبرة، ولا يؤخذ بها. فلو قلت مثلًا: إنّ هناك أناسًا يستثقلون الصلاة، ويستثقلون إذا قرأ الإمام بورقة أو ورقتين، فيقولون: أتعبنا وشقّ علينا وكلّفنا، وكادت ظهورنا أن تقطع، وكادت أرجلنا أن تنهار. فهؤلاء لا نصدّقهم؛ لأنّا نشاهدهم أقوياء وأشدّاء في أبدانهم، ونجدهم في المباريات أقوياء، وفي طلب الدّنيا أشدّاء، فقولهم هذا غير صحيح.

كذلك هناك نفوس ضعيفة يقولون: إن منعنا عن شهواتنا تكليف بما لا يطاق. فيقولون: نفوسُنا لا تصبر عن هذه الأفعال. فإن اشتدت بأحدهم الشهوة، لم يصبر إلّا أن يزني مثلًا، أو يفجُر، ويقول: إنّ تكليفي بالعفاف تكليف بما لا يطاق. وإنّ تكليفي بالصبر عمّا أشتهيه وتندفع إليه نفسي تكليفٌ بما لا يطاق، وتكليفي بمنعي عن الخمر، تكليف بما لا تستطيع نفسي الصبر عنه.

سبحان الله! هذا تكليف بما لا يطاق؟ إذا منعنا الله عن الزّنى، ومنعنا عن المسكرات مثلًا، فهل هو تكليفٌ بما لا يطاق؟! الله تعالى ما حرّم علينا شيئًا إلّا

وجعل له بدلًا يقوم مقامه، فأحلّ لنا من النكاح ما يقوم مقام الزنى، فيقول تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء:٣]، ويقول: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، فكيف يقول هذا: إنّ تكليفي بالتّعفف وبالامتناع عنه تكليف بما لا أطيق؟ هذا كذب، بل الإنسان يستطيع أن يقمع نفسه ويمنعها عن المحرّمات، وليس عليه مشقّة.

فعلى كلّ حال، نقول: هذه قاعدة مطّردةٌ، وهي أنّ التكاليف الشرعيّة ليس فيها مشقّة، سواء أكانت أفعالًا أم تروكًا. أشقّ ما فيها الجهاد مثلًا، الذي فيه تعرّض للقتل، ولكن لمّا علم المؤمنون بعاقبته الحميدة، وبما فيه من نصر للإسلام وإعزاز له، هانت عليهم نفوسهم، ولمّا علموا بأنّ الرّب يمدّهم ويقويّهم، وينزل عليهم الملائكة لتدافع معهم، ويخذل أعداءهم، كان ذلك دافعًا لهم إلى أن يستميتوا، ولما علموا أنّهم إذا قُتلوا فهم أحياء عند ربّهم، كان ذلك أيضًا دافعًا لهم إلى التفاني في سبيل الله، ولما علموا أيضًا أن الأعداء من الكفّار يقاتلون وهم على كفرهم، وتهون عليهم أنفسهم وهم على كفرهم، كانوا هم أولى بذلك أن يفدوا دينهم الدين الصحيح، فإن كانوا هم يفدون دينهم الباطل، فإنّنا نفدي ديننا الصحيح. ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ ﴾ [النساء:١٠٤].

يعتقد المسلمون عمومَ قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. يدخل في ذلك الموجود والمعدوم، ويدخل في ذلك

الأعراض والجواهر، والحركات والأفعال والمخلوقات، كلُّها داخلة في عموم قدرة الله تعالى، ولا يخرج عن قدرته شيء، ودلّ على ذلك الأدعية المأثورة؛ فمنه قول النبيّ ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ: «ألا أَدُلُّكَ على كَنْزٍ من كُنُوزِ الجَنَّةِ؟»، قال: بَلَى، فقال: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ»[1]، تأمّل هذه الجملة: لا حول: أي لا تحوّل لأحد من حال إلى حال إلاّ بالله، ولا قوّة: أي لا قدرة لأحد إلّا بالله، فإن أقدره الله فهو قادر فاعل، فإن منعه، أو حال بينه وبين الفعل، فليس بقادر وليس بفاعل. هذه الكلمة كثيرًا ما يدين بها العباد، وكثيرًا ما يقولونها، وأهل السنّة يدينون بمعناها، ويعتقدون أنّ الحول أي التحوّل والانتقال من الفقر إلى الغنى، أو من الضعف إلى القوّة، أو من القوّة إلى الضعف، ومن العطاء إلى المنع، ومن الهدى إلى الضلال وأضداد ذلك كلّه، الانتقال من حال إلى حال هو بقدرة الله وقوّته، والقوّة معناها: الاستطاعة، والإنسان قوّته التي يزاول بها الأعمال، هي من الله، فإذا شاء سلبك هذه القوّة، فجعلك عاجزًا مقعدًا، وإذا شاء منحك القوّة، وزادك قوّة على قوّتك. فهو الذي خلق الإنسان ﴿مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، فالضعف الذي في المخلوق الإنساني مبدؤه أنّ الله خلقه ضعيفًا، ثمّ أمدّه بقوّة منه، فإذا شاء سلب هذه القوّة في أوانها وفي عنفوانها، وإذا شاء زادها ومكّنها. فما شاءه الله لا بدّ أن

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

يحصل ولو كره العباد كلّهم، وما لم يشأه، فلا يحصل ولا يقع ولا يحدث ولو شاؤوه وأرادوه وحاولوه. فالحول حوله، والطول طَوله، والقدرة منه سبحانه.

فالعباد مأمورون، ولكن القوّة التي يزاولون بها فعل الأوامر إمداد من الله، وكذلك هم منهيّون، والقوّة التي يمتنعون بها عن المنهيات، هي أيضًا من الله، فهو الذي يمدّهم بالقوّة التي يمارسون بها الأفعال، ويمدّهم بالقوّة التي تحميهم عن المنهيّات.

وكذلك إذا خذل من شاء من عباده، وفعل ما فعل من المعاصي والمحرّمات، فذلك أيضًا بقضاء الله وقدره، ولو شاء لمنعهم من ذلك، ولحال بينهم وبينه، ولكن له الحكمة في ذلك، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون، له التصرّف في العباد، ولا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولو شاء لهدى النّاس أجمعين، ولو شاء لأضلّهم أجمعين، ولو هداهم لهداهم بفضله، وإذا أضلّ من شاء فبحكمته وبعدله.

لكن إذا هداك الله، وألهمك رشدك وسدَّدك، فعليك أن تشكره على هذه الهداية، وأن تستعين بما أعطاك من القوّة على الطاعة، فإذا رأيت من أضلّه الله، وحرمه من الخير، فإنّك تحمد ربّك على العافية، وتقول: الحمد لله الذي عافانا مِمَّا ابتلاهم به، وفضّلنا على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلًا.

فلله الأمر والنّهي، وله القدرة التامّة، وله التصرّف في العباد، فهو الذي كلّفهم وأمرهم ونهاهم، وهو الذي أعطاهم ومنعهم، وهو الذي يهدي ويضلّ، ويُسعد ويُشقي، لا رادّ لقضائه، ولا مُعقِّب لحكمه. وإذا منّ الله على بعض العباد، فإنّ

ذلك فضل منه، وعليهم أن يشكروه على هذا الفضل، وإذا خذل بعضًا من العباد، وسلّط عليهم الشهوات، وخلّى بينهم وبين أنفسهم، وسلّط عليهم أهواءهم، فذلك حكمة منه وعدل، فما حصل للمهتدين محض فضل منه ونعمة يجب أن يشكروه عليها، وما حصل للضالين من خذلان، فهو حكمته يجب عليهم أن يعرفوا السّبب، فالسّبب من أنفسهم، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، أي: إنّه يستحقّ ذلك بسبب ما جُبِل عليه، وبسبب الخلق الذي علم الله أنّه لا يناسبه إلا أن يحرمه ويحول بينه وبين الهداية، فهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها.

ومرّ بنا قوله: بأنّ الله تعالى كلّف العباد بما يطيقون، وأنّهم لا يطيقون إلا ما كلّفهم، ولم يكلّفهم إلا ما في قدرتهم وما في وُسعهم، فهو سبحانه لم يأمر العباد بما هو مستحيل، وبما يعجزون عن تطبيقه، ولا عن فعله، ولم يأمرهم إلا بالشيء الذي في وسعهم وفي قدرتهم وطاقتهم، لا يخرج عن إرادتهم. ولو كلّفهم بما يعجزون عنه، لكان لهم حجّة أنّهم لا يستطيعون ذلك، ولا جرم أن يقال حينذاك: كيف يطيقون الشيء الذي فوق قدرتهم. وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فإذا علم العباد بذلك، ونظروا بأنّ التكاليف التي أمروا بها سهلة ويسيرة، ليس فيها مشقّة، ولو استثقلت هذا بعض النفوس، فإنّ تلك النفوس التي تستثقلها، إنّما أُتيت من ضعف في النفس،

لا أنّ ذلك عجز حسيّ كما هو مشاهد. ولأجل ذلك نجد أنّ الاثنين يتفاوتان في العبادة، أحدهما يفرح بطول الصلاة ويلتذّ بذلك ويعجبه، وآخر يستثقل ذلك ولو كانت الصلاة خفيفة مع كونه بدينًا قويًا. فهذا تفاوت من ضعف النفوس، لا أنّه تكليف بما يعجز البشر.

قال الشارح:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: يَجُوزُ تَكْلِيفُ الْمُمْتَنِعِ عَادَةً، دُونَ الْمُمْتَنِعِ لِذَاتِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُتَصَوَّرُ وَجُودُهُ، فَلَا يُعْقَلُ الْأَمْرُ بِهِ، بِخِلَافِ هَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَا لَا يُطَاقُ لِلْعَجْزِ عَنْهُ لَا يَجُوزُ تَكْلِيفُهُ، بِخِلَافِ مَا لَا يُطَاقُ لِلِاشْتِغَالِ بِضِدِّهِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ تَكْلِيفُهُ. وَهَؤُلَاءِ مُوَافِقُونَ لِلسَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فِي الْمَعْنَى، لَكِنَّ كَوْنَهُمْ جَعَلُوا مَا يَتْرُكُهُ الْعَبْدُ لَا يُطَاقُ لِكَوْنِهِ تَارِكًا لَهُ مُشْتَغِلًا بِضِدِّهِ، بِدْعَةٌ فِي الشَّرْعِ وَاللُّغَةِ. فَإِنَّ مَضْمُونَهُ أَنَّ فِعْلَ مَا لَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ لَا يُطِيقُهُ!

وَهُمُ الْتَزَمُوا هَذَا، لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ الطَّاقَةَ - الَّتِي هِيَ الِاسْتِطَاعَةُ وَهِيَ الْقُدْرَةُ - لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ! فَقَالُوا: كُلُّ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ فِعْلًا، فَإِنَّهُ لَا يُطِيقُهُ! وَهَذَا خِلَافُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ، وَخِلَافُ مَا عَلَيْهِ عَامَّةُ الْعُقَلَاءِ، كَمَا تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ عِنْدَ ذِكْرِ الِاسْتِطَاعَةِ.

وَأَمَّا مَا لَا يَكُونُ إِلَّا مُقَارِنًا لِلْفِعْلِ، فَذَلِكَ لَيْسَ شَرْطًا فِي التَّكْلِيفِ، مَعَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُنَاكَ إِرَادَةُ الْفِعْلِ. وَقَدْ يَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِرَادَةُ مَا سَمَّوْهُ اسْتِطَاعَةً، وَهُوَ مَا لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ ذَمَّ هَؤُلَاءِ عَلَى كَوْنِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ، وَلَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْمُقَارِنَ لَكَانَ جَمِيعُ الْخَلْقِ لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ قَبْلَ السَّمْعِ! فَلَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِ هَؤُلَاءِ بِذَلِكَ مَعْنًى، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ لِبُغْضِهِمُ الْحَقَّ وَثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ، إِمَّا حَسَدًا لِصَاحِبِهِ، وَإِمَّا اتِّبَاعًا

لِلْهَوَى، لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ. وَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ، لِمُخَالَفَةِ مَا يَرَاهُ لِظَاهِرِ الشَّرْعِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُ عِلْمٌ. وَهَذِهِ لُغَةُ الْعَرَبِ وَسَائِرُ الْأُمَمِ، فَمَنْ يُبْغِضُ غَيْرَهُ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ، وَمَنْ يُحِبُّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ عُقُوبَتَهُ، لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِ لَهُ، لَا لِعَجْزِهِ عَنْ عُقُوبَتِهِ، فَيُقَالُ ذَلِكَ لِلْمُبَالَغَةِ، كَمَا تَقُولُ: لَأَضْرِبَنَّهُ حَتَّى يَمُوتَ، وَالْمُرَادُ الضَّرْبُ الشَّدِيدُ، وَلَيْسَ هَذَا عُذْرًا، فَلَوْ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ إِلَّا بِمَا يَهْوَوْنَهُ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

قال الشيخ:

هذا معاتبة ومجادلة لبعض المبتدعة، وأنه لا فائدة فيه ولا طائل تحت هذه المجادلة؛ لأنّها أقوالٌ تخالف المحسوس وتخالف المعقول؛ وذلك لأنّ العبد قد أُعطي قوة، وتلك القوّة كامنة فيه، وأنّه بواسطتها يستطيع أفعالًا وإن لم يفعلها، فهؤلاء المبتدعة من جبريّة وقدريّة، ونحوهم، عندهم أنّ الأفعال التي لم تفعل ولو كانت سهلة توصف بأنّها غير مقدورة للعبد؛ فإذا رأوا إنسانًا كافرًا قالوا: هذا لا يقدر أن يؤمن، مع أنّه قادر. وإذا رأوا إنسان لا يصلي قالوا: هذا غير قادر على الصلاة، مع أنّه يقدر. فكلّ شيء لم يفعله الإنسان مع قدرته عليه، يقولون: إنّه لا يقدر عليه، مع أنّه قادر، وهذا يخالف الحسّ ويخالف الظاهر.

فمثلًا: أنت لو رأيت إنسانًا قويّ البنية وقويّ البدن تستطيع أن تقول: إنّه

يستطيع أن يحمل كيسًا أو كيسين، ولو لم يحملهما، ويكون ذلك أيضًا فيما سخّر الله من الدوابّ التي تركب، فتقول في جمل ما: إنّه يستطيع أن يحمل مائة صاع، ولو أنّه ما حُمل عليه، فالاستطاعة والحمل ليس لما حصل ولما فعل، بل لما كمن فيه واستقرّ من الوصف، ويستطيعه ولو لم يباشره.

فهؤلاء المبتدعة لو رأوا إنسانًا ما قرأ، قالوا: هذا لا يستطيع القراءة، وليس في وسعه أن يقرأ. فإن وجد إنسان لا يحرث، قالوا: هذا لا يستطيع أن يحرث، أو أن يغرس، أو أن يرعى الإبل، هذا بالنسبة للأفعال المحسوسة.

ويقال كذلك أيضًا في الأعمال؛ سواء أكانت طاعات أم معاص، فالطاعات كمن يقولون لمن لم يصم: هذا لا يستطيع الصوم، ولو كان يستطيع الصوم لصام، مع أنه قادر وقوي. وكمن لا يستطيع أن يطعم الطعام، أو يخرج النفقة كما يفعل مثله، مع أنه غنيّ وذو مال، وقالوا: لو كان يستطيع أن يخرج لأخرج، ولو كان يستطيع أن يتصدّق لتصدّق، كأنّهم يقولون: إنّه لا يستطيع؛ لكون الله حال بينه وبين هذه الصدقة. الله تعالى أمره بالصدقة الواجبة في الزكاة والكفارة والنفقة على الأهل والولد وغير ذلك، ومع ذلك بخل بها، فهو قادر، ولو لم يكن قادرًا ما أمره الله بذلك، ولو لم يكن قادرًا على الصوم ما أمره.

فالله أمر الناس الذين يستطيعون الصوم، فمنهم من صام، ومنهم من لم يصم، وقد أمر النّاس كلّهم بالصلاة، فمنهم من صلّى ومنهم من لم يصلِّ. فلا يقال لمن لم يصلِّ: هذا لا يستطيع الصلاة، لو كان يستطيع لصلّى، نقول: بل هو مستطيع، ولكن حيل بينه وبينها، فهو محروم - والعياذ بالله - ويوصف بأنه

عاصٍ، ويعاقَبُ على عصيانه، كما يعاقب على تلك الأفعال.

ويقولون كذلك في المنهيات، فيقولون فيمن زنى مثلًا أو ارتشى أو سكر: لا يستطيع ترك هذا، ولو كان يستطيع تركه لما فعله.

نقول: بل يستطيعه، ولو لم يستطعه ما نهي عنه، فالله تعالى ما نهى إلاّ من عنده قدرة على الانزجار وترك الشيء المنهيّ عنه. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢]، فلو كانوا عاجزين عن التّرك ما نهاهم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾ [الأنعام:١٥١]، ولو كانوا عاجزين عن ذلك ما نهاهم عنه. وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١]، لو كانوا لا يستطيعون ترك القتل ما نهوا عنه.

وكذا يقال في الطاعات: لو كانوا عاجزين عن الصلاة لما أمروا بها، ولو كانوا عاجزين عن الطهارة ما أُمروا بها، فإنّ الله لا يأمر إلا بما هو مقدور، لا يأمر بالشيء المستحيل، أو الثقيل على النفس، الذي يكون فوق طاقتها، وبذلك نعرف أنّ هذا القولَ قولٌ مخالف للعقل، حتى في عرف النّاس.

فلو كان لك ولد نشيطٌ قويّ، فإنّك تقول له: يا ولدي اذهب فاشترِ لنا طعامًا، فإذا ذهب واشترى فقد أطاع، فإن لم يذهب، فهل يقال بأنّه ليس بمستطيع، أو يقال: هو عاصٍ لأبيه!!

ولو كان لك ولد مريضٌ أو مقعد، هل تأمره أن يذهب إلى السّوق ليشتري لك حاجة؟ كيف تأمره وهو مريض مقعد لا يستطيع؟ فهذا يدلّ على أنّ الله

ما أمر إلا من هو مستطيع، ولأجل ذلك أسقط الحرج عن غير المستطيع، فلمّا أمر بالجهاد في سبيل الله أسقطه عن أهل الأعذار، فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح:١٧]، يعني: لا حرج عليهم في ترك القتال؛ لعجزهم عن ذلك. وقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٩١]، أي: لا حرج عليهم إذا لم يخرجوا للجهاد. فدلّ على أنّه ما أمر إلا المستطيع ومن عنده قدرة، وبذلك نعرف أنّ التكاليف إنّما هي على حسب قدرة العباد، لم يأمرهم الله إلا بما هو في طاقتهم وفي وُسعهم.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ)، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ، أَيْ: وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ. وَهَذِهِ الطَّاقَةُ هِيَ الَّتِي مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ، لَا الَّتِي مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالْوُسْعِ وَالتَّمَكُّنِ وَسَلَامَةِ الْآلَاتِ، وَ«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ الْقَدَرِ. وَقَدْ فَسَّرَهَا الشَّيْخُ بَعْدَهَا.

وَلَكِنْ فِي كَلَامِ الشَّيْخِ إِشْكَالٌ، فَإِنَّ التَّكْلِيفَ لَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْإِقْدَارِ، وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهُوَ قَدْ قَالَ: (لَا يُكَلِّفُهُمْ إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ)، وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ يُطِيقُونَ فَوْقَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ بِعِبَادِهِ الْيُسْرَ وَالتَّخْفِيفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء:٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. فَلَوْ زَادَ فِيمَا كَلَّفَنَا بِهِ لَأَطَقْنَاهُ، وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا وَرَحِمَنَا، وَخَفَّفَ عَنَّا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ. فَفِي الْعِبَارَةِ قَلَقٌ، فَتَأَمَّلْهُ.

وَقَوْلُهُ: (وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ)، يُرِيدُ بِقَضَائِهِ: الْقَضَاءَ الْكَوْنِيَّ لَا الشَّرْعِيَّ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ يَكُونُ كَوْنِيًّا وَشَرْعِيًّا، وَكَذَلِكَ الْإِرَادَةُ وَالْأَمْرُ وَالْإِذْنُ وَالْكِتَابُ وَالْحُكْمُ وَالتَّحْرِيمُ وَالْكَلِمَاتُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

أَمَّا الْقَضَاءُ الْكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي

﴿ يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢].

وَالقَضَاءُ الدِّينِي الشَّرْعِي، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣].

وَأَمَّا الإِرَادَةُ الكَوْنِيَّةُ وَالدِّينِيَّةُ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ).

وَأَمَّا الأَمْرُ الكَونِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وَكَذَا قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦]، في أحدِ الأقوالِ، وهو أقواها.

وَالأَمْرُ الشَّرْعِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨].

وَأَمَّا الإِذْنُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٠٢].

وَالإِذْنُ الشَّرْعِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٥].

وَأَمَّا الكِتَابُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر:١١]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وَالكِتَابُ الشَّرْعِيُّ الدِّينِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣].

وَأَمَّا الحُكْمُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ ابْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١١٢].

وَالحُكْمُ الشَّرْعِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ [الممتحنة:١٠].

وَأَمَّا التَّحْرِيمُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة:٢٦]. و﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥].

وَالتَّحْرِيمُ الشَّرْعِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة:٣]. ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ الآية [النساء:٢٣].

وَأَمَّا الكَلِمَاتُ الكَوْنِيَّةُ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ

التَّامَّاتِ التِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»[١].

وَالكَلِمَاتُ الشَّرْعِيَّةُ الدِّينِيَّةُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤].

قال الشيخ:

نعرف أنّ الله تعالى رحيم بعباده، وأنّه ما أمرهم إلاّ بما يطيقونه، ولو أمرهم بزيادة عليه لأطاقوه، ولكنّه رحمهم ولم يكلّفهم ما فيه مشقّة عليهم. فلو فرض الصيام شهرين، لقدروا على ذلك، ولكن قد يكون فيه مشقّة. ولو فرض عليهم في الطهارة الاغتسال بدل الوضوء، لقدروا عليه، ولكن فيه مشقّة. ولو فرض عليهم كلّ يوم عشر صلوات، لقدروا عليه، ولكن فيه مشقّة. وكذلك لو فرض عليهم الحجّ مرّتين في العمر أو أكثر، لاستطاع كثير منهم ذلك، ولكن مع مشقّة، ولو فرض عليهم في الزكاة خمس المال، لاستطاع كثير منهم ذلك ولكن كان فيه مشقّة. فلأجل ذلك خفّف الله عنهم.

ولـمّا فرض عليهم أن يثبت العشرة للمئة في الجهاد، وأن تثبت المئة للألف، ولا يفرّون منهم، علم أنّ في ذلك شيئًا من المشقّة، فخفّف عنهم إلى ألاّ يفرّ الواحد من اثنين، وأنزل أولًا قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٨).

مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا ﴾ [الأنفال:٦٥]، الواحد يغلب عشرة، ثم بعد ذلك خفّف عنهم: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾، الواحد يغلب اثنين، بشرط الصبر، ﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فأخبر بأنّهم يقدرون ولكن خفّف عنهم، يعني: إذا كانوا صابرين محتسبين غلبوهم بإذن الله، وقد وقع ذلك: فأهل بدر غلبوا المشركين مع أنّهم أضعافهم، أي ثلاثة أمثالهم، ولكن هزموهم بإذن الله. وكذلك حكى الله عن طالوت ومن معه أنّهم قالوا: ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وحكى عن الذين يظنّون أنّهم ملاقوا الله قولهم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

والحاصل: أنّه سبحانه وتعالى كلّف العباد بما يقدرون عليه، بل على أكثر منه، وإنّما أمرهم بما فيه يسرٌ وسهولة، دون حرج ومشقّة. فلمّا أمرهم بالطهارة بالماء، علم أنّ فيهم مرضى لا يستطيعون استعمال الماء، وعلم أنّ فيهم مسافرون لا يستطيعون حمل الماء في الصحراء، فأباح لهم التيمّم، ثم قال بعد ذلك: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦]، فلو أراد أن يشقّ عليكم لأمركم بحمل الماء في الأسفار، ولكنّه لم يرد أن يحرْجكم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]. ولـمّا أمر بالصيام، علم أنّ هناك من يشقّ عليهم من مرضى ومسافرين، فأباح لهم الفطر وقال:

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ثـمّ قـال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، أي: لا يشقّ عليكم ويأمركم بما فيه كُلفةٌ وتعب، فعلم بذلك أنّ هذه التكاليف التي أمرهم بها هي في وسعهم وقدرتهم وطاقتهم. هذا بالنسبة إلى الأفعال المأمور بها.

ويقال كذلك في الأفعال المنهيّ عنها، فالذنوب والمعاصي المنهيّ عنها، يقدرون على تركها، ولو كان هناك من يقول: إنّه لا يستطيع تركها، فإنّه غير صادق، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى.

بعد ذلك مرّ بنا أن الشارح تكلّم على الشرعيّ والقدريّ، يعني: أنّ الله سبحانه وتعالى له القضاء والقدر، وله الشرع والأمر. فالمراد بالشرع: هو الذي يكلّف به، ويأمر به. والمراد بالقدر والقضاء: هو الذي قضاه أزلًا وكتبه وقدّره في عالم الغيب، ولم يخيّر فيه، بل جعله أمرًا أزليًّا مقدّرًا مخلوقًا.

فالإرادة مثلًا: شرعيّة وقدريّة، والأمر: شرعيّ وقدريّ، والإذن: شرعيّ وقدريّ، والحكم: شرعيّ وقدريّ، والكتابة: شرعية وقدرية، والكلمات: شرعيّة وقدريّة، وأدلّتها مرّت في كلام الشارح رحمه الله. والفرق بينهما أنّ الأمر الشرعي مكلّف العباد به، فإذا أمرهم أمرًا شرعيًا فإنّهم يمتثلونه، والأمر القدريّ: إذا أخبر بأنّ هذا أمر مقدّر عليهم، أزليّ، فإنّه لا يطلب منهم فعله؛ لأنّه حكمه وقدره.

ويقال كذلك في التحريم، فإذا قيل: ما الفرق بين التحريم القدري والتحريم

الشرعي؟ فالجواب: التحريم القدري: إخبار بأنّ هذا الشيء لا يكون، وأنّ الله حرّمه ومنعه بحيث لا يُتَصوّر ولا يكون أبدًا. وأمّا التحريم الشرعي: فهو نهي، يعني: نهى الله العباد عن أن يفعلوا هذه الأشياء، وأخبرهم بأنّها محرّمة عليهم، والتحريم هو المنع، أي منعناكم من هذه الأشياء، كقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة:٣]، وليس هذا مثل قوله: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ [الأنبياء:٩٥]؛ لأن هذا معناه أنّ الله قدّر أنّها لا تعود، وجعل ذلك ممتنعًا أصلًا.

عرفنا بذلك أنّ هناك فرقًا ظاهرًا بين الأوامر الشرعيّة والقدرية، وبين الإذن الشرعيّ والقدريّ، وما أشبه ذلك. والذي يهمّنا أن نؤمن بالقدريّ، ونؤمن بأنّه حقّ وصدق، نقول: هذا قدرُ الله، وهذه كتابة الله، وهذا تقديره علينا لا مفرّ لنا منه، هذا حكمه الأزليّ على العباد. وأمّا الشرعي: فإنّنا نمتثله ونعمل به، فإنّ قوله مثلًا: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ [المائدة:٤٥]، كتب في الألواح، أي: أوامر شرعية، ومنها: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ... ﴾ إلى آخره. بخلاف قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، أي: في الأمور السابقة. والفرق بينهما: أنّ الشرعيّ يدين به العباد ويعملون به، والقدري يؤمنون به ويعتقدونه.

ولم يعرف أكثر المبتدعة الفرق بينها، ووقعوا في الخطأ وفي الضلال، فإنّهم لـمّا لم يفرّقوا بين الإرادة الشرعيّة والإرادة القدريّة، جعلوا الجميع مرادًا لله، وجعلوا إرادة الله للمعاصي رضىً بفعلها، فقالوا: إنّ الله لو ما أرادها لما حصلت، ولو أراد

الطاعات لحصلت. نقول: إنّ هذه إرادة قدريّة فلا تقيسوها بالإرادة الشرعيّة ومرّت بنا أدلّتها، فإنّ دليل الإرادة الشرعيّة هو قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [النساء:٢٨]، ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٢٧]، هذه شرعيّة. بخلاف قوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام:١٢٥]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة:١]. فهذه إرادة قدريّة، دالّة على أنّ قدرة الله تعالى أزليّة قديمة، وأنّ العبد ليس له مفرّ مما قدّره عليه. فكذا يكون الفرق بينهما، ويعرف العبد ما هو مأمور بفعله، وما هو مأمور باعتقاده.

يقول النبي ﷺ في خطبة الحاجة: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَا هَادِيَ لَهُ»[١]، ولا شكّ أنّ الهداية بيد الله تعالى وكذا الإضلال، من هداه الله فذلك نعمة من الله عليه، ومن أضلّه الله فلم يظلمه، وليس للعبد حجّة على الله، بل لله الحجّة البالغة، فإذا شاء هدى، وإذا شاء أضلّ، ومن هداه الله فقد أنعم عليه، وهدايته له فضل منه، ومن أضلّه الله فإنّه عدل منه، وإنّه تعالى لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسْألون، وأيضًا هو المنعم المتفضّل على خلقه.

ورد في بعض الأحاديث: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وهو غَيْرُ ظَالِمٍ لهم، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لهم خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»[٢]. خيرًا من أعمالهم وفضلًا منه. وهو تعالى قد تنزّه عن الظلم في الحديث القدسيّ:

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٦).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[١].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فإذا أهلك العباد، أو سلّط بعضهم على بعض، أو سلّط عليهم عقوبة سماوية، أو عاقبهم بالنار، كان ذلك غير ظلم، بل هم يستحقّون ذلك، فإنّه لا يمكن أن يعذّبهم إلا بظلم منهم. يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧]، فالله لا يهلكهم ظلمًا منه لهم، ولا يهلكهم حتّى يقيم عليهم الحجّة، وكذلك أيضًا إذا أنعم عليهم فهو المتفضّل.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه بعد الصلاة: «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، لا نَعْبُدُ إِلا إِيَّاهُ، لَهُ المَنُّ، وَلَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ وَالثَّنَاءُ الحَسَنُ»[٢]، فالنعمة منه وحده، والتفضّل على الخلق منه وحده، والمنّ منه وحده. ومن أجل ذلك كان له الثناء الحسن وحده. فنعم الله كثيرة: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، فما أصابنا من نعمة فهو محض فضل الله، ومحض منّه على عباده، وليس هو باكتسابنا، ولا باستحقاقنا، بل أعمالنا تضعف عن أن نستحقّ هذا الفضل وهذه النعمة، ولكن هو الذي يتفضّل علينا بالنعم والخيرات والتمكين والعطاء

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٣٩٤).

والصحّة والإعزاز. أو يسلّط على من يشاء ما يشاء من المصائب والعقوبات، وكلّ ذلك محض عدله.

وعلى هذا فإنّ المسلم يعتمد على ربّه، ويأتي بالأسباب التي تؤهّله أن يكون من أهل الفضل، وتؤهله أن يستحقّ أن يكون أهلًا للنعمة والخير، ويبتعد عن النّقم والعقوبات التي تكون سببًا للعذاب، فإنّه قد رتّب للنّعم أسبابًا وهي الأعمال الصالحة، وجعلها سببًا لتفضّله، فلنأتِ بالأسباب التي يرحمنا الله بسببها، ورتّب للعقوبات أسبابًا، وهي المعاصي، فلنبتعد عن أسباب العقوبات وهي المعاصي، حتّى نسلم من العقاب ونحظى بالثواب.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ أَبَدًا)، الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ تَنْزِيهِ اللَّهِ نَفْسَهُ عَنْ ظُلْمِ الْعِبَادِ، يَقْتَضِي قَوْلًا وَسَطًا بَيْنَ قَوْلَيِ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ، فَلَيْسَ مَا كَانَ مِنْ بَنِي آدَمَ ظُلْمًا وَقَبِيحًا يَكُونُ مِنْهُ ظُلْمًا وَقَبِيحًا، كَمَا تَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ! فَإِنَّ ذَلِكَ تَمْثِيلٌ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ! وَقِيَاسٌ لَهُ عَلَيْهِمْ! هُوَ الرَّبُّ الْغَنِيُّ الْقَادِرُ، وَهُمُ الْعِبَادُ الْفُقَرَاءُ الْمَقْهُورُونَ. وَلَيْسَ الظُّلْمُ عِبَارَةً عَنِ الْمُمْتَنِعِ الَّذِي لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَغَيْرِهِمْ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ فِي الْمُمْكِنِ الْمَقْدُورِ ظُلْمٌ! بَلْ كُلُّ مَا كَانَ مُمْكِنًا فَهُوَ مِنْهُ ـ لَوْ فَعَلَهُ ـ عَدْلٌ؛ إِذِ الظُّلْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ مَأْمُورٍ مِنْ غَيْرِهِ مَنْهِيٍّ، وَاللَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ.

فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف:٧٦]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر:١٧]. يَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ هَذَا الْقَوْلِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ الَّذِي رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى

نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[1]. فَهَذَا دَلَّ عَلَى شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ، وَالْمُمْتَنِعُ لَا يُوصَفُ بِذَلِكَ.

الثَّانِي: أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَهَذَا يُبْطِلُ احْتِجَاجَهُمْ بِأَنَّ الظُّلْمَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ مَأْمُورٍ مَنْهِيٍّ، وَاللَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: هُوَ سُبْحَانَهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ، وَإِنَّمَا كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ مَا هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، لَا مَا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، قَدْ فَسَّرَهُ السَّلَفُ، بِأَنَّ الظُّلْمَ: أَنْ تُوضَعَ عَلَيْهِ سَيِّئَاتُ غَيْرِهِ، وَالْهَضْمُ: أَنْ يُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

قال الشيخ:

توضيح لما حكاه عن المعتزلة الذين يقولون: إنّ الظلم هو غير المقدور عليه، الظلم الذي نزّه الله نفسه عنه، هو الشيء الذي لا يمكن ولا يُقدر عليه؛ لأنّ معتقد هؤلاء المتكلّمين من المعتزلة: أنّ العبد هو الذي يهدي نفسه، أو يضلّها، والله لا يقدر أن يضلّ هذا، ولا يهدي هذا، ويجعلون الله عاجزًا، ويوجبون على الله أن يثيب المطيع، فيجعلون ذلك حقًا عليه، والله تعالى ليس عليه حقّ لعباده.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٣٠).

يقول بعضهم[1]:

مَـا لِلعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... كَـلَّا وَلَا سَـعْيٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعُ

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَـضْلِهِ وَهُـوَ الكَـرِيْمُ الوَاسِـعُ

وعلى هذا كونهم يوجبون على الله أن يثيب هذا، ويحرّمون عليه أن يعاقب هذا، ويجعلون هذا مستحقًّا بعمله، ولا يجعلون لله تصرّفًا ولا يجعلون له منّة، ولا يجعلون له فضلًا على عباده ورحمة، لا شكّ أنّ هذا تصرّف في أفعال الخالق سبحانه. فمن أجل ذلك ردّ عليهم الشارح، وبيّن أنّ الظلم الذي نفاه الله تعالى عن نفسه، ليس بممتنع ولا هو مستحيل، بل هو مقدور، ولكن الله تعالى لا يفعله، لكونه غير مستحسن، بل هو أمر مستهجن ومستقبح.

ولذلك نزّه الله نفسه في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، دليل على أنّه قادر على أن يظلم، ولكنّه منزّه عن ذلك. وكذلك قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، لا يخافُ ظلـمًا بأن يحمل عليه سيئات لم يعملها، ولا هضمًا: أي نقصًا من حسنات قد عملها، بل الله تعالى أعدل من العباد، ولا يمكن أن يظلم هذا فينقصه، أو يظلمه فيزيد في سيئاته، بل له الفضل عليه، فيضاعف الحسنات ويمحو السيّئات، ومن أوبقته سيئاته، فهو الموبَق، ولا يهلك على الله إلّا هالك.

---

(١) راجع (٤/ ٣٤٥).

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخَافُ الْمُمْتَنِعَ الَّذِي لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ حَتَّى يَأْمَنَ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَأْمَنُ مِمَّا يُمْكِنُ، فَلَمَّا آمَنَهُ مِنَ الظُّلْمِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ [طه:١١٢]، عُلِمَ أَنَّهُ مُمْكِنٌ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٨، ٢٩]، لَمْ يَعْنِ بِهَا نَفْيَ مَا لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ وَلَا يُمْكِنُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا نَفَى مَا هُوَ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ مُمْكِنٌ، وَهُوَ أَنْ يُجْزَوْا بِغَيْرِ أَعْمَالِهِمْ. فَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ لَيْسَ اللَّهُ مُنَزَّهًا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَفْعَالِ أَصْلًا، وَلَا مُقَدَّسًا عَنْ أَنْ يَفْعَلَهُ، بَلْ كُلُّ مُمْكِنٍ فَإِنَّهُ لَا يُنَزَّهُ عَنْ فِعْلِهِ، بَلْ فِعْلُهُ حَسَنٌ، وَلَا حَقِيقَةَ لِلْفِعْلِ السُّوءِ، بَلْ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ، وَالْمُمْتَنِعُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ!!

وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ هَذَا الْقَوْلِ، فِي مَوَاضِعَ، نَزَّهَ اللَّهُ نَفْسَهُ فِيهَا عَنْ فِعْلِ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ، فَعُلِمَ أَنَّهُ مُنَزَّهٌ مُقَدَّسٌ عَنْ فِعْلِ السُّوءِ وَالْفِعْلِ الْمَعِيبِ الْمَذْمُومِ، كَمَا أَنَّهُ مُنَزَّهٌ مُقَدَّسٌ عَنْ وَصْفِ السُّوءِ، وَالْوَصْفِ الْمَعِيبِ الْمَذْمُومِ. وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، فَإِنَّهُ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ خَلْقِ الْخَلْقِ عَبَثًا، وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ حَسِبَ ذَلِكَ، وَهَذَا فِعْلٌ. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]، إِنْكَارٌ مِنْهُ عَلَى مَنْ جَوَّزَ أَنْ يُسَوِّيَ اللَّهُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١]، إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ حَسِبَ أَنَّهُ يَفْعَلُ هَذَا، وَإِخْبَارٌ أَنَّ هَذَا حُكْمٌ سَيِّءٌ قَبِيحٌ، وَهُوَ مِمَّا يُنَزَّهُ الرَّبُّ عَنْهُ.

قال الشيخ:

كلّ هذا ردٌّ على هؤلاء المبتدعة، فمن عقيدتهم أنّ الظلم الذي نزّه الله نفسه عنه هو المستحيل، الغير الممكن حصوله، وعلى موجب كلامهم يقال: إذن هم آمنون؛ لأن المستحيل ممتنع الوقوع، فإذًا لماذا لا يكونون آمنين من الظلم، وإذا كانوا آمنين منه، فكيف مع ذلك يؤمّنهم زيادة بقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩]، وقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٣١]، وقوله: ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢]؟ لو كان شيئًا مستحيلًا، لَـمَا خافوا منه، ولَـمَا خوّفهم، ودلّ على هذا أنّه ما نزّه نفسه إلا عن شيء مقدور له، ولكنّه تعالى نزّه نفسه عنه؛ لأنّه لا يليق، ولأنّه وصف للظلمة الذين يفعلون ما لا يُستحسَن، فيقسرون ويقتلون ظلمًا، ويحبسون، فنزّه نفسه عن مثل هذا. يقال: هؤلاء ملوك ظلمة، ويقال: هؤلاء أمراء ظلمة؛ لأنّهم يبطشون بالنّاس بغير حقّ، فنزّه الله نفسه عن مثل هذه الأفعال.

عقيدة المجبرة الجبرية: هم الذين يجعلون لله الفعل لما يريد، ويقولون: يجوز لله أن يهلك المتّقين، ويجوز له أن يعذّب المؤمنين، ويجوز له أن يثيب الكفّار، وأن يرفع درجاتهم ويجعلهم في أعلى علّيّين، وهم كفار فجّار خارجون على الطاعة،

ويجوز أن يعذّب المتقين المطيعين الذين ما عَصَوهُ طرفة عين، وأن يجعلهم في أسفل سافلين. هذا قول المجبرة.

ويقولون إنّهم ليس لهم اختيار، وليس لهم أفعال، وإنّما الفعل فعله، والقول قوله، ويستدلّون بمثل قوله: ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣].

وعلى قولهم تكون الخليقة ليس فيها عدل، والله تعالى أعدل من أن يضيّع خلقه، وقد مرّت بنا الأدلّة على أنّه سبحانه وتعالى ما خلق الخليقة عبثًا: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦]؛ لا يؤمر ولا يُنهى؟ هذا حسبان باطل. وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥]، أي: قد حسبتم ذلك، ولكنّكم أخطأتم في هذا الحسبان، وما كان ربّكم ليخلقكم ثم ليترككم عبثًا، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص:٢٧]، دلّ على أنّ من اعتقد بأنّه خلقهم لغير حكمة، وخلق المخلوقات هملًا وسُدىً، أنّه من الكافرين الضالين.

ومرّت الأدلّة التي تنفي التسوية بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وتأبى حكمة الله هذه التسوية؛ فالله تعالى يقول: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨]، أي: لا نجعلهم، بل تأبى حكمة الله أن نجعل المتّقين كالفجّار، وأن نجعل المحسنين كالمفسدين في الأرض، بل لا بدّ أن نميّز بينهم، وكما في قوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم:٣٥]، لا يجوز، هذا خلاف حكمة الله، أن يسوّي بين المسلم وبين المجرم، فالمسلم له الثواب، والمجرم يستحقّ العقاب. ومثل قوله

تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]، هل حسبوا ذلك؟ هذا حسبان باطل، كيف حسب الذين اقترفوا السّيئات أن نجعلهم مثل أهل الحسنات والأعمال الصالحة؟ هذا خطأ، ولا يكون أبدًا.

هذا كلّه من مقتضى قول الأشاعرة أو المجبرة الذين يجعلون لله التسوية بين الفاجر والمؤمن، ولذلك ردّ عليهم الشارح بهذه الآيات: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧، ٢٨]، أي: لا نجعلهم، بل لا بدّ أن نميّز بينهم، فالله تعالى خلق هؤلاء وميّزهم وجعلهم سعداء، وخلق هؤلاءِ وحكم عليهم بالشقاء، وهؤلاء يستحقّون النصر والتمكين في الدنيا، وهؤلاء يستحقون الخذلان والعذاب في الدنيا، وفي الآخرة فريق في الجنّة وفريق في السعير.

قال الشارح:

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ»[1].

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا يَحْتَجُّ بِهِ الْجَبْرِيَّةُ، وَأَمَّا الْقَدَرِيَّةُ فَلَا يَتَأَتَّى عَلَى أُصُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ! وَلِهَذَا قَابَلُوهُ إِمَّا بِالتَّكْذِيبِ أَوْ بِالتَّأْوِيلِ!!

وَأَسْعَدُ النَّاسِ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ، الَّذِينَ قَابَلُوهُ بِالتَّصْدِيقِ، وَعَلِمُوا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ، قَدْرَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعَدَمَ قِيَامِ الْخَلْقِ بِحُقُوقِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، إِمَّا عَجْزًا، وَإِمَّا جَهْلًا، وَإِمَّا تَفْرِيطًا وَإِضَاعَةً، وَإِمَّا تَقْصِيرًا فِي الْمَقْدُورِ مِنَ الشُّكْرِ، وَلَوْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ. فَإِنَّ حَقَّهُ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ، وَتَكُونَ قُوَّةُ الْحُبِّ وَالْإِنَابَةِ، وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَشْيَةِ، وَالْمُرَاقَبَةِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، جَمِيعُهَا مُتَوَجِّهَةً إِلَيْهِ، وَمُتَعَلِّقَةً بِهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْقَلْبُ عَاكِفًا عَلَى مَحَبَّتِهِ وَتَأْلِيهِهِ، بَلْ عَلَى إِفْرَادِهِ بِذَلِكَ، وَاللِّسَانُ مَحْبُوسًا عَلَى ذِكْرِهِ، وَالْجَوَارِحُ وَقْفًا عَلَى طَاعَتِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مَقْدُورٌ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ تَشِحُّ بِهِ، وَهِيَ فِي الشُّحِّ عَلَى مَرَاتِبَ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. وَأَكْثَرُ الْمُطِيعِينَ تَشِحُّ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ وَجْهٍ،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

وَإِنْ أَتَى بِهِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، فَأَيْنَ الَّذِي لَا تَقَعُ مِنْهُ إِرَادَةٌ تُزَاحِمُ مُرَادَ اللَّهِ وَمَا يُحِبُّهُ مِنْهُ؟ وَمَنِ الَّذِي لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ خِلَافُ مَا خُلِقَ لَهُ، وَلَوْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ؟ فَلَوْ وَضَعَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ عَدْلَهُ عَلَى أَهْلِ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ بِعَدْلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ ظَالِمًا لَهُمْ.

وَغَايَةُ مَا يُقَدَّرُ، تَوْبَةُ الْعَبْدِ مِنْ ذَلِكَ وَاعْتِرَافُهُ، وَقَبُولُ التَّوْبَةِ مَحْضُ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَإِلَّا فَلَوْ عَذَّبَ عَبْدَهُ عَلَى جِنَايَتِهِ لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ تَابَ مِنْهَا. لَكِنْ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ - بِمُقْتَضَى فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ - أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ مَنْ تَابَ، وَقَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، فَلَا يَسَعُ الْخَلَائِقَ إِلَّا رَحْمَتُهُ وَعَفْوُهُ، وَلَا يَبْلُغُ عَمَلُ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَنْجُوَ بِهِ مِنَ النَّارِ، أَوْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، كَمَا قَالَ أَطْوَعُ النَّاسِ لِرَبِّهِ، وَأَفْضَلُهُمْ عَمَلًا، وَأَشَدُّهُمْ تَعْظِيمًا لِرَبِّهِ وَإِجْلَالًا: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[1].

وَسَأَلَهُ الصِّدِّيقُ دُعَاءً يَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِهِ، فَقَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[2].

فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ الصِّدِّيقِ، الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

وَالْمُرْسَلِينَ، فَمَا الظَّنُّ بِسِوَاهُ؟ بَلْ إِنَّمَا صَارَ صِدِّيقًا بِتَوْفِيَةِ هَـذَا الْمَقَـامِ حَقَّـهُ، الَّـذِي يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَةَ رَبِّهِ، وَحَقَّـهُ وَعَظَمَتَـهُ، وَمَـا يَنْبَغِـي لَـهُ، وَمَـا يَسْتَحِقُّهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَعْرِفَةَ تَقْصِيرِهِ. فَسُحْقًا وَبُعْدًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَسْتَغْنِي عَنْ مَغْفِرَةِ رَبِّهِ، وَلَا يَكُونُ بِهِ حَاجَةٌ إِلَيْهَا! وَلَـيْسَ وَرَاءَ هَـذَا الْجَهْلِ بِاللَّـهِ وَحَقِّـهِ غَايَـةٌ!! فَـإِنْ لَمْ يَتَّسِعْ فَهْمُكَ لِهَذَا، فَانْزِلْ إِلَى وَطْأَةِ النِّعَمِ، وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحُقُوقِ، وَوَازِنْ مِنْ شُكْرِهَا وَكُفْرِهَا، فَحِينَئِذٍ تَعْلَـمُ أَنَّـهُ سُبْحَانَهُ لَـوْ عَـذَّبَ أَهْـلَ سَـمَوَاتِهِ وَأَرْضِـهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ.

قال الشيخ:

خلاصة هذا الكلام دائر حول هـذا الحـديث الـذي أورده الشارح، وهـذا الحديث أنكرته المعتزلة، واحتجّت به القدريّة، ولكنّه حجّة لأهل السنّة. صحيح أنّ الله تعالى لو عذَّب أهل سمواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم؛ لأنّ ما عملوه من الأعمال، فهو بفضله، فهو الـذي هـداهم، وهـو الـذي أعطـاهم، وهـو الذي خوّلهم، وهو الذي سخّر لهـم، إذن فـإذا عـذّبهم فإنّـه لا بـدّ أنّ يعـذّبهم عـلى شيء من التقصير، حتّى ولو كانوا مؤمنين ومتّقين؛ لأنّ هـذا الإيـمان وهـذا التُّقـى محض عطاء الله، ومحض فضله؛ ولذلك يقول النبيّ ﷺ: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»[1]، فأعمالنا لا تدخلنا الجنّة بمحضها، حتّى يرحمنا الله معها، يدخل الجنّة

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

برحمته من يشاء، يقول تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ [الإنسان:٣١].

وإذا كان العباد مهما عملوا، فإنّهم بحاجة إلى رحمه الله، عُلِم أنّهم دائمًا يسألون ربّهم أن يعمّهم بواسع رحمته، وهو سبحانه أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم. وقد أخبر النبيّ ﷺ أنّ رحمة الله تعالى واسعة يرحم بها عباده، فقال ﷺ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأرض جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذلك الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حتى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عن وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[1]. وهذا معنى كونه كتب على نفسه الرحمة، وقال ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»[2]. ولأجل ذلك كان من أسمائه الحسنى الرحمن الرحيم، وأخبر بأنه يرحم من عباده الرحماء، وقال ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ»[3]، وقال: «مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ»[4]. فكلّ ذلك دليل على أنّه تعالى يجود على من يشاء ويرحمهم.

ولكن أعمالهم مهما كانت ومهما كثرت فهي تقلّ عن أن يستحقوا بموجبها

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٠).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وحدها الجنّة، ولو عملوا ما عملوا، ولو كُلِّفوا بأن يعملوا كلّ الأعمال ما أطاقوا، ولأجل ذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، استثقلوا هذه الآية، حتّى أنزل الله قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وقد فسّر عبد الله بن مسعود ﷺ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، قال: «أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر»[1].

فالإنسان مخلوق للعبادة، مأمور بأن يشغل كلّ أعماله وكلّ أفكاره وكلّ جوارحه بعبادة الله، ونظره وبصره يجعله كلّه عبادة، فلا ينظر إلا نظر اعتبار ونظر رحمة وإذا نظر فيما يضرّه أو نظر إلى ما لا يحلّ له، فقد عصى الله بهذا النظر، وكذلك السمع الذي جعله الله واسطة يسمع به الأصوات نعمة من الله، مأمور بأن لا يستعمله إلا فيما ينفعه من العلم والوعظ والخير والإرشاد والتوجيه والكلام النّافع، ولا يستمع به ما يضره من اللهو واللعب والضحك والباطل والغيبة والنميمة، ومن استمع إلى ذلك فقد كفر هذه النعمة، وما شكرها.

وهكذا أيضًا نعمة النطق بهذا اللسان الذي جعله الله معبّرًا عن حاجته، فيجب ألاّ يتكلّم به إلا بخير ويجعله مستعملًا في الذكر والشكر وفي الأمر بالخير والدلالة عليه، والنهي عن الشر، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٢٩)، والطبري (٤/ ٢٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢).

إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤].

فإذا فعل ذلك كان شاكرًا لهذه النعمة، وإن تكلّم فيما لا يعنيه، أو لا يجوز له، أو ما لا فائدة فيه، يكون كافرًا لهذه النعمة.

وهكذا يقال في التفكير والعقل الذي منّ الله به على الإنسان، فيجب أن يستعمله فيما يفيده، فيفكّر في خلق الله وفي آياته، وتدبّر آياته وتدبّر أوّل الأمر وآخره، فإذا فعل ذلك كان شاكرًا لهذه النّعمة، ولكن إذا صرف شيئًا من ذلك فيما يضرّه وجعل تفكيره وعقله في الأشياء الدنيئة، أو في ضرر الإسلام والمسلمين، أو صرف عقله وتفكيره في تدبير أموره الدنيويّة، ونسي أموره الدينيّة فقد كفر هذه النعمة.

وهكذا يقال في نعمة الجوارح، فاليدان يشكر ربه إذا استعملهما وبطش بهما في الشيء الذي يقرّبه إلى الله، والرجلان يسير بهما في الشيء الذي ينفعه، وهكذا.

وقد عرف أنّ النّاس قد يقعون في أخطاء، فكيف مع ذلك يزكّون أنفسهم ويدّعون أنّهم من المقرّبين، ويدّعون أنّهم مستحقّون لكذا وكذا، وأنّ حقًا على الله أن يعطيهم، وأنّه إذا لم يعطهم كان ظالمًا لهم، وأنّه إذا عاقبهم وأجدب عليهم وسلّط عليهم الفقر والفاقة فهو ظالم لهم منه، ونحو ذلك.

نقول: إنّ هذا سوء ظنّ بالله تعالى، وأن القائلين بذلك أحسنوا الظن بأنفسهم، والإنسان عليه أن يعود إلى نفسه، وأن يلومها، وأن ينسب التقصير إليها، وأن يحاسبها أشدّ المحاسبة، بذلك يكتبه الله تعالى من أهل الرحمة والثواب،

أمّا إذا لم يحاسب نفسه، واعتقد أنّه من المحسنين ومن المتّقين، وأنّه فعل وفعل، وأخذ يمدح نفسه، ويرفع من شأن نفسه، ونحو هذا، فإن هذا يسبب بطلان عمله، وردّه عليه، وإذا كان نبيّنا ﷺ يعترف بأنّ لا يدخل هو الجنّة إلا أن يرحمه الله، فيقول: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[1].

وكذلك الملائكة، فمن الملائكة من هم سجود من حين خُلقوا إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة، يقولون: يا ربِّ سبحانك، ما عبدناك حقَّ عبادتك. فكيف بنا نحن الذين أضعنا الوقت الكثير من حياتنا، ونحن الذين اتّبعنا كثيرًا من أهوائنا، ومع ذلك نزكّي أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]؛ لأنّ الله سبحانه هو أرحم بعباده، فيأتي العبد بأسباب الرحمة، ويعتقد بأنّه إذا لم تعمّه رحمة الله، فإنّه خاسر وأنّه جعل للرحمة أهلًا فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، إلى آخر الآيات. ذكر أهل الرحمة، فليس كلّ من تمنّاها تحصل له، وإذن فليس كلّ واحد ينجيه عمله إلا برحمة الله، ورحمة الله لها أهلها، وأسباب رحمة الله سهلة يسيرة على من يسَّرَها الله عليه.

نسأل الله سبحانه أن يُوزِعنا أن نشكر نعمته التي أنعم علينا وعلى والدينا، ونسأله أن يعاملنا برحمته ولا يعاملنا بعدله، فإنّه سبحانه هو المنعم بكلّ أنواع

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

الإنعام، فهو الذي أعاننا على ذكره وشكره، وهو الذي هدانا وما كنّا لنهتدي لو لا أن هدانا الله، فالهداية فضل منه ونعمة، وكذلك الإعطاء والمنّة والإلهام، كلّ ذلك محض فضله على عباده، ولأجل ذلك عباداتهم إلهام منه وتوفيق، فهو الذي أعانهم ووفّقهم وسدّدهم وقوّاهم وجعلهم مطيعين له، ولو شاء لأضلّهم جميعًا، ولو شاء لهداهم جميعًا، وله المشيئة النافذة، وله الحكمة البالغة، ولا يسأل عمّا يفعل، وهم يسألون، ونعمه على عباده لا تحصى، وأياديه عليهم لا تستقصى، وإذا مسّهم بخير فهو محض فضله، وإذا مسّهم بضرّ فهو ابتلاء منه وامتحان، وفي الصبر على ذلك أجر عظيم. ولذلك يقول بعضهم[1]:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّـهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَـهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ... وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الأَجْرُ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا وَلَـهُ فِيـهِ مِنَّـة ... تَضِيقُ بِهَا الأَوْهَامُ والبَرُّ والبَحْرُ

فالعبد إذا قال: الحمد لله، فهذه نعمة ألهمه الله وأعانه أن حَمَده، فهذه النعمة التي هي الإلهام، تحتاج إلى نعمة أخرى يشكرها بها، فإذا قال أشكر الله وأحمد الله، فهذه نعمة أخرى يستحقّ أن يشكرها، وإذا قال: ربي لك الحمد، فهذه نعمة أخرى تستدعي الحمد. وكذلك إذا ذكر الله وكبّره وهلّله وسبّحه واستغفره، فكل

(١) الأبيات لمحمود الوراق، أخرجها البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ١٩٠).

هذا من فضل الله، وكلها نعم لها أن تشكر، ولأجل ذلك كانت لله النعمة على عباده، وله الفضل عليهم. كما مرّ بنا في الحديث: «**لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ** وهو **غَيْرُ ظَالِمٍ** لهم، **وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ** لهم **خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ**»[١]؛ وذلك بأنّه لا يظلم أحدًا، ولا يعذّبهم إلا على تقصير منهم، أي تقصير في شكر الربّ، ولو حاسبهم على أعمالهم، ولو كانت أمثال الجبال، لم تقاوم أصغر نعمة عليهم، سواء أكانت نعمة حسّيّة أم معنوية؛ كهدايتهم وتعليمهم وفطرتهم الحسنة، ونحو ذلك. فإنّه لو حاسبهم على هذا العطاء لعذّبهم.

ومن أجل ذلك يقول النبي ﷺ في الحساب اليسير، بأنّ ذلك حساب العرض؛ أن تعرض عليهم أعمالهم دون أن يناقشوا فيها، ومن أجل ذلك يقول ﷺ: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»[٢]. من ناقشه الله الحساب على دقيق النعم وجليلها، ودقيق الأعمال وكبيرها، فإنّه لو كانت حسناته أمثال الجبال، لا تقوم أمام أصغر نعم الله - عزّ وجلّ - عليه، فإن حاسبهم حسابًا شديدًا عسيرًا لابد أن يعذّبهم. فالنبيّ ﷺ يقول: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[٣]. وهذا وهو

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٢٥٩).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٣٦٦).

سيد العالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الذي غَفَرَ الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وهو الذي تفطّرت قدماه لطول قيامه في الصلاة، ويقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»[1]؛ يعترف بأنّه بحاجة إلى رحمة الله، فنحن أولى بأن نحتقر أعمالنا، وأن نظهر فقرنا وفاقتنا، ونحن أحرى بأن نتضاعف عند ربّنا، ونظهر العجز، ونظهر الذلّ الذي نحتاج معه إلى التقوية، ونظهر الذنوب التي نحتاج معها إلى المغفرة، فلو لم يأخذ عباده بعفوه لهلكوا.

ولذلك لا ينبغي لنا أن نزكّي أنفسنا، ونتباهى بكثرة أعمالنا، ونقول: نحن أكثر عملًا من فلان، ونحن أكثر حسنات من هذا وهذا، فإنّ هذه التزكية قد تكون سببًا لأن يحبط الله العمل، ولذلك يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٩]. فهو الذي يمدح من يريد، ومن يستحقّ المدح، ولذلك فليحتقر المرء عمله حتى يضاعفه الله له أضعافًا كثيرة، وليطلب من ربّه المغفرة، وليدخل عليه من باب الذلّ والافتقار، وربّنا سبحانه عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

قال الطحاوي:

وَفِي دُعَاءِ الْأَحْيَاءِ وَصَدَقَاتِهِمْ مَنْفَعَةٌ لِلْأَمْوَاتِ.

قال الشارح:

اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّ الْأَمْوَاتَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ سَعْيِ الْأَحْيَاءِ بِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا تَسَبَّبَ إِلَيْهِ الْمَيِّتُ فِي حَيَاتِهِ.

وَالثَّانِي: دُعَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ، وَالصَّدَقَةُ وَالْحَجُّ، عَلَى نِزَاعٍ فِيمَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ ثَوَابِ الْحَجِّ، فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: أَنَّهُ إِنَّمَا يَصِلُ إِلَى الْمَيِّتِ ثَوَابُ النَّفَقَةِ، وَالْحَجُّ لِلْحَاجِّ. وَعِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ: ثَوَابُ الْحَجِّ لِلْمَحْجُوجِ عَنْهُ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَاخْتُلِفَ فِي الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، كَالصَّوْمِ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالذِّكْرِ، فَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَدُ وَجُمْهُورُ السَّلَفِ إِلَى وُصُولِهَا، وَالْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ عَدَمُ وُصُولِهَا.

وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ إِلَى عَدَمِ وُصُولِ شَيْءٍ الْبَتَّةَ، لَا الدُّعَاءِ وَلَا غَيْرِهِ. وَقَوْلُهُمْ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَكِنَّهُمُ اسْتَدَلُّوا بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ»[1]. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِمَا كَانَ تَسَبَّبَ فِيهِ فِي الحَيَاةِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ تَسَبَّبَ فِيهِ فِي الحَيَاةِ فَهُوَ مُنْقَطِعٌ عَنْهُ.

وَاسْتَدَلَّ المُقْتَصِرُونَ عَلَى وُصُولِ العِبَادَاتِ الَّتِي تَدْخُلُهَا النِّيَابَةُ، كَالصَّدَقَةِ وَالحَجِّ، بِأَنَّ النَّوْعَ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ النِّيَابَةُ بِحَالٍ، كَالْإِسْلَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ، يَخْتَصُّ ثَوَابُهُ بِفَاعِلِهِ لَا يَتَعَدَّاهُ، كَمَا أَنَّهُ فِي الحَيَاةِ لَا يَفْعَلُهُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَنُوبُ فِيهِ عَنْ فَاعِلِهِ غَيْرُهُ. وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ[2] بِسَنَدِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ».

قال الشيخ:

بعدما انتهى الكلام على القضاء والقدر جاء الطحاوي بهذه العبارة ردًّا على المبتدعة، وهي: هل ينتفع الأموات بشيء من أعمال الأحياء أو لا؟

صحيح أنّ الأموات قد طُوِيَتْ صحف أعمالهم، وقد ختم عليهم، فلا يستطيعون زيادة الحسنات ولا نقص السيئات؛ لأنّهم أنهوا حياتهم ودخلوا في

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في السنن الكبرى (٢٩٣٠) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

عالم البرزخ الذي هو أوّل منازل الآخرة، فكأنّهم ختم على أعمالهم، ولكن الأحياء قد يهدون إليهم بعض الأعمال، هذه الأعمال التي يهديها إليهم الأحياء قد تكون أعمالًا بدنية أو أعمالًا قوليّة أو أعمالًا ماليّة. فالأعمال البدنيّة: كالصلاة والطواف والصوم وما أشبهها، والأعمال الماليّة: كالصدقات والنّفقات والأضاحي، والأعمال القوليّة: كالدّعاء والذكر والاستغفار وما أشبهها.

ولا شكّ أنّهم ينتفعون بالدّعاء، بأن يدعو لهم الأحياء، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[الحشر: ١٠]، نحن ندعو بهذا للذين سبقونا بالإيمان، ولو كنّا لم نعرفهم، ولو كان بيننا وبينهم مئة سنة أو أكثر.

وكذلك ينتفعون بالصلاة عليهم، وأوّلها: الصلاة على الميّت، ولو لم يكن لهم بها نفع لم تُشرع. وكذلك الأعمال التي كانوا سببًا فيها يبقى لهم أجرها، فإذا تصدّق أحدهم بصدقة، واستمرّت تلك الصدقة، يبقى ذلك الأجر مستمرًا، وذلك مثل: الأحباس والأوقاف التي ينتفع بها، فهذه يصل أجرها إليهم. وكذلك البيوت التي يُنتفع بها، كالمساجد، فإذا بنى مسجدًا فإنّه يأتيه أجره، ولو بعد موته بمئة سنة أو أكثر، ما دام يُصلَّى في هذا المسجد. وكذلك إذا بنى مدرسة لتحفيظ القرآن وطلب العلم النافع، فإن ذلك أيضًا يجري عليه أجره، وهو من باب الصدقة الجارية. وكذلك غلّات الأوقاف، فإذا جعل غلّة هذا الوقف صدقات أو في جهاد، كان ذلك أيضًا من الصدقة الجارية التي يأتيه أجرها بعد

موته. وكذلك إذا كان قد أورث علمًا ينتفع به، وألّف كتبًا كتبها وجعل فيها علومًا نافعة، فإنّه مادام يُقرأ فيها ويدعى له فأجره عليها مستمر إن شاء الله. وهكذا إذا نشر علمًا أو طبع مصاحف أو أنفق على كتب علم ونشرها، وصار ينتفع بها وتقرأ ويدعى لمن نشرها، فهذه من الأعمال الماليّة التي ينتفع بأجره منها بعد موته.

وكذلك كلّ إنسان كان متسبّبًا بعملٍ من الأعمال النافعة، ذكروا من ذلك مثلًا: الأحباس التي في الطرق وينتفع بها، كالمياه التي ينتفع بها ويشرب منها أبناء السبيل، وكذلك حفر الآبار التي ينتفع بها المارّة ونحوهم، وإجراء الأنهار، وإصلاح الطرق التي يمرّ بها المسلمون وينتفعون بها، وإضاءتها إن احتاجت إلى ذلك، وجعل المرافق فيها كالمياه مثلًا، كل ذلك من الأعمال الخيريّة التي إن فعلها احتسابًا كان له أجر. وكذلك إذا جعل غلّة أوقافه في تجهيز الجيش للجهاد، أو تجهيز الأموات، فإنّ ذلك أيضًا من الأعمال الصالحة، ويستمرّ أجره عليها ما دام يُنتفع بها؛ لأنّ هذا ممّا أنفق فيه.

أمّا الأعمال البدنيّة فقد اختُلف فيها، وقد ورد في الأثر: «**لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ**»، ولكنّ ذلك محمول على الأحياء؛ لأن الأحياء قادرون، ولا يجوز لأحدهم أن ينوب عن أحد، فلا تقول لولدك: صلِّ عني الظهر أو العصر ولو كان ولدك؛ لأنّ هذه العبادة تتعلّق ببدنك، فلا ينوب بها عنك أحد، وكذلك لو أحرمت بنسُكٍ فلا تقل لولدك أو عبدك: طف عنّي طواف الإفاضة، أو قف عنّي بعرفة؛ لأنّها

عمل بدنيّ لا يقوم فيه أحدٌ عن أحدٍ. وكذلك لا تقل لأحد: صم عنّي هذا الشهر، فإن هذا لا يجوز ذلك.

ولا يجوز التوكيل في مثل هذه الأعمال؛ لأنّها متعلّقة بالبدن، ولأنّ الحكمة فيها أن يفعلها العامل ببدنه، ويشعر بذله وضعفه بين يديّ ربّه، فإذا كان المتذلل غيره لم يتأثّر بذلك، فالحكمة في شرعيّة الصلاة: أن المصلّي يخضع ويخشع ويتواضع، ولا يحصل له أجر إذا تواضع غيره، ولو قال المصلي: أهديت صلاتي لك، لم يجز ذلك؛ لأنّه لا بدّ وأن يكون هذا العمل من نفسه. وكذلك الحكمة في الصيام: حصول ألم الجوع والجهد والصبر على ذلك، فإذا كان هو يأكل ويشرب ويتمتّع، والذي صام غيره، فلا تحصل المصلحة التي هي تأثّره بهذا الصيام، فيكون أجر الصيام لمن صامه لا له. وإن كان في ذلك استثناء كما سيأتي.

قال الشارح:

وَالدَّلِيلُ عَلَى انْتِفَاعِ الْمَيِّتِ بِغَيْرِ مَا تَسَبَّبَ فِيهِ، الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ الصَّحِيحُ.

أَمَّا الْكِتَابُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]. فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِاسْتِغْفَارِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ قَبْلَهُمْ، فَدَلَّ عَلَى انْتِفَاعِهِمْ بِاسْتِغْفَارِ الْأَحْيَاءِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى انْتِفَاعِ الْمَيِّتِ بِالدُّعَاءِ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى الدُّعَاءِ لَهُ فِي صَلَاةِ الْجَنَازَةِ، وَالْأَدْعِيَةُ الَّتِي وَرَدَتْ بِهَا السُّنَّةُ فِي صَلَاةِ الْجَنَازَةِ مُسْتَفِيضَةٌ. وَكَذَا الدُّعَاءُ لَهُ بَعْدَ الدَّفْنِ، فَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ[١]، مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ».

وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ لَهُمْ عِنْدَ زِيَارَةِ قُبُورِهِمْ، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[٢]، مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ أَنْ يَقُولُوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ». وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[٣]

---

(١) برقم (٣٢٢١).

(٢) برقم (٩٧٥).

(٣) برقم (٩٧٤).

أَيْضًا، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ: كَيْفَ تَقُولُ إِذَا اسْتَغْفَرَتْ لِأَهْلِ الْقُبُورِ؟ قَالَ: «قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ.

وَأَمَّا وُصُولُ ثَوَابِ الصَّدَقَةِ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1]، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[2]، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي تُوُفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا، فَهَلْ يَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطِيَ الْمِخْرَافِ صَدَقَةٌ عَنْهَا. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي السُّنَّةِ.

وَأَمَّا وُصُولُ ثَوَابِ الصَّوْمِ، فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3]، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ». وَلَهُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤).

(٢) برقم (٢٧٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

نَظَائِرُ فِي «الصَّحِيحِ».

وَلَكِنَّ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ بِالْإِطْعَامِ عَنِ الْمَيِّتِ دُونَ الصِّيَامِ عَنْهُ؛ لِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمُتَقَدِّمِ. وَالْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ.

وَأَمَّا وُصُولُ ثَوَابِ الْحَجِّ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[1]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ، أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟ اقْضُوا اللَّهَ، فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ». وَنَظَائِرُهُ أَيْضًا كَثِيرَةٌ.

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ يُسْقِطُهُ مِنْ ذِمَّةِ الْمَيِّتِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَجْنَبِيٍّ، وَمِنْ غَيْرِ تَرِكَتِهِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي قَتَادَةَ، حَيْثُ ضَمِنَ الدِّينَارَيْنِ عَنِ الْمَيِّتِ، فَلَمَّا قَضَاهُمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدَتُهُ»[2].

وَكُلُّ ذَلِكَ جَارٍ عَلَى قَوَاعِدِ الشَّرْعِ، وَهُوَ مَحْضُ الْقِيَاسِ، فَإِنَّ الثَّوَابَ حَقُّ الْعَامِلِ، فَإِذَا وَهَبَهُ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ لَمْ يُمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا لَمْ يُمْنَعْ مِنْ هِبَةِ مَالِهِ فِي حَيَاتِهِ، وَإِبْرَائِهِ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

---

(١) برقم (١٨٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠)، والحاكم (٢/ ٥٨)، والدارقطني (٣/ ٧٩)، والبيهقي (٦/ ٧٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣٩): «رواه أحمد والبزار، وإسناده حسن».

وَقَدْ نَبَّهَ الشَّارِعُ بِوُصُولِ ثَوَابِ الصَّوْمِ عَلَى وُصُولِ ثَوَابِ الْقِرَاءَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، يُوَضِّحُهُ: أَنَّ الصَّوْمَ كَفُّ النَّفْسِ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ بِالنِّيَّةِ، وَقَدْ نَصَّ الشَّارِعُ عَلَى وُصُولِ ثَوَابِهِ إِلَى الْمَيِّتِ، فَكَيْفَ بِالْقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ عَمَلٌ وَنِيَّةٌ؟

قال الشيخ:

هذه الأدلّة لمن قال بأنّه ينتفع الميّت بأعمال الحيّ التي يهديها إليه.

فانتفاعه بالأقوال مثل الذكر والاستغفار والدعاء له وما أشبه ذلك، دليله هذه الأحاديث، ولو كانت جاءت في الاستغفار للأموات؛ لأنّ دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قال الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**»(١). وسواء كان ذلك الذي دعوت له حيًّا أو ميّتًا. وكذلك أيضًا أخبر الله تعالى بأنّ الملائكة تستغفر للمؤمنين، فدلّ على أنّهم ينتفعون بفعل غيرهم؛ لأنّ هذا العمل الذي يُهدى إليهم يُعدّ تبرّعًا من ذلك العامل، فإذا دعا لك، واستغفر لك، فإنّه متبرّع لك، ولا يدخل ذلك في الآية التي استدلّ بها المانعون من المبتدعة، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]. كثيرًا ما يستدلّ بهذه الآية المانعون، الذين يمنعون الإهداء إلى الأموات، فيمنعون الأضحية عنهم، ويمنعون القراءة لهم، أو نحو ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٣) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

والآية إنّما فيها الملكية، أي: لا يملك الإنسان إلّا سعيه، أمّا سعي غيره فلا يقدر عليه، ولا يقدر الميّت أن يأخذ من أعمال أولاده، أو أعمال زوجاته، ولو كانوا يحبّونه، ولعلّ هذا أيضًا في الدّار الآخرة، كما ورد في تفسير قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]؛ «أنَّ الوالد يتعلق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بني، أي والد كنت لك؟ فيثني خيرًا، فيقول له: يا بني، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك، أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا، ثم يتعلق بزوجته فيقول: يافلانة، أي زوج كنت لك؟ فتثني خيرًا، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبيها لي، لعلي أنجو بها مما ترين، فتقول: ما أيسر ماطلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئًا، إني أتخوف مثل الذي تتخوف»[1]. وهكذا. ففي الدار الآخرة لا ينتفع أحد إلا بعمله، أما في الدنيا فلا مانع من أن يهدي الحيّ للميّت، أو يتصدّق عنه، أو يدعو له؛ حيث إنه تبرّع بذلك.

وقد وردت الأدلّة في الدعاء للميّت في «سنن أبي داود»[2] بسند صحيح أنّ النبيّ ﷺ يقول: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الميِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ». أي: ادعوا له وأنتم صادقون بالدعوات الجامعة. وأيضًا حديث عوف بن مالك ﷺ قال: صلى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٧٨) عن عكرمة رحمه الله.

(٢) برقم (٣١٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

رسول اللَّـهِ ﷺ على جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ من دُعَائِهِ وهو يقول: «اللهم اغْفِرْ له وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عنه، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ من الخَطَايَا كما نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ من الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا من دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا من أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا من زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَقِهِ فِتْنَةَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ»، قال عَوْفٌ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ لو كنت أنا المَيِّتَ؛ لِدُعَاءِ رسول اللَّـهِ ﷺ على ذلك المَيِّتِ[1]. وهذا تعليم منه لأمّته أن يدعو بمثل هذه الدعوات على ذلك الميت، وإن لم تكن معيّنة مخصّصة، بل يدعو بها وبما يماثلها، ولو كان ذلك لا ينفع الميّت لم تُشرع صلاة الجنازة.

وكذلك بعد الموت وبعد الدفن، مر بنا أيضًا أنّه ﷺ كان يأمر أصحابه أن يسألوا له التثبيت، ويقول: «إِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»[2]. أي: أن يقولوا: اللهمّ ثبّته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أو أن يقولوا: اللهمّ ثبّته عند اللقاء، وما أشبه ذلك. فدلّ على أنّه ينتفع بذلك.

وكذلك أيضًا مرّ بنا الدعاء للأموات عند زيارة قبورهم، وأنّه ﷺ كان يعلّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ من المُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إن شَاءَ اللَّهُ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لنا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ»[3]. فهذا دعاء

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٦٦).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٤).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٤).

لهم بالمغفرة والعافية، مما يدلّ على أنهم ينتفعون بذلك، وأنّهم يحتاجون، إليه وأنّهم يأتيهم من دعوات الأحياء حسنات كثيرة، يزدادون بها حسنات.

والقصص في ذلك كثيرة مشهورة، أشار إليها كثير من العلماء، ومن أراد التوسّع في هذا فليقرأ كتاب «الروح» لابن القيم رحمه الله. فإنّه استوفى ما يتعلّق بهذه المسائل، ولعلّ الشارح لخّص هذا منه. وكذلك لتلميذه ابن رجب كتابه الذي سمّاه «أهوال القبور»، وكلّها موجودة مشتهرة، وقد تكلّم فيه عن هذه المسائل، وأوضح ما يقال فيها.

كذلك مرّت بنا الأعمال البدنيّة، التي يعملها الحيّ عن الميّت، وفي انتفاع الميت بها خلاف، فقد ذهب الإمام أحمد في المشهور عنه أنّه لا يُصام عن الميت إلّا النّذر، أي: لا يُصام عنه أيام رمضان؛ لأنّ في الحديث أنّ امرأة قالت: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عنها؟ قال: «**أَرَأَيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا؟**» قالت: نعم، قال: «**فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ**»[1]. فشَبّه الصوم عنها بالدّين، ولـمّا كان صوم نذر خصّه أحمد بالنذر، ومنع صيام الفرض، واستدلّ بقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: «**لَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ**»[2]. وقد عرفنا أنّ هذا الحديث محمول على الأحياء، بمعنى: لا يصوم حيّ عن حيّ، ولا يصلّي حيّ عن حيّ. أمّا في الأموات فقد صحّ هذا الحديث، وصحّ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه (٤٥٠).

حديث عائشة - رضي الله عنها - مرفوعًا: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[١].

ولم يخصّ ذلك بنذر ولا بفرض، فدلّ على أنّه من المشروعات، فيُصام عنه القضاء ونحو ذلك. وإذا أطعموا عنه أجزأ عنه ذلك، سواء أكان الصوم عليه نذرًا أم فرضًا.

أما النفل عنه: كأن تصوم يومًا نفلًا وتقول: أهدي ثواب صيام هذا اليوم لوالدتي. ونحو ذلك. فهذا محلّ خلاف أيضًا، ولعلّ قياس الأدلّة أنّه جائز، ما دام سقط عنه الفرض بتطوّعك عنه، ولعلّ السبب في ذلك أنّك مأجور على هذا الصيام، ولو كان عملًا بدنيًّا، وقد أهديت لقريبك هذا تطوّعًا واختيارًا، فما المانع أن يكون أجره له؟! فهذا يقال في الصيام، ويقال أيضًا في الصلاة إذا أهدى صلاة له، وإن لم يكن ذلك مشهورًا.

وأمّا الصدقات: فلا شكّ في وصولها، سواء كانت من الميّت كالأحباس التي يوصي بها، أو كانت تبرّعًا من الحيّ، فلا شكّ في أنّه يصله أجرها إذا تصدّقت عنه صدقة خاصة، كصدقة الأضحية، وكذلك الصدقة في رمضان بطعام أو لحم أو كسوة على مستحقّ، أو نقود يُنتفع بها، وأهديت أجرها لأخيك أو لأبيك، فإنّه ينتفع بذلك ويصل إليه أجرها. وكذلك كلّ الأعمال الماليّة ونحوها.

أمّا العمل الذي يتكوّن من العمل البدنيّ والمال، مثل: الحجّ، فالبدني: ركوب الحاجّ وتعبه في بدنه وإحرامه وطوافه ووقوفه ورميه، وما أشبه ذلك. أما الماليّ:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

فنفقته في ذهابه وإيابه، وذبيحته التي يذبحها فديةً، هذه أعمال ماليّة. فإن كان هذا المال من الميّت أو من تركته إذا أوصى بها أو نحو ذلك فإنّ أعمال هذا العامل تكون لهذا الميّت؛ لأنه وصل إلى تلك المشاعر بسبب هذا المال، وكأنّه لم يكن يقوى على الوصول إليها لولا ذلك المال، فكان العمل متسبّبًا عن ذلك المال، فكان أجره لصاحب ذلك المال. ولذلك يقولون: تصحّ الاستنابة في الحجّ والأجر للمحجوج عنه الذي دفع المال. والنّاس على هذا.

ونقول تعليقًا على هذا: إنّ الذي يحجّ عن غيره بمالٍ يأخذه، لا يجوز ذلك له إلّا إذا كان عاجزًا عن الحجّ بماله، كالفقير الذي لا يستطيع الوصول إلى الحجّ لفقره، فيأخذ هذا المال ويستعمله ليصل إلى المناسك، فيؤجر على حجّه، ويكون الأجر الأصليّ لصاحب المال.

أمور العقيدة تتعرّض لكلّ شيء فيه خلاف مع المبتدعة، ولو كان من الفروع، ولو كان المخالف فيه مخالفًا لنصٍّ ظاهر، ولو كان المخالفون فيه قليلًا. ومن ذلك: مسألة وصول الثواب إلى الأموات، كالأعمال التي يعملها الأحياء إلى الأموات، ويسمّى: إهداء الأعمال إلى الأموات. وقد ورد ما يدلّ على وصول بعض الأعمال، وخصّها بعضهم بما تسبّب فيه الميّت؛ كقوله ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

فالصدقة الجارية: كالأوقاف والأحباس التي وقفها في حياته، كبناء المساجد، وعمل سبل الماء ينتفع بها ابن السبيل، وبناء المدارس، وكذا الصدقات التي فيها غلاَّت، كوقف ثمار النخيل على الفقراء أو الحجّ أو الجهاد. ونحو ذلك.

وأمّا العلم الذي ينتفع به: فهو الكتب التي كتبها وألّفها، أو العلم الذي علّمه من يوصله إلى النّاس، فإنّه ما دام ينتفع به يأتيه أجر.

وأمّا الولد الصالح: فيعمّ الذكر والأنثى من ذريّته وذريّة ذرّيّته، الذين يدعون له. وأصل الدعاء: سؤال الله للميّت مغفرة ورحمة وثوابًا وتخفيف حساب، ونحو ذلك.

والأحياء يدعون للأموات، وأوّل ما يدعون له في صلاتهم على الجنازة، عندما يقدّم الميت بين يديّ المصلين، فيدعون له بالرحمة والمغفرة، وبتكفير الذنب، وإدخال الجنّة، وما أشبه ذلك. وهو ينتفع بذلك؛ لأنّ هذا من السنّة.

وأما بقيّة الأعمال: فاتفقوا بأنّ من تبرّع بصدقة عن ميّت يصله أجرها، سواء كانت عينًا أو طعامًا أو لحمًا أو كسوة، كل ذلك داخل في قوله ﷺ: «**إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ**». وتلك الصدقة تعمّ ما إذا كان الميّت هو الذي سبّل تلك الأسبال، أو تصدّق بها عنه ذريّته، أي: تبرّعوا عنه بمال يتصدّق بغلّته، فينتفع هو بتلك الصدقة التي تصدّقوا بها عنه، وجعلوا أجرها للميت، ويدخل في ذلك الأضاحي إذا أوصى بها، أو ذبحت عنه، فإنّها من جملة الصدقات.

وأمّا الصدقات الأخرى: فيصل أجرها، فإذا تصدّق عنه ولده أو قريبه، صدقة على فقير أو مسكين، أو ابن سبيل، أو على ذي حاجة، قريب أو بعيد، ثمّ

أهدى أجرها للميّت، نفعه ذلك. وكذلك إذا أطعم الطعام، أو كسا كسوة، ونوى أجرها لميّته، نفعه ذلك؛ لأنّ هذا كلّه من الصدقات التي إذا تبرّع بها ونوى أجرها للميت، وصل أجرها بمجرّد النيّة. ويدخل في ذلك أيضًا الصدقات التي يتبرع بها غير القريب، كأن يتصدّق عنه أحد معارفه؛ لأنّه نفعه، أو لأنّه نفع غيره من المسلمين، فإنّ ذلك يصل إليه.

ولا شكّ أيضًا أنّ الدعاء يصل إلى الأموات أجره، وقد علّمنا النبيّ ﷺ الصلاة على الميّت، والدعاء له، وكذلك فعل ذلك بنفسه، فدعا بهذه الأدعية للميّت، ودعا بالدعاء العام كقوله: «اللهم اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا»[1]. ولولا أنّه ينتفع بذلك لمّا شرع هذا الدعاء، وكذلك الدعاء إذا زار القبور، فقد علّم الصحابة أن يدعوا للأموات: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ من الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إن شَاءَ اللَّهُ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لنا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ»[2]. والسلام وحده دعاء، فيسألون الله لهم السلامة من العذاب، والسلامة من الآفات ونحوها.

وكلّ ذلك دليل على أنّه يصلهم الدعاء؛ لأنّه سؤال من الله، يسأل العبد ربّه

---

(١) أخرجه أبو دود (٣٢٠١)، والترمذي (١٠٢٤)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٥٢)، وابن ماجه (١٤٩٨)، وأحمد (٢/ ٣٦٨)، وابن حبان (٧/ ٣٣٩)، والحاكم (١/ ٣٥٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٤).

أن يرحم الميّت ويتجاوز عنه، فالله تعالى إن استجاب لهذا الدعاء، وصل أجره، ووصل أثره إلى ذلك الميّت، وانتفع بهذا الدعاء، فكان للميّت أجر، وللحيّ الداعي أجر أيضًا، كما يكون إذا دعا للغائب؛ لقوله ﷺ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**»[1]. وكذلك الدعاء للميّت.

كذلك أيضًا بقيّة الأعمال ولو كانت بدنيّة، الراجح أنه يصله أجرها، وقد يُستثنى من ذلك بعض الأشياء التي يكون فيها العمل لغير الله، أو العمل غير الخالص.

فمثلًا: يكثر التساهل في إعطاء الإنسان أجرة على أن يحجّ عن الميت، فهل يصل الثواب إلى المحجوج عنه، أو لا يصل إليه؟

نقول: يختلف ذلك باختلاف حالة الحاجّ الذي أخذ هذا المال ليحجّ به، ننظر في حالته إن كان قصده المال، فلا حجَّ له، وإن كان قصده الحجّ فله حجّ. وكيف يكون قصده المال؟ إذا كان مثلًا: يريد أن يأخذ المال كتجارة، أو كرأس مال، أو يتزوّج به، لا أنّه يريد أن ينفقه في الحجّ حتّى يتيسّر له الحجّ. فالذي يقصده بأخذه المال أن يحجّ، ويقول: أنا عاجز عن الحجّ، وعاجز عن نفقه الحجّ، وأحبّ أن أحج، وأتمنّى أن أقف في تلك المشاعر، وأن تعمّني الرحمة، وأن تنزل عليّ المغفرة، وأكون ممّن يباهي الله بهم الملائكة، وأتذلّل لله تعالى بإظهار الذل والاستضعاف

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٧).

بين يديه، ولكن يعوقني المال، ولا أجده لفقري وفاقتي، فآخذ هذا المال، وأنفق منه على أهلي وولدي، وأنفق منه على سفري وطريقي، ولا أجعل الباقي زيادةً، ولا آخذ إلاّ قدر الكفاية. فمثل هذا يقبل حجّه، ويكون له أجر على حجّه، ويكن للمحجوج عنه أجرُ الحجّة التي هي ما دفعه إليه.

أمّا إذا كان قادرًا على أن يحجّ بماله، وليس له رغبة في الحجّ، ولكن ما أراده هو أن يأخذ هذا المال، ليزيد به ماله إن كان له مال، ولم يكن من الذين يشتاقون إلى الحج، وإلى الوقوف في المشاعر، ولا همّة له في ذلك، إنّما همّته هذا المال الذي بذل له، والذي أخذه، فتراه مثلًا: يكفيه لذهابه وإيابه ألفان، ولكنّه يزاود، ويقول: فلان يعطي خمسة آلاف، وفلان يعطي ثمانية أو ستة أو نحو ذلك، وكأنّه ما يريد هذا الحجّ إلا لهذا المال، فيدخل فيمن يريد الدنيا بعمل الآخرة. ويدخل في قول النبيّ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ**»[1]، أي: أنّه عبد هذا المال؛ لأنّه عمل عملًا صالحًا يُبْتَغَى به وجه الله، ولكنّه لم يعمله إلا ابتغاء هذا الذي عبده وهو المال، فهذا ولو أعطيته عشرة آلاف فأجر حجّته ناقص، ويدخل في الذين ذمّهم الله تعالى بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥]، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فليتفطنّ من يدفع أجر حجّته، وليسأل ذلك الحاجّ: ماذا تريدُ من حجّتك؟ المالَ أو الحجَّ؟ فإن كنتَ تريدُ الحجّ مشتاقًا إليه، فلك أجرك، وإن كنت تريد المال، فلن يكون لك أجر بهذه الحجّة، وخير لي أن أتصدّق بهذا المال على الفقراء والمساكين.

أمّا إن كان هذا الذي يريد أن يحجّ فقيرًا، ونويت بالزيادة أن تتصدّق عليه؛ لكونه من الذين تحلّ لهم الصدقة، فلك أجر على هذه النيّة، ولو كانت نيّته هو غير الحج، ووجدت أنّه قد ينتفع بهذا الحج، وإنما قصده المال، وهو من أهل الاستحقاق، كان للميّت أجر الصدقة، فينتفع الميّت سواءً بأجر الصدقة وأجر الحج.

قال الشارح:

وَالجَوَابُ عَمَّا اسْتَدَلُّوا بِهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]، قَدْ أَجَابَ الْعُلَمَاءُ بِأَجْوِبَةٍ: أَصَحُّهَا جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ بِسَعْيِهِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ اكْتَسَبَ الْأَصْدِقَاءَ، وَأَوْلَدَ الْأَوْلَادَ، وَنَكَحَ الْأَزْوَاجَ، وَأَسْدَى الخَيْرَ وَتَوَدَّدَ إِلَى النَّاسِ، فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ، وَدَعَوْا لَهُ، وَأَهْدَوْا لَهُ ثَوَابَ الطَّاعَاتِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَثَرَ سَعْيِهِ، بَلْ دُخُولُ الْمُسْلِمِ مَعَ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي عَقْدِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي وُصُولِ نَفْعِ كُلٍّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى صَاحِبِهِ، فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَدَعْوَةُ الْمُسْلِمِينَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ.

يُوَضِّحُهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْإِيمَانَ سَبَبًا لِانْتِفَاعِ صَاحِبِهِ بِدُعَاءِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَعْيِهِمْ، فَإِذَا أَتَى بِهِ فَقَدْ سَعَى فِي السَّبَبِ الَّذِي يُوصِلُ إِلَيْهِ ذَلِكَ.

الثَّانِي - وَهُوَ أَقْوَى مِنْهُ -: أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْفِ انْتِفَاعَ الرَّجُلِ بِسَعْيِ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا نَفَى مِلْكَهُ لِغَيْرِ سَعْيِهِ، وَبَيْنَ الْأَمْرَيْنِ مِنَ الْفَرْقِ مَا لَا يَخْفَى، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ إِلَّا سَعْيَهُ، وَأَمَّا سَعْيُ غَيْرِهِ فَهُوَ مِلْكٌ لِسَاعِيهِ، فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَبْذُلَهُ لِغَيْرِهِ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُبْقِيَهُ لِنَفْسِهِ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٨، ٣٩]، آيَتَانِ مُحْكَمَتَانِ، مُقْتَضِيَتَانِ عَدْلَ الرَّبِّ تَعَالَى:

فَالْأُولَى: تَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا بِجُرْمِ غَيْرِهِ، وَلَا يُؤَاخِذُهُ بِجَرِيرَةِ غَيْرِهِ، كَمَا يَفْعَلُهُ مُلُوكُ الدُّنْيَا.

وَالثَّانِيَةُ: تَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ إِلَّا بِعَمَلِهِ؛ لِيَقْطَعَ طَمَعَهُ مِنْ نَجَاتِهِ بِعَمَلِ آبَائِهِ وَسَلَفِهِ وَمَشَايِخِهِ، كَمَا عَلَيْهِ أَصْحَابُ الطَّمَعِ الْكَاذِبِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ: لَا يَنْتَفِعُ إِلَّا بِمَا سَعَى.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة:١٨٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤]، عَلَى أَنَّ سِيَاقَ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَنْفِيَّ عُقُوبَةُ الْعَبْدِ بِعَمَلِ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤].

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ»[1]، فَاسْتِدْلَالٌ سَاقِطٌ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلِ انْقَطَعَ انْتِفَاعُهُ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنِ انْقِطَاعِ عَمَلِهِ. وَأَمَّا عَمَلُ غَيْرِهِ فَهُوَ لِعَامِلِهِ، فَإِنْ وَهَبَهُ لَهُ وَصَلَ إِلَيْهِ ثَوَابُ عَمَلِ الْعَامِلِ، لَا ثَوَابُ عَمَلِهِ هُوَ، وَهَذَا كَالدَّيْنِ يُوَفِّيهِ الْإِنْسَانُ عَنْ غَيْرِهِ، فَتَبْرَأُ ذِمَّتُهُ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ مَا وَفَّى بِهِ الدَّيْنَ.

وَأَمَّا تَفْرِيقُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، فَقَدْ شَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّوْمَ عَنِ الْمَيِّتِ - كَمَا تَقَدَّمَ - مَعَ أَنَّ الصَّوْمَ لَا تُجْزِئُ فِيهِ النِّيَابَةُ، وَكَذَلِكَ حَدِيثُ جَابِرٍ ﵁، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِيدَ الْأَضْحَى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ، فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ[2].

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٦)، وأبو داود (٢٨١٠)، والترمذي (١٥٢١).

وَحَدِيثُ الْكَبْشَيْنِ اللَّذَيْنِ قَالَ فِي أَحَدِهِمَا: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعًا»، وَفِي الْآخَرِ: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ[1]. وَالْقُرْبَةُ فِي الْأُضْحِيَّةِ إِرَاقَةُ الدَّمِ، وَقَدْ جَعَلَهَا لِغَيْرِهِ.

وَكَذَلِكَ عِبَادَةُ الْحَجِّ بَدَنِيَّةٌ، وَلَيْسَ الْمَالُ رُكْنًا فِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ وَسِيلَةٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكِّيَّ يَجِبُ عَلَيْهِ الْحَجُّ إِذَا قَدَرَ عَلَى الْمَشْيِ إِلَى عَرَفَاتٍ، مِنْ غَيْرِ شَرْطِ الْمَالِ. وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ، أَعْنِي أَنَّ الْحَجَّ غَيْرَ مُرَكَّبٍ مِنْ مَالٍ وَبَدَنٍ، بَلْ بَدَنِيٌّ مَحْضٌ، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ الْمُتَأَخِّرِينَ.

وَانْظُرْ إِلَى فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ: كَيْفَ قَامَ فِيهَا الْبَعْضُ عَنِ الْبَاقِينَ؟

وَلِأَنَّ هَذَا إِهْدَاءُ ثَوَابٍ، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ النِّيَابَةِ، كَمَا أَنَّ الْأَجِيرَ الْخَاصَّ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَسْتَنِيبَ عَنْهُ، وَلَهُ أَنْ يُعْطِيَ أُجْرَتَهُ لِمَنْ شَاءَ.

قال الشيخ:

تقدّم أنّ مذهب الجمهور أنّ الميت ينتفع بأعمال الحيّ إذا أهداها إليه، وأنّ هناك بعض المبتدعة الذين أنكروا الانتفاع كليّا، وهناك البعض منهم فرّق بين الأعمال البدنيّة والأعمال الماليّة والأعمال القوليّة، فأوصل ثواب الأعمال القوليّة كالدعاء، والماليّة كالصدقة، ومنع وصول الأعمال البدنيّة كالحجّ والجهاد والصلاة والصوم.

---

(١) في المسند (٦/ ٣٩١) من حديث أبي رافع مولى رسول الله ﷺ.

وأمّا قول الجمهور: فإنّهم يرون وصول الجميع، وانتفاع الميّت بالجميع.

والذين منعوا استدلّوا بقوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٨، ٣٩]، فقالوا: معنى قوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، أي: لا ينفعه إلّا سعيه وعمله، أمّا سعي غيره وعمله، فلا ينتفع به وليس له. هكذا قالوا.

وأجاب العلماء بجوابين:

الأول: أنّ الإنسان إذا اكتسب بأفعاله، وبحسن معاملته الأصدقاء، فكأنّهم له، ينتفع بدعائهم؛ لأنّهم من سعيه وكسبه، وكذلك إذا تزوّج الزوجة فقد اكتسبها، وأنجب الأولاد، فالأولاد أيضًا من كسبه وسعيه، فأصدقاؤه الذين اكتسبهم في حياته، يدعون له فينتفع بدعائهم، وينتفع بصدقاتهم، وكذلك أولاده الذين يدعون له ويتصدّقون عنه، مقابل تربيته لهم، ومقابل برّه بهم، وحنانه وحدبه عليهم، وكذلك زوجاته وبناته ونحو ذلك، كلّهم لما أنّه أسدى إليهم معروفًا، وفعل معهم خيرًا، فإنّ عملهم يكون مقابل ما عمله، فذلك يكون في سعيه وفي كسبه، ويدخل في قوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾.

والثاني: أنّ الآية ليس فيها نفي الانتفاع، ولكن فيها نفي الملك، والمعنى: ليس يملك الإنسان إلا سعيه، أما سعيُ غيره، فإنّه ملك لذلك الغير. فالغير هو الذي يملك عمله، فنقول: أنت الذي تملك دعاءك، وأنت الذي تملك عملك، وأنت الذي تملك صدقتك، وتملك بدنك ومالك، فإذا أهديت لذلك الميّت الذي

بينك وبينه قرابة، وأشركته بعملك وبدعائك وبصدقتك، فقد أهديته له، فينتفع به. وليس في الآية إلا نفي الملكيّة، لا نفي الانتفاع، ولم يقل: ليس للإنسان أن ينتفع إلا بما سعى، بل قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، أي: ليس يملك الإنسان إلا سعيه. وبذلك يعرف أنّ الآية نصّ في أنّ الميت ينتفع، أو ليس فيها نفي الانتفاع بعمل غيره.

وقد ذكرنا الحديث: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ ...**»[1]، أي: عمله البدنيّ؛ انقطع ذكره بلسانه، وانقطع صومه ببدنه، وانقطعت صلاته ببدنه، ولكن لا ينفي أنّ غيره إذا أهدى إليه شيئًا من الأعمال، فإنّه ينتفع بذلك.

وقد ذكروا أنّ الأعمال إمّا أن تكون بدنيّة محضة؛ كالصلاة والصوم وحجّ أهل مكّة إلى عرفة على أقدامهم، فهذا يُعدّ عملًا بدنيًا محضًا، وهناك عمل ماليّ محض كالكفّارات والزّكوات والصدقات، فهذا عمل ماليّ محض. وهناك أعمال قوليّة؛ كالدعاء، والأذكار، والقراءة، والأوراد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك. وهناك أعمال مركّبة من القول والبدن؛ كالصلاة، فإنّ فيها ركوع وسجود وقراءة وأذكار، فهي قوليّة بدنيّة. وهناك أعمال مركّبة من المال والأعمال البدنيّة كالحج؛ إذ فيه الطواف والوقوف بعرفة والسعي، والرمي، والمالي من نفقته على نفسه، وأجرة ركوبه، ونفقه أهله في غيابه، وذبح فديته، وما أشبه ذلك من الأركان الماليّة. وكذا الجهاد، فهو مركّب من المال والبدن، كما قال تعالى:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٢]، فهذا من العمل البدني الواحد.

والأصل أنّ الجميع سواء في إهدائها للميّت، وقد دلّ على الإهداء الماليّ هذه الأحاديث في الأضاحي: قد مرّ بنا أنّ النبيّ ﷺ: ضَحَّى بكبشين. أحدهما عن محمّد وآل محمّد، والثاني: عن أمّة محمد، أو عمّن لم يضحِّ من أمّة محمد. وهذا دليل على أنّهم ينتفعون بهذه الأضحية التي ذبحها عنهم نبيّنا ﷺ، سواء كانوا أحياء أو أمواتًا. فما المانع من أن تكون الأضحية للميّت من جملة الصدقات يصل إليه أجرها، كما يصل إليه أجر الصدقة التي أجراها هو وأوصى بها. فإذا تبرّع له صديقه بأضحية، أو بعض أضحية، استفاد من أجرها.

ومن هذا الحديث أخذوا جواز الاشتراك في الأضحية؛ لأن النبي ﷺ جعلها عمَّن لم يضحِّ من أمّته، ولو كانوا مئات أو ألوفًا، فجعلها مشتركة بينهم. وكذلك التشريك للأحياء، يعني أنّها إذا ذبحها عن أهل بيته، وصل إليهم أجرها، ولو كانوا كثيرًا. ودلّ على أنّهم ينتفعون بعمل غيرهم، وبمال غيرهم. هذا بالنسبة إلى الأعمال الماليّة.

وقد تقدّم قول النبيّ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ**»[1]. مع أنّ الصيام عمل بدنيّ، ولا يخسر الصائم مالًا، إنّما عمله كلّه بدني. وقد يقال مثلًا: إنّ المصلّي يخسر مالًا إذا استأجر من يركبه إلى المسجد، أو إذا اشترى قيمة الوضوء

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

كالماء ونحوه، أو احتاج إلى سترة يستر بها عورته للصلاة، فإنّه يحتاج إلى المال. فإذا صحّ أن يصوم ويهدي صومه للميّت، أو أن يقضي الصيام عن الميّت، إن كان على الميّت صيام كالكفّارة والنذر، وهو بدنيّ محض، فطريق الأولى أن تصحّ بقيّة الأعمال البدنيّة إذا تبرّع بها.

ويُقال هذا أيضًا في الأعمال القوليّة، قياسًا على الدّعاء، فإذا ذكر الله وأهدى ثواب هذا الذكر للميّت، أو ما أشبه ذلك، وصل إليه هذا الأجر.

وكذلك إذا تبرّع الحيّ للميّت بالعمل؛ إلى أبيك أو أخيك أو صديقك وحبيبك الذي له حقّ عليك وله منّة عليك، فأنت تجازيه بأن تضحّي عنه، أو أن تحجّ عنه، أو أن تهديه ثواب عمل لك، أو تتصدّق عنه، فلا شكّ أنّه ينتفع بذلك، ولو كان عمل غيره.

قال الشارح:

وَأَمَّا اسْتِئْجَارُ قَوْمٍ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيُهْدُونَهُ لِلْمَيِّتِ!! فَهَذَا لَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ، وَلَا أَمَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ، وَلَا رَخَّصَ فِيهِ. وَالِاسْتِئْجَارُ عَلَى نَفْسِ التِّلَاوَةِ غَيْرُ جَائِزٍ بِلَا خِلَافٍ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ الِاسْتِئْجَارِ عَلَى التَّعْلِيمِ وَنَحْوِهِ، مِمَّا فِيهِ مَنْفَعَةٌ تَصِلُ إِلَى الْغَيْرِ. وَالثَّوَابُ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَيِّتِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَمَلُ لِلَّهِ، وَهَذَا لَمْ يَقَعْ عِبَادَةً خَالِصَةً، فَلَا يَكُونُ ثَوَابُهُ مِمَّا يُهْدَى إِلَى الْمَوْتَى!! وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: إِنَّهُ يَكْتَرِي مَنْ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيُهْدِي ثَوَابَ ذَلِكَ إِلَى الْمَيِّتِ، لَكِنْ إِذَا أَعْطَى لِمَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُ وَيَتَعَلَّمُهُ مَعُونَةً لِأَهْلِ الْقُرْآنِ عَلَى ذَلِكَ، كَانَ هَذَا مِنْ جِنْسِ الصَّدَقَةِ عَنْهُ، فَيَجُوزُ.

وَفِي الِاخْتِيَارِ: لَوْ أَوْصَى بِأَنْ يُعْطَى شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ لِمَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَلَى قَبْرِهِ، فَالْوَصِيَّةُ بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْأُجْرَةِ، انْتَهَى.

وَذَكَرَ الزَّاهِدِيُّ فِي «الْقُنْيَةِ»[1]: أَنَّهُ لَوْ وَقَفَ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ عِنْدَ قَبْرِهِ، فَالتَّعْيِينُ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَإِهْدَاؤُهَا لَهُ تَطَوُّعًا بِغَيْرِ أُجْرَةٍ، فَهَذَا يَصِلُ إِلَيْهِ، كَمَا يَصِلُ ثَوَابُ الصَّوْمِ وَالْحَجِّ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي السَّلَفِ، وَلَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ؟

---

(١) هو: «قنية المنية لتتميم الغنية»، لأبي الرجاء نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي الحنفي، المتوفى سنة ثمان وخمسين وستمائة. انظر: كشف الظنون (٢/ ١٣٥٧).

فَالجَوَابُ: إِنْ كَانَ مُورِدُ هَذَا السُّؤَالِ مُعْتَرِفًا بِوُصُولِ ثَوَابِ الحَجِّ وَالصِّيَامِ وَالدُّعَاءِ، قِيلَ لَهُ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ وُصُولِ ثَوَابِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؟ وَلَيْسَ كَوْنُ السَّلَفِ لَمْ يَفْعَلُوهُ حُجَّةً فِي عَدَمِ الْوُصُولِ، وَمِنْ أَيْنَ لَنَا هَذَا النَّفْيُ الْعَامُّ؟

فَإِنْ قِيلَ: فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الصَّوْمِ وَالحَجِّ وَالصَّدَقَةِ دُونَ الْقِرَاءَةِ؟ قِيلَ: هُوَ ﷺ لَمْ يَبْتَدِئْهُمْ بِذَلِكَ، بَلْ خَرَجَ ذَلِكَ مِنْهُ مَخْرَجَ الجَوَابِ لَهُمْ، فَهَذَا سَأَلَهُ عَنِ الحَجِّ عَنْ مَيِّتِهِ، فَأَذِنَ لَهُ فِيهِ، وَهَذَا سَأَلَهُ عَنِ الصَّوْمِ عَنْهُ، فَأَذِنَ لَهُ فِيهِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ وُصُولِ ثَوَابِ الصَّوْمِ - الَّذِي هُوَ مُجَرَّدُ نِيَّةٍ وَإِمْسَاكٍ - وَبَيْنَ وُصُولِ ثَوَابِ الْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ؟

قال الشيخ:

يقع في بعض البلاد التي يغمرها الجهل، أو تكثر فيها البدع، إذا مات الميت في اليوم الأول والثاني والثالث، أو في الأسبوع الأول أو الثاني أو الثالث، أنّهم يجمعون عشرة أو عشرين من القرّاء، ويقولون لهم: اقرؤوا القرآن، وأهدوا ثوابه إلى أبينا أو أخينا، ولكم بكلّ جزء تقرؤونه كذا وكذا من المال!! أولئك القراء لم يقرؤوا لله، وإنّما قرؤوا للمال، وإذا كانوا قرؤوا للدنيا والمال، فهل لهم ثواب؟ من قرأ من أجل الدنيا ليس له ثواب، فإن لم يكن له ثواب، فماذا للذي يهدونه؟ ليس له شيء؛ لأنها قراءة لأجل الدنيا، وليست لأجل الله ولا الثواب.

فلأجل ذلك يقال: هذا من البدع، ثم هو من الضياع، ثم هو من إقرار الشرك، فإنّ هذا الذي قرأ عمل عملًا أخرويًا لأجل الدنيا، فيدخل فيمن أراد

الدنيا بعمل الآخرة. فهذا لا يجوز.

فلو طلب منك شخص أن تقرأ ختمة من القرآن وتجعل ثوابها لوالده أو والدته مقابل مبلغ من المال، فلا تفعل؛ لأنّك تكون قد قرأت القرآن لأجل هذا المال، لا لأجل الله، ولا لأجل الحسنات، فقد عملت لأجل الدنيا عملًا أخرويًا.

فأولًا: مثل هذا لم يفعله السلف، ولم ينقل عن الصحابة والتابعين والأئمّة الأربعة.

وثانيًا: فيه هذا المقصد السيىء، الذي هو العمل لأجل الدنيا، مع أنّ العمل من الأعمال الصالحة، فلا يكون للميّت أجر على هذا. بخلاف ما إذا قرأت ختمة أو جزءًا أو أجزاء وقلت: اللهمّ اجعل ثوابها لوالدي أو لوالدتي، أو لجدي أو لعمّي، فلا مانع من وصول الأجر؛ لأنّك ما قرأت من أجل الدنيا، ولكن قرأت من أجل الآخرة، عملت عملًا أخرويًا، ثمّ تبرّعت به لقريبك المتوفّى فلا مانع من وصول الثواب إليه.

ويدلّ على ذلك أن النبي ﷺ سُئل عن الحجّ عن الميّت، أو الحجّ عن العاجز، فأقرّ ذلك؛ كما ورد في حديث الخثعميّة التي قالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ على عِبَادِهِ في الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أبي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ على الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عنه؟ قال: «نعم»[1]. فهذا دليل على جواز الحجّ عن الأب ونحوه.

كذلك المرأة التي قالت: إنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عنها؟

(١) أخرجه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: «أَرَأَيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ»[1]. أمرها بأن تقضي الصوم عن والدتها؛ لأنّه دَيْن لله، كما يُقضى الدَّين المالي عن العباد، فدَيْن الله أحقّ بالوفاء.

وكذلك أمر بالصدقة، لَـمَّا جاءه رجلٌ وقال: إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»[2].

فهذه الأعمال أقرّها، ومع ذلك لم ينفِ غيرها، بل ظاهره أنّ ما يشبهها يلحق بها، فيلحق بذلك بقيّة الأعمال بدنيّة أو ماليّة.

وقد مرّ بنا أنّهم اختلفوا في التّعليم بأجرة، وهو تعليم القرآن: كمن استأجر من يعلّم ولده، وذلك لأنّ ذلك أجرة على التلقين، وعلى التعب؛ فالذي يعلّم الأطفال لا شكّ أنّه يبذل جهدًا، ويقطع وقتًا، ويتعب نفسه في تلقين هذه الآية، وفي تصحيح هذا الخطأ، ولذلك فالتعليم يعد عملًا. ولهذا أقرّ النبيّ ﷺ الذين أخذوا الأجرة على الرقية، فقد مرَّ نَفَرٌ من أَصْحَابِ النبي ﷺ بِمَاءٍ فِيهِمْ لَدِيغٌ، فَعَرَضَ لهم رَجُلٌ من أَهْلِ المَاءِ، فقال: هل فِيكُمْ من رَاقٍ؟ إِنَّ في المَاءِ رَجُلًا لَدِيغًا، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ منهم فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ على شَاءٍ، فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إلى أَصْحَابِهِ، فَكَرِهُوا ذلك، وَقَالُوا: أَخَذْتَ على كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا؟ حتى قَدِمُوا المَدِينَةَ، فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَ على كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «إن أَحَقَّ ما

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٦٠).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

أَخَذْتُمْ عليه أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ»[١]. فأقرّهم على ذلك، وقال في رواية أخرى: «قد أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لي مَعَكُمْ سَهْمًا»[٢]، تطييبًا لنفوسهم. فيعدّ أخذ الأجر على تعليم القرآن كسائر أنواع التعليم، وقد ثبت أنّه ﷺ: جعل تعليم القرآن قائمًا مقام المهر قائلًا: «قَدْ زَوَّجْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ من الْقُرْآنِ»[٣]. كذلك يقال في تعليم بقيّة العلوم: يجوز أخذ الأجرة على التعليم؛ لأنّه مقابل التعب، ومقابل التلقين، وما أشبه ذلك. بخلاف العمل الذي يعمله لله تعالى، والذي يبتغي الأجر به.

وتقدّم أنّ النبيّ ﷺ نهى عن أخذ الأجرة على الأذان، فقال: «وَاتَّخِذْ مُؤَذِّنًا لَا يَأْخُذْ عَلَى أَذَانِهِ أَجْرًا»[٤]. ومنعوا أخذ الأجرة على الأعمال التي يختصّ صاحبها أن يكون من أهل القربة، وإنّما رخّصوا فيما يبذل من بيت المال، مقابل الالتزام بتلك الأعمال، كعمل الحسبة، وعمل الإمامة، والخطابة، والدعوة، ونحو ذلك. فلا يدخل ما يبذل لهم من بيت المال، في أنّهم عملوا عملًا صالحًا مما يُبتغى به وجه الله، ولم يعملوه إلّا للدنيا.

وبكلّ حال، فإهداء الأعمال التي يتبرّع بها صاحبها يصل أجرها بإذن الله إن لم يكن عاملها قد أخذ عليها أجرًا.

---

(١) أخرج البخاري (٥٧٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٣١)، والترمذي (٢٠٩)، والنسائي (٦٧٢)، وأحمد (٤/ ٢١)، والحاكم (١/ ١٩٩)، والبيهقي (١/ ٤٢٩) من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ.

نقول: إنّ مسألة إهداء الأعمال إلى الميّت وانتفاع الميّت بها تلحق بالأمور العقديّة؛ لأنّها: أولًا خالف فيها المبتدعة، وثانيًا أنّها من الأمور الغيبيّة؛ لأنّ الأموات في عالم غير عالمنا، في برزخ بين الدنيا والآخرة، وانتفاعهم بها غيب عنّا، لا ندري ولا يظهر لنا وجه الانتفاع جليًا، ولأجل ذلك اعتمدنا فيه على الدليل، والأدلّة التي اعتمدنا عليهم وإن لم تكن قطعيّة الثبوت، لكنّها ظنّيّة أو غالبيّة، فلأجل ذلك جعل هذا الباب في باب العقائد. وتقدّم ذكر الأمثلة، وكذلك ذكر الخلاف، والجواب عمّا استدلّ به المخالف، وذلك لأنّ المخالفين من المبتدعة اعتمدوا على الآية التي في سورة النجم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]، فقالوا: ليس للإنسان إلا ما سعى، وليس له إلا عمله.

وأجيب بأنّ الإنسان اكتسب الأصدقاء والأقارب ونحوهم، فاكتسابه هذا يعتبر من سعيه، فإذا تصدّقوا عنه أو دعوا له أو حجّوا عنه، فذلك من آثار سعيه وكسبه؛ لأنه أحسن في حياته إلى أصدقائه وأقاربه، فأحسنوا إليه بعد موته جزاءً له على إحسانه لهم في حياته.

وأجيب أيضًا: بأنّ الآية في ملكيّة الإنسان لعمله وكسبه، ولا يملك سعي غيره وعمله ولو كان من أقرب الأقارب له، لكن إذا تبرّع به كان ملكًا لمن تُبُرِّعَ له به، ويقاس ذلك على المال الذي تكتسبه فهو ملكك، ولكن متى تبرّع لك صديقك بمال، أو أعطاك عطيّة، وسمحت بها نفسه، فإنّك تملك تلك الهدية، وتدخل في ملكك، وتنتقل من ملكه، وكذلك إذا عمل عملًا صالحًا، كحجّ

وجهاد وصدقة ودعاء ونحو ذلك، وأهداه إلى فلان الميّت أو الحيّ، وجعل ثوابه له، فهذا في منزلة الهبة والعطيّة، ويصبح ثواب هذا العمل له بمنزلة مال الهديّة الذي يدخل في ملكه.

وأمّا الحديث الذي استدلّوا به وهو قول النبيّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1]. فهذا أيضًا ظاهر الدلالة، ولكن ليس المراد أنّه لا ينتفع إلا بهذه الثلاثة، ولكن المراد أنّه لا يجري عليه ولا يملك إلا هي، ولكن متى تبرّع له ولده أو غيره بشيء فهو له، وكذلك إن تبرّع له صديقه بحجّة عنه، أو صدقة عنه، أو بجهاد أهدى ثوابه إليه، فما المانع من وصولها إليه؟ ولا شكّ أنّ ذلك يصل إليه.

وقد اتّفق المسلمون على أنّه ينتفع الميت بصلاتهم عليه ودعائهم له، وزيارته في قبره، والدعاء له، فالأموات ينتفعون من دعوات الأحياء بأشياء كثيرة، تنوّر عليهم في قبورهم، وتزيد في حسناتهم، وتخفف من خطاياهم، ولولا ذلك لما تصدّق أحد عن أبويه، ولا تقرّب عنهما بشيء. وهذا ظاهر والحمد لله في أنّه ينتفع بما يهدى إليه من الأعمال.

وقد مرّ بنا الخلاف في إهداء الأعمال البدنيّة والانتفاع بها؛ كالصلاة والصوم الذي هو عمل بدنيّ محض، وقد ذكر بعضهم أنّه لا ينتفع أحد بذلك من صلاة أو

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

صيام أو حج، واستدلوا بأثر ابن عباس - رضي الله عنهما -: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ»(١)، ولكن وردت الأدلّة في الانتفاع بالصوم في قوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»(٢). ولَـمَّا جاءت امرأة وقالت: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عنها؟ قال: «أَرَأَيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ»(٣). فأمرها بأن تصوم عن أمها، وسواء أكان هذا الصوم فرضًا أم نذرًا، فإنّه أقرّها عليه، بل أمرها بذلك، وشبّهه بقضاء الدين.

وعلى هذا فمعنى قوله: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ»، أي: لا يصلي أحد عن أحد وهو قادر، أي: لا يوكّل أحد أخاه أن يصلّي عنه فيقول: صلِّ عني صلاة المغرب أو العشاء، أو أن تصوم عنّي هذا اليوم من رمضان وهو قادر، فهذا لا يجوز؛ لأنّ العبادة وجّهت إلى الإنسان القادر، ولذلك لا يجوز له أن يُنيب غيره، أو أن يوكّل من يعمل عنه ذلك العمل وهو قادر؛ لأنّ الحكمة في هذه العبادة ظهور العبوديّة على الفرد، فأنت أيّها العبد مكلّف أن تعبد الله، وهذه العبادة موجّهة إليك، ولا بدَّ أن تظهر آثارها عليك، فالصلاة فُرضت على كلّ

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٤٦٠).

مكلّف، ولا يجوز أن يوكّل عنه، فإنّ تذلّل المصلي يفوت بالتوكيل، المصلّي يتذلّل ويخشع ويتواضع، ويظهر عليه الخشوع بين يدي ربّه، وهذا لا يكون له إذا وكّل من يصلّي عنه، فلا ينتفع بهذه الصلاة، ولا يحصل له بها تذلّلٌ ولا خشوع ولا تضرّع ولا مسكنة بين يدي ربّه.

وكذلك الصيام، شُرع للامتثال بترك الشهوة لله سبحانه، وترك الطعام والشراب وزوجته لأجل امتثال أمر الله، فإن وكّل من يصوم عنه، ولو كان ولده، فأكل والنّاس ينظرون في رمضان مثلًا، كان غير متقبّل لأمر الله، ولم يُجزئ عنه توكيله، بل لأجل ذلك قالوا: لا يوكّل في العبادات البدنيّة، التي الحكمة منها إظهار الاستكانة والخضوع بين يدي الرّبّ.

ويلحق بذلك حجّ الفريضة للقادر، فإذا كان الإنسان قادرًا على الحجّ بالبدن وبالمال، فإنّه في هذه الحالة يكلّف بفعله، ولا يوكّل فيه، ولا ينيب فيه حتّى ولو من ماله؛ لأنّ الحكمة تقتضي الأمرين، تقتضي إنفاق المال في هذا السبيل، وتقتضي عمله ببدنه هذه المناسك، والأصل هو الأعمال التي كلّف بها، والمراد من شرعيّة الحجّ أن يظهر أثر هذه الأعمال على المكلّف، ولا يحصل إذا وكّل غيره، فمثلًا الحاجّ إذا أحرم خضع وخشع، وتمسكن لله، بلباسه الذي فيه تجرّد عن لباسه المعتاد، ولا تحصل له هذه المسكنة إذا وكّل غيره؟ وإذا أخذ يطوف حول البيت العتيق، يحصل له استضعاف وتذلّل، ويحصل له دعاء وتضرّع، ويحصل له إخبات بين يديّ ربه، وهذا لا يحصل له إذا وكّل من يحجّ عنه ! وكذلك إذا وقف بعرفات وقف وهو خائف راجٍ، وهو ذليل متواضع، وهو خاضع رأسه متذلل

لربّه، هل تحصل هذه الحالة إذا وكّل من ينوب عنه؟ فالحجّ في الأصل هو العبادة البدنيّة. وعرفنا أنّه يتركب من المال والبدن، ولكن قد يكون بدنيًا محضًا؛ كالمكيّ الذي لا يقدر على أن يستأجر دابّة أو سيارة يركبها، ولكنّه يقدر أن يمشي إلى عرفات وإلى منى ومزدلفة، يكون مكلّفًا بأن يحجّ ولا يسقط عنه الحجّ، وحجّه بدنيّ ليس فيه شيء من المال؟ فدلّ على أنّ الأصل في العبادة تحريك هذا البدن في طاعة الله، ومن أجل ذلك لم يصحّ أن يوكّل فيه، ولكن إذا حجّ فرضه مع القدرة، ثم تبرّع له ولده، أو تبرّع له أخوه، بأن أدّى عنه حجّة أخرى، وأهداها إليه، أو طاف عنه طواف تطوّع، فلا شكّ أنّه ينتفع بذلك، ولو كان قادرًا.

أمّا إذا عجز عن الحجّ: إمّا لعيب في بدنه أو لقلّة في ماله، أو للصعوبة والمشقّة بينه وبين الحرم، فهو معذور إن وكّل غيره، أو قام غيره مقامه في هذا العمل، أو تبرع له متبرّع.

عرف بذلك الفرق بين العبادات البدنيّة المحضة، وهي الصلاة والحجّ لمن هو في مكّة، وكذلك الجهاد إذا كان في البلد بالبدن، فمثل هذا يكون مكلّفًا إن كان فرضًا، أما إن كان تطوّعًا فأهدي إليه، فلا مانع من أن ينتفع به.

أمّا الأعمال الأخرى، فإنّها تدخلها النيابة، ففي الأذكار، يصح أن يفعلها، ثمّ يهديها إلى أخيه أو قريبه. وكذلك الدعاء، فالإنسان مأمور أن يدعو لأقاربه، أو للمسلمين عمومًا، وكذلك الصدقات، إذا تصدّق عن قريبه حيًّا أو ميتًا، فإنّه ينتفع بذلك، وهكذا بقيّة الأعمال.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: مَا تَقُولُونَ فِي الْإِهْدَاءِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

قِيلَ: مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مَنِ اسْتَحَبَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَآهُ بِدْعَةً؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُونَهُ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ كُلِّ مَنْ عَمِلَ خَيْرًا مِنْ أُمَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَيِّتَ يَنْتَفِعُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَهُ، بِاعْتِبَارِ سَمَاعِهِ كَلَامَ اللَّهِ، فَهَذَا لَمْ يَصِحَّ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمَشْهُورِينَ. وَلَا شَكَّ فِي سَمَاعِهِ، وَلَكِنَّ انْتِفَاعَهُ بِالسَّمَاعِ لَا يَصِحُّ، فَإِنَّ ثَوَابَ الِاسْتِمَاعِ مَشْرُوطٌ بِالْحَيَاةِ، فَإِنَّهُ عَمَلٌ اخْتِيَارِيٌّ، وَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِهِ، بَلْ رُبَّمَا يَتَضَرَّرُ وَيَتَأَلَّمُ؛ لِكَوْنِهِ لَمْ يَمْتَثِلْ أَوَامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، أَوْ لِكَوْنِهِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ الْخَيْرِ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْقُبُورِ، عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: هَلْ تُكْرَهُ، أَمْ لَا بَأْسَ بِهَا وَقْتَ الدَّفْنِ، وَتُكْرَهُ بَعْدَهُ؟

فَمَنْ قَالَ بِكَرَاهَتِهَا - كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَأَحْمَدَ فِي رِوَايَةٍ - قَالُوا: لِأَنَّهُ مُحْدَثٌ، لَمْ تَرِدْ بِهِ السُّنَّةُ، وَالْقِرَاءَةُ تُشْبِهُ الصَّلَاةَ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَ الْقُبُورِ مَنْهِيٌّ عَنْهَا، فَكَذَلِكَ الْقِرَاءَةُ.

وَمَنْ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهَا - كَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، وَأَحْمَدَ فِي رِوَايَةٍ - اسْتَدَلُّوا بِمَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أَنَّهُ أَوْصَى أَنْ يُقْرَأَ عَلَى قَبْرِهِ وَقْتَ الدَّفْنِ بِفَوَاتِحِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَخَوَاتِمِهَا. وَنُقِلَ أَيْضًا عَنْ بَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ قِرَاءَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَمَنْ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهَا وَقْتَ الدَّفْنِ فَقَطْ - وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ - أَخَذَ بِمَا نُقِلَ عَنْ عُمَرَ وَبَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ.

وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ، كَالَّذِينِ يَتَنَاوَبُونَ الْقَبْرَ لِلْقِرَاءَةِ عِنْدَهُ، فَهَذَا مَكْرُوهٌ، فَإِنَّهُ لَمْ تَأْتِ بِهِ السُّنَّةُ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ مِثْلَ ذَلِكَ أَصْلًا. وَهَذَا الْقَوْلُ لَعَلَّهُ أَقْوَى مِنْ غَيْرِهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّوْفِيقِ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ.

قال الشيخ:

أما ما يتعلّق بالإهداء إلى رسول الله ﷺ، فقد بيّن الشارح - رحمه الله - الحكم فيه، وذكر أنّه لا يشرع أن تعمل عملًا وتقول: أجره لرسول الله ﷺ، سواء أكان قراءةً أم ذكر أم جهادًا، أم غير ذلك.

واحتجّ بدليلين:

الأول: أنّه لم يفعل في عهد النبيّ ﷺ، ولا في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فلم يكن أحد من الصحابة يعمل عملًا ويقول: أجره لرسول الله ﷺ. ولوَ كان خيرًا لسبقونا إليه؛ لأنّهم أعرف به، وأعرف بما يكون في شريعته، وهم الذين يحبّونه ويؤثرونه على أنفسهم، وهم الذين صحبوه، وأحبّوه، وقاتلوا معه، وعرفوه، وتلقّوا عنه السنّة، وهم الذين يقدّمون محبّته على كلّ محبّة، ويفدونه بأنفسهم، فكيف لم يهدوا إليه ثواب صلاة ولا صدقة ولا غير ذلك من الأعمال؟ إلاّ ما روي عن عليّ ﷺ، أنّه ضحّى بكبشين، وقال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْصَانِي

أَنْ أُضَحِّيَ عنه، فَأَنَا أُضَحِّي عنه»[(١)]، ولو أنّ الحديث فيه ضعف.

وعلى كلّ حال، فهذا دليل واضح على عدم إهداء السلف للرسول ﷺ.

والدليل الثاني: أنّه ﷺ لا حاجة به إلى إهداء تلك الأعمال؛ لأنّ الله سبحانه، يكتب له مثل عمل العاملين من أمّته، مهما كثر العاملون، ومهما كثرت الأعمال، فقد ثبت أنّه ﷺ قال: «**من دَعَا إلى هُدًى كان له من الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ من تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذلك من أُجُورِهِمْ شيئًا، وَمَنْ دَعَا إلى ضَلَالَةٍ كان عليه من الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ من تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذلك من آثَامِهِمْ شيئا**»[(٢)]. وقال: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**»[(٣)]. أليس نبيّنا ﷺ هو الذي دلّ على الإسلام، وهو الذي دلّ على الحسنات والصالحات، وهو الذي دلَّ على الصلات والقربات، وهو الذي دلَّ على الخيرات كلِّها وحذَّر عن الشرور؟

فأنت متى صلّيت صلاة، كتب لك أجرها تامًّا، وكتب له ﷺ مثل أجر تلك الصلاة، وإذا جاهدت كتب لك أجر جهادك كاملًا، وكتب مثله للنبيّ ﷺ؛ لأنّك اهتديت بدعوته، وإذا دعوت الله، أو ذكرته، أو قرأت في كتاب الله عزّ وجلّ،

---

(١) أخرجه أبوداود (٢٧٩٠)، والترمذي (١٤٥٩)، وأحمد (١/ ١٠٧)، والحاكم (٤/ ٢٢٩)، والبيهقي (٩/ ٢٨٨). قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٣/ ٩٤): «وفي إسناده حنش بن ربيعة، وهو غير حنش بن الحارث، وهو مختلف فيه، وكذا شريك القاضي النخعي، وقال ابن القطان: فيه أبو الحسناء لا يُعرف حاله».

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٣٣٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

كُتب لك أجرك تامًّا، وكتب للنبيّ ﷺ مثله.

إذًا، فهذا فضل الله له، فلا حاجة أن يُهدى إليه ما دام أنّ الله ـ عزّ وجل ـ قد أعطاه.

وأيضًا فأنت أحوج إلى عملك؛ لأنّه عليه السلام قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، أمّا أنت فإنّك بحاجة للأسباب التي تغفر بها خطاياك، وتمحى بها سيّئاتك، ويثقل بها ميزانك، فأنت أحوج إلى عملك، وهو غنيّ عن إهدائك، وأنت تترك حاجتك؟! هذا فيه شيء من الخطأ والغلط.

أمّا المسألة الثانية: فهي القراءة عند القبور. وقد مرّ بنا أنّ فيها ثلاث روايات عن الإمام أحمد: رواية: أنّه يجوز وقت الدفن فقط، ورواية: أنّه يجوز مطلقًا، ورواية: أنّه لا يجوز مطلقًا؟ والأرجح أنّه لا يجوز قصد القبور والدعاء والقراءة عندها، كما لا يجوز أن تقصد للصلاة عندها. وثبت أن النبيّ ﷺ نهى أن تتخذ القبور مساجد، فقال: «**أَلا وَإِنَّ من كان قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، ألا فلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إني أَنْهَاكُمْ عن ذلك**»[1].

وثبت عنه ﷺ أنّه: نهى عن الصلاة في المقبرة، في أحاديث كثيرة، وقال ﷺ: «**لَا تُصَلُّوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا**»[2].

والعلة في النهي عن الصلاة في المقبرة: مخافة الغلوّ، أو اعتقاد أن الذي يدعو

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبدالله ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي ﷺ.

عند القبر أو يصلي أو يقرأ، يعظم أجره، وأنّ أهل القبور يتسبّبون في رفع عمله، ومضاعفته وقبوله. ويكون ذلك وسيلة وذريعة إلى الاعتقاد في صاحب ذلك القبر.

ومعلوم أنّ الاعتقاد في أن أصحاب القبور ينفعون ويشفعون، ويرفعون الأعمال الصالحة ونحو ذلك، اعتقاد في مخلوق قد انقطع عمله، واعتقاد في مخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملك لغيره؟ فيكون ذلك من وسائل الشرك، وهو الواقع، فإنّ الذين صاروا يعظّمون القبور، ويطوفون بها، ويعكفون حولها، ويقرؤون عندها، كانت نهايتهم أن عبدوا تلك القبور، وخُيّل لهم أنّ أصحابها من الأولياء.

وكان أوّل ما عملوه أنّهم تردّدوا إلى ذلك القبر لمجرّد الزيارة، ثم بعد ذلك ظنّوا أنّ الأعمال عنده أفضل منها عند غيره، ثم صاروا يفضلون الصلاة عند القبر على الصلاة في المسجد، ويفضّلون القراءة عند القبور على القراءة في المسجد، ويفضّلون الدعاء عند القبور، عليه في المساجد، ثم اعتقدوا أنّ للقبور تأثيرًا، وأنّ للأموات تأثيرًا، وأنّ الأموات يضاعفون الأعمال، أو يرفعونها، ثم زاد الأمر إلى أن أصبحوا ينادون الميّت ويهتفون باسمه، ويقولون مثلًا: يا عيدروس، يا عبدالقادر، يا نقشبندي، يا جيلاني، أو ما أشبه ذلك من الأسماء التي أصبحوا يعتقدون فيها.

إذًا الصواب: هو المنع مطلقًا من قصد القبور للقراءة عندها، ولعلّ الدليل عليه أنّه قولُ الجمهور، وهو قول أبي حنيفة، ومالك، وأحمد في الرواية المشهورة

عنه، وكذا عند أصحابه، ورجّحها المحقّقون؛ كابن تيميّة وغيره، فذكروا أنّه: لا تجوز القراءة عند القبور بأيّ سبب، وبأيّ نيّة، وبأيّ معتقد، مخافة أن تكون وسيلةً إلى دعاء الأموات والاعتقاد فيهم.

وأما ما نقل عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ بأنّه أمر أن تقرأ عنده فواتح سورة البقرة وخواتيمها:

فأولًا: قد تكون الرواية عنه غير صحيحة ولا ثابتة؛ لأنّها لم تشتهر ولم يشتهر العمل بها.

وثانيًا: لعلّه أراد في حالة الدفن، أن يكون ذلك بمنزلة الدعاء، فإنّ الدعاء للميت عند القبر مشروع، كما كان النبيّ ﷺ إذا مات الميت ودفنه، قام على قبره وقال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ**»[1]. يكون ذلك من باب الدعاء له؛ لأنّ هذه الآيات فيها دعاء مثل قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فكأنّه أراد أنّكم تدعون بها، فتقرؤونها وتجعلونها دعاء له، فلا يكون القصد منها القراءة، بل الدّعاء له، سواء قبل الدفن أو بعده، وسواء اعتقد أنّه ينتفع بهذه القراءة، أو أنّ القارىء ينتفع بهذه القراءة. فالقول بأنّه ينتفع بها. هذا فيه نظر؛ لأنّه لو كان مباحًا لفعله الصحابة رضوان الله عليهم.

وأيضًا القراءة في المساجد وإهداء ثوابها له أكثر أجرًا من القراءة عند القبور،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٤).

فإنّ المساجد مأمور بالقراءة فيها، والقبور منهيّ عن الصلاة عندها، فالدّعاء في المساجد أفضل من الدعاء عند القبور، وكذلك الصلاة في المسجد مأمور بها، ومنهيّ عنها عند القبور. فعرف بذلك أنّ القول الصواب هو قول الجمهور، وهو: أنّه لا يقصد القبر للقراءة عنده، بل إذا أراد أن يهدي للميت قراءة أو ذكرًا، قرأها عند أهله، أو في بيته ونحو ذلك. أمّا أن يقصد القبر ويتحرّاه، فهذا لم يكن مشروعًا، فلا يكون جائزًا.

والمسلم عليه أن يتَّبعَ الدليل، وعليه أن يأخذ بقول جماهير الأمّة، ويترك الأقوال الشاذّة، ولو رويت عن بعض العلماء، ونحن نحسِّنُ الظنّ بهم، ونقول:

أولًا: إنّهم مجتهدون، وليس كلّ مجتهد بمصيب.

ثانيًا: أنّهم ولو كان عندهم شيء من الاجتهاد ونحوه، فإنّهم عرضة للخطأ.

ثالثًا: لم يكن عندهم من الاعتقاد ما عند من بعدهم، بل هم مأمونون أن يقع فيهم هذا الخطأ. والدليل على ذلك: أنّهم لم يقع منهم الغلوّ الذي وقع من المتأخرين في القرن الثامن، وإلى القرن الثالث عشر في هذه البلاد، بل إلى هذا القرن في كثير من البلاد، سبّب غلوّهم في هذه القبور دعاؤها من دون الله، بل وأصبحوا يعتقدون تلك القبور آلهة مع الله، وسبب ذلك تساهل علمائهم بقصدهم لهذه القبور، فاقتدى بهم السفهاء، واعتقدوا أنّ صاحب القبر له تأثير، فكان ذلك الشرك بالله صريحًا أو وسيلة من وسائل الشرك.

قال الطحاوي:

وَاللَّهُ تَعَالَى يَسْتَجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيَقْضِي الحَاجَاتِ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ الخَلْقِ مِنَ المُسْلِمِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ المِلَلِ وَغَيْرِهِمْ: أَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَقْوَى الأَسْبَابِ فِي جَلْبِ المَنَافِعِ وَدَفْعِ المَضَارِّ، وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ إِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ دَعَاهُ لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا. وَإِجَابَةُ اللَّهِ لِدُعَاءِ الْعَبْدِ، مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، وَإِعْطَاؤُهُ سُؤْلَهُ، مِنْ جِنْسِ رِزْقِهِ لَهُمْ، وَنَصْرِهِ لَهُمْ. وَهُوَ مِمَّا تُوجِبُهُ الرُّبُوبِيَّةُ لِلْعَبْدِ مُطْلَقًا، ثُمَّ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِتْنَةً فِي حَقِّهِ وَمَضَرَّةً عَلَيْهِ، إِذْ كَانَ كُفْرُهُ وَفُسُوقُهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ. وَفِي «سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[1]. وَقَدْ نَظَمَ بَعْضُهُمْ هَذَا المَعْنَى، فَقَالَ:

الرَّبُّ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ   وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ[2]

---

(١) أخرجه بلفظه: الترمذي (٣٣٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٩٩)، وأخرجه بنحوه: أحمد (٢/ ٤٤٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٢).

(٢) ذكره الخطابي في كتابه العزلة (ص٦٧) ونسبه إلى الخزيمي.

قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: قَدْ نَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الدُّعَاءِ، وَفِي ذَلِكَ مَعَانٍ:

أَحَدُهَا: الْوُجُودُ، فَإِنَّ مَنْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ لَا يُدْعَى.

الثَّانِي: الْغِنَى، فَإِنَّ الْفَقِيرَ لَا يُدْعَى.

الثَّالِثُ: السَّمْعُ، فَإِنَّ الْأَصَمَّ لَا يُدْعَى.

الرَّابِعُ: الْكَرَمُ، فَإِنَّ الْبَخِيلَ لَا يُدْعَى.

الْخَامِسُ: الرَّحْمَةُ، فَإِنَّ الْقَاسِيَ لَا يُدْعَى.

السَّادِسُ: الْقُدْرَةُ، فَإِنَّ الْعَاجِزَ لَا يُدْعَى.

وَمَنْ يَقُولُ بِالطَّبَائِعِ يَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ لَا يُقَالُ لَهَا: كُفِّي! وَلَا النَّجْمُ يُقَالُ لَهُ: أَصْلِحْ مِزَاجِي!! لِأَنَّ هَذِهِ عِنْدَهُمْ مُؤَثِّرَةٌ طَبْعًا لَا اخْتِيَارًا، فَشَرَعَ الدُّعَاءَ وَصَلَاةَ الِاسْتِسْقَاءِ؛ لِيُبَيِّنَ كَذِبَ أَهْلِ الطَّبَائِعِ.

قال الشيخ:

هذا بحث جديد يتعلّق بحكم الدعاء، وبشرعيّته من العبد لربّه، وبفائدة الدعاء. فذكر أنّ الله تعالى يجيب من دعاه، ويعطي من سأله، وأنّه سبحانه يفرح بدعاء الداعي، وأنّه يستجيب دعوتهم.

ذكر أنّ المشركين قبل الإسلام كانوا يدعون الله، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧]، أي: ذهبت عنكم آلهتكم، وأصنامُكم، ومن تعبدون من دون الله، ولم تتذكروا إلَّا الربّ تعالى، الذي

تعلمون أنّه لا يجيب دعوتكم في مثل هذا الحال من الضرورة والضيق إلَّا الله سبحانه وتعالى. ويقول في آية أخرى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]؛ دعوا الله في حالة ما يكونون على خطر الهلاك. ويقول في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان:٣٢]؛ والموج تدفعه الريح، فيرتفع فوق مستوى البحر، فإذا جاءت الأمواج إلى السفينة اضطربت، وكادت أن تغرق، فإذا رأوا الأمواج تضربُ السفينة، خافوا من الهلاك، ورفعوا أيديهم وقالوا: يا ربِّ أنجنا من الهلاك، فلا يذكرون إلّا الله.

إذًا: الله تعالى يستجيب لهم مع أنّهم كفّار؛ لأنّهم أخلصوا له الدّعاء، والمسلمون أولى بأن يدعوا الله في الضُّرِّ والشدَّة والرّخاء، والله سبحانه يحبّ من يدعوه، ويبغض من لم يدعُه. وقد مرّ معنا الحديث الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ».

ما نحبّ أن يغضب الله علينا، بل نريد رضاه، ورضاه يتوقّف على المسألة والدعاء، نستعينه عند العجز، ونستنصر به عند الخوف، نطلب منه أن يؤمّننا، وأن يقوّينا، ويغنينا، ويعزّنا، ويغفر لنا، ونطلب منه كلّ حاجاتنا، ونرغب عن غيره من ذكر أو أنثى، ونجعل رغبتنا إليه سبحانه. وقد قال الشاعر:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

الرَّبُّ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

يقول بعضهم: لو أنّك مشيت مع إنسان، وأنت كلّ ساعة تقول له: أعطني حفنة تراب، أليس يغضب منك ويَمَلّ، ويقول: أتعبتني! لا شكّ أنّ ذلك يكلّفه أن ينحني ويناولك التراب. فبنو آدم لو سُئلوا ترابًا لَمَلّوا، فكيف إذا سُئلوا شيئًا يملكونه، أو لهم فيه نفع؟

فلذلك على الإنسان أن يعلّق رجاءه بربّه، ويطلب منه حاجاته كلّها، ولا يسأل غيره. يقول بعضهم[1]:

لَا تَجْلِسَنَّ بِبَابِ مَنْ ... يَأْبَىٰ عَلَيْكَ دُخُولَ دَارِهِ
وَتَقُولُ حَاجَاتِي إِلَيْهِ ... يَعُوقُهَا إِنْ لَمْ أُدَارِهْ
وَاتْرُكْهُ وَاقْصُدْ رَبَّهَا ... تُقْضَىٰ وَرَبُّ الدَّارِ كَارِهْ

إذا قصدت الرّبّ سبحانه وتعالى، وأنت صادق مخلص قضيت حاجتك، سواء كانت متعلّقة بإنسان، أو متعلّقة بما بينك وبين الرّبّ.

حكي أنّ إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ اشتكى إليه بعضُ أصحابِهِ جوعًا بهم؛ لأنّهم لا يكتسبون، فعند ذلك نظم أبياتًا يقول في أوّلها[2]:

أَنَا حَامِدٌ أَنَا شَاكِرٌ أَنَا ذَاكِرٌ ... أَنَا جَائِعٌ أَنَا حَاسِرٌ أَنَا عَارِي
هِيَ سِتَّةٌ وَأَنَا الضَّمِينُ بِنِصْفِهَا ... فَكُنِ الضَّمِينُ بِنِصْفِهَا يَا بَارِي

لم يتعلّق إلّا بربّه، كتب تلك الأبيات، ولـمّا اطّلع عليها بعض المحسنين،

---

(١) ذكر هذه الأبيات أبو طاهر الأصبهاني في معجم السفر (ص٣٨٢) ونسبها لمجبر بن محمد الصقلي.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٨).

أعطاهم ما يسدّ حاجتهم، فالربّ هو الذي يسّر لهم هذا الرزق بيد هذه الإنسان، ولم يسألوه، ولم يسألوا إنسانًا، وعلّقوا قلوبهم بربّهم.

نقول: على الإنسان أن يجتهد، في دعائه لله سبحانه وتعالى، وأن يسأل ربّه كلّ حاجاته، ولا يترك حاجةً يظنّ أنّه سيحتاج إليها في يوم من الأيام، إلا ويسألها ربّه.

يقول بعض العلماء: سلِ الله كلّ شيء حتّى ملح طعامك، فإنّك بحاجة إلى أن يمدّك ربّك بكلّ شيء، فأنت مأمور بأن تسأله، وتفعل السبب، وتعرف أنّ الله تعالى ييسّر لك هذه الأشياء، ويجعلها مفيدة ومؤثّرة.

الأدلّة كثيرة على أهميّة الدعاء، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]. وورد في الحديث أنّ النبيّ ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هو الْعِبَادَةُ»[1]، وقرأ هذه الآية. فجعل الدّعاء عبادة. ومثل ذلك أيضًا: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥، ٥٦].

والدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. وكلٌّ منهما ملازم

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي(٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٧)، وابن حبان (٣/ ١٧٢)، والحاكم (١/ ٤٩٠) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

للآخر. فالمصلّي في صلاته يدعو ربّه في كثير من أركان الصلاة وهيئاتها، يسأل ربّه؛ ففي الفاتحة يقول: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، وهذا دعاء. وفي الرّكوع وفي السجود يقول: سبحانك اللهّم ربنا وبحمدك اللهمّ اغفر لي، وهذا دعاء. وبين السجدتين يقول: ربِّ اغفر لي، ربِّ اغفر لي. ويكرّر ذلك، وهذا دعاء. وكذلك في السجود مأمور بأن يكثر من الدعاء، وكذلك في آخر التشهّد مأمور بأن يدعو. فالصلاة فيها دعاء، وكذلك الحجّ فيه دعاء في الطواف والسعي والوقوف والرمي. وذلك دليل على أنّ الله يحبّ من عباده أن يكثروا من دعائه، وأنْ لا يملّوا من هذا الدّعاء، وأنّه سبحانه لا بدَّ وأن يجيبهم إذا تمّت الشروط.

مرّ معنا كلام ابن عقيل على هذه الأدلّة، وقد استدلّ بها على أنّ اللهّ موجود، فإنّ المعدوم لا يُدعى، وأنّه سبحانه قادر، والعاجز لا يُطلب منه شيء، وأنّه غني، والفقير لا يطلب منه شيء، ويستدلّ على أنّه كريم، فالكريم هو الذي يجود، وهو الذي يهب مما عنده، فهو الذي لا تغيض نفقته، ولا ينقص ما عنده. كما يقول النبيّ ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وقال: أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فإنه لم يَغِضْ ما في يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»[1].

ويقول الله تعالى في الحديث القدسيّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ،

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٨٨).

مَـا نَقَـصَ ذَلِـكَ عِنْـدِي إِلَّا كَـمَا يَـنْقُصُ الْمِخْـيَطُ إِذَا أُدْخِـلَ الْبَحْـرَ»[1]. والآيـات والأحاديث والأدلّة على هذا كثيرة.

العقيدة: هي ما يعقدُ عليه القلب، وتشتمل على أعـمال بدنيّـة وأعـمال ماليّـة، وتتفاوت فيما بينها، فمن الأمور الاعتقادية: ما يكفّر بمخالفته، ومنها ما لا يكفّـر بمخالفته، وتقدّم لنا في هذه العقيدة ذكـر المسح عـلى الخفـين، وهـو مـن الفـروع، ومن الأمور العمليّة، ولا يكفّـر المخـالف فيـه، فقـد خـالف فيـه بعـض الـصحابة رضي الله عنهم، وبعض الأئمّة، ولكنّ استقرّ قول أهل السنّة على القول به.

وقد جاءتنا مسألة أيضًا فروعية، وهي مسألة إهداء الأعمال إلى الأمـوات أو الأحياء، فهي فرعيّـة، ولا يكفَّـرُ المخـالف فيهـا، ولـو كانـت ممـا ذكـر في العقيـدة؛ وذلك لسببين:

أولًا: أن لهم شبه الدليل، وهو تمسّكهم بقـول الله تعـالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩].

وثانيًـا: أن لهـم عمـلًا يرونـه، واجتهـادًا اجتهـدوه، فلأجـل ذلـك لم يكفّـروا بذلك. ولكنّهم يخطّئون.

وذُكـر إهـداءُ الأعـمال في بـاب العقيـدة؛ لأنّ الخـلاف فيـه مـع المخـالفين في العقيـدة.

معلـوم أنّ العقيـدة هـي الإيـمان بالأسـماء والـصفات، والبعـث بعـد المـوت،

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٢٥).

والإيمان بالملائكة والرسل والكتب المتقدّمة، وما حصل فيها، وهذه من الأمور الاعتقاديّة، ولكن يلحق بها أيضًا أمور عمليّة، وتعطى حكم العقيدة، وإن كانت ليست من العقيدة التي يعقد عليها القلب، بمعنى أنّه يؤمن بها وإن لم يرَ لها دلالات، وقد يكون إدخال الأعمال إلى الأحياء أو الأموات في العقيدة من باب أنّه أمر غيبيّ. ولكن لمّا جاءت الشواهد والدلائل تدلّ على أنّه ينتفع الميّت بعمل الحيّ إذا أهداه إليه، قام بذلك أهل السنّة. فنراهم مثلًا: يصلّون على الأموات، فالأموات ينتفعون بصلاتهم عليهم، ونراهم يدعون لهم: فيدعو الإنسان لأبويه، كقول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح:٢٨]، وقد ذكروا أنّ والديه كانا مسلمين.

وكذلك النّهي عن الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أُولي قربى، مما يدلّ على أنّهم لو كانوا مسلمين لانتفعوا بهذا الاستغفار. وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنّه حضر زمن موت عمّه أبي طالب، وطلب منه أن ينطق بالشهادة فلم يفعل، وكان آخر كلامه أن قال: هو على ملّة عبد المطّلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله ! فقال النبيّ ﷺ: «**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»[1]. فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣].

ومفهومه: أنّهم يستغفرون للمسلمين، وثبت أنّ النبيّ ﷺ قال: «**اسْتَأْذَنْتُ**

(١) رواه البخاري برقم (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن ﷺ.

رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»[1]، يعني: بعموم هذه الآية: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣]. فهذا يفيد أنّهم يتفعون بالاستغفار إذا كانوا مؤمنين، ولا ينتفعون به إذا كانوا مشركين. ومعلوم أنّ الاستغفار دعاء، فإنّه إذا قال: ربّ اغفر لي، فقد دعا الله، ثم يقول: ولوالديّ، فقد دعا الله، ثم يقول: وللمؤمنين، فقد دعا الله لنفسه ولوالديه وللمؤمنين، وهذا الدعاء يفيد وينفع.

وقد اشتهر أيضًا الاستدلال بعموم الآيات، مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، فنحن نقوله: ندعو لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، قديمًا وحديثًا، فندعو للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وبيننا وبينهم عدد من القرون، وللتابعين وللعلماء في كلّ زمان إلى أن تعمّ هذه الدعوة آباءنا وأمّهاتنا وأبناءنا وأصحابنا وأصدقاءنا من المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان، وهذا بإذن الله ينفعهم.

وحكي أن إنسانًا رأى ميّتًا في منامه، فأخبره بأنّهم يأتيهم من دعاء الأحياء أمثال الجبال من الهدايا التي هي دعاء وصدقات، ونحو ذلك، تنوّر عليهم قبورهم، وتزداد بها حسناتهم، وتخفّ بها سيّئاتهم، وينتفعون بها، ويزاد بها في نعيمهم. والأعمال التي تهدى إليهم ثبت منها الدعاء ولا شكّ فيه. ومنها الصدقة

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والحج والصوم، كما ورد ذلك في الأحاديث التي ذكرناها، ومنها قصة المرأة التي قالت للنبي ﷺ: إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّـهِ على عِبَادِهِ في الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أبي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ على الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عنه؟ قال: «نعم»[1].

وحديث المرأة التي قالت: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عنها؟ قال: «أَرَأَيْتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ»[2].

وحديث الرجل الذي جاء على النبي ﷺ وقال: إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»[3].

هذا كلّه يفيد أنّ الأموات ينتفعون بعمل الأحياء المهدى إليهم.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٧٧).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٦٠).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٥).

قال الشارح:

وَذَهَبَ قَوْمٌ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَغَالِيَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِلَى أَنَّ الدُّعَاءَ لَا فَائِدَةَ فِيهِ! قَالُوا: لِأَنَّ الْمَشِيئَةَ الْإِلَهِيَّةَ إِنِ اقْتَضَتْ وُجُودَ الْمَطْلُوبِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ، وَإِنْ لَمْ تَقْتَضِهِ فَلَا فَائِدَةَ فِي الدُّعَاءِ!! وَقَدْ يَخُصُّ بَعْضُهُمْ بِذَلِكَ خَوَاصَّ الْعَارِفِينَ! وَيَجْعَلُ الدُّعَاءَ عِلَّةً فِي مَقَامِ الْخَوَاصِّ!! وَهَذَا مِنْ غَلَطَاتِ بَعْضِ الشُّيُوخِ. فَكَمَا أَنَّهُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَهُوَ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ الْعَقْلِيَّةِ، فَإِنَّ مَنْفَعَةَ الدُّعَاءِ أَمْرٌ اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ تَجَارِبُ الْأُمَمِ، حَتَّى إِنَّ الْفَلَاسِفَةَ تَقُولُ: ضَجِيجُ الْأَصْوَاتِ فِي هَيَاكِلِ الْعِبَادَاتِ، بِفُنُونِ اللُّغَاتِ، يُحَلِّلُ مَا عَقَدَتْهُ الْأَفْلَاكُ الْمُؤَثِّرَاتُ!! هَذَا وَهُمْ مُشْرِكُونَ.

وَجَوَابُ الشُّبْهَةِ بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ: فَإِنَّ قَوْلَهُمْ عَنِ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ: إِمَّا أَنْ تَقْتَضِيَهُ أَوْ لَا، ثَمَّ قِسْمٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ: أَنْ تَقْتَضِيَهُ بِشَرْطٍ لَا تَقْتَضِيهِ مَعَ عَدَمِهِ، وَقَدْ يَكُونُ الدُّعَاءُ مِنْ شَرْطِهِ، كَمَا تُوجِبُ الثَّوَابَ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا تُوجِبُهُ مَعَ عَدَمِهِ، وَكَمَا تُوجِبُ الشِّبَعَ وَالرِّيَّ عِنْدَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَلَا تُوجِبُهُ مَعَ عَدَمِهِمَا، وَحُصُولَ الْوَلَدِ بِالْوَطْءِ، وَالزَّرْعَ بِالْبَذْرِ. فَإِذَا قُدِّرَ وُقُوعُ الْمَدْعُوِّ بِهِ بِالدُّعَاءِ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُقَالَ: لَا فَائِدَةَ فِي الدُّعَاءِ، كَمَا لَا يُقَالُ: لَا فَائِدَةَ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْبَذْرِ وَسَائِرِ الْأَسْبَابِ. فَقَوْلُ هَؤُلَاءِ، كَمَا أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلشَّرْعِ، فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْحِسِّ وَالْفِطْرَةِ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ، مَا قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ: أَنَّ الِالْتِفَاتَ إِلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ! وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا، نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ،

وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ. وَمَعْنَى التَّوَكُّلِ وَالرَّجَاءِ، يَتَأَلَّفُ مِنْ وُجُوبِ التَّوْحِيدِ وَالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّ الِالْتِفَاتَ إِلَى السَّبَبِ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَيْهِ، وَرَجَاؤُهُ وَالِاسْتِنَادُ إِلَيْهِ. وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ هَذَا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَقِلٍّ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ شُرَكَاءَ وَأَضْدَادٍ. وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ، فَإِنْ لَمْ يُسَخِّرْهُ مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ لَمْ يُسَخَّرْ.

وَقَوْلُهُمْ: إِنِ اقْتَضَتِ الْمَشِيئَةُ الْمَطْلُوبَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ؟ قُلْنَا: بَلْ قَدْ تَكُونُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، مِنْ تَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ أُخْرَى عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ، وَدَفْعِ مَضَرَّةٍ أُخْرَى عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: وَإِنْ لَمْ تَقْتَضِهِ، فَلَا فَائِدَةَ فِيهِ؟ قُلْنَا: بَلْ فِيهِ فَوَائِدُ عَظِيمَةٌ، مِنْ جَلْبِ مَنَافِعَ، وَدَفْعِ مَضَارَّ، كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ مَا يُعَجَّلُ لِلْعَبْدِ، مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ، وَإِقْرَارِهِ بِهِ، وَبِأَنَّهُ سُمَيْعٌ قَرِيبٌ قَدِيرٌ عَلِيمٌ رَحِيمٌ، وَإِقْرَارِهِ بِفَقْرِهِ إِلَيْهِ وَاضْطِرَارِهِ إِلَيْهِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الْعَلِيَّةِ، وَالْأَحْوَالِ الزَّكِيَّةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَطَالِبِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ إِعْطَاءُ اللَّهِ مُعَلَّلًا بِفِعْلِ الْعَبْدِ، كَمَا يُعْقَلُ مِنْ إِعْطَاءِ الْمَسْئُولِ لِلسَّائِلِ، كَانَ السَّائِلُ قَدْ أَثَّرَ فِي الْمَسْئُولِ حَتَّى أَعْطَاهُ؟!

قُلْنَا: الرَّبُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي حَرَّكَ الْعَبْدَ إِلَى دُعَائِهِ، فَهَذَا الْخَيْرُ مِنْهُ، وَتَمَامُهُ عَلَيْهِ. كَمَا قَالَ عُمَرُ ﷺ: إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَإِنَّمَا أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ، وَلَكِنْ إِذَا أُلْهِمْتُ الدُّعَاءَ فَإِنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ. وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ

ﱡﭐ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﱠ [السجدة:٥]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِالتَّدْبِيرِ، ثُمَّ يَصْعَدُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ الَّذِي دَبَّرَهُ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَقْذِفُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ حَرَكَةَ الدُّعَاءِ، وَيَجْعَلُهَا سَبَبًا لِلْخَيْرِ الَّذِي يُعْطِيهِ إِيَّاهُ، كَمَا فِي الْعَمَلِ وَالثَّوَابِ، فَهُوَ الَّذِي وَفَّقَ الْعَبْدَ لِلتَّوْبَةِ ثُمَّ قَبِلَهَا، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ ثُمَّ أَثَابَهُ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ ثُمَّ أَجَابَهُ، فَمَا أَثَّرَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، بَلْ هُوَ جَعَلَ مَا يَفْعَلُهُ سَبَبًا لِمَا يَفْعَلُهُ. قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ ـ أَحَدُ أَئِمَّةِ التَّابِعِينَ ـ: نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَوَجَدْتُ مَبْدَأَهُ مِنَ اللَّهِ، وَتَمَامَهُ عَلَى اللَّهِ، وَوَجَدْتُ مِلَاكَ ذَلِكَ الدُّعَاءَ.

قال الشيخ:

وهذا يتعلّق بالدّعاء الذي أمر الله به، وحثّ عليه النبيّ ﷺ، ونهج عليه علماء الأمّة، ورغّبوا فيه، وهو سؤال الله تعالى، وطلب العبد حاجاته من ربّه، وأن ينزل العبد حاجاته بربّه، وأن يسأله قضاءها، وأن يرغب إليه في أن ييسّر له كلّ عسير، وأن يعطيه كلّ مطلب.

وقد تقدّمت أدلّة تفيد الأمر بالدّعاء، والحثّ عليه، مثل قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. هذا كلام الله، لما قال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: يا رسول الله! أقريب ربّنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا

سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1]. فهذا خبر من ربّنا تعالى أنّه قريب، وأنّه يجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه. وكذلك أمر بالدعاء بقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠]، وهذا أمر بالدعاء، وخبر بأنّه يستجيب الدعاء. وقد حثّ النبيّ ﷺ على الدّعاء، وقال: «**الدُّعَاءُ هو الْعِبَادَةُ**»[2]، وقرأ هذه الآية: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾، وكذلك حثّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الإكثار من الدّعاء.

وإذا قيل: إنّ الكثير قد يدعون ولا يرون أثرًا للإجابة، فأين معنى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾؟ نقول: ورد في بعض الأحاديث: «**ما من مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ ليس فيها أثم وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إلا أَعْطَاهُ اللَّهُ بها إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ له دَعْوَتُهُ، وإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا له فِي الآخِرَةِ، وإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**»، قالوا: إِذًا نُكْثِرُ، قال: «**الله أَكْثَرُ**»[3].

فلا يخلو من ثلاث حالات: إما أن تجاب دعوته عاجلًا، ويرى أثرها. وإمّا

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٣٥) عن الصلب بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٤٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٨) واللفظ له، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٤٨)، وعبد بن حميد (ص٢٩٢)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣٣٧)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

أن يدفع الله شرًّا عنه بسبب هذه الدعوة، كما يدفع بالأعمال الصالحة. وإمّا أن يدّخرها له الله في الآخرة، فيثيبه عليها كما يثيبه على الأعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقات والحج والجهاد ونحوها.

ومعلوم أيضًا أنّ الدّعاء ـ وإنْ أُجيب الداعي وأُعطي سؤله في الدنيا ـ فإنّ الله بكرمه يثيبه في الآخرة؛ بمعنى أنّه: يدفع عنه السوء، أو يعظم له الأجر، أو يجزل له الثواب؛ لأنّه قام بدعاء ربّه. وسبب ذلك: أنّ الإنسان الذي يعلم أنّ ربّه هو الذي يقضي الحاجات، وهو الذي يفرّج الكربات، وهو الذي يجيب الدعوات، يعلم ذلك، ثمّ ينزل حاجته بربّه، فهو بذلك يكون قد عبد ربّه، فيكون بدعائه متعبّدًا. فأنت إذا رفعت يديك تدعو الله تعالى، ولم تعلّق قلبك بأيّ مخلوق، فهذا دليل على أنّك عرفت أنّه الذي يقضي حاجتك، وأنّه الذي يملكها وحده، وأنّه الذي يفرّج الكروب، وأنّه علاّم الغيوب، فهذه عبادة قلبية، ألا يستحق الداعي ثوابًا على ذلك؟!

إذًا فالدعاء يُثاب عليه في الدنيا بأن يُجاب دعاؤه، وفي الآخرة بأن يُجازى على عبادته ومعرفته.

وتقدم اعتراض الفلاسفة والقدريّة ونحوهم، وقولهم: إنّ الدّعاء لا فائدة فيه، وقولهم: إذا كان هذا الأمر قد قدّر الله أنّه يأتي، فإنّه سيأتي دعوت أو لم أدعُ. وإذا لم يقدره الله لي فلا يأتي لو دعوت ثم دعوت، فما الموجب لهذا الدعاء؟ هذه شبهتهم.

فإذا قلنا لأحدهم: ادع ربّك أن يفرّج عنك هذا الكرب، ويقضي عنك هذا

الدَّين، ويزيل عنك هذا الهمّ والغم، وأن يوسّع عليك في رزقك، وأن يعافيك في بدنك، ويرزقك أهلًا وولدًا. يقول أحدهم: إن كان الله قد قدّر أنّه يرزقني، وأنّه يأتيني رزق، فسوف يأتيني دعوت أو لم أدعُ، وإن كان الله لم يكتب لي هذا الرزق، فلا فائدة في هذا الدعاء. هل هذا القول صحيح؟

نقول: ليس بصحيح؛ لأننا نقول: إنّ ربّنا سبحانه، قد قدّر لك هذا الأمر، ولكن جعل له سببًا؛ يعني: قدّر لك رزقًا، وجعل سببه الدعاء، وقدّر لك صحّة، وجعل لها سببًا هو الدعاء، فكأنّه كتب في الأزل أنّك تدعو فتصحّ، ولو لم تدعُ لم تصحّ، وكأنّه كتب في الأزل أنّك تدعو فترزق، ولو لم تدعُ لم ترزق. فيكون الدعاء سببًا من أسباب هذا الأمر الذي حصل لك.

ومعلوم أنّ الأسباب مرتبطة بمسبّباتها، وأنّ الله جعل في هذه الدنيا أسبابًا، وأمر العباد بمباشرتها، وجعل لتلك الأسباب تأثيرًا، وإن كان قد قدّر ذلك أزلًا، وكتبه في اللوح المحفوظ. وقد تقدّم كلام الشارح في الأسباب الحسيّة، والأسباب الحسيّة لا ينكرها منكر.

فمن المعلوم أنّ الإنسان لو ترك الأكل وهو ينظر إليه ويجده حتّى مات، يعد قاتلًا لنفسه؛ الله تعالى جعل هذا الأكل سببًا في بقاء الحياة، وقدّر أنّ الإنسان يأكل من هذا الطعام فيعيش، وأمر بذلك بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]. وقدّر أنّ الشراب سببٌ في بقاء هذه الحياة، ولو تركه الإنسان وهو قادر على أن يشرب، فمات، عُدَّ قاتلًا لنفسه. وكذلك الأسباب الأخرى مشاهد أنّها مؤثّرة

في مسببّاتها، فالنّكاح سبب في حصول الولد، والله أمر بذلك، فقال: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، وقال: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور:٣٢]؛ لأنّ النكاح سبب في حصول الولد، فلو قال إنسان: لا أتزوج، إن كان الله قدّر لي أولادًا حصلوا وإن لم أتزوّج، وإن كان لم يُقدِّر لي أولادًا فلا فائدة في الزواج.

نقول: ليس كذلك، فالله إذا قدّر لك ولدًا، فإنّه لا بدّ له من سبب، جعل من سببه النّكاح، فأنت افعل هذا السبب حتّى يحصل ما قدّره، عليك أن تفعل والله هو الذي يقدّر ذلك.

ولو قال إنسان مثلًا وهو يملك أرضًا: لا حاجة لي أن أبذر في هذه الأرض أو أسقيها، فإن كان الله قّدر أن ينبت فيها قمحًا، أو زرعًا حصل ذلك، وإن لم يقدّر، فلا فائدة في الزّرع. هل هذه المقالة صحيحة؟ لا شكّ أنّها باطلة؛ لأنّ الله تعالى قد أمر بهذا السّبب، وهو بذرُ الأرض وسقيها، وهو إذا شاء جعلها مثمرة، يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣، ٦٤]، أثبت لهم حرثًا، ثمّ أخبر بأنّه هو الذي ينبته، ولو شاء ما نبت، ومن أجل ذلك قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]. فهذا بيان أنّ الأسباب لها فائدة، ولو كان ذلك مكتوب أزلًا، فإذًا: الدعاء سببٌ، كما أنّ الزرع والنّكاح والغزو سبب، وما أشبه ذلك. فهذه الأسباب تؤثّر بإذن الله تعالى.

هناك من يعتمد على الأسباب كُلًا، وتقدّم أنّ الاعتماد على الأسباب،

والاعتقاد بأنّ السبب هو وحده المؤثّر يُعدّ شركًا بالله؛ لأنه جعل لغيره تأثيرًا لم يجعله بتقدير الله. والله تعالى أخبر بأنّه هو يخلق الخلق، وهو يرزقهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨، ٥٩]، لو قال إنسان: إن الإنسان هو يخلق ولده؛ لأنّه صبّه في الرحم، ثمّ تكوّن إلى أن يكون ولدًا، ولم يجعل لله سببًا، كان ذلك كفرًا؛ لأنّ الله هو مسبّب الأسباب.

وقسم ثانٍ، وهم الذين يعرضون عن الأسباب، ولا يلتفتون إليها، وهذا نقص في العقل، فلا يليق بالعاقل أن يترك الأكل ويقول: إذا قدّر الله أنّي أعيش، فإنّي أعيش ولو لم آكل. وكذلك أيضًا يترك التكسّب وطلب الرزق، ويقول: ينزل عليّ من السماء طعامي وشرابي وكسوتي وحاجاتي، وإن لم أتحرك ولم أطلب. فذلك نقص في العقل. إذن الاعتماد على الأسباب يعد شركًا وقدحًا في التوحيد، وترك الأسباب نقص في العقل وقدح في الشرع.

وبكلّ حال، هذا الدعاء أمر الله به، وحثّ عليه، ورغّب فيه، وأخبر بأنّه يحبّ الذين يدعونه. وقد قال النبيّ ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»[1]. فحثّ المسلم على أن يدعو اللهَ حتّى يحصل على رضاه. وقد قال بعض السلف: اسألوا الله حاجاتكم كلّها حتّى الملح للطّعام. وإن كان ذلك يستدعي أيضًا أنّ الإنسان يفعل الأسباب، مع عدم اعتماده عليها، ومن جملتها أن يدعو الله تعالى. والدعاء يحصل لخيري الدنيا والآخرة، ويعلم أنّ أمور الدنيا والآخرة بيد الله، ويعلم أنّه

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٩٢).

هو الذي يعطي عباده، ولا تنفذ خزائنه مهما أنفق ومهما أعطى. كما في الحديث: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وقال: أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فإنه لم يَغِضْ ما في يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»[1].

وكما في الحديث القدسيّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»[2]. وأشباه ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة تحضّ على الدعاء وتحثّ عليه، وقد أسلفنا أنّ الدعاء فيه فائدة كبيرة بتعجيل استجابته في الدنيا، أو الثواب عليه في الآخرة، أو دفع شرّ بقدره. ولو لم يكن في الدّعاء إلا تذلّل الإنسان لربّه، وخضوعه له، وتضرّعه، وتمسكنه بين يدي ربّه؛ لكان فيه خيرًا عظيمًا. وهذا ردّ على من ألغى فائدة الدّعاء.

والواقع يشهد بفائدة الدعاء، فالنبيّ ﷺ لما سئل مرّة وهو على المنبر، أن يدعو الله تعالى بالغيث، رفع يديه، وقال: «اللهمّ أغثنا»، مرتين أو ثلاثًا، فاستجاب الله دعاءه، فنزل المطر في ذلك اليوم، واستمرّ نزوله أسبوعًا، وفي الجمعة الثانية دعا بقوله: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا»، فانفرجت السماء، وأصبحت

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٨٨).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٢٦).

المدينة في مثل الإكليل استجابةً لدعوته[1]. فدلّ على أنّ الدعاء يؤثر ويفيد، لاسيّما إن كان من مسلم مستجاب الدعوة، ومن تتمّ فيه الصفات التي تجعله أهلًا أن تُجاب دعوته، ويقوم بشروط إجابة الدعوة؛ فإنّ لها شروطًا مذكورة في الكتب المطوّلة.

وقد جمع العلماء ما صحّ عندهم من الأدعية؛ ففي «صحيح البخاري» كتاب اسمه كتاب الدعوات، أورد فيه الكثير من الأدعية المرفوعة تتعلق بأمور الدّنيا والآخرة، طلبًا أو منعًا؛ فالطلب: مثل سؤال الجنّة، وسؤال الخير ومحو الشرّ وما أشبه، والمنع مثل الاستعاذة من الشرور ونحوها. وكذلك في «صحيح مسلم» كتاب الذكر والدعاء، جمع فيه أيضًا أدعية كثيرة. وأخرجت الأدعية في كتب، من أوسعها كتاب «الدعاء» للبيهقي، و«الدعاء» للطبراني. واهتمّ بذلك العلماء المتقدّمون والمتأخّرون، وكلّ أخرج ما اطّلع عليه، وما عنّ له من الأدعية. وذلك كله دليل على فائدة الدعاء.

---

(١) اخرجه البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

قال الشارح:

وَهُنَا سُؤَالٌ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ: أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَدْ يَسْأَلُ اللَّـهَ فَلَا يُعْطَى شَيْئًا، أَوْ يُعْطَى غَيْرَ مَا سَأَلَ؟ وَقَدْ أُجِيبَ عَنْهُ بِأَجْوِبَةٍ، فِيهَا ثَلَاثَةُ أَجْوِبَةٍ مُحَقَّقَةٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْآيَةَ لَمْ تَتَضَمَّنْ عَطِيَّةَ السُّؤَالِ مُطْلَقًا، وَإِنَّمَا تَضَمَّنَتْ إِجَابَةَ الدَّاعِي، وَالدَّاعِي أَعَمُّ مِنَ السَّائِلِ، وَإِجَابَةُ الدَّاعِي أَعَمُّ مِنْ إِعْطَاءِ السَّائِلِ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»(1).

فَفَرْقٌ بَيْنَ الدَّاعِي وَالسَّائِلِ، وَبَيْنَ الْإِجَابَةِ وَالْإِعْطَاءِ، وَهُوَ فَرْقٌ بِالْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ، كَمَا أَتْبَعَ ذَلِكَ بِالْمُسْتَغْفِرِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ السَّائِلِ، فَذَكَرَ الْعَامَّ ثُمَّ الْخَاصَّ ثُمَّ الْأَخَصَّ. وَإِذَا عَلِمَ الْعِبَادُ أَنَّهُ قَرِيبٌ، يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي، عَلِمُوا قُرْبَهُ مِنْهُمْ، وَتَمَكُّنَهُمْ مِنْ سُؤَالِهِ، وَعَلِمُوا عِلْمَهُ وَرَحْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ، فَدَعَوْهُ دُعَاءَ الْعِبَادَةِ فِي حَالٍ، وَدُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ فِي حَالٍ، وَجَمَعُوا بَيْنَهُمَا فِي حَالٍ؛ إِذِ الدُّعَاءُ اسْمٌ يَجْمَعُ الْعِبَادَةَ وَالِاسْتِعَانَةَ، وَقَدْ فُسِّرَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، بِالدُّعَاءِ، الَّذِي هُوَ الْعِبَادَةُ، وَالدُّعَاءِ الَّذِي هُوَ الطَّلَبُ. وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، يُؤَيِّدُ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ.

الْجَوَابُ الثَّانِي: أَنَّ إِجَابَةَ دُعَاءِ السُّؤَالِ أَعَمُّ مِنْ إِعْطَاءِ عَيْنِ السُّؤَالِ، كَمَا

---

(1) اخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، أَوْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ مِثْلَهَا، أَوْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»[1]. فَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الدَّعْوَةِ الخَالِيَةِ عَنِ الْعُدْوَانِ مِنْ إِعْطَاءِ السُّؤَالِ مُعَجَّلًا، أَوْ مِثْلِهِ مِنَ الخَيْرِ مُؤَجَّلًا، أَوْ يَصْرِفُ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ.

الجَوَابُ الثَّالِثُ: أَنَّ الدُّعَاءَ سَبَبٌ مُقْتَضٍ لِنَيْلِ المَطْلُوبِ، وَالسَّبَبُ لَهُ شُرُوطٌ وَمَوَانِعُ، فَإِذَا حَصَلَتْ شُرُوطُهُ، وَانْتَفَتْ مَوَانِعُهُ، حَصَلَ المَطْلُوبُ، وَإِلَّا فَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ المَطْلُوبُ، بَلْ قَدْ يَحْصُلُ غَيْرُهُ. وَهَكَذَا سَائِرُ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ، مِنَ الْأَذْكَارِ المَأْثُورَةِ المُعَلَّقِ عَلَيْهَا جَلْبُ مَنَافِعَ، أَوْ دَفْعُ مَضَارَّ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ بِمَنْزِلَةِ الْآلَةِ فِي يَدِ الْفَاعِلِ، تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ قُوَّتِهِ وَمَا يُعِينُهَا، وَقَدْ يُعَارِضُهَا مَانِعٌ مِنَ المَوَانِعِ. وَنُصُوصُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ - المُتَعَارِضَةِ فِي الظَّاهِرِ - مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَكَثِيرًا مَا تَجِدُ أَدْعِيَةً دَعَا بِهَا قَوْمٌ فَاسْتُجِيبَ لَهُمْ، وَيَكُونُ قَدِ اقْتَرَنَ بِالدُّعَاءِ ضَرُورَةُ صَاحِبِهِ، وَإِقْبَالُهُ عَلَى اللَّهِ، أَوْ حَسَنَةٌ تَقَدَّمَتْ مِنْهُ، جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِجَابَةَ دَعْوَتِهِ شُكْرًا لِحَسَنَتِهِ، أَوْ صَادَفَ وَقْتَ إِجَابَةٍ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَأُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ، فَيَظُنُّ أَنَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ الدُّعَاءِ، فَيَأْخُذُهُ مُجَرَّدًا عَنْ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي قَارَنَتْهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّاعِي.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٠٥)، ولم يروه مسلم في صحيحه.

وَهَذَا كَمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلٌ دَوَاءً نَافِعًا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي، فَانْتَفَعَ بِهِ، فَظَنَّ آخَرُ أَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذَا الدَّوَاءِ بِمُجَرَّدِهِ كَافٍ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، فَكَانَ غَالِطًا.

وَكَذَا قَدْ يَدْعُو بِاضْطِرَارٍ عِنْدَ قَبْرٍ، فَيُجَابُ، فَيَظُنُّ أَنَّ السِّرَّ لِلْقَبْرِ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ السِّرَّ لِلاضْطِرَارِ وَصِدْقِ اللَّجْءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ أَفْضَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

فَالْأَدْعِيَةُ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالرُّقَى بِمَنْزِلَةِ السِّلَاحِ، وَالسِّلَاحُ بِضَارِبِهِ، لَا بِحَدِّهِ فَقَطْ، فَمَتَى كَانَ السِّلَاحُ سِلَاحًا تَامًّا، وَالسَّاعِدُ سَاعِدًا قَوِيًّا، وَالْمَحَلُّ قَابِلًا، وَالْمَانِعُ مَفْقُودًا، حَصَلَتْ بِهِ النِّكَايَةُ فِي الْعَدُوِّ، وَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأْثِيرُ. فَإِذَا كَانَ الدُّعَاءُ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ صَالِحٍ، أَوِ الدَّاعِي لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فِي الدُّعَاءِ، أَوْ كَانَ ثَمَّ مَانِعٌ مِنَ الْإِجَابَةِ: لَمْ يَحْصُلِ الْأَثَرُ.

قال الشيخ:

هذه الأجوبة قد تقدّمت الإشارة إلى بعضها. والسؤال: أنّ بعض النّاس يدعو ويكرّر الدعاء، ومع ذلك لا يستجاب دعاؤه، فكيف والله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠]؟ قد يقول: لماذا لا يستجيب وقد وعد بالإجابة، وكذلك قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة:١٨٦]، كيف لم تحصل الإجابة؟

ذكر الشارح عدّة أجوبة، ومنها: القول بأنّ الإجابة أعمّ من الإعطاء، فقد قال تعالى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، و﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، ولم يقل: أعطيه مطلبه! فالإجابة يدخل فيها الثواب، ويدخل فيها التلبية لطلبه، ونحو ذلك. والسّماع: أي إنّه سمع دعوته سماع قبول. فيقول: هناك فرق بين إعطائه سؤله، وإجابة الدعوة، والله تعالى ذكر إجابة الدعوة، ولم يذكر إعطاء المسؤول، فلا يكون هناك اعتراض على الآية.

وتقدّم الاستشهاد بحديث النزول: يقول تعالى: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»، ففرّق بين السؤال والدّعاء، ففي السؤال قال: أعطيه، وفي الدّعاء قال: أجيبه، والآية فيها: أجيبه. فإن أجابه بأن سمع دعاءه، أو قبل دعاءه، صدق عليه أنّه أجابه، فيقال: أنت ممّن قبل الله دعاءك، وإن لم يعطك سُؤلك.

أمّا الجواب الثاني: ففيه أنّ الدّاعي لا يعدو أن يكون من هذه الثلاث: الأولى أن يعطى سؤله في الدّنيا. و الثانية: أن يدّخر له إلى الآخرة. والثالثة: أن يصرف عنه من الشرّ مثله. فهو رابح بكلّ حال.

أما الجواب الثالث: فهو أنّ الدعاء قد يتخلّف سبب الإجابة فيه؛ لأنّ الإجابة لها أسباب، ولها موانع، فمثلًا: الإنسان المسلم المؤمن صحيح الاعتقاد، هذا يعد سببًا من أسباب الإجابة. كذلك الملحّ في الدّعاء، حاضر القلب، الذي اجتمع قلبه ولسانه على الدّعاء، وكذلك المضطرّ غاية الضرورة، الذي وقع في

الضيق، فالتجأ إلى ربّه صادقًا في دعائه، وكذلك استعمل أدعيةً مأثورة، ومرويّة وجامعة ومانعة، وكذلك تحرّى أوقات الإجابة، وتحرّى أماكن الإجابة، تحرّى فيه الأسباب، فأعطي سؤله.

وإذا سمع بذلك آخر، فقال: فلان أُعطي سؤله لما أن دعا فاستجيب له. وأنا دعوت ولكن لم يستجب لي، فأنا لا أزال في شدّة، ولا أزال في كرب!

نقول: تخلّف فيك سبب من أسباب الإجابة، فلو اجتمعت فيك أسباب الإجابة، أجيب دعاؤك، ولكن لعلّه تخلّف فيك سبب، أو وجد فيك مانع. كارتكاب شيء من الذنوب، أو تقصير في شيء من الأعمال، فيكون مانعًا من الإجابة.

وقد مثّل الشارح ـ رحمه الله ـ لذلك بإنسان دعا عند قبر، ولكن دعا وهو مضطر، ودعا وهو صادق الرغبة، فظنّ أنّ إجابته بسبب ذلك القبر، فسمعه الآخرون وقالوا: هذا القبر تستجاب عنده الدعوة. وليس كذلك، بل الأمر إما حصل مصادفة، أو حصل بأمر سماويّ، أو لحاجة ما. فالحاصل أن الإنسان يجب عليه أن ينظر ويأتي بالأسباب التي تكون مفيدة في إجابة الدعاء.

الآيات كثيرة في أمر الله تعالى عباده أن يدعوه. وقد عرفنا أنّ الدّعاء هو النداء، فإذا قلنا: اللهمّ اغفر لنا، اللهمّ ارحمنا، فهذا يستدعي منا نداء لربّنا، المعنى: يا الله، يا ربّنا. وكذلك في الأدعية التي في القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ التقدير: يا ربّنا.

وقد ذكرنا أنّ الدّعاء ينقسم قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وأنّ كلًّا منهما يلزم منه الآخر، فدعاء المسألة يستلزم دعاء العبادة، ودعاء العبادة يتضمّن دعاء المسألة، ودعاءُ العبادة يدخل فيه كل العبادات، فيقال: الصلوات دعاء عبادة، والأذكار دعاء عبادة، والأوراد دعاء عبادة، والصدقات والصلوات والبرّ والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وما أشبه ذلك من الأعمال الخيريّة، وكذلك ترك المنكرات، دعاء عبادة كلّها. ولكن هي في الحقيقة تتضمّن دعاء المسألة؛ لأنّ العابد ربّه ما قصد إلا المسألة، فكأنّه يقول: أقصد من صلاتي الأجر، وأقصد من صدقتي الثواب، وأقصد من دعائي ومن ذكري الحياة الطيّبة، كأنّه يقول: أصلّي لك يا ربّ وأحجّ لك؛ لتغفر لي، ولترزقني، ولتصلح أحوالي، فإذًا هو داعٍ في حقيقة أمره، ويقصد الأجر على هذه العبادة.

وقد ذكرنا أنّ الاشتغال بالثناء والذكر يقوم مقام السؤال، ولأجل ذلك وردت أدعية في القرآن، لفظها لفظ الدّعاء ولكنّها ذكر وثناء، مثل قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٢٦، ٢٧]، ليس فيها سؤال، إنّما فيها ثناء على الله، ولكنّ هذا الثناء يستلزم الدّعاء. نقول: هذا هو حقيقة الدّعاء.

وهناك من ينكر الدّعاء؟ مثل فرقة من القدريّة الذين يقولون لا فائدة في الدّعاء؛ لأنّ ما كتب لك سوف يأتيك دعوت أو لم تدعُ، وإن كان لم يكتب لك،

فلا يأتيك دعوت أو لم تدعُ.

والجواب: أن الله كتب لك هذا، ولكن كتب له شرطًا، والشرط هو الدعاء؛ يعني: جعل لك رزقًا يأتيك بشرط الدعاء، وقدّر الله أنّك تدعو، وقدّر أنّه يجيب دعوتك، وأمرك بأن تدعو، وأخبرك بفائدة هذا الدعاء، ولو كان ما قالوه صحيحًا لم يكن في العمل كلّه فائدة. ونحن نعترف بأنّ الأعمال الصالحة لها تأثير، والأعمال السيّئة أيضًا لها تأثير. وعلى هذا فالدعاء له فائدة، كما أنّ العمل الصالح له فائدة، وفائدته الحياة الطيّبة، كما قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧]. فعرفنا بذلك أنّنا مأمورون بالدعاء، وأنّه يجيب الدعوات، وأنّه قدّر أنّ يوفّق الداعي بالدّعاء، ويلهمه الله ذلك، فيحصل له فائدة.

كذلك أيضًا: قد يقول بعضهم: إنّنا ندعو دائمًا، ونكثر من الدعاء، ولا نرى له فائدة، ولا يُستجاب لنا؟!

والجواب: أنّ حرمان الإجابة أو تأخرها له أسباب، وإجابتها أيضًا لها أسباب، وقد سمعنا أخبارًا عن الصالحين الذين استجاب الله لهم وعلى الأخصّ في وقت الشدَّة، وسمعنا كثيرًا عن الصالحين الذين اشتدّت بهم الأزمات، وضاقت بهم السّبل، فدعوا الله وأخلصوا له الدّعاء، فاستجاب الله لهم وفرّج عنهم.

يذكر بعض آبائنا أنّهم كانوا مسافرين للحجّ في زمن شديد القحط، وأنّ

الطريق الذي سلكوه ليس به ماء، فساروا نحو خمسة أيام أو ستة، لم يردوا موردًا، واشتدّ عليهم العطش حتّى كادوا يموتون عطشًا، ولمّا أيقنوا بالهلاك ألهمهم الله الدّعاء، فتضرّعوا لله وهم في أشدّ ما يكونون من الحرّ؛ فأرسل الله عليهم سحابةً أمطرت عليهم قدر ما شربوا ورووا إبلهم وملؤوا قربهم، وأزال عنهم هذه الشدّة. وهناك الكثير من هذه العجائب التي تبين ما للدعاء من تأثير كبير.

وقد تقدّم الحديث عن النبيّ ﷺ: «**ما من مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ ليس فيها أَثم وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إلا أَعْطَاهُ اللَّهُ بها إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ له دَعْوَتُهُ، وإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا له في الآخِرَةِ، وإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**»، قالوا: إِذًا نُكْثِرُ، قال: «**الله أَكْثَرُ**»[1]. أي: أكثر أجرًا وثوابًا.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٠٥).

قال الطحاوي:

وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ. وَلَا غِنَى عَنِ اللَّـهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَقَدْ كَفَرَ وَصَارَ مِنْ أَهْلِ الحَيْنِ.

قال الشارح:

كَلَامٌ حَقٌّ ظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ. وَالحَيْنُ، بِالْفَتْحِ: الهَلَاكُ.

قال الشيخ:

قوله: (وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ)، كلام ظاهر يدلّ على أنّ الله تعالى هو المالك لكلّ شيء، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١]، ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]. والمَلِك: اسم من أسماء الله، وكذلك من أسمائه المالك، الذي يملك التصرّف الكامل، فهو مالك الدنيا والآخرة، ومالك العباد، ومالك البلاد، ومذلّل الصعاب، مالك كلّ شيء، ولا يمكله شيء، تعالى الله فهو الخالق وما سواه مخلوقون، وهو المالك وما سواه مملوكون.

هذا معنى هذه الجملة: الاعتراف بأنّ الملك ملكه، وبأنّ العبيد كلّهم وما بأيديهم مملوكون له، وملكهم بما تحت أيديهم وما تحت تصرّفهم، ملك خاصّ لا يملكونه استقلالًا، وهو ملك مؤقّت. فإن قلت: هذه الدولة يملكها فلان، أو

رئيسها فلان. نقول: إنّ ملكه خاصّ ومؤقّت، وكذلك الأرض والعمارة يملكونها ملكًا خاصًا ومؤقّتًا، ربّما تنتزع منه، أو ينتزع منها، أو يموت ويتركها. فعرف بذلك أنّ الملك الحقيقي هو ملك الله سبحانه المالك: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس:٨٣].

وأمّا قول الطحاوي ـ رحمه الله ـ: (**وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ**)، فقد تقدّم ذلك في الجمل المتقدّمة، والتي ذكر فيها أنّ العباد بحاجة إلى ربّهم، وأنّهم مضطرّون إلى سؤاله، بل هو يحبّ منهم أن يدعوه ويسألوه، ويرغّب عباده أن يسألوه ويستعطوه من فضله، مع كونهم بحاجة إلى عطائه، وهو غنيّ عنهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:٣٨]. فوصف نفسه بأنّه الغنيّ، والعبادُ فقراءُ إلى الله.

وقد ورد في الحديث القدسي: «**يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا من هَدَيْتُهُ، فاستهدوني أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا من أَطْعَمْتُهُ، فاستطعموني أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إلا من كَسَوْتُهُ، فاستكسوني أَكْسُكُمْ**»[1].

فلا يستغني أحدٌ عن الله طرفة عين، والذين يظهرون أنّهم في غنى عن الله، هم في الحقيقة فقراء، ولو حصل لهم ما حصل، ولو ذلّلت لهم الدّنيا، وضحكت لهم

---

(١) جزء من حديث تقدم تخريجه (٤/ ٤٣٠).

حياتهم، حتى انخدعوا، أو انخدع كثير منهم.

وذُكر أن بعض الكفرة الذين كانوا بين المسلمين، لما قيل له: اعبد الله، فإن الله هو الذي رزقك. أنكر ذلك - والعياذ بالله - وقال: إنّما رزقتني يميني. فاعتمد على أنّه هو الذي يكسب، ونسي أنّ الله هو الذي حنّن عليه أبويه في طفولته، ووكّل به من يطعمه ويسقيه في حالة عجزه، حتّى اشتدّ عوده، ونسي فضل الله عليه، ولو شاء الله لسلبه ما أعطاه. فعلى هذا يعترف الإنسان أنّه فقير إلى الله، وأنّ العباد لا غنى لهم عن ربّهم طرفة عين.

قال الطحاوي:

وَاللَّـهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى، لا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المائدة:١١٩]، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٦٠]، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء:٩٣]، ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَمَذْهَبُ السَّلَفِ وَسَائِرُ الْأَئِمَّةِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَضَبِ، وَالرِّضَى، وَالْعَدَاوَةِ، وَالْوِلَايَةِ، وَالْحُبِّ، وَالْبُغْضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ، الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَمَنْعُ التَّأْوِيلِ الَّذِي يَصْرِفُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا اللَّائِقَةِ بِاللَّـهِ تَعَالَى. كَمَا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَسَائِرِ الصِّفَاتِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ فِيمَا تَقَدَّمَ بِقَوْلِهِ: (إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ: تَرْكَ التَّأْوِيلِ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ).

وَانْظُرْ إِلَى جَوَابِ الْإِمَامِ مَالِكٍ ﷺ فِي صِفَةِ الِاسْتِوَاءِ كَيْفَ قَالَ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ»[1]. وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهَا ـ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٤).

مَوْقُوفًا عَلَيْهَا، وَمَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ[1].

وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِيمَا تَقَدَّمَ: (مَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ). وَيَأْتِي فِي كَلَامِهِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ.

فَقَوْلُ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى)، نَفْيُ التَّشْبِيهِ. وَلَا يُقَالُ: إِنَّ الرِّضَى إِرَادَةُ الْإِحْسَانِ، وَالْغَضَبَ إِرَادَةُ الِانْتِقَامِ. فَإِنَّ هَذَا نَفْيٌ لِلصِّفَةِ، وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُهُ وَلَا يَشَاؤُهُ، وَيَنْهَى عَمَّا يَسْخَطُهُ وَيَكْرَهُهُ، وَيُبْغِضُهُ وَيَغْضَبُ عَلَى فَاعِلِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ شَاءَهُ وَأَرَادَهُ، فَقَدْ يُحِبُّ عِنْدَهُمْ وَيَرْضَى مَا لَا يُرِيدُهُ، وَيَكْرَهُ وَيَسْخَطُ وَيَغْضَبُ لِمَا أَرَادَهُ.

وَيُقَالُ لِمَنْ تَأَوَّلَ الْغَضَبَ وَالرِّضَى بِإِرَادَةِ الْإِحْسَانِ: لِمَ تَأَوَّلْتَ ذَلِكَ؟ فَلَابُدَّ أَنْ يَقُولَ: لِأَنَّ الْغَضَبَ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ، وَالرِّضَى الْمَيْلُ وَالشَّهْوَةُ، وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَى! فَيُقَالُ لَهُ: غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ فِي الْآدَمِيِّ أَمْرٌ يَنْشَأُ عَنْ صِفَةِ الْغَضَبِ، لَا أَنَّهُ الْغَضَبُ. وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: وَكَذَلِكَ الْإِرَادَةُ وَالْمَشِيئَةُ فِينَا، فَهِيَ مَيْلُ الْحَيِّ إِلَى الشَّيْءِ أَوْ إِلَى مَا يُلَائِمُهُ وَيُنَاسِبُهُ، فَإِنَّ الْحَيَّ مِنَّا لَا يُرِيدُ إِلَّا مَا يَجْلِبُ لَهُ مَنْفَعَةً أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ مَضَرَّةً، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَا يُرِيدُهُ وَمُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، وَيَزْدَادُ بِوُجُودِهِ، وَيَنْتَقِصُ بِعَدَمِهِ. فَالْمَعْنَى الَّذِي صَرَفْتَ إِلَيْهِ اللَّفْظَ كَالْمَعْنَى الَّذِي صَرَفْتَهُ عَنْهُ

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٩).

سَوَاءٌ، فَإِنْ جَازَ هَذَا جَازَ ذَاكَ، وَإِنِ امْتَنَعَ هَذَا امْتَنَعَ ذَاكَ.

فَإِنْ قَالَ: الْإِرَادَةُ الَّتِي يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا مُخَالِفَةٌ لِلْإِرَادَةِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْعَبْدُ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا حَقِيقَةً؟ قِيلَ لَهُ: فَقُلْ: إِنَّ الْغَضَبَ وَالرِّضَى الَّذِي يُوصَفُ اللَّهُ بِهِ مُخَالِفٌ لِمَا يُوصَفُ بِهِ الْعَبْدُ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا حَقِيقَةً. فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُهُ فِي الْإِرَادَةِ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ، لَمْ يَتَعَيَّنِ التَّأْوِيلُ، بَلْ يَجِبُ تَرْكُهُ؛ لِأَنَّكَ تَسْلَمُ مِنَ التَّنَاقُضِ، وَتَسْلَمُ أَيْضًا مِنْ تَعْطِيلِ مَعْنَى أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ بِلَا مُوجِبٍ. فَإِنَّ صَرْفَ الْقُرْآنِ عَنْ ظَاهِرِهِ وَحَقِيقَتِهِ بِغَيْرِ مُوجِبٍ حَرَامٌ، وَلَا يَكُونُ الْمُوجِبُ لِلصَّرْفِ مَا دَلَّهُ عَلَيْهِ عَقْلُهُ؛ إِذِ الْعُقُولُ مُخْتَلِفَةٌ، فَكُلٌّ يَقُولُ: إِنَّ عَقْلَهُ دَلَّهُ عَلَى خِلَافِ مَا يَقُولُهُ الْآخَرُ!

وَهَذَا الْكَلَامُ يُقَالُ لِكُلِّ مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى، لِامْتِنَاعِ مُسَمَّى ذَلِكَ فِي الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى خِلَافِ مَا يَعْهَدُهُ، حَتَّى فِي صِفَةِ الْوُجُودِ، فَإِنَّ وُجُودَ الْعَبْدِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَوُجُودَ الْبَارِي تَعَالَى كَمَا يَلِيقُ بِهِ، فَوُجُودُهُ تَعَالَى يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ، وَوُجُودُ الْمَخْلُوقِ لَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ، وَمَا سَمَّى بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ وَسَمَّى بِهِ مَخْلُوقَاتِهِ، مِثْلَ الْحَيِّ وَالْعَلِيمِ وَالْقَدِيرِ، أَوْ سَمَّى بِهِ بَعْضَ صِفَاتِهِ، كَالْغَضَبِ وَالرِّضَى، وَسَمَّى بِهِ بَعْضَ صِفَاتِ عِبَادِهِ، فَنَحْنُ نَعْقِلُ بِقُلُوبِنَا مَعَانِيَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ حَقٌّ ثَابِتٌ مَوْجُودٌ، وَنَعْقِلُ أَيْضًا مَعَانِيَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ، وَنَعْقِلُ أَنَّ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا، لَكِنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ مُشْتَرَكًا؛ إِذِ الْمَعْنَى الْمُشْتَرَكُ الْكُلِّيُّ لَا يُوجَدُ مُشْتَرَكًا إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ، وَلَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا مُعَيَّنًا

مُخْتَصًّا. فَيَثْبُتُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا كَمَا يَلِيقُ بِهِ. بَلْ لَوْ قِيلَ: غَضَبُ مَالِكٍ خَازِنِ النَّارِ وَغَضَبُ غَيْرِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: لَمْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِكَيْفِيَّةِ غَضَبِ الْآدَمِيِّينَ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَيْسُوا مِنَ الْأَخْلَاطِ الْأَرْبَعَةِ، حَتَّى تَغْلِيَ دِمَاءُ قُلُوبِهِمْ، كَمَا يَغْلِي دَمُ قَلْبِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ غَضَبِهِ. فَغَضَبُ اللَّهِ أَوْلَى.

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق ببعض صفات الله تعالى، ومنها: صفة الغضب، والرِّضى، والسخط، والحبّ، والبغض، ونحوها، وهذه تسمّى صفات فعليّة. وقد مرّ فيما تقدّم أنّ الصفات تنقسم قسمين: صفات فعليّة، وصفات ذاتيّة.

فالصفات الذاتيّة: هي الملازمة للموصوف، كصفة الكلام والحياة والوجه واليد والسمع والبصر، ونحوها. وأمّا صفات العلو والنزول والكراهية والسخط والغضب والرّضى، فهي صفات فعلية، أي إنّ الله تعالى يفعلها إذا شاء. وقد تكاثرت الأدلّة في هذه الصفات.

ففي إثبات الصفات الفعلية وردت أدلّة كثيرة في القرآن والحديث. وهذه الأدلّة مع كثرتها أنكرها الكثير من المبتدعة، فقد أنكرها المعتزلة، مع أنّهم أنكروا كذلك الصفات الذاتيّة وغيرها. وأنكر الأشعريّة هذه الصفات الفعليّة. ولكن أهل السنّة لم ينكروها، بل أقروا بها؛ لأنّهم رأوا الأدلّة عليها واضحة من القرآن والسنّة، وهي متواترة. فقول الله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]، هل ننكر دلالة هذه الآية على صفة الغضب؟ وقوله - عز وجل -: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ [النور:٩]، وقوله في القاتل: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء:٩٣]، وكذلك قوله تعالى حكاية عن هود - عليه السلام - لـمّا أغضبه قومه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١]، وقال في اليهود: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١]، وكذلك آيات السّخط، كقوله تعالى: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٢]، وكذلك آيات الرّضى كثير ورودها في القرآن: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩]. فنقول: لا شكّ أنّ هذا وصف ظاهر.

وكذلك أيضًا في الأحاديث، ففي حديث الشفاعة: «**فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**»[1]، وكذلك يقول إبراهيم - عليه السلام - وأولوا العزم من الرسل، يقرّون بأنّ الله سبحانه يغضب في هذا اليوم غضبًا شديدًا. وهذا دليل على أنّ الأنبياء والرّسل يعترفون لربّهم بصفة الغضب الذي يليق به.

وعلى هذا، فلا بدّ من إثبات هذه الصفة، ولكن إذا أثبتناها، فإنّنا لا نكيّفها، ولا نقول كيفيّة الغضب كذا وكذا في حقّ الله، وكذلك ننزّهها عن مشابهة غضب المخلوق. ولذلك يقول الطحاوي: «لا كأحد من الورى»؛ أي: لا كغضب أحد

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٥).

من الخلق، فغضب الله يليق به، وغضب المخلوق يليق به.

وقد أنكر الأشاعرة هذه الصفة، وقالوا: إن الغضب الذي نعرفه: هو غليان دم القلب لطلب الانتقام. وهذا لا يليق بالله، ولا يليق به أن يوصف بهذا الغضب الذي بهذه الصفة. قال لهم أهل السنّة: فبمَ تفسّرون الآيات والأحاديث التي فيها إثبات الغضب. فقالوا: نفسّره في حقّ الله بأنّه إرادة الانتقام. قلنا: كيف صرفتم غضب الله إلى إرادة الله أن ينتقم، أي: إلى إرادة الانتقام؟ وهم صرفوه لأنّهم يعترفون بالإرادة، فهم يثبتون صفة الإرادة لله. فإذا قلنا لهم: الإرادة: ميل النفس إلى المراد. قالوا: لا، هذه إرادة المخلوق. فإن قلنا: الغضب الذي هو غليان دم القلب بإرادة الانتقام، وهذا أيضًا غضب المخلوق، فأنتم فررتم من شيء ووقعتم في مثله، فالأولى لكم أن تثبتوا صفة الغضب، وتنفوا عنها التشبيه، وتكلوا كيفيّتها إلى الله تعالى، كما تفعلون ذلك في سائر الصفات؛ لأنّ المخلوق قد وصف بكثير من الصفات التي هي من صفات الله، ومع ذلك يوجد فارق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

فإذا أثبتنا صفتي السمع والبصر اللتين أثبتهما الله تعالى لنفسه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]. وكذلك يوصف بها الإنسان، فيقول تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم:٣٨].

فإذًا: الإنسان سميع والله سميع، هل يلزم التشابه بين سمع الخالق وسمع المخلوق؟ معلوم أنّهما اشتركا في معنى عام. فإذا قيل ما هو السّمع؟ نقول: هو إدراك الأصوات. ولكن سمع الله لا يحجبه شيء، فهو يسمع دبيب النملة السوداء على الصفاة الصّمّاء في اللّيلة الظلماء، وسمع الله لا تختلف عليه الأصوات، ولا تغلقه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات. وسمع المخلوق ليس كذلك، فأنت إن تكلّم عندك اثنان معًا، اشتبه عليك ما يقول هذا بما يقول هذا. أمّا الرّب تعالى فلا يشغله سمع عن سمع. فإذًا حصل الفرق.

وكذلك البصر، الاشتراك في المعنى العام، وهو أن يقال: ما هو البصر؟ نقول: هو إدراك الصور والأشباح. لكن بصر الله غير بصر المخلوق. فالله تعالى موصوف بالبصر، ولا يستر بصره حجاب. أما المخلوق فلا يخرق بصره الحجاب، ولا يرى ما يبعد عن مدى بصره، فهناك فارق.

وكذلك نقول في الغضب والرّضى، وفي السخط والبغض، والكراهية والمحبّة. فنقول: إنّ بين محبّة الله ومحبّة المخلوق فرقًا. ولا نقول: إنّ محبّة الله هي ميل النفس إلى المحبوب، أو الانعطاف نحو الشخص المحبوب.

وكذلك قول النّبي ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّماءِ**»[1]. رحمة المخلوق معناها عطفه وحدبه على هذا الضعيف، ورقّته عليه حتّى ينقذه من شدّة، أو يفرّج عنه همًّا، أو نحو ذلك من باب

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٥).

الإنسانيّة. ولـمّا رأى الصحابة - رضي اللّهُ عنهم - امْرَأةً من السَّبْي تبتغي صَبِيًّا لها في السَّبْيِ، فلمَّا وَجَدَتْهُ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فقال رسول اللّهِ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هذه المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قالوا: لَا والله، وهي تَقْدِرُ على أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فقال: رسول اللّهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ من هذه بِوَلَدِهَا»[1]. فالأمّ: تحبّ ولدها وترحمه وتشفق عليه، وإذا بكى رفعته وقبّلته، وألقمته ثديها. هذه رحمة جعلها في قلوب عباده، والله تعالى موصوف بأنّه رحيم وأنّه يرحم، ولكن هل رحمة الخالق مثل رحمة المخلوق؟ ليس بينهما تقارب، فالله تعالى رحيم بعباده، ولكن لا يلزم أن تكون من باب الرقّة التي تكون للمخلوق أو نحوها، فرحمة المخلوق تليق به، ورحمة الخالق تليق به. إنما تشتركان في أنهما تتعديان، فرحمة المخلوق تصل إلى الضعفاء، ورحمة الخالق تصل إلى عباده، يرحمهم بمعنى: أنّه ينقذهم من الشدائد، ويرحمهم بمعنى: يغفر لهم، ويكفّر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنّته، ومن آثار رحمته أنّه ينزل الغيث.

فيُقال كذلك في الغضب والرّضى. وقد مرّ ذلك في كلام الشارح أنّ غليان الدم في القلب ليس هو حقيقة الغضب، ولكنّه أثر من آثار الغضب. فعندما يأتي الإنسان ما يغضبه، يشتدّ غليان قلبه، ويحنق ويحقد على هذا الذي أغضبه، فإذا غضب أثار ذلك حماسته، حتى اندفع بأن ينتقم منه. فتراه مثلًا قد يحمرّ وجهه وتنتفخ أوداجه، وذلك أثر. مثل الاحمرار والانتفاخ والشدّة في الكلام،

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣٧٣).

والانطلاق في السّباب، وليس هذا نفس الغضب، ولكنّه أثر من آثاره، فيقال مثلًا: من آثار غضب الله أنّه يعاقب العصاة العتاة، وأنّه يريهم بأسه وشدّته، ويرسل عليهم العقوبات؛ جزاء على كفرهم وعنادهم. ويقال: أغضبوا الله، بمعنى: أنّهم خالفوا أمره، وعصوه، أو نهاهم عن شيء فأتوه، وهذا يسبّب غضب الله عليهم.

فلو أنّ الإنسان أمر ولده فعصاه، لغضب عليه، ومن آثار غضبه أن يضربه أو يؤدّبه. الربّ تعالى يأمر خلقه الذين هم عبيده، وهو المنعم عليهم؛ ولا غنى لهم عن ربّهم طرفة عين، ومع ذلك يعصيه هؤلاء، وهذا يسبب غضبه عليهم، فإذا غضب عليهم عاقبهم، كما أنّهم إذا أطاعوه رضي عنهم، فرضاه له آثار، آثاره أن يفرّج عنهم الهموم والشدائد، وينصرهم ويعطيهم سؤلهم ويجيب دعوتهم، فيقال: هؤلاء قد رضي الله عنهم، ويثيبهم في الآخرة، فيكون ثوابه أثرًا من آثار رضاه عنهم. كما يقول تعالى في أهل الجنّة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩]. وكذلك يقال في العصاة: هؤلاء الذين غضب الله عليهم. من آثار غضبه: أن سلّط بعضهم على بعض، وأن أوقع بينهم الفتن والمصائب، وأن أحلّ بهم النكبات والعقوبات، ونحو ذلك.

نقول: علينا أن نثبت هذه الصفات، كما أثبتها الله، وألا نسلّط عليها التأويلات؛ كقولهم: الغضب: إرادة الانتقام، والرّضى: إرادة الإنعام، ونحو ذلك. حيث وقع هؤلاء في مثل ما هربوا منه، أو أنكروا صفة أثبتها الله لنفسه،

فإذا أثبتوها وقالوا: نثبتها كما يليق بالله، ونفوّض كيفيّتها إلى الله، ولا نسلّط عليها التأويلات، ولا نتكلّف في صرفها عن ظاهرها، سلموا من الاعتراض. وهذا ما سلكه أهل السنّة. أمّا أهل البدع فإنّهم تشدّدوا وتكلّفوا حتّى حمّلوا الآيات والأحاديث ما لا تطيق، وجعلوها خارجة عن معناها، ولو وُفّقوا وسلكوا طريقة أهل السنّة في الرّضى والتسليم لم يقعوا في مثل هذه المخالفات.

ومن البدع أيضًا: التعطيل؛ أي: تعطيل الله عن صفات الكمال؛ لأنّ الذين روّجوها وأدخلوها كأنّهم اكتسبوا النّاس بالعقول، وأقنعوا من اتصلوا به أو من دعوه إلى أنّ أدلّتهم عقليّة، وأنّ العقل هو الأصل في النّقل، وأنّهم ما عرفوا صدق الرسل إلا بالعقل، فلا يمكن أن يصدّقوا الرّسل فيما يخالف العقل، أو فيما لا يقرُّه العقل، هكذا روّجوا ودعوا وموّهوا.

ومعلوم أنّ المعطّلة يقال لهم الجهميّة؛ لأنّ الجهم بن صفوان هو الذي نشر بدعة التعطيل، وأوّلهم هو الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله القسري، ثم تبعه الجهم بن صفوان الذي قتله سلم بن أحوز، ثمّ انتشرت هذه البدعة وصارت عقيدة لطائفة تسمّوا بالمعتزلة، أنكروا صفات الله تعالى، بل أنكروا أسماءه، وزعموا أنّها أعلام لا تدلّ على صفات، فقالوا: إنّ الله عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، رحيم بلا رحمة. وأنكروا أيضًا صفات الأفعال، وصفات الذوات، فأنكروا علوّ الله تعالى على خلقه، وأنكروا ما أثبته لنفسه: كالوجه، بقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]، واليدين بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ

مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤]، والعين بقوله: ﴿ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا ﴾ [القمر:١٤]. كذلك نفوا الصفات الفعليّة؛ فنفوا أنّ الله تعالى يحب أو يكره، أو يغضب، أو يرضى.

ووافقهم على هذا النفي طائفة متأخّرة تسمّوا بالأشاعرة، انتسبوا إلى أبي الحسن الأشعريّ، ولكنّه تبرأ منهم ورجع عن طريقتهم، واعتقد معتقد أهل السنّة ومعتقد الإمام أحمد، ومن كان على طريقته. لكن هؤلاء الذين تسمّوا بالأشاعرة أخذوا طريقة عن الأشعريّ كان رجع عنها. ومن عقيدتهم أنّهم لا يثبتون إلا سبع صفات، ومن عقيدتهم أنّهم ينكرون صفات الأفعال: فأهل السنّة يقولون: إنّ الله يغضب لا كغضب المخلوق، ويرضى لا كرضى المخلوق، ويحبّ لا كمحبّة المخلوق، ويسخط لا كسخط المخلوق. وهذه صفات كمال، ولو كانوا يتوهّمون أنّها مستحيلة.

ولكنّنا نقول: إنّنا نثبت أنّ الله يحبّ من يشاء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾ [الصف:٤]، ونثبت أنّ الله يرضى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ [المائدة:١١٩]، ونثبت أنّه يغضب: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ ﴾ [الفتح:٦]، ونثبت أنّ الله يكره: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾ [التوبة:٤٦]. نثبت جميع هذه الصفات، ولكن ننزّه الله أن تكون صفاته مشابهة لصفات المخلوقين، بل صفات المخلوق تشبهه، وصفات الخالق تناسبه، ولا نفسّرها تفسيرًا أكثر من إثباتها وحقيقتها.

ولكن الذين نفوها قالوا: لا يتّصف بها إلاّ المخلوق، وأنّه يلزم من إثباتها كذا

وكذا من المشابهة التي لا يليق أن تكون في الخالق. ولكن عمدتهم - كما يقولون - أنّ العقل يستبعدها، وأنّه لا يمكن أن يتّصف بها الخالق عقلًا، فقدّموا العقل على النقل، واعتمدوه دليلًا.

ويقال لهم: ما دمتم اعترفتم بأنّ الرّسل صادقون، وأنّ عقولكم دلّت على صدق الرّسل، وعلى صدق ما جاءت به، فعليكم أن تتقبّلوا كلّ ما جاء عنهم، وأن لا تردّوا منه شيئًا، فإن رددتم بعضًا دون بعض، فقد صدّقتم بشيء وكذّبتم بشيء، فتكونون كالذين قال الله لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]، كما توعّد الله بذلك اليهود.

وبذلك نعرف أننا يجب أن نؤمن بجميع ما جاء به النبيّ ﷺ من الأسماء والصفات والعبادات والمعاملات وسائر الأحكام. آمنّا بالله، على ما جاء عن الله، وعلى مراد الله، وآمنّا برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله، وآمنّا بالكتاب كلّه ولم نقبل بعضًا ونردّ بعضًا، ووكّلنا ما لم نعرف تأويله إلى عالمه، وتركنا تلك التأويلات التي يتأوّلها الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه، وصرنا بذلك مؤمنين بكتاب الله، متّبعين لرسول الله ﷺ، مصدّقين لما جاء به. وهذا هو الإيمان الذي أمر الله به وأمر به رسوله، يؤمنون بالكتاب كلّه، ولا يفرّقون بين أحد من رسله. فيحشرون مع سلف الأمّة وأئمّتها.

قال الشارح:

وَقَدْ نَفَى الجَهْمُ وَمَنْ وَافَقَهُ كُلَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ؛ مِنْ كَلَامِهِ، وَرِضَاهُ، وَغَضَبِهِ، وَحُبِّهِ، وَبُغْضِهِ، وَأَسَفِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَقَالُوا: إِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ مَخْلُوقَةٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، لَيْسَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَّصِفًا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ!!

وَعَارَضَ هَؤُلَاءِ مِنَ الصِّفَاتِيَّةِ ابْنُ كُلَّابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ، فَقَالُوا: لَا يُوصَفُ اللَّهُ بِشَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَصْلًا، بَلْ جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ صِفَاتٌ لَازِمَةٌ لِذَاتِهِ، قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ، فَلَا يَرْضَى فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَلَا يَغْضَبُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ. كَمَا قَالَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»[1]. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ؟ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

فَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَأَنَّهُ قَدْ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ ثُمَّ يَسْخَطُ، كَمَا يُحِلُّ السَّخَطَ ثُمَّ يَرْضَى، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ أَحَلَّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانًا

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

لَا يَتَعَقَّبُهُ سَخَطٌ.

وَهُمْ قَالُوا: لَا يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَلَا يَضْحَكُ إِذَا شَاءَ، وَلَا يَغْضَبُ إِذَا شَاءَ، وَلَا يَرْضَى إِذَا شَاءَ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَجْعَلُوا الرِّضَى وَالْغَضَبَ وَالْحُبَّ وَالْبُغْضَ هُوَ الْإِرَادَةُ، أَوْ يَجْعَلُوهَا صِفَاتٍ أُخْرَى، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَلَا يَتَعَلَّقُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَا بِمَشِيئَتِهِ وَلَا بِقُدْرَتِهِ؛ إِذْ لَوْ تَعَلَّقَتْ بِذَلِكَ لَكَانَ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ!! فَنَفَى هَؤُلَاءِ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةَ الذَّاتِيَّةَ بِهَذَا الْأَصْلِ، كَمَا نَفَى أُولَئِكَ الصِّفَاتِ مُطْلَقًا بِقَوْلِهِمْ: لَيْسَ مَحَلًّا لِلْأَعْرَاضِ. وَقَدْ يُقَالُ: بَلْ هِيَ أَفْعَالٌ، وَلَا تُسَمَّى حَوَادِثَ، كَمَا سُمِّيَتْ تِلْكَ صِفَاتٍ، وَلَمْ تُسَمَّ أَعْرَاضًا. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- لَمْ يَجْمَعِ الْكَلَامَ فِي الصِّفَاتِ فِي الْمُخْتَصَرِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ فِي الْقَدَرِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَعْتَنِ فِيهِ بِتَرْتِيبٍ.

وَأَحْسَنُ مَا يُرَتَّبُ عَلَيْهِ كِتَابُ أُصُولِ الدِّينِ تَرْتِيبُ جَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ»[1]، الْحَدِيثَ. فَيَبْدَأُ بِالْكَلَامِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ، ثُمَّ بِالْكَلَامِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ، وَثُمَّ، إِلَى آخِرِهِ.

قال الشيخ:

يتعلّق هذا الكلام بالرّد على هؤلاء الذين ينفون الصفات، أو الذين يثبتون

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

صفات دون صفات. وعرفنا أن الجهميّة ينفون الصفات، بل ينفون الأسماء، وعلّة النفي عندهم، إنّه ليس محلًا للأعراض، ويقولون: إنّنا ننزّه الله عن الحوادث والأعراض وما أشبه ذلك.

وهذا قول بعيد عن الصواب؛ لأننا لا نقول بالأعراض، بل نقول: إنّ الرّبّ سبحانه واحد بصفاته، فليس هناك أعراض، ولا أبعاض، ولا حوادث، ولا غير ذلك. فهؤلاء الجهميّة الذين نفوا الصفات كلّها.

أما الأشاعرة، والكلاّبيّة، فيسمّون الصفاتيّة، وسمّتهم المعتزلة بهذا الاسم؛ لأنهم أثبتوا سبع صفات، وهي: العلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام. وهؤلاء هم أتباع محمد بن سعيد بن كلاّبٍ، والأشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعريّ، وهؤلاء أنكروا الصفات الفعليّة؛ فأنكروا قول الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المائدة:١١٩]، وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾[الزخرف:٥٥]، وقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر:١٠]. فأنكروا: الحب والمقت، والغضب والرّضى، والكراهية والسخط والرّحمة؛ يقولون: لأنّها حوادث، والله لا تحُلُّ به الحوادث. هكذا يقولون، ويعلّلون بهذا التعليل في كتبهم قديمًا وحديثًا، كما كان من آخرهم زاهد الكوثري الذي مات في أواسط القرن الماضي، في تعليقاته على كثير من الكتب وفي تحقيقه لها، ينكر هذه الصفات، ويردّ ويعلّل: بأنّهم جعلوا الله محلًا للحوادث؛ أي: حدث عليه الرّضى بعد أن لم يكن راضيًا، وحدثت عليه المحبّة

بعد أن لم يكن محبًا، وحدث عليه السخط بعد أن لم يكن ساخطًا، والكراهية بعد أن لم يكن كارهًا. ونحن نقول: ليس كذلك، بل الله تعالى يحبّ إذا شاء، ويبغض إذا شاء، وله المشيئة التّامّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]؛ فجعل له المشيئة التّامّة، والإرادة متى شاء، وأخبر بأنّه يكره من يشاء، ويغضب إذا شاء، ويحبّ متى شاء.

وأخبر النّبي ﷺ بأنّ الله يغضب في وقت دون وقت، في حديث الشفاعة يقول الرسل إذا جاءهم النّاس يطلبون منهم الشفاعة: «**إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**»[1]. وهكذا يقول آدم وأولو العزم من الرسل، فيثبتون أنّ الله تعالى غضب ذلك اليوم غضبًا شديدًا على أولئك الذين وافوه بالكفر والشّرك وبالمعاصي والمخالفات، فغضب عليهم؛ لمقابلتهم له بهذه الأعمال، فلا بدَّ أن ينتقم منهم وأن يعذّبهم، وأن ينزلهم دار عذابه التي يستحقّونها. هكذا ورد في هذا الحديث، فدلّ على مخالفة قول ابن كرّام ومن معه، من أنّ الغضب لا يحل في وقت دون وقت. هؤلاء الصفاتيّة يقولون: هذه الصفات لا تتغيّر، فإن كان موصوفًا بالغضب، فالغضب صفة له دائمة، وإن كان موصوفًا بالرِّضى، فالرِّضى له صفة دائمة، فجمعوا بين النقيضين، ويجعلونها صفات ملازمة له، هكذا جعلوها، وخالفوا الأدلّة كما مرّ بنا.

ومن الأدلّة التي وردت في هذا الحديث الذي في أهل الجنّة؛ حيث يسألهم

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣٥).

تعالى عمّا يتمنّون بعدما أناهم جنّته، فلا يدرون ماذا يقولون! فيقول تعالى: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[1]. فدلّ على أنّه رضي عنهم رضىً مستمرًا، وأنّ هذا الرّضى هو الذي أحلّهم في دار الكرامة، وهو أكبر نعيم. قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، أي: أكبر نعيمًا لهم هو هذا الرّضى عنهم. فالله تعالى يرضى إذا شاء ويغضب إذا شاء، وكذلك نقول في بقيّة الصفات.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٣٥).

قال الطحاوي:

وَنُحِبُّ أصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ، وَلا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهم، وَلا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهم، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ وبِغَيرِ الخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَحُبُّهُمْ دِينٌ وإِيمانٌ وإِحْسَانٌ، وبُغْضُهُم كُفْرٌ ونِفاقٌ وطُغْيانٌ.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الرَّوَافِضِ وَالنَّوَاصِبِ. وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الصَّحَابَةِ هُوَ وَرَسُولُهُ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَوَعَدَهُمُ الْحُسْنَى.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، إلى آخر السورة، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ

أَنفَقُوا مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

وَهَذِهِ الْآيَاتُ تَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَعَلَى الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ، يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ لَا يَجْعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا لَهُمْ، وَتَتَضَمَّنُ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُسْتَحِقُّونَ لِلْفَيْءِ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّ فِي الْفَيْءِ نَصِيبًا، بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ». انْفَرَدَ مُسْلِمٌ بِذِكْرِ سَبِّ خَالِدٍ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ، دُونَ الْبُخَارِيِّ.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ لِخَالِدٍ وَنَحْوِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»، يَعْنِي: عَبْدَالرَّحْمَنِ وَأَمْثَالَهُ؛ لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَنَحْوَهُ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ، وَهُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا، وَهُمْ أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، فَهُمْ أَفْضَلُ وَأَخَصُّ بِصُحْبَتِهِ مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَهُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَبَعْدَ مُصَالَحَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ، وَمِنْهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَهَؤُلَاءِ أَسْبَقُ مِمَّنْ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُمْ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ، وَسُمُّوا الطُّلَقَاءَ، مِنْهُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَابْنَاهُ يَزِيدُ وَمُعَاوِيَةُ.

قال الشيخ:

هذا ابتداء كلام في فضل الصحابة ﷺ، والحامل على الكلام في الصحابة أنّه وجد طوائف يطعنون في الصحابة رضوان الله عليهم، ويرمونهم بالنّفاق، ويرمونهم بالرّدّة، ويتبرّؤون منهم، بل ويشتمونهم ويلعنونهم قديمًا وحديثًا، وهؤلاء الطوائف فرقتان: الروافض، والنواصب.

الروافض: هم الذين يغلون في أهل البيت، في عليّ ﷺ وذريّته فقط، ويزيدون في حبّهم، وأمّا بقيّة الصحابة ﷺ أو أكثرهم، فإنّهم يكفّرونهم.

وأمّا النّواصب: فهم الذين يضلّلون عليًا ﷺ وذريّته، ومن كان قريبًا منهم، ويميلون إلى بني أميّة، أو إلى من والاهم، وسمّوا نواصب؛ لأنّهم نصبوا العداوة لأهل البيت.

ولكن الرافضة هم الذين تمكّنوا وكثروا، فأصبحوا ينتشرون في الأرض، وتقوى شوكتهم.

نقول: لاشكّ أنّ حبّ الصحابة ﷺ من الإيمان؛ ولهذا قال النبيّ ﷺ في الأنصار: «**لَا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمِنٌ، ولا يُبْغِضُهُمْ إلا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ الله، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ الله**»[1]، ومعلوم أنّ المهاجرين أقدم وأفضل من الأنصار، فقدّم الله تعالى ذكرهم في الآيات التي ساقها الشارح هنا، ومع ذلك فإن الأنصار لهم ميزتهم، ولهم فضلهم، ولهم مكانتهم في السّبق والفضل.

كذلك أيضًا قد أثنى الله تعالى على جميع الصحابة رضوان الله عليهم كما مرّ معنا في الآيات: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]، لم يخصّ الله بعضهم، كلّ الذين يجاهدون معه، والذين يجلسون معه، والذين يصلّون معه مدحهم الله بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩]، وهذا يجب أن يكون وصفًا لأتباعهم: فيجب أن تكون أيّها المسلم رحيمًا مع المسلمين، شديدًا على الكافرين: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، يعني: تبغضهم، وتحقّرهم وتغلظ لهم القول، وتتبرّأ من طريقتهم، وتجاهدهم بما تستطيع من أنواع الجهاد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التحريم: ٩]، فوصف الله الصحابة رضوان الله عليهم بأنّهم أشدّاء على الكفّار، وكأنّه يمدح الذين كانوا على هذه الطريقة في الشدّة عليهم، ومدحهم بأنّهم رحماء بينهم، أي يرحم بعضهم بعضًا، وما أجلّه من وصف أن يكون المسلم رحيمًا بإخوانه، مشفقًا عليهم، محبًّا لهم؛

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

لأنّهم مسلمون، ووصف الله سبحانه الصحابة ﷺ بقوله: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩]؛ دائمًا يشتغلون بالرّكوع والسجود، تظهر علامته على وجوههم من أثر السجود، وهذا دليل على أن من أخلّ بهذا الوصف، أو ترك الصلاة والسجود والركوع، فإنّه مخالف لطريقة الصحابة رضوان الله عليهم، ومخالف لطريقة الأمّة.

وصفهم الله بأنّهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، ووصفهم في آخر الآية بقوله: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فنقول لمن يبغضهم: إنّهم قد غاظوك، فأنت داخل في هذه الآية، كلّ من أبغضهم فقد صار في قلبه غيظ عليهم وحقد وشنآن وبغضاء، هكذا حالة من يبغضهم، فهو داخل في هذه الآية، من غاظه الصحابة فهو كافر.

وكذلك مدحهم الله تعالى بالسّبق: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠]، السابقون: المتقدّمون الذين أسلموا قديمًا من المهاجرين، ومن الأنصار، ومن الذين أسلموا بعد الهجرة، ومن الذين اتّبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة؛ مدح الله الجميع بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[التوبة: ١٠٠]، وذلك فضل من الله تعالى.

وكذلك مدحهم في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ آمنوا إيمانًا راسخًا في قلوبهم،

وجاهدوا بالأموال وبالأنفس، هؤلاء هم المهاجرون، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ هؤلاء هم الأنصار، ثم قال بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال:٧٤]، مدحهم بأنّهم هم المؤمنون حقًّا، وقال بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾[الأنفال: ٧٥]. هذه كلّها مدائح لهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم، ولكنّ الرّوافض قوم لا يعقلون، قوم لا خلاق لهم!.

وكذلك أيضًا الآية التي في سورة الحديد وهي قوله تعالى:﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[االحديد: ١٠]. وعدهم الله الثواب العظيم والثواب الكبير للجميع.

وكذلك أيضًا الآيات التي في سورة الحشر لما ذكر الله تقسيم الخلق في هذه السورة، وأولهم الفُقراء من المهاجِرين في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨]، يعني: الفقراء الذين هاجروا بأنفسهم وتركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم وأهليهم، ونجوا بأنفسهم﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ﴾[الحشر: ٨]؛ لما ضُيِّق عليهم هربوا ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، ثمّ قال في الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، أي هؤلاء الأنصار يحبّون المهاجرين إليهم، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾من الفيء ومن الغنائم، بل يوافقون على ذلك ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ويقدّمونهم

على أنفسهم، ولو كانوا بحاجة ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ومن جاء من بعدهم من أواخر الصحابة ﷺ الذين أسلموا بعد الفتح، فهؤلاء منهم بشرط أن يدعو لهم ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[الحشر: ١٠]، ومن كان في قلبه بغض وحقد وغلّ وشنآن، فإنّه بريء منهم؛ ولذلك استنبط العلماء أنّ من لديه حقد على الصحابة ﷺ ولا يدعو لهم، أنّهم بلا شكّ ليسوا من أهل الفيء، ولا يستحقون أن يعطوا من بيت المال؛ وذلك لحقدهم على المسلمين، وبالأخصّ الصحابة ﷺ.

وقد اشتهر أنّ هؤلاء الرافضة يبغضون الصحابة ﷺ، ويشتمونهم ويدعون عليهم، ولكن ذلك خير للصحابة ﷺ؛ لأنهم قد ختمت أعمالهم، بعد الذي حصلوا عليه من الثواب العظيم. ولكن هؤلاء الذين يسبّونهم كأنّهم يهدون إليهم حسناتهم.

وقد روي عن بعض السلف أنّه قال: ما أرى النّاس ابتلوا بسبِّ الصحابة ﷺ إلاّ ليجري عليهم عملهم؛ أي: ليكون عمل الصحابة ﷺ مستمرّ غير منقطع، وليأخذوا من حسنات أولئك الذين يسبّونهم، فكأنّهم يهدونهم حسناتهم، وكأنّهم لما حقدوا عليهم رأوا أنّهم ضلاّل وكفّار، فعاد الضلال والكفر على هؤلاء والعياذ بالله، ودخلوا في قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح: ٢٩]، وهذا الوصف يعمّ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

وبلا شكّ أنّ الصحابة ﷺ يتفاوتون كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾[الحديد: ١٠]، أي: لا يستوي الذين أنفقوا وقاتلوا قبل صلح الحديبية، مع الذين أسلموا بعد الفتح، فنحن نفضّل الذين آمنوا قبل بيعة الرّضوان، الذين رضي الله بها عنهم، وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، تحت شجرة هناك بالحديبية وكانوا نحو ألف وأربعمئة وزيادة، وكلّهم بايعوه على أن يقاتلوا حتّى ينتصروا ولا يفرّوا حتّى الموت. وصدقوا في ذلك. قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]؛ صدقوا في هذا أتمّ صدق، ووفوا في هذه البيعة، ورضي الله عنهم، فقال في هذه السورة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ومن رضي الله عنهم يعلم أنّهم يثبتون على هذا الرّضى، وأنه لا يسخط عليهم وقد علم أنّهم أهل للرّضى، كيف يرضى عنهم وهو يعلم أنّهم سيرتدّون؟ أو سيكفرون فيما بعد، ما استثنى الله أحدًا من أهل البيعة. وقد ثبت أنّه ﷺ قال: **«لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إن شَاءَ الله - من أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا»**(١)، أي: كلّهم من أهل الجنّة.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

وكذلك قال للذين أسلموا بعد البيعة: «**لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أَحدَكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أدركَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصِيفَهُ**»[1]. المدّ: هو ربع الصاع، والنصيف: نصف المدّ. فكيف بمن أنفقوا أكثر أموالهم أو كلّها في سبيل الله. رضي الله عنهم وأرضاهم؛ فهم عدولٌ لا يدخلهم طعن، ومن طعن فيهم، فقد كذّب خبر الله، ومن كذّب خبر الله يُعد كافرًا؛ لأنه خالف كلام الله وطعن فيما أقرّ الله به، فهو يعلم ما كان وما يكون، يعلم إيمانهم وما في قلوبهم، ويعلم أنّ قلوبهم مطمئنّة بالإيمان.

إذًا الذين طعنوا فيهم يطعنون في الله تعالى، وأنه لم يعلم أنّهم سيرتدّون، وهذا معتقد الرافضة، فهم يقولون: إنّ هذه الصفات التي ذُكروا بها كانت من قبل، وبطل مفعولها بعد أن ارتدّوا. هكذا يقولون، ويكفّرون أجلاّء الصحابة رضوان الله عليهم، فعلى هذا يكونون قد طعنوا في خبر الله، وقالوا: إنّ الله لم يعلم ما في قلوبهم.

لم يزل المسلمين يحبّون الصحابة ﷺ ويجلّونهم، ويعترفون بفضلهم، ويعرفون أنّ الله اختارهم لصحبة نبيّه ﷺ، ويعلمون أنّهم خيرة الأمة، وصفوة قرون هذه الأمّة، وأنّ هذه الأمّة خير الأمم، وأزكاها عند الله تعالى. كما قال ﷺ: «**نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يوم الْقِيَامَةِ**»[2]؛ الآخرون وجودًا، والسابقون يوم القيامة،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فهذه الأمّة تسبق الأمم غيرها، ولا شكّ في أنّ خيرها صحابة النبيّ ﷺ. وقال ﷺ: «**خَيْرُ النَاس قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١)، فخير النّاس من الأولين والآخرين القرن الذي بُعث فيهم رسول الله ﷺ من المؤمنين، وهذه تزكية من النبيّ ﷺ لهم، ولما قال لأصحابه: «**وَالَّذِي نَفْسِي بيده إني أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فَكَبَّروا، فقال: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فكَبّروا، فقال: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(٢) فَكَبَّروا.

وقد زكّاهم الله سبحانه: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]؛ يُراد بالأولين على الصحيح: الأولين من هذه الأمّة، أي الصحابة، فذكر أن أكثر السابقين الأولين من الصحابة، وكذلك من تبعهم وسار على نهجهم.

لقد فضّل الله سبحانه هؤلاء الصحابة وذكر ميزتهم، وذكر فضلهم فقبل المسلمون خبر الله تعالى، وقبلوا ما جاء به رسوله ﷺ، وفضلوا هؤلاء الصحابة ﷺ؛ لأنّهم هم الذين حملوا هذه الشريعة، وهم الذين بلّغوا القرآن كلام الله، وهم الذين بلغوا سنّة النبيّ ﷺ لمن بعدهم، وعملوا بقوله ﷺ: «**وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**»(٣)، وقوله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(٤)، فحملوا السنّة وبلّغوها.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧) ، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

فإن كانوا - كما تقول الروافض - كفارًا فكيف يقبل خبرهم؟ وكيف يقبل تبليغهم؟

ومعنى كلام الرافضة أن دين الله مغيّر، وأنّ كلام الله مبدّل، وأنّ شريعة الله غير محفوظة، وأنّ الله ما صدق في كلامه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، لم يحفظه، بل وكل أمره إلى كفرة فجرة - في زعمهم - غيّروا فيه وكتموا وزادوا ونقصوا، وحرّفوا، وقالوا ما يريدون، هذا مقتضى قول الرافضة، فما حفظ الله الشريعة، وليست هذه هي الشريعة الإسلامية في زعمهم.

فالطعن في الصحابة رضوان الله عليهم طعن في خبر الله، وطعن في الإسلام، وطعن في القرآن، وطعن في السنّة، وفي الأحاديث النبويّة، وفي الأحكام، وفي الأوامر والنّواهي، وطعن في كلّ ما جاء في هذه الشريعة.

ولكن - بحمد الله - أنّ الله تعالى قيضهم حتّى حفظوا الشريعة وبلّغوها، وقيض لهم تلامذة يتقبّلون منهم، ويأخذون عنهم السنّة، وقيّض للآخرين تلامذة إلى أن حفظت الشريعة الإسلامية، وحفظت بالأقوال وبالأفعال. وصدق كلام الله في هذه الآية في أنه يحفظ شريعته عن الضياع؛ لتقوم الحجّة على العباد، على الآخرين كما قامت على الأولين، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[الأنعام: ١٤٩]، وليس للعباد، فإن كانت الحجّة لله، فإنّ كلامه لم يتغيّر لتقوم الحجّة علينا وعلى من بعدنا، وعلى الخلق كلّهم حتى تقوم الساعة، وحتّى لا يقول النّاس: ما جاءنا بشير ولا نذير، بل جاءكم بشير ونذير يحمل الشريعة، قيّض الله له صحابة أتقياء أنقياء

اعترفت الأمّة بفضلهم، وفضائلهم التي اعترف بها الجميع، وألفوا بها الكتب والمؤلفات، فتجدون كتابًا للإمام أحمد في فضل الصحابة، وكذلك في «صحيح البخاري»، تجدون كتاب فضائل الصحابة، يبدأ بالخلفاء الرّاشدين، وكذلك في «صحيح مسلم» كتاب فضائل الصحابة، وكذا أكثر المؤلفين رووا فضائلهم بالأسانيد الصحيحة الثابتة، التي لا طعن فيها. كلّ ذلك اعتراف منهم بأنّ الصحابة ﵃ هم أفضل هذه الأمّة. وأجمعت الأمّة على تفضيل الخلفاء الراشدين فيهم، ثمّ العشرة المبشرين بالجنّة، وهكذا بقيّة الصحابة ﵃، ولم تزل الأمّة تترضى عنهم، والله تعالى قد رضي عنهم بقوله: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ١٨]، وإذا رضي الله عنهم، فمتى علمتم يا أيها الرافضة، أنّه سخط عليهم؟؟!

يجب على المؤمن أن يعرف فضلهم، وأن يعترف بفضائلهم، وأن يصدّق ما جاء في كتاب الله وفي سنّة رسوله ﷺ، وأن يترضّى عنهم، وأن يحبّهم، وأن ينشر بين المسلمين فضائلهم، وأن يحذر من الرافضة الذين يطعنون فيهم ويكفّرونهم، ويطبّقون عليهم الآيات التي جاءت في المنافقين، ويجعلونهم منافقين أو مرتدّين بعد النبيّ ﷺ، وبذلك تعرف طريقة أهل السنّة، وطريقة الرافضة، الذين سمّوا أنفسهم شيعةً.

قال الشارح:

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ نَهَى مَنْ لَهُ صُحْبَةٌ آخِرًا أَنْ يَسُبَّ مَنْ لَهُ صُحْبَةٌ أَوَّلًا، لِامْتِيَازِهِمْ عَنْهُمْ مِنَ الصُّحْبَةِ بِمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْرَكُوهُمْ فِيهِ، حَتَّى لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُهُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَإِنْ كَانَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِحَالٍ مَعَ الصَّحَابَةِ؟ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ - مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - هُمُ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا، وَأَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ كُلُّهُمْ مِنْهُمْ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ.

وَقِيلَ: إِنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مَنْ صَلَّى إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ. فَإِنَّ الصَّلَاةَ إِلَى الْقِبْلَةِ الْمَنْسُوخَةِ لَيْسَ بِمُجَرَّدِهِ فَضِيلَةً؛ لِأَنَّ النَّسْخَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَلَمْ يَدُلَّ عَلَى التَّفْضِيلِ بِهِ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، كَمَا دَلَّ عَلَى التَّفْضِيلِ بِالسَّبْقِ إِلَى الْإِنْفَاقِ وَالْجِهَادِ وَالْمُبَايَعَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

وَأَمَّا مَا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ، بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»، فَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ، قَالَ الْبَزَّارُ: هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.[1] وَلَيْسَ هُوَ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ الْمُعْتَمَدَةِ.

---

(١) قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٩٠): «رواه عبد بن حميد في مسنده من طريق حمزة النصيبي عن نافع عن ابن عمر، وحمزة ضعيف جدًا، ورواه الدارقطني في غرائب مالك من =

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[١] عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قِيلَ لِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: إِنَّ نَاسًا يَتَنَاوَلُونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ! فَقَالَتْ: وَمَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا! انْقَطَعَ عَنْهُمُ الْعَمَلُ، فَأَحَبَّ اللَّهُ أَنْ لَا يَقْطَعَ عَنْهُمُ الْأَجْرَ.

وَرَوَى ابْنُ بَطَّةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً - يَعْنِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَفِي رِوَايَةِ وَكِيعٍ: خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ[٢].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وَغَيْرِهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

طريق جميل بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر، وجميل لا يُعرف ولا أصل له في حديث مالك ولا من فوقه، وذكره البزار من رواية عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر، وعبد الرحيم كذاب، ومن حديث أنس أيضًا، وإسناده واه، ورواه القضاعي في مسند الشهاب له من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، وفي إسناده جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، وهو كذاب، ورواه أبو ذر الهروي في كتاب السنة من حديث مندل عن جويبر عن الضحاك بن مزاحم منقطعًا، وهو في غاية الضعف، قال أبو بكر البزار: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ».

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٢٧٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٣٨٧).
والذي أخرجه مسلم (٣٠٢٢) عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «أمروا بالاستغفار لأصحاب النبي ﷺ فسبوهم».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (١/ ٥٧)، وابن ماجه (١٦٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٨٤) من قول ابن عمر رضي الله عنهما.

ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً. الْحَدِيثَ[١].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[٢] عَنْ جَابِرٍ ﵁، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧] الآيات.

وَلَقَدْ صَدَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﵁ فِي وَصْفِهِمْ، حَيْثُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْهُ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّءٌ[٣].

وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَدْ رَأَى أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ جَمِيعًا أَنْ يَسْتَخْلِفُوا أَبَا بَكْرٍ[٤].

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١١٢).

(٢) برقم (٢٤٩٦) بنحو هذا اللفظ. وأخرجه بلفظه: أبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٤)، وأحمد (٣/ ٣٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩)، والبزار (٥/ ٢١٢)، والطبراني في الكبير (٨٥٨٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٨): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون».

(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٣٦٧)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٤١)، والحاكم (٣/ ٧٨).

وَتَقَدَّمَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ... إِلَخْ. عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالجَمَاعَةَ).

فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ لِخِيَارِ المُؤْمِنِينَ، وَسَادَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ؟ بَلْ قَدْ فَضَلَتْهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِخَصْلَةٍ، قِيلَ لِلْيَهُودِ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى. وَقِيلَ لِلنَّصَارَى: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ عِيسَى. وَقِيلَ لِلرَّافِضَةِ: مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ!! لَمْ يَسْتَثْنُوا مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلَ، وَفِيمَنْ سَبُّوهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِمَّنِ اسْتَثْنَوْهُمْ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ.

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ)، أَيْ: لَا نَتَجَاوَزُ الحَدَّ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، كَمَا تَفْعَلُ الشِّيعَةُ، فَنَكُونُ مِنَ المُعْتَدِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

قال الشيخ:

فضائل الصحابة ﷺ أكثر مما مرّ معنا، ولو لم يكن إلا هذا الحديث عن النبيّ ﷺ: «لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أَحدَكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أدركَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصيفَهُ»(١). وكذلك هذا الأثر الوارد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- الذي يقول: «لا تَسُبُّوا أَصْحابَ محمَّدٍ، فلَمقامُ أَحدِهِمْ ساعَةً خَيْرٌ مِنْ

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤١).

عَمَلِ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً»، أي: خير من عبادة أحدكم أربعين سنة.

وما ذالك إلا أنّهم آمنوا في وقت أزمة وشدّة، وفي وقت كفر وضلال، وفي وقت شرك وعبادة أوثان، فآمنوا واهتدوا، وفارقوا الأهل والبلد والمال، وأخلصوا دينهم لله، ووقرت محبّة الله ومحبّة الرسول ﷺ في قلوبهم، وثبت الإيمان في قلوبهم ورسخ، حتّى كان أرسى من الجبال، ثمّ ظهرت عليهم آثار ذلك، ففدوا رسول الله ﷺ بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأموالهم، وأنفقوا جلّ ما يملكون في طاعة الله وطاعة رسوله، واجتهدوا بالعمل الصالح، وتفوّقوا على من بعدهم بأضعاف مضاعفة، الذين ولدوا في الإسلام ونشؤوا فيه، ولو كانوا أكثر منهم عملاً، ولو كانوا أقوم منهم أعمالاً، ولو كانوا أكثر منهم جهادًا أو نفقةً.

وقد جاءت الدلائل التي تدلّ على الرِّضى عنهم، فقد قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وهذا مدح لهم وإخبار برضاه عنهم، وفي قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ وذلك إخبار بأنّهم من أهل الجنّة، وخبر الله تعالى صدق، ومن أصدق من الله حديثًا، وفي قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]؛ يعني في غزوة تبوك، وهم أربعون ألفًا أو نحوهم، ذكر أنّه تاب عليهم كلّهم، لم يستثنِ منهم أحدًا. وكذلك ما ذكره الله تعالى من رضاه عن أهل بيعة الرضوان في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]؛ وأخبر بأنّ بيعتهم كأنها بيعة

الله: ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[الفتح: ١٠]؛ وحاشاهم أن ينكثوا بيعة الله، وحاشاهم أن يكذبوا في مبايعته، سواء كانت مبايعتهم على الموت أو على أنِ لا يفرّوا.

وقد ذكر أنّه لما نزل أول سورة الفتح، وفيه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح: ١-٣]؛ فقال الصحابة: هنيئًا مريئًا، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[الفتح: ٥][1].

ولكن الرّافضة لما أنّ الله طمس قلوبهم، وأعمى بصائرهم، صُدّوا عن هذه الآيات، ولم يتفكّروا فيها، وأخذوا يُنقّبون في الآيات التي وردت في المنافقين، وأخذوا يطبّقونها على الصحابة، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وإلاّ فنحن نقول لهم: متى سخط الله عليهم بعد الرِّضى؟! ومتى لم يتب عليهم بعد أن تاب؟! والله تعالى لا يخلف وعده، وقد صدقهم ما وعدهم.

وقد مرّ كلام ابن مسعود ﷺ، من أنّ الله سبحانه نظر في قلوب العباد، فاختار قلب محمّد ﷺ، ونظر في قلوب الأمم، فوجد قلوب أصحابه أبرّ وأزكى وأطهر، فاختارهم لصحبة هذا النبيّ ﷺ، مما يدلّ على أنّ الصحابة ﷺ هم

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٧٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

خلاصة الأمم، وهم صفوة الأمّة. ومرّ قوله أيضًا: من كان مستنًّا فليستَنَّ بمن مات. أولئك أصحاب محمّد ﷺ، أبرّ هذه الأمّة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلّها تكلّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ، فاعرفوا لهم حقّهم وفضلهم، فإنّهم كانوا على الهدى، وهذه شهادة منه ﷺ بأنّهم كانوا على الهدى، وأنّ من خالفهم وخرج عن طريقتهم ليس على الهدى، بل هو على الضلال.

الأدلّة الواضحة من الكتاب والسنّة شاهدة بفضائلهم ﷺ، وهي أكثر من أن تحصر. ولكن كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الأثر السابق الذكر: أنهم لما انقطع عملهم بموتهم، أجرى الله لهم حسنات غيرهم. فهؤلاء الذين يسبّونهم يعطونهم من حسناتهم، فهؤلاء الرافضة، والحاقدون على الصحابة ﷺ، يهدون إليهم أعمالاً كثيرة، فيصلّون ويتصدّقون ويصومون، ويذهب ثوابهم إلى غيرهم، فيأخذها الصحابة الأبرار.

ورُوي أيضًا عن الإمام أحمد: لم أرَ النّاس ابتُلُوا بسبِّ الصحابة إلاّ ليُجرِي الله لهم عملهم؛ لأنّه «**إذا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْه عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلَاثَةٍ**»[1]، ولكن إن كان هناك من يسبّه فإنّه يأخذ من حسنات الذين يسبّونه، وتُضافُ إلى حسناته. ويكون ذلك زيادة في حسناته، ورفعًا في مكانته.

وقد مرّ قول ابن مسعود ﷺ: «فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن»؛ يعني: الصحابة. وقد رأى المسلمون أنّ أبا بكر ﷺ أولى بالخلافة، فاتّفقوا عليه،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٠).

وولّوه أمر المسلمين، كما سيأتي. وذلك بلا شك اتفاق منهم على أهليّته وأفضليّته، وأحقّيته بالخلافة؛ ولهذا سمّوه خليفة رسول الله ﷺ، وهو لا شكّ أنّه أهل لهذه الخلافة، وقد قام بها خير قيام، وصمد وصبر، وعمل بما كان يعمله رسول الله ﷺ.

مرّ أيضًا ما يُقال عن اليهود والنّصارى، وأنهم خير من الرّافضة؛ فاليهود يقولون: أفضلُ بني إسرائيل أصحاب موسى عليه السلام، والنصارى يقولون: أفضل أتباع عيسى - عليه السلام - أصحابه الذين هم الحواريون. أمّا الرافضة فهم يقولون: شرّ هذه الأمّة أصحاب محمّد ﷺ. فتفوّقوا على اليهود، فصاروا أكثر من اليهود كفرًا؛ لأنّهم جعلوا أشرّ قرون هذه الأمّة وأكفرها، وأكذبها، وأبعدها عن الحقّ أصحاب النبيّ ﷺ. فهم ممّن زُيّن له سوء عملهم فرأوه حسنًا، ولم يستثنوا من أصحاب النبيّ ﷺ إلا عددًا قليلاً؛ كعليّ وأولاده، وعمار وسلمان وخبّاب ﷺ ونحوهم، وكذلك أقارب النبيّ ﷺ القدامى كحمزة ﷺ ونحوهم. أمّا بقيّة أصحاب النبيّ ﷺ فهم عندهم ضلاّل وكفّار، قاتلهم الله أنى يؤفكون، فلا يُغترّ بقولهم.

وبذلك نعرف أفضليّة الصحابة رضوان الله عليهم، مع أنّ أهل السنّة لا يشكّون بذلك، ولكن من باب التأكيد والتذكير.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ كَمَا فَعَلَتِ الرَّافِضَةُ)! فَعِنْدَهُمْ لَا وَلَاءَ إِلَّا بِبَرَاءٍ، أَيْ: لَا يَتَوَلَّى أَهْلَ الْبَيْتِ حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا!! وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُوَالُونَهُمْ كُلَّهُمْ، وَيُنْزِلُونَهُمْ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَهَا، بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، لَا بِالْهَوَى وَالتَّعَصُّبِ. فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الْبَغْيِ الَّذِي هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧]، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: الشَّهَادَةُ بِدْعَةٌ، وَالْبَرَاءَةُ بِدْعَةٌ. يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، مِنْهُمْ: أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ.

وَمَعْنَى الشَّهَادَةِ: أَنْ يَشْهَدَ عَلَى مُعَيَّنٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ أَنَّهُ كَافِرٌ، بِدُونِ الْعِلْمِ بِمَا خَتَمَ اللَّهُ لَهُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: (وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ)؛ لِأَنَّهُ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ النُّصُوصِ. وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ[1] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

وَتَسْمِيَةُ حُبِّ الصَّحَابَةِ إِيمَانًا، مُشْكِلٌ عَلَى الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّ الْحُبَّ

---

(١) برقم (٣٨٦٢).

عَمَلُ الْقَلْبِ، وَلَيْسَ هُوَ التَّصْدِيقُ، فَيَكُونُ الْعَمَلُ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كَلَامِهِ: أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْعَمَلَ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ مَجَازًا.

وَقَوْلُهُ: (وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ)، تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا الْكُفْرُ نَظِيرُ الْكُفْرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ.

قال الشيخ:

نقول: إنّ حبّ الصحابة من الإيمان، وبغضهم من النّفاق، فقد ثبت في «صحيح مسلم»، أنّ النبيّ ﷺ قال: «الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمِنٌ، ولا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ»[1].

ويُقال كذلك أيضًا في المهاجرين، فهم أقدم من الأنصار وأفضل، فبغضهم نفاق وكفر، وحبّهم زيادة في الإيمان وقوّة فيه، وباعث على الأعمال الصالحة، التي تنبعث من القلب.

ومن الأسباب الباعثة على حبّهم:

أولاً: سبقهم لمن قبلهم ولمن بعدهم، فهم الذين سبقونا بالإيمان، فنقول:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤٣).

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠]؛ أي: طهّر قلوبنا من أي حقد أو غلّ أو بغض لهم، فهم الذين تقدّمونا وكانوا مؤمنين.

ثانيًا: نحبّهم؛ لأنّ لهم المنّة علينا؛ لأنّهم حفظوا الشريعة، وبيّنوها، وبلّغوها، ودعوا إلى الله، وجاهدوا في سبيل الله، ونصروا الله ورسوله، وانتصر بواسطتهم الإسلام.

ثالثًا: نحبّهم؛ لأنّهم أهل الأعمال الصالحة، وأهل الأعمال في سبيل الله.

رابعًا: نحبّهم؛ لأنّهم أهل الإيمان القويّ، وأهل التصديق القويّ، وهم أولى بالمحبّة ممّن سمّوا أنفسهم شيعة، وادّعوا أنّهم يوالون ويعادون، ونحو ذلك.

مرّ معنا قول الرافضة: لا ولاءَ إلاّ بالبراء. ومعنى ذلك: أنّ من تولّى أهل البيت لزمه أن يتبرّأ من غيرهم، من الخلفاء الثلاثة، ومن غيرهم من الصحابةرضي الله عنهم!! لابدّ من الولاء والبراء. هكذا عندهم، نحن نقول: لا ولاء إلا ببراء. وهذا كلام صحيح، ولكن من الذي نتولاه؟ نتولى الصحابة ﷺ كلّهم، ومنهم أهل البيت، ومن الذي نتبرّأ منه؟ نتبرّأ من المنافقين، ومن الكافرين، ونتبرّأ ممّن أمرنا بالبراءة منه، ولو كانوا أقارب. كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الممتحنة: ٤]، هؤلاء هم الذين نتبرأ منهم، ولا ولاء إلا ببراء، ولاؤنا للمؤمنين ومن جملتهم الصحابة ﷺ، وبراؤنا من الكفار ولو كانوا أقارب، ولاؤنا لمن لأولياء الله ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وتبرّؤنا من أعداء الله، ومن جملتهم أولياء الشيطان، الذين قال الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأمّا الرافضة؛ فعندهم الولاء لعليّ وذرّيّته وزوجته وأمّ زوجته التي هي خديجة رضي الله عنها، وأما البراء، فهو من أبي بكر وعمر وجابر وأنس وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة... وهم أجلاّء الصحابة رضوان الله عليهم. ما معنى البراء منهم؟ يقولون: نتبرّأ منهم؛ لأنّهم مرتدّون خارجون عن الإسلام، وأهل السنّة يقولون: نحن نحبّهم ولا نغلو في حبّهم، لا في حبّ الخلفاء الثلاثة، ولا في حبّ أهل البيت، بل نكنّ لهم حبًّا متوسطًا، ليس فيه غُلوّ، فالرافضة غَلَوا في حبّ أهل البيت حتّى رفعوهم عن قدرهم، وأعطوهم شيئًا من حقّ الله، بل صاروا يعبدونهم من دون الله، ويدعونهم في الشدائد، ويدعونهم في القربات، وأمّا بقيّة الصحابة ﷺ فقد جفوا في حقّهم، وضلّلوهم وبدّعوهم وكفّروهم، فقد جمعوا بين الغلوّ والجفاء، لم يتوّسطوا في واحد منهما توسّط أهل السنّة، وخير الأمور ـ كما يُقال ـ أوساطها.

وقد هلكت في علي ﷺ طائفتان: طائفة غلوا وطائفة جفوا.

فالطائفة الذين جفوا هم النواصب، والخوارج. فإنّ الخوارج خرجوا على عليّ ﷺ وكفّروه، وقالوا له: حكّمت الرّجال. وقالوا له: لا حكم إلّا لله. هكذا يقولون. وقاتلوه إلى أنْ قتله أحدهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم؛ زعم أنّه مرتدّ لتحكيمه الحكمين. واشترطوا في رجوعهم، فقالوا لا نرجع إليك حتّى تعترف

أنّك قد كفرت، وأنّ أعمالك وجهادك كلّه باطل، وتعترف بأنّك تستقبل عملًا جديدًا، وتبطل ثوابك كلّه. هؤلاء ماذا نسمّيهم؟ نسمّيهم جفاة، جفوا في حقّ آل البيت، ونسمّيهم هالكين؛ لأنّهم كفّروا أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن كان في جيش عليّ ممن رضي عنه، وقد كثر ذلك المذهب في القرن الأوّل، وهو مذهب أولئك الخوارج، الذين يكفّرون عليًّا ﷺ، ويمدحون من قتله.

ورُوي أنّ عمران بن حطان كان من أهل السنّة، وقد روى أحاديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وغيرها من الصحابة، ثمّ تزوّج امرأة من النواصب؛ أي: من الخوارج، ورجا لذلك أن يؤثّر عليها حتّى ترجع وتكون من أهل السنّة، ولكنّها أثّرت عليه، وأدخلته مذهب الخوارج، فأصبح منهم لكنّه ليس من المقاتلين، ولكن من قعدتهم، وهو ممّن مدحوا ابن ملجم بأبيات قال في بعضها[1]:

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رُضْوَانًا

إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسَبُهُ ... أَوْفَى البَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانًا

يمدحون الذي قتل عليًا ﷺ، وهؤلاء لا شكّ طرف هالك.

أمّا الشيعة فمذهبهم معروف، وهو الرفض الذي هو الترك، ومنه: رفضت هذا القول، أي تركته. وهؤلاء الرافضة خرجوا في عهد عليّ ﷺ، وسبب ذلك أنّ يهوديًا يقال له: عبد الله بن سبأ دخل في الإسلام نفاقًا، أظهر الإسلام ولكن باطنه الكفر، وأراد بذلك أن يشكّك في الإسلام، ويدعو إلى أسباب الانحلال، فهو من

(١) أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٤٩٥).

الذين دعوا الثوار إلى قتل عثمان ﷺ، فهو جمع الجموع، وأثار من أثار حتّى اجتمعت عصابات خرجت من مصر ومن العراق، وحاصروا عثمان ﷺ، حتّى قُتل شهيدًا ﷺ. وكان من أسباب ذلك هذا المنافق. ولما استشهد عثمان ﷺ وتمّت البيعة لعليّ ﷺ ورأى عبدالله بن سبأ أن عليًا ﷺ محبوب عند أهل العراق، حيث استقرّ عندهم، أراد أيضًا أن يبطل إسلامهم، وأن يوقعهم في الكفر، فدعاهم إلى أن يغلوا في علي، فبدل ما هو خليفة وإمام يجعلونه ربًّا وإلهًا، فزيّن لهم وقال لهم: عليّ هو الربّ، وهو الإله. وانخدع به خلق كثير، واعتقدوا هذا الاعتقاد الفاسد، فقال: ابدؤوا بعبادته، فخرج عليهم عليّ ﷺ مرّة وهم صفوف، أعداد هائلة، فخرّوا له سجّدًا، فقال لهم: ما هذا؟ قالوا: أنت إلهنا، فتعجّب من ذلك، ودعا أكابرهم ليتوبوا، ولكن أصرّوا ولم يتوبوا، ثمّ اشتهر أنّه أحرقهم، وحفر لهم أخاديد، وأضرم لهم النيران، فكان يدعو أحدهم، ويقول له: تب، فمن لم يتب، أُلقي في تلك الأخاديد. وهو ينشد القول:

لَـمَّا رَأَيتُ الأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا   أَجَّجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرًا[1]

قنبر هو غلامه، وما زادهم هذا الإحراقُ إلا تمسكًا بما هم عليه، ويقولون: الآن عرفنا أنّك الرّب؛ لأنّك الذي تحرق بالنّار، ولا يعذّب بالنّار إلاّ ربّ النّار، فقتل من قتل منهم، وتمسكّ الباقون بما هم عليه.

وقد أنكر ابن عباس على عليّ ﷺ الإحراق، وقال: لو كُنتُ أَنا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ؛

---

(١) أخرج ذلك الأثر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (ص١٨٧).

لِأَنَّ النبي ﷺ قال: «لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ»، وَلَقَتَلْتُهُمْ كما قال النبي ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»(١). وكان المسلمون جميعًا على أنّهم يقتلون وأنّهم كفّار. هؤلاء هم غُلاة الرافضة الذين جعلوا عليًا ﷺ هو الإله، هم أتباع ابن سبأ، ولا يزال كثيرٌ منهم على هذه العقيدة، غلاة الباطنيّة والغرابية. ويحفظ من شعرهم:

أشهد أن لا إله إلا حيدره الأنزع البطين

ولا حجاب عليه إلا محمد الصادق الأمين

ولا طريق إليه إلا سلمان ذو القوّة المتين(٢)

لما كان سلمانُ ﷺ من الفرس، جعلوه هو الحاجب على الله، وحيدرة هو اسم عليّ؛ لأنه كان يقول في خيبر(٣):

أنا الذي سمّتني أمّي حَيْدَرهْ(٤)

كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ المَنْظَرَهْ

أُوَفِّيهِمْ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرهْ(٥)

---

(١) تقدم تخريجه (٣٦٦٥).

(٢) ذكره شيخ الإسلام في منهاج السنة النبوية (٢/ ٥١٢).

(٣) هذا الرجز أخرجه مسلم (١٨٠٧) في قصة فتح خيبر.

(٤) الحيدره: الأسد، سُمي به لغلظ رقبته. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٥٤).

(٥) أي: أقتلهم قتلًا واسعًا ذريعًا، والسندرة: مكيال واسع، وقيل: هي شجرة يُعمل منها النبل والعصي. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٠٨).

فصار هذا الاسم علمًا عليه، فهم يقولون: لا إله إلا عليٌّ، لا إلـه إلا حيـدرة. ومشهورٌ هذا الاعتقاد فيهم، وهؤلاء هـم بقيّة ورثـة ابـن سبأ، وهـم السبئيون، ويُقال لهم: الغـلاة. لما قُتل علـيّ ﷺ اعتقـدوا أنّه لم يُقتـل، بـل قـالوا: إنّه رفـع في السـحاب، واعتقـدوا أنّـه سـوف يرجـع؛ فلـذلك يقـال لأحـدهم: فـلان يـؤمن بالرجعة. ولا يزال كثير منهم يؤمن بالرجعة إلى اليوم.

يذكر أحد أصحاب دور الكتب أنّه جاءه أحد علماء الرافضة، وقـال لـه: إني ألّفت كتابًا. قال: في أيّ شيء؟ قال: في الرجعة. فقال: كيـف تكـون الرجعـة وقـد قُتـل علـي ﷺ، وكيـف يرجـع وقـد قـال الله: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١١]، فقال: قد آمن بها مشايخنا، وقد كتبوا فيها. فقـال: كلّ ذلك خطأ. فقال: بل أنت المخطئ. فلمّا رأى أنّه مشدّد في الإنكار، ذهب ذلك المؤلف وهو يقول: واإسلاماه! بمعنى: أنّه لم يجد من يؤيّده على الإيمان بالرجعـة. فهي عقيدة لا تزال موجودة، يؤمن بها الكثير في العـراق، وفي إيـران، وكثـير مـن البلاد التي يكثر فيها الرافضة.

وهناك أيضًا طائفة منهم غلوا في عليّ ﷺ، ولكن جعلوه هو الرّسول، وادّعوا أنّ الرسالة له، وأنّ جبريل ـ عليه السلام ـ أخطأ، كـان مـأمورًا أن ينـزل عـلى علـيّ ﷺ، ولكنّه خان ونزل على محمّد ﷺ، فعليّ أحقّ بالرسالة من محمد ﷺ؛ ولـذلك يقول أحدهم: خان الأمين وصدّها عن حيدره.

فهذا جبريل ـ عليه السلام ـ الذي سماه الله أمينًا في قولـه تعـالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

﴿ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقوله تعالى: ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ٢١]، يخوّنه هؤلاء الباطنية، وهم موجودون أيضًا، ويعتقد هذه العقيدة كثير من الرافضة في العراق وإيران بل في المملكة، ذكر لنا بعض الذين نقلوا عنهم من رافضة المدينة، أنّهم قبل التسليم من الصلاة يضربون بأيديهم على ركبهم ويكرّرون: خان الأمين خان الأمين. ثم يسلّمون.

وأمّا أكثريّتهم، فيُقال لهم الإمامية، يسمّون نفسهم الإماميّة، وهم في الحقيقة الرافضة. هذا هو الحقّ، وعقيدتهم: أنّ عليًّا ﷺ هو الإمام، وأنّ الأئمّة قبله مغتصبون، وأنّ أبا بكر ﷺ مغتصب للخلافة، وكذا عمر وعثمان رضي الله عنهما، وكذا من تولّى الخلافة غير عليّ ﷺ وذريّته، يعتبرون عندهم مغتصبين لما ليس لهم.

وهؤلاء أصل تكاثرهم في العراق، ثم انتشروا في غيره، وسببه - والله أعلم - ما حدث من بعض غلاة بني أميّة، في وسط القرن الأوّل، لما تولّى ابن زياد على العراق، وسبّب قتل الحسين ﷺ، واستمرّ فيها إلى أن قُتل ابن زياد، ثم مات بعده يزيد، فتولّى العراق بعد ولاية ابن الزبير الحجاج بن يوسف الثقفي في ولاية زياد، وفي ولاية أبيه، وفي ولاية الحجاج، كان هؤلاء الثلاثة يميلون إلى بني أميّة، وفي أنفسهم حقد على عليّ، يُزَيّن لهم أنّه ممن داهن في قتل عثمان ﷺ، ويقولون: إنّه قادر على أن ينصر عثمان ﷺ، فلماذا لم ينصره؟ فكانوا يسبّونه في الخطب على المنابر في العراق وفي الشام.

ولا شكّ أنّ في العراق كثيرًا من المحبّين لعليّ ﷺ، ألفوه في حياته، وأحبُّوه

بصدق، هؤلاء إمّا أن يكونوا معتدلين في حبّه، وإمّا أن يكونوا غُلاةً من أتباع الغلاة، إذا سمعوا هؤلاء الخطباء يلعنونه على المنبر، استاؤوا لذلك، فيحبون أن يكون لهم أتباع، وأن يكون لهم على ما هم عليه من يشجّعهم، فإذا سمعوا ذلك أخذوا في مجالسهم يذكرون فضائل عليٍّ ﷺ، فدخل بينهم الغلاة، فصار أولئك الغلاة في مجالسهم الخاصة التي هي من مجالس المحبين لعلي ﷺ يكذبون ويغلون في الكذب، ويولّدون، وبدل أن يذكروا فضائله الصحيحة ومدائحه التي مدحه بها النبيّ ﷺ، صاروا يضيفون إلى ذلك أكاذيب ليست بحقيقةٍ.

ولعليّ ﷺ فضائل، مثل قول النبي ﷺ له: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى**»[1]. ولكن الرافضة - بلا شكّ - لم يقنعُوا بذلك، بل صاروا يزيدون[2]. فصاروا لا يذكرون في مجتمعاتهم إلا فضائل علي ﷺ، فلا يجدون من يقتنع بقولهم، فيذكرون أكاذيب.

فمثلًا: حديث غدير خمّ، الذي يجعلونه عيدًا لهم يزيدون فيه. وفيه أنه ﷺ حمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ: ألا أَيُّهَا الناس فَإِنَّمَا أنا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رسول رَبِّي فَأُجِيبَ، وأنا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله فيه الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**». ثُمَّ قال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ. وانظر كلام شيخ الإسلام في رد استدلالهم بهذا الحديث في مجموع الفتاوى (٤/ ٤١٦)..

(٢) انظر كلام العلماء في بطلان هذه الزيادات في مجموع الفتاوى (٤/ ٤١٧).

الله في أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ الله في أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ الله في أَهْلِ بَيْتِي»[١]، هذا هو الثابت. ولكن ما اقتصروا عند هذا، فصاروا يُضيفون إليه زيادات مكذوبة، حتى ألّفوا كتبًا في هذا الحديث، وجعلوه بألفاظٍ عديدة فقالوا: إنه قال: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَإِنَّ عليّ مَوْلاهُ، اللهمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»[٢]، وذكروا من أكاذيبهم أنّ اسم عليّ ﷺ مكتوب على قائمة العرش، وأنّه ممّن خلقه الله وقرنه باسم محمّد ﷺ وفضّله على خلقه، وأنّه وزوجته مكتوبان في غرف الجنّة كلّها.

هذه الأكاذيب التي يروّجونها ويقولونها إذا سمعها تلاميذهم وأحبابهم، أخذوا يروونها، وإذا سمعها الآخرون فماذا يقولون؟ كيف تكون هذه مزاياه، وكيف تكون هذه فضائله؟ ومع ذلك يتقدّم عليه غيره، كيف قدّم عليه أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ، لا بدّ أن يكون هو الأفضل وهو الإمام، ولما سمعوا تلامذتهم ومن كان حولهم وهم يتكلّمون بهذا، أرادوا أن يسكّتوهم، فلم يجدوا إلا أن يكذبوا أكاذيب يسكّتون بها من حولهم حتى لا ينكروا عليهم ما هم فيه ، فكذبوا أكاذيب لفّقوها ورموا بها أبا بكر وعمر وعثمان وبقيّة الصحابة ﷺ ، وادّعوا أنّهم

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم ﷺ. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/ ٤١٨): «وأما قوله يوم غدير خم: «أُذَكِّرُكُمْ الله في أَهْلِ بَيْتِي»، فليس من الخصائص، بل هو مساوٍ لجميع أهل البيت، وأبعد الناس عن هذه الوصية الرافضة، فإنهم يعادون العباس وذريته، بل يعادون جمهور أهل البيت، ويعينون الكفار عليهم».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧١٣) ، وأحمد (٤/ ٣٧٠)، والطبراني في الكبير (٥٠٦٩) من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

مغتصبون، وادّعوا أنّهم خونة، وادّعوا أنّهم ظلمة، فامتلأت كتب الرافضة بالسبّ والحمل على هؤلاء الصحابة ﷺ وهي أكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان. سببها ومبدأ أمرها التسكيت لتلامذتهم حتّى لا ينكروا عليهم.

ولمّا انتشرت هذه الأكاذيب فيما بينهم، اعتقد تلامذتهم كفر أئمّة الصحابة، واعتقدوا أنّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ليسوا على هدى؛ لأنّهم بايعوا غير الإمام الحقّ، وخلعوا الإمام الحقّ من إمامته وهو عليّ ﷺ، وبايعوا أبا بكر ﷺ وهو مغتصبٌ ظالم، وبايعوا عمر ﷺ وهو ليس له حقّ ـ كما يزعمون ـ فجعلوهم بذلك مرتدّين، وأبطلوا بذلك فضائلهم التي ثبتت في كتب السنّة الصحيحة وغيرها، وقالوا: إنّ فضائلهم التي ذكرت في القرآن بطلت بسبب ردّتهم، ارتدّوا بعد موت محمّد ﷺ. وردّتهم أنّهم منعوا عليًا ﷺ من حقّه في الخلافة، وبايعوا مغتصبًا ظالمًا هو أبو بكر ﷺ!

هكذا كانت أقوالهم، وهكذا رسخت هذه العقيدة في نفوسهم، وتوارثوها، وأخذوا يتناقلون هذه الأكاذيب في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني، يتناقلون هذه الأكاذيب، ثم ينقلون فضائل علي ﷺ ويبالغون فيها، ويذكرون فضائل الحسين وفضائل الحسن وفضائل ابن الحنفيّة، وفضائل زين العابدين وأولادهم وأحفادهم، ويكذبون في فضائلهم أكاذيب لا تليق بعاقل، ولا يصدّقها ذو عقل سليم. ولو قرأتم في كتبهم التي يتناقلونها لعجبتم كيف يصدّقون هذه الأكاذيب، وتنطلي عليهم، ولكن سلبت عقولهم. ولأجل ذلك ذكر بعض العلماء أنّهم ليس لهم عقولٌ. والرّدود التي ردّت عليهم لو قرأتموها

لعجبتم كيف لم يرتدعوا عن هذه الأكاذيب، ولا يزالون على هذا المعتقد إلى اليوم، مع تفتّح النّاس، وتبصّرهم.

ولا يزالون يروون ويتناقلون تلك الأكاذيب في كتبهم، وقد أوّلوا عليها الآيات القرآنية، وهناك تفسير لأحد أئمّتهم فسَّر فيه قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]، البحران: عليّ وفاطمة يلتقيان بالنّكاح. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢]؛ هما الحسن والحسين. هكذا راجت هذه الأكاذيب بالنسبة إلى مديحهم.

أمّا بالنسبة إلى ذمّهم فمثلاً فسّروا قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١]؛ الجبت: هو أبو بكر، والطاغوت: عمر، رضي الله عنهما، قاتلهم الله أنّى يؤفكون. وكذلك فسّروا قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]، يدا أبي لهب، يقولون: هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وفسّروا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]؛ البقرة: هي عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها. أعاجيب وأكاذيب راجت عليهم؛ لأنّهم سُلبوا العقل والمعرفة، وما يزالون مُصرّين على هذه العقيدة.

في آخر ولاية بني أميّة خرج رجل من ذرّيّة عليّ وهو أخو زين العابدين، وهو زيد بن الحسين، ولما خرج دعا النّاس إلى بيعته، فجاءه الرافضة، فقالوا: نبايعك على أن تتبرّأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأنّهم قد ارتسم في أذهانهم أنّهم أكفر من أبي جهل وفرعون، فلا بدّ أن يتبرّأ منهما، ولكنّه ﷺ قال:

هما صاحبا جدّي، ولا أتبرّأ منهما، قالوا: إذًا نرفضك، فرفضوه. ومن هنا عرفوا بالرّافضة. وهذا اسمهم، وهم الآن لا يعترفون به، ويشنّعون على من سمّاهم بهذا الاسم مع أنهم هم الذين سموا أنفسهم، وسمّاهم به زيد أخو زين العابدين أحد أئمَّتهم، وزين العابدين هو أحد الأئمّة الاثني عشر. والذين بايعوا زيدًا سمّوا بالزيديّة، وهم الذين يوالون أبا بكر وعمر وأكثر الصحابة رضوان الله عليهم، ولكنّهم يتبرّؤون من بني أميّة.

أمّا تسميتهم بالشيعة، فهم يتمدّحون بهذا الاسم، ويقولون: نحن شيعة عليّ يعني: أنصاره، الشيعة في الأصل: الأنصار والأعوان. مثل قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات:٨٣]، وكما في قوله: ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص:١٥]، يعني: أتباعه، ولكنّهم في الأصل نسمّيهم نحن شِيَع، ولا نسمّيهم شيعة، فالشِّيَعُ: هي الفرقُ الضّالّة، الذين ذمّهم الله بقوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم:٣٢].

والحاصل أنّهم فرق كثيرة متشعّبة؛ منهم الباطنيّة الذين ظهروا في أواخر القرن الثالث واستولوا على شرق الجزيرة العربية، القطيف والأحساء والبحرين، وما اتّصل بها، وصار لهم قوّة ونفوذ، وهم الذين قتلوا الحُجّاج سنة سبع عشرة وثلاثمائة من الهجرة في الحرم، وهم يطوفون بالبيت، دخل كبيرهم وقائدهم على أنّهم حُجّاج، ولما توسّطوا الحرم سلّوا سيوفهم، وأخذوا يقتلون الحُجّاج في

داخل الحرم، وجعل الحُجّاج يلوذون بالكعبة، ويتعلّقون بأستارها، فجعل زعيمُهم يقتلهم وهم كذلك، ويقول:

أنا باللَّهِ وباللَّهِ أنا   يخلقُ الخلقَ وأفنيهم أنا

وأخذ كسوة الكعبة، وشقّقها بين أصحابه، وقلع الحجر الأسود وذهب به إلى بلاده القطيف، وبقي عندهم إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، حيث ضعفت دولتهم، وقويت دولة الإسلام، فهُدِّدوا إن لم يردّوه بغزو دولة الإسلام لهم، فردّوه وهم كارهون، والحمد لله[1].

وهذه الطائفة من أكفر الطوائف وأخبثها. يقول العلماء: إنّهم يظهرون الرفض وهم كذبة، فظاهرهم الرّفض، وباطنهم الكفر المحض. وما تزال طائفة منهم تعيش بين المسلمين، يظهرون أنّهم إخواننا، ويدعون إلى التقارب، ويدّعون أنّهم على الحق، وأنّ مذهبهم الذي هم عليه كسائر المذاهب الفرعيّة، كالشافعيّ ومالك وأحمد، فكذبوا بذلك؛ لأنّهم مخالفون للمسلمين في العقيدة التي هي الأصل والأساس، فكيف يجتمعون مع المسلمين؟ وكيف يأمنهم المسلمون؟ وهم يُضمرون للمسلمين العداوة والبغضاء، فهم أعداء لله وللإسلام والمسلمين، فلا يغترّ بدعوتهم إلى ما يسمّونه التقريب، فإن هذا الاعتقاد كفر وضلال، فلا ينخدع المسلم بدعاياتهم وأعمالهم، بل نأخذ حذرنا منهم.

والعلماء الأولون كانوا منتبهين لهم، ولكن - مع الأسف - كان هؤلاء الرافضة

---

(١) انظر: البدية والنهاية (١١/ ١٧١).

متسترين في ذلك الوقت ـ في القرن الأول والثاني والثالث ـ ولم يكونوا يظهرون أمرهم، وتولّوا ولايات ووثق بهم أكثر العامة، وصاروا يروون عنهم الأخبار، وصار منهم أخباريّون، وإن لم يكونوا من غلاتهم، فدخل الكذب في كتب التاريخ بسبب الرواية عنهم.

فتجدون مثلاً في كتب التاريخ ـ حتى التي يكتبها أهل السنّة ما يدلّ على أنّها من وضع الرّافضة؛ فمثلاً من المشهورين بالأخبار شيعيّ، ولكن يقولون إنّه إخباريّ يروي الأخبار ويجمعها، يُقال له: لوط بن يحيى، ويشتهر بأبي مخنف، يروون عنه في كتب التاريخ، فيقول ابن جرير: قال أبو مخنف، وروى أبو مخنف. هذا الراوي يظهر أنّه من أهل السنّة، ولكن يميل إلى الشيعة، ودليل ذلك: أنّه يتتبع أخبار أهل البيت، ويبالغ في نقلها، ويطيل فيها، ويستقصي أخبارها، فمثلًا في تاريخ ابن جرير: مقتل الحسين، قصة واحدة قُتل فيها الحسين ومعه من أهل بيته نحو الأربعين، فعادة مثل هذه الواقعة يكفيها ثلاث أو أربع صفحات لكن استغرقت هذه الحادثة أكثر من نصف مجلّد، أكثر من خمسين ومائتي صفحة من تاريخ ابن جرير. وابن جرير ـ رحمه الله ـ من أهل السنّة، ولكن بلاده ـ طبرستان ـ كانت مليئة في زمانه بالرافضة، فكانوا يدخلون عليه شيئًا من أخبارهم، وإن كان محدّثًا ومفسّرًا وإمامًا، فإنّه قد ينخدع بهم.

ففي خبر غدير خمّ أَلَّفَ مجلدين، يقول ابن كثير عن ابن جرير: إنه ألف كتابًا ذكر فيه ما لا يصلح أن يذكر، حشد فيه الطيبَ والخبيث، والصحيحَ والسقيم، استوفى فيه ما سمعه، وذلك دليل على أنّه قد كثرت عنده تلك الأخبار، مما يدلّ

على أنّ أخبار الرافضة في ذلك الزمان قد كثرت.

في القرن الرابع استولى على العراق، بل على مصر وإيران دولة يُقال لهم: بنو بويه، وهذه الدولة رافضية، وكانت الخلافة لبني العباس، ولكن هؤلاء بمنزلة السلاطين الذين يديرون الدولة، أعلنوا مذهب الرافضة، وزادوا فيه ونشروه، وتمكّن في العراق؛ لأنها وطنهم، وإيران وما حولها. وصاروا يشجعون ويمكّنون كل من اعتنقه، ويولّونه الولايات، ولَـمَّا تمكّن هذا المذهب الخبيث وكثر معتنقوه، صاروا يحشدون من الكتب في تقرير مذهبهم، ويؤلفون المؤلفات في معتقدهم، فانتشرت الكتب وكثرت، ويوجد منها الآن ما لا يحصيه العدد، فتمكّن وقوي مذهبهم، وانخدع به من انخدع، ولا يزالون إلى الآن يخدعون الناس بمذهبهم الباطني، ويتقرّبون إلى النّاس بحسن معاملتهم وملاطفتهم، ومدحهم لأنفسهم، ويقولون: إن معهم شيئًا من الأخلاق والأدب والصدق، فيجتذبون النّاس بالمعاملة الحسنة، وإلَّا فالأصل أن معتقداتهم وأخلاقهم سيئة.

ولا أتجرأ أن أذكر الحكايات عنهم التي حكاها لنا بعض من عمل معهم بالمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، وما فيها من احتيالهم على أهل السنّة، ومقتهم وبغضهم وحقدهم عليهم، وحرصهم على أن يصلهم كلّ شرّ وكل سوء، ولكن ينخدع الكثير بهم. وقد ذكر لنا بعض المشايخ الذين ذهبوا إلى الأحساء أنّ منهم من يظن أنّهم مسلمون، ولا يفترقون عن المسلمين إلا كما يفترق من يقول: أنا شافعي، وأنا حنفي، ولم يدروا أنّهم ضُلاّل وكفّار حتّى ظهر لهم الحق.

ولما كان كذلك، اهتم العلماء بذكر فضائل السلف، وفضائل الصحابة، واهتموا بذكر ذلك في عقائدهم، كما فعل ذلك الإمام الطحاوي رحمه الله. وكما ذكر ذلك أهل العقائد نظمًا ونثرًا، يقول أبو الخطاب الكلوذاني في عقيدته[1] مبينًا فضل الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم:

قَالُوا فَمَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ خَلِيفَةً ... قُلْتُ المُوَحِّدُ قَبْلَ كُلِّ مُوَحِّد

يعني: أبا بكر ﷺ، ذكر ذلك في عقيدته. ثم ذكر خلافة من بعده من الخلفاء ﷺ، إلى أن ذكر خلافة علي ﷺ بوصفه رابعًا للخلفاء الراشدين ﷺ:

قَالُوا فَرَابِعُهُمْ فَقُلْتُ مُجَاوِبًا ... مَنْ حَازَ دُونَهُمْ أُخُوَّةَ أَحْمَد

فمن هنا اهتم الأئمة بذكر فضائل الصحابة، لأنّنا لو تنزلنا على عقيدتهم، لرددنا الكتاب والسنّة، فمن أين جاءنا الكتاب والأحاديث، فإذا كانوا كفارًا كما يقولون؛ فإنّ أخبارهم لا تقبل.

أما شُبههم التي يرمون بها أهل السنّة، فإن الآيات التي نزلت في المنافقين يحملونها على الصحابة ﷺ، فقوله تعالى في معركة بدر: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٥، ٦]؛ يقولون: هؤلاء جادلوا الرّسول، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، هؤلاء كفروا بذلك، ونقول لهم: إن الله تعالى ما كفّرهم بذلك بل سمّاهم مؤمنين ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾

---

(١) لسماحة شيخنا عبدالله بن جبرين ـ حفظه الله ـ شرح كامل على منظومة أبي الخطاب الكلوذاني.

[الأنفال:٥]، نعم كرهوا مقابلة الكفّار مخافة أن يقضي عليهم وهم عدة الإسلام والمسلمين، ومعهم الرّسول ﷺ ومعهم خيار الصحابة، لكنّ الله تعالى نصرهم وأيدهم، وسبب هذه الكراهية وهذه المجادلة أنهم يقولون: لو ذهبنا إلى العير. فهل هذا القول يخرجهم من الإسلام؟ كلا، لم يخرجهم، بل سماهم الله المؤمنين، فهذا هو معنى المجادلة والكراهية، ولكن الرافضة جعلوها دليلًا على أنّهم كفّار، وكفّروهم بمثل ذلك.

وفي آية أخرى، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾[الجمعة:١١]؛ يقولون: هؤلاء الذين انفضوا عن الرسول ﷺ وهو يخطب، ارتدّوا بذلك. لكن الله تعالى لم يكفّرهم على ذلك، بل عفا عنهم. ثمّ نقول: مَن هم الذين بقوا ومن هم الذين نفروا، معلوم أنّهم خرجوا ينظرون إلى هذه الإبل، ثم عادوا ليُتمّوا صلاتهم، ولا يليق بهم أن يتركوا الصلاة مع النبيّ ﷺ، ثمّ قد يكون معهم بعض أهل البيت، وقد يكون معهم بعض الذين يمدحونهم كعمار وصهيب وسلمان رضي الله عنهم؛ فلذلك لا دلالة لهم في الآيات التي يستدلّون بها.

ثم لو قدّر أنّهم صادقون، وأنّ هذه الأشياء وقعت منهم حقيقة، فلا يليق أن نكفّرهم بها، ولهم من السوابق ما يعفو الله به عنهم إذا ظهر منهم ذنب من الذنوب، ولا شكّ أنهم قد تابوا منه، والتوبة تجبُّ ما قبلها، أو مُحيت عنهم بثواب أعمالهم السابقة، التي ضاعف الله لهم حسناتهم فيها، وقد قال رسول الله ﷺ:

«لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أَحدَكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أَدركَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصيفَهُ»(١). فالحسنات يذهبن السيئات، فكيف ننسى فضائلهم السابقة وجهادهم، ونذكر لهم ذنبًا صغيرًا تابوا منه، على حد قول بعضهم:

يَنْسَى مِنَ المَعْرُوفِ طَوْدًا شَامِخًا وَلَيْسَ يَنْسَى ذَرَّةً مِمَّنْ أَسَا

فعلى المسلم أن تكون عقيدته نحو الصحابة رضوان الله عليهم: محبّتهم والترضّي عنهم، والثناء عليهم، وذكر فضائلهم، والاعتراف بما لهم من المزيّة والسّبق، ومعرفة أنّهم خير قرون هذه الأمّة، لم يكن ولا يكون مثلهم، وأنّ فضائلهم لا يدركها غيرهم. فإذا اعترفنا بذلك، عرفنا كفر من كفّرهم، وضلال من ضلّلهم وكرههم، ونصب العداوة لهم ولمن والاهم من أهل السنّة، فما علينا إلا أن نشهر فضائلهم وننشرها كما نشرها الأئمّة قبلنا، فالبخاري في صحيحه جعل كتابًا لفضائل الصحابة بدأ بفضائل الخلفاء الأربعة، وهكذا فعل مسلم في كتابه، وهكذا فعل الترمذي، وألف الإمام أحمد كتابه المشهور «فضائل الصحابة»، وهكذا الكتب المؤلفة في ذلك، كلّ ذلك بالثناء على الصحابة رضوان الله عليهم وأتباعهم، فإذا قرأ المسلم تلك الأخبار وعرف صحتها، عرف فضلهم وقدرهم، وعرف بأن من عاداهم ضالّ مضلّ، طاعنٌ في الله وفي شرعه، وطاعن في أصل الإسلام والسنّة.

أما هؤلاء الرافضة وأعمالهم، فهم في ضلال، نبرأ إلى الله منهم ومن عقائدهم

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤١).

السيّئة، ونسأل الله أن يحيينا على محبّة الخير وأهله، ويميتنا على الإسلام والسنّة.

وبعد ذلك نقول: إن صحابة رسول الله ﷺ هم الذين اجتمعوا به بعد إسلامهم، وأدركوا حياته، ورأوه وهم مؤمنون مصدقون به، وقد اشتهر أنهم جاهدوا معه، وأنفقوا أموالهم في سبيل الله، ونصرة لرسوله ﷺ، وقد مدحهم الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح:٢٩]، وهذا الوصف يعم جميع المهاجرين الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨]، فإنهم تركوا بلادهم وعشائرهم وأموالهم؛ حبًا لله ورسوله ﷺ، وتصديقًا بالرسالة، مع ما لقوه قبل الهجرة من الأذى والعذاب في الله تعالى.

ثم تكبدوا الصعوبات في سفر الهجرة، وركبوا الأخطار، ثم إن العرب جميعًا رمتهم بالعداوة، وقاطعتهم، فتعرضوا لحرب العرب وغيرهم، وكان الحامل على ذلك هو قوة الإيمان، والجزم بصحة ما هم عليه، والثقة بنصر الله تعالى الذي ذكره في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[النور:٥٥]، وقد أخبرهم قبل ذلك بأنهم سوف يُبتلون ويُختبرون، فقال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

﴿ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾[آل عمران:١٨٦]؛ ولهذا لما تسلط عليهم الأحزاب وضيقوا عليهم، ثبتوا وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٢٢]، وأخبر الله تعالى أنه قد رضي عنهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[التوبة:١٠٠]، ومن رضي الله عنه فقد غفر له، ورضي عمله، فلا يسخط بعد ذلك عليهم، بل يوفقهم ويحميهم ويتوفاهم على الإسلام.

وورد في السنة ما يدل على فضلهم على من بعدهم في قوله ﷺ: **«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»**(١)، ويريد بالقرن: أهله، ففضل أصحابه على من بعدهم، وكذا نهى عن سبهم في قوله ﷺ: **«لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أَحدَكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أَدركَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصيفَهُ»**(٢).

وروى مسلم(٣) من حديث أبي بردة ﷺ قال: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مع رسول الله ﷺ، ثُمَّ قُلْنَا: لو جَلَسْنَا حتى نصلي معه الْعِشَاءَ ـ قال ـ فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فقال: **«ما زِلْتُمْ ها هنا؟»** قُلْنَا: يا رَسُولَ الله صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حتى نصلي مَعَكَ الْعِشَاءَ، قال: **«أَحْسَنْتُمْ أو أَصَبْتُمْ»**، قال: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ، وكان

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١١٢).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٤١).

(٣) برقم (٢٥٣١).

كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ، فقال: «النُّجُومُ آمنة لِلسَّمَاءِ، فإذا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أتى السَّمَاءَ ما تُوعَدُ، وأنا آمنة لِأَصْحَابِي، فإذا ذَهَبْتُ أتى أَصْحَابِي ما يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي آمنة لِأُمَّتِي فإذا ذَهَبَ أَصْحَابِي أتى أُمَّتِي ما يُوعَدُونَ»، أي: من الفتن والخلاف وكثرة البدع.

وقد شهد النبي ﷺ للعشرة بالجنة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد[1]، كما ثبتت الشهادة لجماعة آخرين بالجنة، كثابت بن قيس، وبلال، وعمار، وسلمان[2]، وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إن شَاءَ الله - مِن أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا»[3]، وقال: «وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فقال اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[4]، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وأهل البيعة ألف وأربعمائة وزيادة.

ثم اتفق السلف على أن أفضل الصحابة الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم جميعًا، وجمهور أهل السنة على أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وقد اتفق الصحابة رضي الله عنهم على تقديم أبي

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤).

(٢) تقدم تخريج أحاديث المبشرين بالجنة (٤/ ٥).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

(٤) تقدم تخريجه (٤/ ٦).

بكر رضي الله عنه ومبايعته خليفة بعد النبي ﷺ؛ وذلك لما عرفوا من سابقته وصحبته وأعماله، ثم إن النبي ﷺ قدمه ليصلي بالناس في أيام مرضه، فصلى بهم تلك الأيام[١]، فبايعوه، وقالوا: رضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا، فهو ليس أكثرهم مالاً، ولا أقواهم بأسًا، ولا أعزهم عشيرة، فلم يبايعوه خوفًا من سطوته وقهره وسلطته، وإنما عرفوا فضله وسابقته، وما تميز به، وتذكروا الإشارات الدالة على أنه أولى بالخلافة مثل قوله ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ من بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[٢]، وقوله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[٣]، وثبت في «الصحيحين»[٤] عن أبي سعيد رضي الله عنه أنه ﷺ خطب في آخر حياته، قال: «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ». وفضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة رضوان الله عليهم كثيرة مشهورة، ومن أراد الاطلاع فليراجع كتاب الفضائل من كتب السنة.

---

(١) كما ورد في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، وأحمد (٥/ ٣٨٢)، وصححه ابن حبان (١٥/ ٣٢٧)، والحاكم (٣/ ٧٥)، ووافقه الذهبي، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

قال الطحاوي:

وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوَّلًا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، تَفْضِيلًا لَهُ وَتَقْدِيمًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ.

قال الشارح:

اخْتَلَفَ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي خِلَافَةِ الصِّدِّيقِ ﷺ: هَلْ كَانَتْ بِالنَّصِّ، أَوْ بِالِاخْتِيَارِ؟ فَذَهَبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّهَا ثَبَتَتْ بِالنَّصِّ الْخَفِيِّ وَالْإِشَارَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالنَّصِّ الْجَلِيِّ.

وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ إِلَى أَنَّهَا ثَبَتَتْ بِالِاخْتِيَارِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى إِثْبَاتِهَا بِالنَّصِّ أَخْبَارٌ:

مِنْ ذَلِكَ مَا أَسْنَدَهُ الْبُخَارِيُّ[1] عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ؟ كَأَنَّهَا تُرِيدُ الْمَوْتَ، قَالَ: «إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ». وَذَكَرَ لَهُ سِيَاقًا آخَرَ[2]، وَأَحَادِيثَ أُخَرَ. وَذَلِكَ نَصٌّ عَلَى إِمَامَتِهِ.

وَحَدِيثُ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ

---

(١) برقم (٣٦٥٩)، وأخرجه مسلم (٢٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٦٠).

بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ[(١)].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[(٢)] عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا ـ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْيَوْمِ الَّذِي بُدِئَ فِيهِ، فَقَالَ: ادْعِي لِي أَبَاكِ وَأَخَاكِ، حَتَّى أَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا، ثُمَّ قَالَ: يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «فَلا يَطْمَعُ فِي هَذَا الأَمْرِ طَامِعٌ»[(٣)].

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: «ادْعِي لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ أَبِي بَكْرٍ، لأَكْتُبَ لأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا لا يُخْتَلَفُ عَلَيهِ»، ثُمَّ قَالَ: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَخْتَلِفَ الْمُؤْمِنونَ في أَبِي بَكْرٍ»[(٤)].

وَأَحَادِيثُ تَقْدِيمِهِ فِي الصَّلَاةِ مَشْهُورَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَهُوَ يَقُولُ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»[(٥)].

وَقَدْ رُوجِعَ فِي ذَلِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، فَصَلَّى بِهِمْ مُدَّةَ مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٧)، وبنحوه أخرجه البخاري (٥٦٦٦، ٧٢١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٦)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٢٥)، وابن أبي عاصم في السنة، والطبراني في الأوسط (٤٣٣١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٢٦٧)، وفي سنده مقال، لكنه يتقوى بالروايات الأخرى المخرجة في الصحيحين.

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده برقم (١٨٠٥)، ومن طريقه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٠٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١١٦٣)، وفي إسناده محمد بن أبان، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

«بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ، عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَنَزَعَ مِنْهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ»[1].

وَفِي «الصَّحِيحِ»[2] أَنَّهُ ﷺ قَالَ عَلَى مِنْبَرِهِ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ، إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ».

وَفِي سُنَنِ أَبِي[3] دَاوُدَ، وَغَيْرِهِ[4]، مِنْ حَدِيثِ الْأَشْعَثِ عَنِ الحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ أَنَا: رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَوُزِنْتَ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ وُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَحَ عُمَرُ، ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ، فَرَأَيْتُ الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «خِلَافَةُ نُبُوَّةٍ، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ

---

(١) البخاري (٣٦٦٤ و ٧٠٢١)، ومسلم (٢٣٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) برقم (٤٦٣٤، ٤٦٣٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢٨٧) وقال: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وأحمد (٥/ ٤٤)، والحاكم (٣/ ٧٠، ٧١)، جميعهم بدون زيادة: «خلافة نبوة...»، وهذه الزيادة لها شاهد من حديث سفينة ﷺ، وسيأتي تخريجه قريبًا.

الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ».

فَبَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ وِلَايَةَ هَؤُلَاءِ خِلَافَةُ نُبُوَّةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكٌ.

وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ عَلِيٍّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعِ النَّاسُ فِي زَمَانِهِ، بَلْ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ، لَمْ يَنْتَظِمْ فِيهِ خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ وَلَا الْمُلْكُ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ[(١)] أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رَأَى اللَّيْلَةَ رَجُلٌ صَالِحٌ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ نِيطَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنِيطَ عُمَرُ بِأَبِي بَكْرٍ، وَنِيطَ عُثْمَانُ بِعُمَرَ»، قَالَ جَابِرٌ: فَلَمَّا قُمْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْنَا: أَمَّا الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَّا الْمَنُوطُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَهُمْ وُلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ[(٢)] أَيْضًا عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْتُ كَأَنَّ دَلْوًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا، فَشَرِبَ شُرْبًا ضَعِيفًا، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا، فَانْتَشَطَتْ مِنْهُ، فَانْتَضَحَ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ، عَنْ سَفِينَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خِلَافَةُ

---

(١) برقم (٤٦٣٦).

(٢) برقم (٤٦٣٧).

النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّـهُ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ أَوِ الْمُلْكَ»[١].

قال الشيخ:

تكلّم العلماء في موضوع الخلفاء الراشدين، وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثمّ عليّ رضي الله عنهم أجمعين، وذكروا أن تسميتهم بالخلفاء الراشدين تسمية نبويّة؛ ففي الحديث أن النبيّ ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بها، وَعَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ»[٢] فجعلهم خلفاء، والخليفة: هو الذي يخلف غيره، وسمّاهم راشدين، والراشد: ضد الغاوي؛ أي إنّهم على رشد، ووصفهم بالهداية، أنّهم مهتدون غير ضالّين، هذا ما يخصّ خلافة هؤلاء الأربعة، وكذلك من اقتدى بهم، أو سار على نهجهم؛ فقد قيل: إنّ عمر بن عبد العزيز من الخلفاء الراشدين؛ لأنّه أشبه سيرتهم.

كذلك أشار النبيّ ﷺ إلى الخلافة ثمّ الملك، كما في حديث سفينة: «خِلَافَةُ النبوَّةِ ثلاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي الله مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ»؛ وقد وقع ذلك؛ فخلافة أبي بكر ﷺ سنتان ونصف، وخلافة عمر ﷺ عشر، وخلافة عثمان ﷺ اثنتا عشرة سنة،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦، ٤٦٤٧)، والترمذي (٢٢٢٦) وقال: «وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وأحمد (٥/ ٢٢٠-٢٢١)، وصححه ابن حبان (١٥/ ٣٩٢)، والحاكم (٣/ ٧١)، ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

فهذه أربع وعشرون سنة، وخلافة عليّ ﷺ خمس سنين إلا بعض سنة، وتتمّتها خلافة الحسن، فأصبحت هذه ثلاثين سنة أو نحوها، فهذه هي الخلافة التي أخبر النبي ﷺ بأنّها خلافة نبوّة، ثمّ بعدها يكون ملكٌ؛ لأنّ الملك لما انتقل إلى بني أميّة، أصبحوا كأنّهم يعملون عمل الملوك، ولو كان فيهم شيء من السيرة الحسنة والجهاد، ولكن عملهم ليس كعمل الخلفاء الراشدين؛ لأنهم جعلوها وراثةً، وصاروا يعهدون بالخلافة إلى أبنائهم أو مين يقرب منهم.

وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على تقديم أبي بكر ﷺ، وفيهم أهل البيت، وفيهم عليّ والحسن والحسين والعباس، وابن العباس، وآل العباس، وآل عمر... جميع الصحابة اتّفقوا على خلافة أبي بكر ﷺ، والله تعالى لا يجمع الصحابة على ضلال، ولا يجمعون إلا على حقّ، وهذه حجّة قويّة على خلافة أبي بكر، أين الرافضة من هذا الإجماع؟ فالرافضة يقولون: إنّ أبا بكر مغتصب، وإنّه تجرأ على ما ليس له، وإنّ الصحابة خانوا هذه الأمانة التي هي عهدٌ لعليّ، وأن النبي ﷺ عهد إليه بالخلافة، ولكن خانوا وكتموا، وبايعوا أبا بكر ﷺ خيانة وضلالاً، هكذا قالوا، وهذا معناه أنّهم كلّهم أجمعوا على هذا الظلم، وحاشاهم من ذلك!

ولا شكّ أنّهم عندما بايعوا أبا بكر ﷺ عملوا بتلك الإشارات التي وجدوها، فإنّ النبيّ ﷺ لما قالت له تلك المرأة: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ؟ كأنّها تريدُ المَوْتَ، فمن آتي بعدك لقضاء حوائجي؟ فقال: «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي**

أبا بَكْرٍ»[1]، فمعنى هذه الإحالة أنّ أبا بكر يكون الخليفة بعدي، وهذا ما كان.

كذلك الحديث الذي روته عائشة وهي من أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن، لا يمكن أن تكذب في حقّ أبيها، ولا غيره. ذكرت أنّ النبيّ ﷺ أراد أن يكتب كتابًا بالولاية لأبي بكر، «حتَّى أَكتُبَ لأَبِي بَكْرٍ كِتابًا»، أي: ائتوني بكتاب أكتب فيه عهدًا لأبي بكر ﷺ، ولكن علم بأنّ الله تعالى يجمع الصحابة على توليته، فترك الكتابة ثقة بما كانوا عليه من معرفة حقّه، وقال: «يأبَى الله والمُسلِمونَ إلاَّ أَبا بَكْرٍ»[2]؛ يعني: أنّهم يعرفون أحقّيته وأقدميّته.

وقد عُرف أنّ النبيّ ﷺ قدّمه في الصلاة لما ثقُل عليه مرضه، وصعب عليه أن يتولّى الصلاة بهم، وبقي عدة أيام لا يستطيع ذلك، وكان الذي يصلّي بالمسلمين أبو بكر رضي الله عنه، لما قال: «مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ»! فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ»،قَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فَعَادَتْ فَقَالَ: «مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ»[3]. فأكّد أنّ أبا بكر ﷺ هو الذي يصلح أنْ يكونَ إمامًا، وقد تولّى هذه الإمامة التي هي الصلاة في حياة النبيّ ﷺ، فلمّا أن توفي النبي ﷺ نظر الصحابة في خلافة أبي بكر ﷺ فقالوا: رضينا لدنيانا من رضيه

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٤).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨)، ومسلم (٤٢٠) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

نبيّنا لديننا. نبيّنا ﷺ رضيه إمامًا لنا، رضيه لديننا وليصلِّي بنا، وهذا دليل على أفضليّته؛ ولذلك نرضاه أن يكون إمامًا لنا في هذه الولاية التي فيها إصلاح دنيانا، وضبط أحوالنا.

وقد ثبت أنّ النبيّ ﷺ خطب في آخر حياته، قبل مرضه بقليل، فقال: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ الله بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَقَالَ: «فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا»، فعجب النّاس، أنّ النبيّ ﷺ يخبر عن هذا العبد الذي خيّره الله، وأنّ أبا بكر يبكي ويقول هذه المقولة! فلمّا قال ذلك قال النبيّ ﷺ: «**إِنَّ أَمَنَّ الناس عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أبو بَكْرٍ وَلَوْ كنت مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاتخذت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ إخوة الْإِسْلَامِ لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إلا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ**»[1]، أليس ذلك دليلاً على أنّه مقدّم في هذا الأمر؟ الخُلّة هي: المحبّة التي تتخلّل القلوب، إنّه أحقّ أن يكون خليلاً، وأحقّ أن تكون له الخلّة، ولو كنت متّخذًا خليلاً لكان أبو بكر أحقّ أن يكون خليلاً. ثمّ أمر أن تُسدّ النوافذ التي تطلّ على المسجد إلا نافذة أبي بكر ﷺ. فقد كان الصحابة قد بنوا بيوتًا فتحوا منها أبوابًا على الحرم، هذا الباب يدخل منه فلان، وهذا باب لفلان، فأمر بأن تُسدّ تلك الأبواب التي تُسمّى خوخات، وتبقى خوخة أبي بكر ﷺ، وفي ذلك إشارة إلى أنّه سيتولّى الخلافة بعده، وأنّه سيحتاج إلى أن يدخل المسجد ويتكرّر دخوله، أليس هذا دليلاً على أنّه سيتولّى الخلافة، وعلم النبيّ ﷺ أنّه سيكون والي

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

المسلمين بعده، فأمر بإبقاء خوخته حتّى لا تتغيّر. كذلك قد مرّت كثيرٌ من الإشارات، ولكن مجموعها يكون صريحًا:

الإشارة الأولى: قصّة القليب: يقول ﷺ: «بَيْنا أَنا نائِمٌ رَأَيْتُني على قَلِيبٍ»، والقليب: البئر التي فيها ماء، «عَلَيْها دَلْوٌ، فنَزَعْتُ منها ما شاءَ الله» أي أجتذب الماء بالدلو، «ثُمَّ أَخذَها ابنُ أَبي قُحافَةَ»، جعل أبا بكر ﷺ هو من أخذها بعده، «فنزَعَ منها ذَنوبًا، أَو ذَنُوبَينِ، وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، والله يَغفِرُ لهُ»، أي: ذلك لقصر خلافته، «ثُمَّ اسْتحالَتْ غَرْبًا، فأَخَذَها ابنُ الخطَّابِ»، والغرب: هو الدلو الكبير الذي يُستقى به من الآبار قديمًا، «فلَمْ أَرَ عَبقَرِيًا مِنَ النّاسِ يَفْرِي فَرِيهُ، حَتَّى ضَرَبَ النّاسُ بعَطَنٍ»[1]؛ وذلك لأنّ مدّته طالت عشر سنين، وفي مدّته اتسعت رقعة الإسلام، وكثرت الأموال في بيت المال.

أليس في هذا دليلاً على أن من يأخذ الخلافة بعده هو أبو بكر ﷺ؟ ولكن لا تطول مدته، ويأخذها من بعده عمر ﷺ، فتطول مدّته.

أما الإشارة الثانية: فهي قصّة ذلك الدلو الذي تدلّى من السماء، يقول الرجل: «رَأَيْتُ كَأَنَّ دَلْوًا دُلِّي من السّماءِ، فجاءَ أَبو بكرٍ فأَخذِ بعَراقِيها، فشَرِبَ شُرْبًا ضَعيفًا، ثُمَّ جاءَ عُمَر فأَخَذَ بِعَراقِيها، فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جاءَ عُثمانُ فأَخَذَ بِعراقِيها فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثمَّ جاءَ عَليٌّ فأخَذَ بَعَراقِيها فانْتُشِطَتْ مِنْهُ،

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

فانْتَضَحَ عَلَيهِ مِنها شَيْء»[1]. أليس ذلك دليل على ترتيبهم بعد النبيّ ﷺ.

هذه الإشارات التي هي إمّا حقيقة واقعة أو أنّها رؤيا فيها دليل واضح على أنّ هؤلاء يكونون خلفاء بعد رسول الله ﷺ.

وبكلّ حال، فإنّ هذه الإشارات مجموعها يجزم بأنّه نصٌّ صريح على أنّه ﷺ قدّم أبا بكر رضي الله عنه وجعله خليفة بعده.

تأتي بعد ذلك قصّة بيعته وتوليته الخلافة، وكيف اجتمع الصحابة رضوان الله عليهم على بيعته وفضّلوه، ومعلوم أنّهم لم يختاروه إلاّ لميزةٍ تميّز بها، أليس هو أوّل من أسلم من الرّجال، فكما يقول الكلوذاني في عقيدته:

قَالُوا فَمَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ خَلِيفَةً ... قُلْتُ المُوَحِّدُ قَبْلَ كُلِّ مُوَحِّدِ
حَامِيهِ فِي يَوْمِ العَرِيشِ وَمَنْ لَـهُ ... فِي الغَارِ أَسْعَدَ يَا لَهُ مِنْ مُسْعَدِ

الجمهور على أنّ أبا بكر رضي الله عنه أوّل من أسلم من الرجال، فقد كان رجلاً عاقلاً موثوقًا كامل العقل، لما عرض النبيّ ﷺ عليه الإسلام، لم يتوقّف، بل بادر، وقبل الدعوة، ودخل في الإسلام، ولما دخل في الإسلام صار أيضًا داعية لأكثر الصحابة الذين أسلموا في مكّة، فأسلم عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة، وسعد، كلّهم بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم.

أليس من فضائله أنّ يكون رفيق النبيّ ﷺ وصاحبه في الهجرة، فقد اختاره النبيّ لصحبته بعد أن كان استعد للهجرة، فقال له النبيّ ﷺ: «أَقِمْ» فَقَالَ:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

يَا رَسُولَ الله أَتَطْمَعُ أَنْ يُؤْذَنَ لَكَ؟ فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ**»، فلمّا أذن له، قال: «**أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ؟**»، قَالَ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**الصُّحْبَةَ**»[1]. أي: سوف تصحبني. ومعروف أنّه صاحبه في الغار، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة: ٤٠].

لا شكّ أنّ هذه الصحبة لا ينالها إلا مثله، فهو ﷺ جمع نفسه مع النبيّ ﷺ، وعرّض نفسه للقتل، المهاجرون غيره هاجروا بحجّة أو بعلم، ولم يتعرّض لهم المشركون، أمّا أبو بكر ﷺ والنبيّ ﷺ، فإنّ المشركين قد عزموا على قتل رسول الله ﷺ، فلمّا اجتمع معه أبو بكر ﷺ عزموا على أن يقتلوا أبا بكر معه، وجعلوا لمن أتاهم بكلّ منهما مئة من الإبل، فعند ذلك أمرهما الله بأن يخرجا بخفية، فخرجا ليلاً، ودخلا في غار ثور ثلاثة أيام، يأتيهما عامر بن فُهيرة بغنم لأبي بكر ﷺ، يحلب لهما ويسقيهما، وكذلك يأتيهما عبد الرحمن بن أبي بكر بالأخبار في الليل ثمّ يرجع.

أليس مبيت أبي بكر ﷺ مع النبيّ ﷺ من التعرّض للأذى، ومن الفداء له بنفسه؟ هذه ميزة لا يلحقه بها غيره، وكذلك صحبته له من مكّة إلى المدينة، اثنان على راحلتين، ليس معهما إلا رجل مشرك يدلّهما الطرق.

كذلك عندما خرج النبيّ ﷺ في غزوة بدر، ولما كانت الليلة التي وقعت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الوقعة في صبيحتها، بات النبيّ ﷺ طوال الليل يصلّي ويتهجّد، وبات أبو بكر ﵁ معه يحميه ويحرسه، وكلّما سقط رداؤه عنه ردّه عليه أبو بكر ﵁، وقال آخر ما قال: «يا نَبِيَّ الله كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وَعَدَكَ»(١).

هذه من الميزات التي ميّز الله بها أبا بكر ﵁ ليكون أهلاً للخلافة بعد رسول الله ﷺ. والصحابة الذين بايعوه علموا أهليّته وكفاءته، فإذا نظرنا في سيرته ﵁، وكيف ضبط الأمور، وكيف نظم الجيوش، فأرسل الرسل للدعوة، وفي سنة واحدة كان ناس من العرب قد ارتدّوا، ولم يبق إلا أهل مكّة والمدينة والطائف، أما الأعراب حولهم، فقد ارتدّوا إلاّ ما شاء الله، كيف قوي أبو بكر ﵁ على ضبط هذه البلدة، مع أنّ الناس كلّهم قد رموهم عن قوس العداوة، ولكن حزمه وفطنته وسياسته وسيرته دلّت على أنّه ذكيّ عارف، ضبط الأمور إلى أن رجع في أقلّ من نصف سنة من كان ارتدّ، واجتمعت العرب كلّهم في هذه السنة على الرجوع على الإسلام، وقاموا به بعدما كانوا تركوه، وذلك لفراسته القويّة التي تدلّ على حنكته وأهليّته، وأنّ الله تعالى ما اختاره في هذه المرحلة الحرجة إلا لأهليّته؛ لذلك يقول العلماء: إنّ الله حفظ الإسلام برجلين: أبي بكر ﵁ يوم الردّة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة.

ولأجل ذلك سمّاه الله تعالى بالصّدّيق، وقد سمّي بالصّدّيق أخذًا من قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾[الزمر: ٣٣]، الذي

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ﵁.

جاء بالصِّدق: النبيّ ﷺ، والذي صدّق به: أبو بكر ﷺ. فهذه بلا شكّ تدلّ على أهليته. وقد أجمع الصحابة على تسميته بالصِّدِّيق مبالغة في الصدق، والصِّدِّيقيّة هي الرّتبة التي تلي النبوّة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء:٦٩]؛ بدأ بالصّدّيقين، ثم الشهداء والصالحين، والصّدّيقون: هم المبالغون في التصديق، وأبو بكر ﷺ على رأسهم.

فهذه الميزات والفضائل هي التي جعلته أهلاً لأن يتولّى أمر المسلمين، لكن طمس الله قلوب الرافضة، وأعمى بصائرهم، وحال بينهم وبين الحقّ فولّدوا أكاذيب في أنّه مغتصب، وأنّ الصحابة كلّهم خونة، وأنّ عليًّا مظلوم، وجعلوه أيضًا من الظالمين؛ لأنّه أقرّ بخلافة أبي بكر، وبايعه، وصبر على خلافته في زمانه، ولم يطالب بالخلافة، بل كان عليٌّ يصلي خلفه طيلة مدّة خلافته، ولم يقل أحد أنّ عليًّا كان له محراب، أو أنّه كان يصلي وحده، وحاشاه ترك الجماعة، أليس في ذلك دليلاً على أنّه أقرّ خلافته، وأنّه رضي به كما رضي به بقيّة المسلمين.

في القرون السابقة قد يكون الرافضة معذورين؛ لأنهم لَم يطّلعوا على سير الصحابة رضوان الله عليهم، ولم تنتشر كتب السلف، ولم تشتهر الأحاديث التي فيها؛ لكونها مخطوطة في المكتبات الكبيرة، فلا يمكنُ انتشارها، ولا يألفون دخول هذه المكتبات، ولا ينسخونها، وإنّما ينسخون ما يناسبهم من مؤلّفات مشايخهم، ولكن في هذه الأزمنة لا شكّ قد قامت عليهم الحجّة؛ لأنّ الحقّ قد استبان، ولكنّهم عاندوا وأصروا واستكبروا عن الحقّ، وإلا لا عذر لهم، فالآن كتب

السنّة وكتب الحديث وكتب السلف، بعد أن كان لا يوجد منها إلا نسخة أو اثنتان، توجد الآن ألوف منها في متناول الجميع، في إمكانهم أن يقرؤوها، بل قرأوها، ولكن أصرّوا واستكبروا.

كذلك في هذه الأزمنة وجدت الأشرطة التي فيها سيرة السلف، ولكنّهم اصرّوا واستكبروا على العناد والبدع الشنيعة، وكذلك تنشر سير الصحابة رضوان الله عليهم ومآثرهم في الصحف وفي المجلاّت وفي الإذاعات، لا شكّ أنّ أولئك الشيعة يقرؤونها ويسمعونها، ولكنّهم مع ذلك كلّه أصروا واستكبروا استكبارًا، وكذلك تدرّس فضائل الصحابة في المناهج الدراسيّة في المدارس، وهم يدرسونها ويقرؤونها، وقد عرفوا صحّة ما فيها وثبوته؛ لأنه يعتمد على الدليل، وعلى النقل الصحيح، ولكنّهم أيضًا أصرّوا واستكبروا استكبارًا؛ فهم قد قامت عليهم الحجّة، وليسوا كقدمائهم الأوّلين، وتمكّنوا مِمّا لم يتمكّن منه أولئك.

أما بالنسبة إلى أهل السنّة فقد كانوا في الزمان القديم لا يقرؤون كتب الرافضة، ولا يتمكّنون من الوصول إليها؛ لأن الروافض كانوا يخفونها، بل يخفون عقائدهم ولا يمكّنون أحدًا من قراءتها، وذلك لما فيها من فضائح، ومن أخطاء فاحشة، ومن الحمل على الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن في هذه الأزمنة، لم يقدروا على إخفائها، بل طُبعت كتبهم، وطبعت تفاسيرهم، واطّلع عليها أهل السنّة، ورأوا فيها الفضائح، ونقلوا ما نقلوا منها، وردّوا عليهم الردود الواضحة، وجعلوها حجّة عليهم، وردّوا عليهم من كتبهم ذاتها، من تناقضهم، وأكاذيبهم وترّهاتهم، وتأويلاتهم الفاسدة، وخرافاتهم التي يجعلونها أدلّة، اتّضح كذبها،

واتضّح لكلّ عاقل أنّها بعيدة عن الصواب، فبان بذلك كذبهم، وتناقضهم، واطُّلع على أسرارهم، ولكنّهم مع ذلك كلّه أصرّوا واستكبروا.

في هذه البلاد معلوم أنّ المناهج موحّدة بالنسبة إلى السنّة والشيعة، ولكن علماءهم يحرصون على ألاّ يقع في قلوب أبنائهم شيء مما درسوه على مدرّسيهم من أهل السنة، فإذا تعلموا ذلك من السنّة الصحيحة، وسير الصحابة الأفاضل، عرضوا ذلك على شيخ أو كبير لهم، فيصوّب هذا ويخطّئ هذا، ويقول: هذا لا تقولوا به، وهذا لا تعتقدوه، وهذا ليس بصحيح؛ فهذا يخالف معتقدكم، وهذا يخالف سيرتكم، حتّى يمحو أثر ما تلقّى أولئك الطلاب من مدرّسيهم السنّيين، وحتى يبقيهم على معتقد آبائهم وأجدادهم الباطل السيّىء، وهكذا سيرتهم.

ذكر لنا أحدهم أنّ هناك مدرّسًا من أهل السنّة في إحدى البلاد التي يغلب على أهلها التشيّع، فلمّا توجّه أولئك الطلاب وتفتّحوا، ورأى فيهم ذكاء، رأى أن يناقشهم بالدليل بالقرآن والسنّة الصحيحة، وأخذ يجعل لهم مجالس أسبوعيّة، يقرّر لهم فيها الحقّ، ويقول: نحن مع الحقّ أينما كان، إن كان معكم ائتونا به، وإن كان معنا أتينا به. واستمر معهم شهرًا أو شهرين، ولكن انتبه آباؤهم إلى أنّهم قد اقتنعوا بعض الاقتناع من هذا الشيخ، وأثّر قليلاً في عقيدتهم، فعمدوا إلى هذا الشيخ وطردوه وأبعدوه من بلادهم؛ لأن أبناءهم عرضوا عليهم توجيهاته، فلمّا وجدوا أنّها حُجَج قويّة تغلبهم، قالوا: هذا سوف يفسد معتقدهم، ولا بدّ من إبعاده.

وهم بالنسبة إلى تولّيهم، يحاولون اضطهاد أهل الخير، ويحاولون ألّا يكون

لأهل السنّة قوّةٌ ولا ملكةٌ ولا نفوذ، ولا تسلّط على شيء، فقد ذكر لنا بعض الإخوان من بعض البلاد التي يديرها مدرّسون من الشيعة قرب المدينة النبويّة، أنّ المدير شيعي، والمدرّسون كلهم من الشيعة قد اتفقوا على ألا يدرّسوا الأولاد في المرحلة الابتدائية إلا دروسًا قليلة، فلا يعلّموهم هجاء ولا كتابة ولا قرآنًا ولا تجويدًا ولا حسابًا، وأن ينجّحوهم كلّ سنة من دون أن يعرفوا شيئًا، فإذا انتهى أحدهم إلى المرحلة المتوسّطة وهو لا يحسن كتابة اسمه ترك الدراسة، ويبقون على جهلهم. وهذا من حيلهم، ليضرّوا أهل السنّة، كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف:٨].

فإذًا من معتقد أهل السنّة الاعتراف بخلافة الخلفاء الراشدين، وأنّ ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، فأوّلهم وأفضلهم أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان، ثمّ عليّ رضي الله عنهم أجمعين، وهم الخلفاء الراشدون الذين أمر النبيّ ﷺ باتّباعهم، وسمّاهم الخلفاء، بقوله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ**»[1]؛ شهادة لهؤلاء بأنّهم الخلفاء، وأنّهم راشدون، وعلى الصراط المستقيم الذي سألوا الله أن يهديهم إياه.

وسيرةُ أبي بكر ﷺ معروفة، فهي أحسن السير؛ لأنه اقتدى بالنبيّ ﷺ في كلّ ما يفعل، فأنفذ جيش أسامة أوّل ما تولّى، وبعث الجيوش لقتال المرتدّين، فانتصر الإسلام، بعد أن كان العرب قد رموا أهل المدينة عن قوس العداوة، انتصر

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

الإسلام في أربعة أشهر أو أقلّ، أرسل جيشًا لقتال بعض المرتدّين، فهدى الله طيئًا ومن معهم، فلمّا رآهم أولئك العرب والذين معهم فانضموا إليهم، ولم يمض إلا شهران أو ثلاثة أشهر حتّى بعث أبو بكر ستة عشر أميرًا أو سبعة عشر لقتال المرتدّين البعيدين، انضموا كلّهم إلى الإسلام، ورجعوا إليه، أليس ذلك دليلاً على حنكته وفراسته وقوّته في أمر الله تعالى، ودليلاً على أنّ الله سدّده وهدى به، ونصر به الإسلام.

الرافضة بأيّ شيء يطعنون فيه، لما أنّهم رووا فيما يروونه أنّ عليًّا هو الإمام، في الحديث الذي يسمونه حديث الغدير، مع أنّ أكثره كذب، وفيه: أنّه ﷺ قال: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَإِنَّ عليّ مَوْلاهُ، اللهمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»[1]؛ نقول: هذا صحيح. إنّ عليًّا من النبيّ ﷺ بمنزلة هارون من موسى، وهو مولى المسلمين، وكذلك نقول في أبي بكر ﷺ وفي بقية الخلفاء وسائر الصحابة، هم موالي المسلمين، وليست الولاية إلا ما تقتضي المحبّة، فإذا كان عليّ وليًّا للمؤمنين ووليًا للنبيّ ﷺ، والنبيّ ﷺ وليّ للمؤمنين أيضًا، فكذلك بقيّة الصحابة رضوان الله عليهم، وليس هناك دليل على أنّ عليًا ﷺ اختصّ بالولاية دون غيره، ودعاء النبيّ ﷺ: «**اللهمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»، دعاء صحيح إذا ثبت، نحن نواليه ونحبّه، ولكن لا نُفْرِط في حبّه، ولا نجعله أحق بالولاية من أبي بكر ﷺ وغيره من الخلفاء، بل نجعلهم كلّهم أهل ولاية وأهل محبّة وأهل ترضٍّ، وكذلك

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٧٠).

بقيّة الصحابة الأبرار، ونجعل من حقّهم علينا أن نواليهم وأن نحبّهم.

طعن الرافضة في أبي بكر طعنًا واحدًا؛ وهو أنّه: لم يُعطِ فاطمة حقّها من الميراث، ولم يورّثها! هذا هو الذي طعنوا عليه فيه، وتحاملوا عليه تحاملاً شديدًا، وأنكروا قول النبيّ ﷺ: «**لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»[(١)]، مع ثبوته بطرق كثيرة، وجعلوا قول ذلك من أبي بكر ﷺ كذبًا، مع أنّه لم ينفرد بذلك، وجعلوه ﷺ مهتمًّا لأمر الدّنيا، وأنّ الدنيا أكبر همّه، مع أنّه يقول: «**مالي وَلِلدُّنْيَا، ما مثلي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إلا كَرَاكِبٍ سَارَ في يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[(٢)].

ومع ما ثبت عن الحارث بن أبي ضرار أنه قال: «**مَا تَرَكَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً**»[(٣)]. فبأي شيء ينتقدون أبا بكر ﷺ ويقولون: إنّه منع فاطمة ـ رضي الله عنها ـ حقّها من أبيها؟

أولاً: الرّسل لا يورثون.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وأخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه مسلم (١٧٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠١)، وعبد بن حميد (٥٩٩)، وصححه الحاكم (٤/ ٣٠٩) ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٩).

وثانيًا: الدنيا ليست ذات أهميّة عندهم حتّى يخلّفوها لأولادهم، ويقولون: لهم أن يرثوا، ولهم أن يأخذوا.

وثالثًا: الأرض التي جعلها صدقة قد صار عليّ ﷺ هو المتولي عليها بعد موت فاطمة.

وبكلّ حال: فهذا أكبر ما طعنوا فيه، ولما قالوا هذا، أخذوا يجمعون ويلفّقون عليه الأكاذيب، ويعيبونه بكلّ عيب، ويقولون: إنه قاتل المسلمين، وهم يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. نعم، لكنّهم لما فرّقوا بين الصلاة والزكاة، لم يكونوا مقرّين بالشهادة حقّ الإقرار، فلأجل ذلك رأى قتالهم وسمّاهم بالمرتدّين، وأنّه أقرّ خالدًا ﷺ على القتال، ويكفّرون خالدًا ﷺ بأمورٍ أخذوها عليه، نقول: نعم: أقرّه؛ لأنّه رآه أهلًا للقتال، وليس خالد ﷺ قريبًا له، ولا صهرًا، بل هو سيف الله الذي سمّاه النبيّ ﷺ، فماذا نقموا عليه حتّى يسبُّوه ويلعنوه ويشتموه؟!

إذًا أبو بكر ﷺ جعله النبيّ ﷺ خليفة في الصلاة كما سبق، وتقديمه بالصلاة دليل على أوّليّته، ودليل على أهليّته للإمامة، كذلك أيضًا هو دليل على ميزته وكفاءته، وفيه إشارة إلى أنّه سيخلفه ويقوم مقامه، بدليل خوخته التي لا تسدّ بأمر النبيّ ﷺ، فذلك إشارة إلى أنّ له أحقّية في المسجد وفي الولاية، وكذا مرّ قوله ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ من بَعْدِي: أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[1] فبدأ بأبي بكر ﷺ، فدلّ على أنّه يتولّى بعده، وهذا ما وقع، ثمّ تولى عمر ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

فإذا هذه الإشارات واضحة في أنّ أبا بكر ﷺ هو الخليفة بعده. وكذلك حديث القليب الذي سبق ذكره[١]، وفيه إشارة إلى قصر خلافة أبي بكر ﷺ، ومدّة خلافة عمر ﷺ الطويلة، وفي عصره فُتحت البلاد، وهذا ـ بلا شكّ ـ دليل على أنّها خليفتان بعد النبيّ ﷺ. وكذلك في الرؤيا التي رآها بعض الصحابة في الدلو الذي دلّي من السماء... وفيه إشارة إلى تولّي أبي بكر ثم عمررضي الله عنهما[٢]، وكذلك كثير من الإشارات، كقول النبيّ ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً، لاتَّخَذتُ أَبا بكرٍ خليلاً**»[٣]. وأبو بكر ﷺ هو الخليفة الراشد الذي تولّى أمر المسلمين، وسار فيهم السيرة الحسنة، وبعده لم يولّ الخلافة لأولاده ولا لأقاربه ولم يحابِ بها أحدًا، وكذلك في خلال ولايته لم يولّ الأمراء لأجل قرابتهم أو محاباة، وإنّما اختار منهم من فيه الأهليّة والكفاءة، حتّى ولو لم يكونوا من قريش، فولّى خالدًا ﷺ وغيره لأهليّتهم.

إذًا نشهد أنّ أبا بكر ﷺ أهل للخلافة، وأنّ الله عندما اختاره خليفة، وواليًا للمسلمين كان ذلك عين المصلحة، وهو الذي ثبّت الله به الإسلام، وردّ به المسلمين، بعدما كادوا أن يخرجوا من الإسلام، وهو من سمّي بالصّديق، وهو الذي فتح الله به قلوب العباد، ورزقهم الإنابة إليه، والثبات على دينه.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

قال الشارح:

وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِالْخَبَرِ الْمَأْثُورِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ، وَإِنْ لَا أَسْتَخْلِفْ، فَلَمْ يَسْتَخْلِفْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ[(١)].

وَبِمَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّهَا سُئِلَتْ مَنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ مُسْتَخْلِفًا لَوِ اسْتَخْلَفَ؟[(٢)].

وَالظَّاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِعَهْدٍ مَكْتُوبٍ، وَلَوْ كَتَبَ عَهْدًا لَكَتَبَهُ لِأَبِي بَكْرٍ، بَلْ قَدْ أَرَادَ كِتَابَتَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ، وَقَالَ: «يَأْبَى اللهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»[(٣)].

كَانَ هَذَا أَبْلَغَ مِنْ مُجَرَّدِ الْعَهْدِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَلَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى اسْتِخْلَافِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِأُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَخْبَرَ بِخِلَافَتِهِ إِخْبَارَ رَاضٍ بِذَلِكَ، حَامِدٍ لَهُ، وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ بِذَلِكَ عَهْدًا، ثُمَّ عَلِمَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَتَرَكَ الْكِتَابَ اكْتِفَاءً بِذَلِكَ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَرَضِهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ لِبَعْضِهِمْ شَكٌّ: هَلْ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنْ جِهَةِ الْمَرَضِ؟ أَوْ هُوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢١٨)، ومسلم (١٨٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٥).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

قَوْلٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ؟ تَرَكَ الْكِتَابَةَ، اكْتِفَاءً بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللهَ يَخْتَارُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ.

فَلَوْ كَانَ التَّعْيِينُ مِمَّا يَشْتَبِهُ عَلَى الْأُمَّةِ لَبَيَّنَهُ بَيَانًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ، لَكِنْ لما دَلَّهُمْ دَلَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْمُتَعَيِّنُ، وَفَهِمُوا ذَلِكَ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ. وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ الَّتِي خَطَبَهَا بِمَحْضَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: «أَنْتَ خَيْرُنَا وَسَيِّدُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»[1]، وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلا قَالَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ إِنَّ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَمِيرٌ، وَهَذَا مِمَّا ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بُطْلَانُهُ.

ثُمَّ الْأَنْصَارُ كُلُّهُمْ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، لِكَوْنِهِ هُوَ الَّذِي كَانَ يَطْلُبُ الْوِلَايَةَ. وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ قَطُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَصَّ عَلَى غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ، لَا عَلِيٌّ، وَلَا الْعَبَّاسُ، وَلَا غَيْرُهُمَا، كَمَا قَدْ قَالَ أَهْلُ الْبِدَعِ!.

وَرَوَى ابْنُ بَطَّةَ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعَثَ مُحَمَّدَ بْنَ الزُّبَيْرِ الْحَنْظَلِيَّ إِلَى الْحَسَنِ، فَقَالَ: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ: أَوَفِي شَكٍّ صَاحِبُكَ؟ نَعَمْ، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اسْتَخْلَفَهُ، لَهُوَ كَانَ أَتْقَى لِلَّهِ مِنْ أَنْ يَتَوَثَّبَ عَلَيْهَا[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٢٩٧).

قال الشيخ:

تقدّم القول الأول: أنّ خلافة أبي بكر ﷺ بالنصّ، وهذا قول أنّها بالإشارة. فهما قولان للعلماء.

الذين قالوا بالنصّ، استدلّوا بقوله ﷺ: «**اقتَدُوا باللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أبي بَكْرٍ وعُمَرَ**»[1]. فهذا نصّ، واستدلّوا بقوله للمرأة التي قالت: «أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فلَمْ أَجِدْكَ؟» فقال: «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أبا بَكْرٍ**»[2]، فإنّ هذا هو الذي يتولّى الأمر بعده. واستدلّوا بكون النبيّ ﷺ أمره بأن يصلي بالنّاس في مرضه[3]، وهذا نصّ في أنّه يكون إمامًا متبعًا؛ ولهذا قالوا: رضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا. يعني: من قدّمه إمامًا علينا في الصلاة.

أمّا القول الثاني: إنّه لم يستخلف، وإنّما أشار إشارات، وإنّ عمر ﷺ قال: «**وَإِنْ لَا أَسْتَخْلِفْ، فَلَمْ يَسْتَخْلِفْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي رَسُولَ الله ﷺ**»[4]، هكذا قالوا: إنّ عمر ﷺ شهد بأنّ النبيّ ﷺ لم يستخلف.

نقول: لم يستخلف بالنّص، فهو لم يقل: أيّها النّاس بايعوا أبا بكر، فهو خليفتي عليكم. لكن قد عزم على أن يكتب له كتابًا، وقال لعائشة رضي الله عنها: «**ادْعِي لي أَبا بَكْرٍ وَأَخَاكِ حتى اكتب كِتَابًا**»، حتّى لا يختلفوا عليه، ثمّ إنّه ترك

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٤).

(٣) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

(٤) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠٤).

الكتاب، وقال: «وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إلا أَبَا بَكْرٍ»[١]، فهو لم يقل: بايعوا أبا بكر، أو أبو بكر خليفتي! لكن مجموع هذه الإشارات يصبح نصًّا ودليلاً واضحًا لا خلاف فيه.

ومرَّ بنا كلام الحسن بن علي ﷺ، الذي هو الإمام الثاني عند الرافضة، لما قيل له: هل أبو بكر استخلفه الرسول أو لا؟ قال: هو أورع من أن يتوثّب عليها. يعني: لم يكن راغبًا بالولاية، ولا متعلّقًا فيها، ولكن لما اجتمعت عليه كلمة المسلمين، وجاءت هذه الإشارات باستخلافه قبلها، وإلا فهو ورع وزاهد ولا يمكن أن يقبلها من دون أن يكون أهلاً لها، ومن دون أن يجمع عليه أهل الحلّ والعقد من الصحابة رضي الله عنهم. فالنبيّ ﷺ أشار هذه الإشارات التي تدلّ على أنّ أبا بكر ﷺ أحقّ بالإمامة، وعمر ﷺ رأى أنّه أحقّ بالولاية فبايعه، وبايعه بقيّة الصحابة لم يتخلّفوا في أول يوم.

وقبل بيعة أبي بكر وبعد موت النبيّ ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأرادوا أن يبايعوا واحدًا منهم أميرًا، وهو سعد بن عُبادة ﷺ، فلمّا سمع بهم عمر وأبو بكر وأبو عبيدة رضي الله عنهم ذهبوا إليهم وخاطبهم أبو بكر لما قالوا: «مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ»، بقوله: «نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ»، فتمّت البيعة في السقيفة نفسها. فبايعوا أبا بكر واجتمعوا عليه[٢]، ولم يتخلّف أحدٌ منهم،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وسعد بن عبادة لم يبايع تلك الساعة عسى أن يكون له شيء في الإمارة، ولكنّه فيما بعد بايع بيعة مختار راضٍ، وكذلك عليّ ﷺ، قيل: إنّه تأخّر عن البيعة، ثمّ بايع. والصحيح أنّه بايع باختياره وطوعه، ولِمَا علمه من أهليّة أبي بكر وأحقّيّته بالخلافة، وقد ثبت أبو بكر ﷺ من خلال أهليّته وحنكته وسياسته فإن الله اختاره للإسلام والمسلمين في ذلك الوقت الحرج، الذي هم أشد ما يكونون حاجة إلى خليفة قويّ حازم يقيم فيهم أمر الله تعالى، ويحكم أمورهم، فيسرّ الله لهم أبا بكر ﷺ، وأنعم عليهم بخلافته في ذلك الوقت.

قال الشارح:

وَفِي الْجُمْلَةِ: فَجَمِيعُ مَنْ نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ طَلَبَ تَوْلِيَةَ غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ، لَمْ يَذْكُرْ حُجَّةً دِينِيَّةً شَرْعِيَّةً، وَلَا ذَكَرَ أَنَّ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْهُ، أَوْ أَحَقُّ بِهَا، وَإِنَّمَا نَشَأَ مِنْ حُبِّ قَبِيلَتِهِ وَقَوْمِهِ فَقَطْ، وَهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ فَضْلَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَحُبَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ. فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، وَعَدَّ رِجَالاً».

وَفِيهِمَا أَيْضًا، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُوبَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟ مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦١)، ولم يخرجه مسلم كما ذكر الشارح.

وَمَعْنَى: غَامَرَ: غَاضَبَ وَخَاصَمَ. وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ ذِكْرِ فَضَائِلِهِ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ - فَذَكَرَتِ الْحَدِيثَ - إِلَى أَنْ قَالَتْ: وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ! فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ، فَأَسْكَتَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي هَيَّأْتُ فِي نَفْسِي كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي، خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ! ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: نَحْنُ الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، فَقَالَ حُبَابُ ابْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللهِ لَا نَفْعَلُ، مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا وَلَكِنَّا الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ، وَأَعَزُّهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ، فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدًا، فَقَالَ عُمَرُ: قَتَلَهُ اللهُ»[1].

وَالسُّنْحُ: الْعَالِيَةُ، وَهِيَ حَدِيقَةٌ بِالْمَدِينَةِ مَعْرُوفَةٌ بِهَا.

قال الشيخ:

معلوم أنّ التقديم يدلّ على الفضل، والاختيار يدلّ على الأهليّة. وهم ما قدّموا أبا بكر ﷺ إلا لفضيلته، ولا اختاروه خليفة إلا لكونه كفؤًا لهذه الولاية،

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠٨).

ولذلك أجمعوا عليه، ونزّه الله الأمّة أن تجتمع على خطأ أو ضلالة، وقد ذكر العلماء أن إجماع الأمّة حجّة قاطعة، ويعترف بذلك الرافضة، ولكنهم ها هنا خالفوا معتقدهم، ونقول لهم: من الذي خالف في بيعة أبي بكر؟ سمّوا لنا شخصًا لم يرض بهذه البيعة فيما بعد؟ فعليّ الذي هو الإمام قد بايعه وجاهد معه، وصار مستشارًا له، وقرينًا له في كلّ تدبيراته، يرجع كلّ منهما إلى قول الآخر، ولم ينقل عنه أنّه سخط بيعته أو أنكرها، فهو من جملة من بايع.

وأمّا سعد بن عبادة الأنصاري ﷺ فقد كان هيأ نفسه ليكون أميرًا للأنصار، ولكنّه لما تمّت البيعة لأبي بكر ﷺ بايعه، وكان كسائر المقتدين بأبي بكر وكأحد الرعيّة.

في هذه الأحاديث دليلٌ على فضيلة أبي بكر ﷺ، وأنّ النبيّ ﷺ كان يحبّه ويقدّمه. فهذا عمرو بن العاص من أكابر قريش لما أمّره النبي ﷺ على سريّة تُعرف بذات السلاسل، قبل أن يخرج جاء إلى النبي ﷺ، وقال له: «أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، قال: «مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا»». فهذا دليل المحبّة، وإن كان النبيّ يحبّه ويقدّمه فذلك لأهليّته. وقد ذكر عمرو أنّه ﷺ سمّى بعده رجالاً[1].

وفي الحديث الثاني أنّ النبيّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟»[2]

---

(١) تقدم الحديث (٣/ ٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠٩).

وذلك بأنّه أوّل من أسلم من الرجال على الصحيح.

ويقول الكلوذاني في عقيدته:

قَالُوا فَمَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ خَلِيفَةً ... قُلْتُ المُوَحِّدُ قَبْلَ كُلِّ مُوَحِّدِ

حَامِيهِ فِي يَوْمِ العَرِيشِ وَمَنْ لَهُ ... فِي الغَارِ أَسْعَدَ يَا لَهُ مِنْ مُسْعِدِ

فكان الموحّد قبل كلّ موحّد؛ لأنه لما دعاه النبيّ ﷺ لم يتلعثم، ولم يتوقّف، فبمجرّد ما عرف الإسلام أسلم، ولم يقل دعني أنظر في أمري، كان رجلاً كاملاً. فلما دعاه إلى الإسلام قال: صدقت. فلذلك سمّي بالصّدّيق.

وكذلك أيضًا ما ذُكر في حديث السقيفة، فقد جاء إليها ومعه عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهم، وخاطب الأنصار ـ لما طلبوا أن يكون منهم الأمير ـ قائلاً: «نَحْنُ الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ»، وذكر لهم أنّ النبيّ ﷺ أرشد أنّ الإمارة في قريش، فرضوا بذلك، ولما قال: «فَبَايِعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ»، قال عمر ﷺ: لم يقل كلمة تؤلمني إلا هذه، ما كنت أحبّ أن أكون واليًا على قوم فيهم أبو بكر. أي لأهليّته وأحقّيّته، فهم قدّموه لصحبته، ومحبّته عند النبيّ ﷺ، وكونه صهرًا، وأهليّته وكفايته وفضائله التي ذكرها الله في القرآن الكريم: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١]، وغير ذلك من فضائله الكثيرة، ومن أراد أن يتوسّع فيها فليرجع إلى ترجمته وإلى ما كتبه عنه العلماء، ومن

أشهرها كتاب «فضائل الصحابة» للإمام أحمد، وهو مطبوع في مجلّدين.

وفضيلته في حروب الرّدة معروفة للجميع، فبعد أن مات النبيّ ﷺ ارتد الأعراب عن الإسلام، حتّى قال قائلهم[1]:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مُذْ كَانَ بَيْنَنَا فَيَا لِعِبَادِ اللَّهِ مَا لِأَبِي بَكْرِ

يعني: ما لنا ولطاعته، إنّما طاعتنا للرسول ﷺ وهو موجود بيننا.

ولكن لما أنّ الله استخلفه على المسلمين كان ذلك عين المصلحة التي أيّد الله بها الإسلام في ذلك الوقت العصيب، والوقت الشديد، فقد سار فيهم السيرة الحسنة، وخلف النبيّ ﷺ فيما كان يفعله، لم يترك شيئًا يفعله إلا فعله، مثل توزيعه للغنائم، وتقسيمه لخمس الخمس، وإعطائه لمن كان يعطيهم النبيّ ﷺ من سهم ذوي القربى، وتوزيعه للصدقات، ولم يأل جهدًا أن يفعل كفعل النبيّ ﷺ.

ولكن لما لم يعط فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ميراثها من أبيها، نقمت عليه الروافض، وطعنوا في خلافته وإمامته، وصاروا يسبّونه ويشتمونه، زعمًا منهم أنّه خان الأمانة، وأنّه أخلف ما جاء من سيرة من قبله، ومعلوم أنه ﷺ لم يترك تركة، وثبت عنه أنّه قال ﷺ: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»[2]، وتقدم حديث الحارث بن أبي ضرار أنه قال: «مَا تَرَكَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا

(١) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ١٢٥) ونسبه إلى حارثة بن سراقة الكندي.

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠١).

جَعَلَهَا صَدَقَةً»[(١)]. فهذه شهادة من هذا الرجل الذي ليس من قريش، وإنّما هو من بني المصطلق، وهو أب لإحدى أمّهات المؤمنين، وهي جويريّة بنت الحارث. وقد أخبر بهذا الخبر، فدلّ على أنّه عليه الصلاة والسلام لم يكن وراءه تركة، حتّى لا يقول أحد إنّ أبا بكر رضي الله عنه لم يُعطِ فاطمة رضي الله عنها حقّها، فما أعظم فريتهم!

وما هذا من شدّة محبّتهم لفاطمة رضي الله عنها، بل كان رسول الله ﷺ أشدّ منهم محبّة لفاطمة رضي الله عنها، فهي بضعة منه، لو أراد أن يعطيها لأعطاها في حياته، فقد ورد: «أَنَّ فَاطِمَةَ اشْتَكَتْ مَا تَلْقَى مِنْ الرَّحَى مِمَّا تَطْحَنُ، فَبَلَغَهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِسَبْيٍ فَأَتَتْهُ تَسْأَلُهُ خَادِمًا»، فلم يعطها شيئًا من ذلك، بل باع السَّبْيَ، وتصدّق به وأعطاه للمستضعفين من أهل الصُّفّة وغيرهم، وأرشدها مع زوجها إلى التسبيح والتكبير والتحميد عند النوم، وقال: «فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمَا مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ»[(٢)].

فكيف يغار هؤلاء الرافضة لفاطمة والنبيّ ﷺ يحرمها ولم يعطها، وقال ﷺ لها أيضًا: «سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ الله شَيْئًا»[(٣)]. ولو كان عنده مال لأخذت منه في حياته، فكيف يقولون: إنّه منعها من ميراثها؟!

ومعلوم أنّ الأنبياء لا يورَّثون، والرافضة يتمسّكون بآيات فيها شيء من ذكر

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الميراث، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[النمل:١٦]. ويقولون: هذا دليل على أنّ الأنبياء يورثون!

عجبًا لهم؛ الآية إنّما فيها إرث النبوّة، فهو ورثه في نبوّته، بمعنى أنّه ورثه في مُلكه، فكان نبيًا بعده، وكان ملكًا بعده. ومعلوم أنّ داود ـ عليه السلام ـ له أولاد كثير؛ لأنّ له نساء كثيرات، فكيف خصّ داود سليمان عليهما السلام بالإرث، إنّما هو إرث النبوّة. وكذلك يستدلّون بقصّة زكريّا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[مريم:٥، ٦]؛ ويقولون: هذا دليل على أنّ زكريّا ـ عليه السلام ـ طلب ولدًا حتّى يرثه! وهذا تأويل منكر منهم! كأنّه لا همّ للأنبياء إلاّ المال، لا والله! إنّما أراد يرثُني في النبوّة ويرث علمي، ويرث العلم الذي خلّفه آل يعقوب. أمّا أن يهتمّ بمن يرث ماله، فحاشاه! ليست الدّنيا أكبر همّه حتى يطلب من ربّه الولد من أجل ذلك، ومن أخبركم بأنّ زكريّا ـ عليه السلام ـ كان ذا مال لكي يطلب ولدًا يرثه؟

فهكذا ينقّبون عن مثل هذه ليطعنوا في أبي بكر ﷺ؛ ولأجل ذلك يكفّرونه ويضلّلونه، ويقولون إنّه خان الأمانة، وأنّه خالف السيرة النبويّة، ولم يقم بما قام به، وأنّه حرم فاطمة حقّها، وأنّه بخس عليًّا حقّه وهو الإمامة؛ لأنّه ـ في زعمهم ـ هو الوصيّ، وغير ذلك من أكاذيبهم.

قال الطحاوي:

ثمّ لعمرَ بنِ الخطَّابِ ﷺ.

قال الشارح:

أَيْ: وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ لِعُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا. وَذَلِكَ بِتَفْوِيضِ أَبِي بَكْرٍ الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ، وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ بَعْدَهُ عَلَيْهِ. وَفَضَائِلُهُ ﷺ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُنْكَرَ، وَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ.

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أَوَمَا تَعْرِفُ؟ فَقُلْتُ؟ لَا، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: ثُمَّ عُثْمَانُ! فَقُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ فَقَالَ. مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[1].

وتقدَّمَ قولُه ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ من بَعْدِي: أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[2].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[3]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: «وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ، فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُثْنُونَ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا بِرَجُلٍ قَدْ أَخَذَ بِمَنْكِبِي مِنْ وَرَائِي، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧١).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

(٣) برقم (٢٣٨٩)، وأخرجه أيضًا البخاري (٣٦٨٥).

عَلِيٌّ، فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَ: مَا خَلَّفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَايْمُ اللهِ، إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو - أَوْ لَأَظُنُّ - أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَهُمَا».

وَتَقَدَّمَ[1] حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ فِي رُؤْيَا رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَزْعِهِ مِنَ الْقَلِيبِ، ثُمَّ نَزْعِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ اسْتَحَالَتِ الدَّلْوُ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[2]، مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: قَالَ: «اسْتَأْذَنَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ، يُكَلِّمْنَهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ...». الحَدِيثَ، وَفِيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيهٍ يَا ابْنَ الخَطَّابِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3] أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ مِنْهُمْ».

---

(١) تقدم الحديث (٥/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: تَفْسِيرُ «مُحَدَّثُونَ»: مُلْهَمُونَ.

قال الشيخ:

اتّفق الصحابة رضي الله عنهم على مبايعة عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي ﷺ؛ لأن أبا بكر ﷺ قد عَهِدَ إليه، فلما مرض وأحسّ بالوفاة، استحضر عمر ﷺ وقال: «أنت الخليفة بعدي»، وأرشد النّاس إلى مبايعته، وعهد إليه بالخلافة، فلم يختلف عليه اثنان، بل أجمعوا على مبايعته وأهليّته، فتمّت له البيعة، وتمّ أمره.

وفي ولايته ﷺ اجتهد في توسعة رقعة الإسلام، حيث أنفذ الجيوش، وبعثهم إلى أطراف البلاد، ففُتحت بلاد الشام في عهده، وكذلك العراق ومصر وإفريقيا وخراسان، ووقعت في عهده وقائع كثيرة، مثل اليرموك والقادسيّة ونهاوند، وغيرها من الوقائع المشهورة التي أعزّ الله بها الإسلام والمسلمين، وانتصر فيها أولياء الله على أعدائه. تمّ هذا بتوصية من عمر ﷺ وتحريض منه، ولم يتوقّف الأمر عند هذا، بل سار بنفسه إلى كثير من البلدان؛ ففتح بيت المقدس الذي هو «إيلياء»، والمعروف بلغتهم «أورشليم»، لم يفتح إلا بعدما غزاها بنفسه، ووقف عليها وحاصرها، فبعد ذلك فتحوا له الأبواب، وفتحوا المسجد الأقصى.

وبكلّ حال، فهو ثاني الخلفاء الراشدين، الذي وفّق الله أبا بكر ﷺ لتوليته، ووفق الأمّة لاختياره، فكانت توليته عين المصلحة، ووافق على ذلك المسلمون، ويترضّى عنه أهل السنّة، ويعترفون بفضائله، وبقوته وصرامته وحنكته، وسيرته

الحسنة التي ضُرب المثل فيها بعدله، وتواضعه، وفي منهجه، وفي سلوكه في الأمّة وغير ذلك من سيرته.

ولا شكّ أنّ هذا من توفيق الله تعالى للأمّة، حتّى قوي الإسلام وانتشر، ودخل النّاس في دين الله أفواجًا، وذلّ للإسلام أعداؤه من اليهود والنّصارى، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ومكّن الله للمسلمين في بلادهم، وحقّق لهم وعده في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥]. تحقّق ذلك كلّه في عهد الخلفاء رضي الله عنهم، وبالأخصّ في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ولا شكّ أنّ اختيار أبي بكر لعمر - رضي الله عنهما - لا بدّ أن يكون له مستند، فهو الذي قد صحب النبيّ ﷺ، وعرف إشاراته، وميله ومحبّته له، وسمع منه ما يدلّ على أفضليّة عمر وأهليّته، وقد وردت إشارات إلى خلافته مع خلافة من قبله ومن بعده، كقول النبيّ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ..**»[1]. ولا شكّ أنّ عمر ﷺ منهم. وكذلك قوله: «**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**»[2]، سمّاه مع من بعده باسمه الصريح، وأمر بالاقتداء به؛ وذلك لأنّه أهل

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).

للاقتداء، وأنّه أهلٌ لحمل السنّة، فقد حمل من الشريعة ما حمل.

وفي عهده ﷺ كثرت المسائل الواقعيّة، فأفتى فيها بما قبله أهل السنّة، ولأجل ذلك يعرف فقهه وفهمه وفتاواه؛ لكثرة ما نقل عنه ووقع له. كذلك أيضًا من الإشارات حيث تقدّم فيه ما يدلّ على أنّه الخليفة بعد أبي بكر ﷺ، فقد تقدّم قول النبيّ ﷺ: «**بَيْنا أَنا نائِمٌ رَأَيْتُني على قَلِيبٍ، عَلَيْها دَلْوٌ، فنَزَعْتُ منها ما شاءَ الله، ثُمَّ أَخذَها ابنُ أَبي قُحافَةَ، فنَزَعَ منها ذَنوبًا، أَو ذَنُوبَينِ، وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، والله يَغفِرُ لهُ، ثُمَّ اسْتَحالَتْ غَرْبًا، فأَخَذَها ابنُ الخطَّابِ، فلَمْ أَرَ عَبقَرِيًّا مِنَ النّاسِ يَفْرِي فَرِيهُ، حَتّى ضَرَبَ النّاسُ بعَطَنٍ**»[1]؛ فأشار إلى خلافة أبي بكر ﷺ وأنّ مدتها قصيرة، فهو لم ينزع إلا دلوًا أو دلوين. أمّا عمر ﷺ فجعل ينزع بهذه الدلو التي استحالت غربًا، وهي الدلو الكبيرة، حتى روي الناس وضربوا بعطن؛ إشارة إلى طول خلافته، وإلى امتداد الإسلام والدولة في عهده، والانتصارات التي حصلت في خلافته.

كذلك يعترف أهل السنّة بأفضليّته، ومنهم عليّ ﷺ الذي تُقدِّسه الشيعة، وترفعه وتُعلي من شأنه، وتغلو فيه غُلُوًّا زائدًا، يصل عند البعض إلى العبادة من دون الله، وتزعم أنّه عدو لهؤلاء الخلفاء، وتزعم أن من والى عليًا لا بدّ أن يعادي أبا بكر وعمر، فإنّهما ضدّان، ويقولون: لا ولاء إلا ببراء، ويقولون: لا يمكن أن توالي عليًا إلا أن تعادي أعداءه.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٦).

ونقول: كذبتم، بل هما صاحبان، وأخوان، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. وبقيّة الصحابة رضوان الله عليهم كلّهم إخوة، وعليّ ﷺ واحد منهم، يحبّهم ويحبّونه، ويصلّي خلفهم، ويتولى ولاياتهم، ويأخذ أعطياتهم، ويجالسهم ويؤانسهم، ويكلّمهم ويصحبهم، ولم يظهر لهم عداوة، ولم يقاطعهم ويهجرهم. ولكنّكم أيها الرافضة نكست فطركم، ورأيتم الباطل حقًّا والحقّ باطلاً، وصوّبتم ما كان خطأ، وزعمتم أنّ بين الصحابة عداوة ولم تكن، بل أنتم أهلُ الحقد وأهل البغضاء!

يذكر العلماء أنّ الآثار شبه متواترة، أنّ عليًّا ﷺ كان يقول على المنبر: «خَيْرُ هذه الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أبو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ»[(١)] رضي الله عنهما. يعترف بذلك على المنبر، فأين عقول هؤلاء الرافضة من هذا الأثر المشهور غاية الشهرة، ومع ذلك يخالفونه في هذين الخليفتين وعثمان ويكفّرونهم ويضلّلونهم ويشتمونهم، وإمامهم عليّ -على زعمهم- يعترف بهما ويفضّلهما. فهذا محمد بن الحنفيّة ابنه وهم يغلون فيه أيضًا؛ لأنّه من أولاد عليّ، ولكن يغلون كثيرًا في الحسن والحسين. فهو يسأل أباه فيقول: «يَا أَبَتِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ؟» فيجيبه أبوه مستغربًا: «يَا بُنَيَّ، أَوَمَا تَعْرِفُ؟» فيقول: «لَا»، فيقول: «أَبُو بَكْرٍ»، يعترف علي ﷺ بأن أفضل الأمّة أبو بكر، ولفضله اتّخذ خليفة للمسلمين، ولفضله سَمَّوه خليفة رسول الله

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٠٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٥١)، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٩٧) من حديث أبي جحيفة.

ﷺ، قال: «ثُمَّ مَنْ؟» قَالَ: «عُمَرُ»، هو ثانيه في الخلافة، وهو ثانيه في الفضل، قال: «وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: ثُمَّ عُثْمَانُ! فَقُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟» خشي أن يقول عثمان ﷺ، وأحبّ أن يكون لأبيه الفضل، ولكنّ عليًا ﷺ تواضع غاية التواضع وقال: «مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[1]، مع أنّ له الفضل. وقد اختلف العلماء من أهل السنّة: أيّهما أفضل؟ والخلاف في ذلك ليس مخرجًا من الملّة، ولا يُضلّل به، يعني في الفضيلة، كما سيأتي.

نقول: إنّ فضائل عمر ﷺ أكثر من أن تحصى، وقد أفردت بالتأليف قديمًا وحديثًا، فابن كثير رحمه الله صاحب «التاريخ» كتب في فضائل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأفرد بعضهم عمر ﷺ بالفضل، وأشهر من كتب فيه ابن الجوزي «مناقب عمر» رسالة مطبوعة منتشرة، ذكر فيها فضائله وأحواله وما بشّره به النبيّ ﷺ.

وقد تقدّم أنّه أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وفي حديث أبي موسى ﷺ قال: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ حَائِطًا، وَأَمَرَنِي بِحِفْظِ بَابِ الْحَائِطِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: **ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**، فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: **ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**، فَإِذَا عُمَرُ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ فَسَكَتَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ: ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى سَتُصِيبُهُ، فَإِذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩٥)، ومسلم (٢٤٠٣).

وكذلك من فضائله ما تقدم في الحديث الذي أشار إليه الشارح: «اسْتَأْذَنَ عُمَرُ على رسول الله ﷺ وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ من قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ، فلما اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ له رسول الله ﷺ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَضْحَكُ، فقال عُمَرُ: أَضْحَكَ الله سِنَّكَ يا رَسُولَ الله، فقال رسول الله ﷺ: **عَجِبْتُ من هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي فلما سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ** قال عُمَرُ فَأَنْتَ يا رَسُولَ الله أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ، ثُمَّ قال عُمَرُ: أَيْ عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبْنَنِي ولا تَهَبْنَ رَسُولَ الله ﷺ؟ قُلْنَ: نعم أنت أَغْلَظُ وَأَفَظُّ من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: **وَالَّذِي نَفْسِي بيده ما لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إلا سَلَكَ فَجًّا غير فَجِّكَ**»[1]، والفجّ هو الطريق، فالشيطان إن وجده هرب منه، وذهب إلى طريق آخر، وهذا دليل على صرامته في الحق. وكذلك شهد النبيّ ﷺ بأنّه من المحدَّثين، أي الملهمين. يقول ﷺ: «**قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ**»[2].

ومن أجل ذلك يكثر موافقته للسنّة وللقرآن، يقول ﷺ: «وَافَقْتُ الله فِي ثَلَاثٍ ـ أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ ـ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله لَوْ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ فَأَنْزَلَ الله آيَةَ الْحِجَابِ، قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦١٧).

(٢) تقدم تخريجه (٤/ ٦١٧).

نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ قُلْتُ: إِنْ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ الله رَسُولَهُ ﷺ خَيْرًا مِنْكُنَّ حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ أَمَا فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعِظَهُنَّ أَنْتَ فَأَنْزَلَ الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ [التحريم:٥]الْآيَةَ»(١).

فذلك دليل على أنّه ﷺ كان من المحدّثين الملهمين.

ومن أشهر فضائله: أنّه دُفن مع النبيّ ﷺ وأبي بكر ﷺ، وجمع بينه وبينهما، وذلك دليلٌ على اعتراف الصحابة بفضله ومزيّته، حتى قال بعض العلماء في أبي بكر وعمررضي الله عنهما: منزلتهما مع النبيّ ﷺ في حياته كمنزلتهما معه بعد مماته، فهما قريناه في حياته، وكذلك بعد مماته، جعلا معه في الحجرة النبويّة، أليس ذلك دليلاً على أفضليّتهما، وأنّهما صاحباه وحبيباه المقرّبان إليه؟! شهد بذلك عليّ ﷺ في الحديث الذي تقدّم لمّا مات عمر ﷺ «فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَ: مَا خَلَّفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى الله بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ»، يعني: أنّه لا يرجو أن يكون مثل أحد إلا عمر ﷺ، وأنّه لا يتمنّى أن يكون عمله إلا مثل عمل عمر ﷺ، حتّى يلقى الله بذلك، فالنبيّ ﷺ كان يحبّه، ويحبّ أبا بكر ﷺ، ومن آثار تلك المحبّة أن جمعا معه في المكان الذي قُبر فيه، ويقول: «إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَسْمَعُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

وَعُمَرُ »[١]، مما يجعله أهلاً أن يكون إلى جانب أبي بكر، والنبيّ ﷺ في المكان الذي دُفنوا فيه.

ومن فضائله أنّ له أوليّات كثيرة؛ فهو الذي أشار بجمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر، لما كثر القتل في القراء في وقعة اليمامة، وقتل فيها خمسمئة من حملة القرآن، فخشي أن يذهب منه شيء، فأشار بكتابته في الصحف، ووافقه أبوبكر ﷺ.

وكذلك هو الذي وضع التأريخ، واختار أن يكون التأريخ بالهجرة؛ لأنها التي أظهر الله بها الإسلام، فبعد الهجرة بدأ الإسلام يظهر وينتشر، وقد أجمعت عليه الأمّة بعده إلى الآن.

وكذلك كان هو الذي سنّ هذه الأوقاف في الأرض المفتوحة عنوةً، مثل مصر والعراق والشام، فالأرض الزراعية المفتوحة، جعلها وقفًا على بيت المال، تُزرع وتكون أجرتها لبيت المال تموّله عند انقطاع الفتوحات والغنائم، وأقرّه على ذلك بقيّة الصحابة رضوان الله عليهم، ويستدلّ بذلك على معرفته بمهمّ الأمور ومستقبلها. وقد كان في عهد النبيّ ﷺ جريئًا في إنكار ما رآه منكرًا، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

ولكنّ الرافضة يتتبّعون ما يظنّون أنّ فيه شيئًا من العيب والقدح فيه، فيجمعون أكاذيب ويجمعون أمورًا لا مطعن فيها، ويجعلونها مطاعن في خلافته

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦١٧).

وأهليّته، ويجعلونه مرتدًا عن الإسلام، أو نحو ذلك.

ومن أكبر مطاعنهم عليه أنّه لما مرض النبيّ ﷺ قال: «**ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ**»، قَالَ عُمَرُ ﷺ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَلَبَهُ الْوَجَعُ، وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللهِ حَسْبُنَا»[1] فعند ذلك قاموا ولم يُكتب. فقال الرافضة: إنّه حسد عليًا، وإن عليًّا كان هو الخليفة، وإنّ أبا بكر ليس بخليفة، وإنّ عمر خاف أن يكتب النبيّ ﷺ الخلافة لعليّ، فعند ذلك قال: لا تكتبوا، فحرّم الكتابة ومنعها، وتجرأ، وقال: «وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللهِ حَسْبُنَا». فهذا ما يطعنونه على عمر ﷺ، مع أنّهم غائبون لم يحضروا ذلك الوقت، ولم يعرفوا الإشارات والقرائن، وعمر ﷺ عرف القرائن، وعليّ كان حاضرًا، ولم يعترض، ولم يخطر بباله ﷺ، أنّ له ولاية، ولا أنّ عمر حرمه من الولاية أو الخلافة، فليس في هذا إشارة، ولو من بعيد، بأنّه حسد عليًا، فقال: لا تكتبوا، فعندنا كتاب الله.

والدليل على ذلك أن ابن مسعود ﷺ لما ذُكر له أنّ النبيّ ﷺ أراد أن يكتب كتابة لا نضلّ بعدها، فقال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلى الصَّحِيفَةِ التي عليها خَاتَمُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلْيَقْرَأْ هذه الْآيَاتِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، إلى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤)، ومسلم (١٦٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠) وقال: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٠٧).

فالصحابة فهموا أنّ وصيّة النبيّ ﷺ ليست وصيةً بخلافة ولا بغيرها، ولكنّها وصيّة بديانة وبأمانة؛ ولذلك ليس فيها إشارة إلى خلافة عليّ ﷺ ولا غير ذلك. بل تقدّم في حديث عائشة رضي الله عنها أنّ النبيّ ﷺ قال: «ادْعِي لِي أَبَاكِ وأَخاكِ، حتَّى أَكْتُبَ لأَبِي بَكْرٍ كِتابًا»، ثمّ قالَ: «يَأْبَى الله والمُسلِمونَ إِلَّا أَبا بَكْرٍ»[1]. فهذا دليل على أنّه لو كتب لولّى أبا بكر. فكيف يزعمون أنّ عمرَ حال بين عليّ وبين الولاية.

وكذلك لهم مطاعن كثيرة يجعلونها في كتبهم، ويذكرونها في خطبهم، ويرمونه رضي الله عنه بالفضائح والعظائم، والله حسبهم، ولكن ذلك لا يضرّه، بل يكتب له أجره عند الله موفّرًا.

وللعلماء في الخلفاء الراشدين مسألتان:

المسألة الأولى: ترتيبهم في الخلافة، ومسألة ترتيبهم في الفضل.

ففي الخلافة خلافًا للرافضة إجماع الأمّة الإسلامية على أنّ الخلافة بعد النبيّ ﷺ لأبي بكر، ثمّ لعمر، ثمّ لعثمان، ثمّ لعليّ رضي الله عنهم. وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون، ومن طعن في خلافة أحدهم، فهو أضلّ من حمار أهله، اتّفق أهل السنّة على أنّهم الخلفاء على هذا الترتيب، إلا أنّ الرافضة زعموا أنّ أبا بكر مغتصب للخلافة، وكذلك عمر وعثمان، وأنّهم لا يستحقون الخلافة، بل زادوا أن كفّروهم وشتموهم، وأخرجوهم من الإسلام، وطبّقوا عليهم الآيات التي وردت في

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٥).

المنافقين. ولكن بقي أهل السنّة على عقيدتهم الواحدة في فضلهم، وحقّهم في الخلافة حسب ترتيبهم فيها.

المسألة الثانية: مسألة ترتيبهم في الفضل، وقد ورد عن عليّ ﷺ ـ الذي تغلو فيه الرافضة ـ: «خَيْرُ هذه الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أبو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ»(١)، لم يختلف الصحابة في ذلك، ولم يختلف أهل السنّة في تفضيل أبي بكر ثمّ عمر، ويروون ذلك مسندًا؛ فيروي عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ الله عَنْهُمْ»(٢)، فيبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره، أي: يعترف بهذا الترتيب.

ورجّح أهل السنّة أنّ ترتيبهم في الفضل مثلُ ترتيبهم في الخلافة، ولكن وقع خلافٌ في الترجيح بين عليّ وعثمان رضي الله عنهما، فقومٌ قدّموا عثمان ﷺ، وهو القول الصحيح، وقوم قدّموا عليًّا. وهذه المسألة وهي: هل يُقدّم عثمان على عليّ، أو يقدّم عليّ على عثمان ـ رضي الله عنهما ـ في الفضل هي مسألة اجتهاديّة، لا يضلّل من قدّم عليًّا ﷺ، ولا يضلّل من قدّم عثمان ﷺ. وأمّا تقديم الشيخين، فلا خلاف في تقديمهما، ويضلّل من قدّم عليهما أحدًا من الصحابة أو من غيرهم.

عرفنا خلافة أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ وأنّها منصوصة؛ لقوله ﷺ:

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٦٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٥).

«اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ من بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[١]. والواقع كذلك، ولعلّ عهد أبي بكر إلى عمر كان اعتمادًا على هذا الحديث، ولعلّه كان اعتمادًا على الأهليّة والكفاءة، وقد وافقه الصحابة رضوان الله عليهم على هذا التقديم، وذلك لأهليّة عمر ﷺ وكفاءته وزهده وعبادته واجتهاده وحنكته وحرصه وحزمه وقوته وإدراكه وجهاده. ثمّ ظهر ذلك جليًّا بعد تولّيه الخلافة التي امتدّت عشر سنين، كلّها كانت جهادًا، يجاهد بنفسه، وبآرائه، ويجهز جيوشه ويرسل إليهم التعليمات فيأخذون بها، ويحثّهم على الصبر فيصبرون، وكان من أثر ذلك انتصار المسلمين انتصارًا عديم النظير، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون. وكان من آثار صفاته أن انتشر العلم، فقد كان ﷺ من أوعية العلم وحملته، فأرسل الدعاة إلى البلاد التي فتحت في زمانه، وأخذ يراسلهم ويكاتبهم، وكلّ ذلك لأجل أن يظهر دين الله على أعداء الله، ولو كره المشركون.

---

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٥٨٣).